دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ٧

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

قامر

وج الأبدي

دار ابن رشد



الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد السابع

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الاولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٣

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

- المقام
- الزوج الأبدي

تقـــديم

يضم هذا المجلد السابع من أعمال دوستويفسكى الأدبية الكاملة روايتين ظهرتا بعد نشر روايته الكبيرة « الجريمة والعقاب » .

المقامر

١٨٦٦

ان فكرة تاليف رواية « المقـــامر » قد وافت دوستويفسكى سنة ١٨٦٣ ، أثناء رحلته الى الخارج مع باولين سوسلوفا . فبينما كان دوستويفسكى فى طريقه الى باريس للحاق بحبيبته تلبث بمدينة فسبادن الألمانية ليقامر على الرولت . وقد ألهبه هوى هذه المقامرة ، وربح ، وظن أنه أدرك القواعد التى يجب اتباعها فى هذه اللعبة لضمان الربح . وها هو ذا يكتب الى فرفارا كونستان ، أخت زوجته الأولى ، قائلا : « لقد أصبحت أعرف السر حقا : انه سر بسيط غاية البساطة ، وهو أن يمتنع المرء من حين الى حين ، دون أن يهتم أى اهتمام بمراحل اللعب ، ودون أن يفلت منه زمام سيطرته على أعصابه . ذلك كل شىء . يستحيل أن يخسر اللاعب متى اتبع هذه القواعد » . ولكن دوستويفسكى ما لبث أن يروى لأخت زوجته ما أصابه فى اللعب من سوء الحظ وما نالته به المصادفات من نكبات ، فيقول لها فى رسالة بعث بها اليها من مدينة بادن بادن بعد الرسالة الأولى بأسبوع واحد : « لقد وضعت لنفسى بمدينة فسبادن طريقة فى اللعب طبقتها فسرعان ما ربحت عشرة آلاف فرنك . ولكننى اندفعت فى تيار الحماسة صباحا ، فغيرت هـــذه الطريقة ، فما لبثت أن خسرت على الفور . حتى اذا عدت فى المســـاء الى تلك الطريقة ، فاتبعتها اتباعا دقيقا لا أحيد عنه ، وجدتنى أربح من جـــديد ثلاثة آلاف فرنك بسرعة وبغير كبير جهد . فقولى لى بعد هذا : ألم يكن

من حقى أن اتحمس وأن أظن اننى اذا طبقت طريقتى تطبيقا صارما كنت اضع سعادنى بين يدى ؟ .. » .

ان هذه الحاجة بعينها الى المال ، وهذا الظمأ نفسه الى الاغتناء فى سبيل اسعاد ذويه هما الينبوع الذى ستصدر عنه صورة « السوبرمان » المخفق : راسكولنيكوف ، بطل رواية « الجريمة والعقاب » . ولكن دوستويفسكى ، قبل أن يتصور روايته « الجريمة والعقاب » يفكر فى معالجة موضوع آخر . وها هو ذا يكتب الى ستراخوف فى ١٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٦٣ ، قائلا : « ليس عندى الآن شيء جاهز . ولكننى وضعت مخطط قصة موفقة (فى رأيى) ، موضوعها هو التالى : شاب روسى فى الخارج .. شخصية حية (يخيل الى أننى أراها ماثلة أمامى) .. النقطة الأساسية هى أن كل ما يتدفق فى الشاب من نسغ الحياة ، وكل ما يضطرم فيه من قوى ؛ وكل ما يعصف به من فوران واندفاع ، وكل ما يتصف به من جراة وجسارة ، النعطة الأساسية هى أن هذا كله تستنفده الروليت . انه مقامر . ولكنه ليس مجرد مقامر ، كما لم يكن « الفارس البخيل » الذى وصفه بوشكين مجرد بخيل (ولا أريد أن أقارن نفسى ببوشكين ، وأنا أقول هذا من باب الابضاح) . انه شاعر من نوع خاص ، ولكنه يحس بالخجل والعار من هذا الشعر ، لأنه يشعر بصغاره شعورا عميقا ، رغم ان الظمأ الى المخاطرة يرفع قدره فى نظر نفسه . والقصة كلها ترينا كيف ينصرف الى المقامرة على الروليت خلال ثلاث سنن فى بيت من بيوت القمار . ولئن اجتذب كتابى « منزل الأموات » انتباه الناس من حيث هو تصوير لسجناء لم يسبق لأحد أن وصفهم قبل ذلك عيانا ، فلا شك أن هذه القصة ستجتذب هى أيضا انتباه الناس من حيث هى تصوير مفصل جدا للروليت بالعيان .. « هى وصف لنوع من الجحيم يشبه جحيم المعتقل » . ولكن من الواضح أن هذه القصة لا تعدل « منزل الأموات » قوة وعظمة . ولا شك أن الكاتب أحس بذلك ، فلم يتكلم عن مشروعه هذا بعدئذ خلال ثلاث سنين . والواقع أنه كان فى اثناء هذه المدة منهمكا اشد الانهماك فى تأليف روايته « الجريمة والعقاب » التى ما ينفك يعيد النظر فيها ويبدلها وينقحها ؛ وهو ينتهز أثناء ذلك فرصة من الفرص فيكتب قصته « فى قبوى » ثم يعود الى روايته الكبيرة « الجريمة والعقاب » التى يبدأ بنشرها فى شهر شباط (فبراير) ١٨٦٦ ؛ ولكن ها هو ذا يتذكر فى أول تشرين الأول (أكتوبر) من تلك السنة نفسها العقد الذى أبرمه مع الناشر

الجتمع ستيلوفسكى ، ذلك العقد الذى يلزم دوستويفسكى بأن يقدم للناشر فى أول تشرين الثانى (نوفمبر) رواية جديده لم يسبق نشرها تتألف من عشرة ملازم من القطع الكبير على الأقل ، والا فقد حقوقه عن جميع مؤلفاته السابقة واللاحقة جميعا . فينصحه صديقه ميليوكوف بأن يملى هذه الرواية املاء (وهو لم يكتب منها سطرا واحدا بعد) ، أن يملها املاء على فتاة تكتب بالاختزال . وفى الرابع من تشرين الأول (أكتوبر) بجيئه الفتاة آنا سنيتكين ، فيأخذ يملى عليها ، ويسير العمل سيرا حسنا . فما هى الا خمسة وعشرون يوما اذا بالرواية قد أنجزت . وقد جاءت الرواية طيبة رغم هذه العجلة فى املائها . انها تنبض بالحياة ؛ والقارىء يحس احساسا واضحا أن دوستويفسكى يروى فيها طرفا من قصه حياته . هى رواية الحب المعذب الذى عاشه دوستويفسكى مع باولين سوسلوفا (وقد احتفظ باسمها فى الروانة) ، البطل فيها هو الشاب ألكسى ايفانوفنش الذى يعمل معلما للأولاد لدى جنرال روسى ، والذى يأسره حبان جامحان قويان ، أولهما الحب الذى يشعر به نحو باولين الكسندروفنا القاسية العاتية العريبة ، والثانى هو الهوى الجارف الذى برده الى مائدة الروليت بغير انقطاع . وان الحب الذى يحمله لباولين لهو مزيج من حب وبغض معا : ان ألكسى يعترف لباولين بأنه يجد فى عبوديته تجاهها ملذات كبيرة ، ويقول لها ان فى المذلة والسقوط لمتعة عظمى .. وهو يخاطبها بقوله : استفيدى من عبودبتى ، استفيدى منها ! .. هل تعلمين أننى سأقتلك فى يوم من الأيام ؟

أما هوى المقامرة الذى يمازج هوى الحب فى نفس البطل ، كما كان كذلك فى نفس دوستويفسكى فى لحظة من اللحظات ، فان دوستويفسكى يصوره فى هذه الرواية نوعا من الافتتان ، نوعا من السحر ، نوعا من الهذيان ، ويكاد يصوره نوعا من التحدى للقدر ! قال هنرى تروبا متحدثا عن دوستويفسكى : « لقد أتاحت له الروليت أن يعبث بالقدر كما كان القدر يعبث به » . صدق هنرى ترويا . فبفضل الروليت تجاوز دوستويفسكى « الجدار » ، جدار المنطق ، الذى لطا عنده بطل قصة « فى قبوى » . انه ينتقل هنا الى ميدان المصادفة و « اللامنطق » ؛ قائلا : « لا يبقى ههنا دلالة لقولك ان اثنين واثنين تساوى أربعا . ان القمار هو التجربة الأولى للحريه فى العالم المادى » .

وفى هذه الرواية يصور دوستويفسكى شخصيات اخرى طريفة : يصور السيدة العجوز بابولنكا التى تنتظر الجنرال ، الرجل التافه ،

موتها الوشيك : ما أروع وصف دوستويفسكى لهذه العجوز حين استبد بها هوى المقامره ! واذا كان المؤلف برسم للروس فى هذه الرواية صوره غير مسرقة فان الصور التى يرسمها لغيرهم ليست أكثر اشرافا : فالآنسه بلانش الفرنسيه التى تهب نفســـــها لمن يجزل العطاء أكثر من غيره ؛ ودى جريو الذى لا يختلف دوره كثيرا عن دور منطفل ان لم نزد عليه حقارة ؛ والبارون الألمانى المتكبر المتعجرف الغبى ؛ والبولونيون الثلاثة « النصابون » ، هؤلاء جميعا ، وهم من غير الروس ، ليسوا بالشخصيات المحببة . وهنا نرى خيبة الأمل التى أحسها دوستويفسكى نحاه أوروبا الغربية ، والتى عبر عنها فى « ذكريات شتاء عن مشاعر صيف » . وليس ثمة الا استثناء واحد : هو شخصية مستر آستلى ، ذلك الانجليزى الصموت الفاضل الذى يحب باولين دون أن يعترف لها بحبه ، ويمد يد العون الى الكسى ، ويحاول ان يصلح المساوىء التى يقارفها الأبطال الرئيسيون فى هذه القصة . ان هذا الانسان المتأمل يرى ان الروليت انما خلقت للروس ، الشرهين المتلافين المبذرين ، المسعورة أهواؤهم . ان دوستويفسكى يدين هنا على لسان مستر آستلى مثلين جامحين كانا يعيثان فى نفسه فسادا ، ثم برىء منهما آخر الأمر .

الزوج الابدى

١٨٧٠

كتب دوستويفسكى هذه القصة فى خريف ١٨٦٩ لمجلة من المجلات الداعية الى السلافية هى مجلة « الفجر » . وقد تحدث دوستويفسكى عن مولد هذه القصة فى رسالة بعث بها الى الشاعر آبولون مايكوف ، فقال : « قضيت ثلاثة أشهر فى كتابتها .. فملأت احدى عشرة ملزمة من ملازم المطبعة على الأقل . فتستطيع أن تتصور اذن اى عمل من الأعمال الشاقة التى تفرض على سجناء المعتقلات قد قمت به . لا سيما واننى أخذت أكره هذه القصة الرديئة منذ البداية . لقد كنت أقدر أن أكتب ثلاث ملازم فى أكثر تقدير . ولكن تفاصيل كثيرة انبجست من تلقاء ذاتها ، فاذا أنا أكتب احدى عشرة ملزمة ! » . كان دوستويفسكى يظن اذن أن روايته هذه رديئة ! ما أقساه فى الحكم على نفسه ! ان الرواية كثيفة متوازنة قوية فى الواقع ، وهى تملك من عمق النفاذ الى أغوار النفس الانسانية ما يجعلها تصف شخصيات نموذجية ، وموقفا

نموذجيا . هنا يستطيع فرويد وعلماء التحلل النفسى أن يقولوا كلمتهم . ان الموضوع الذى تدور عليه أحداث هذه القصة هو الأسره التى تتألف من زوج وزوجة وعشيق ، هو الأسرة الثلاثية على حد المصطلح الحديث الذى أدخله التحليل النفسى . ولكن عبقرية دوستويفسكى لا تسبق التحليل النفسى فحسب ، بل تصور هذا الموقف الذى أصبح معروفا تصويرا يهب له أبعادا فنية رائعة . ودوستويفسكى لا يقلد هنا روايات بول دو كوك المبتذلة . ولعل نقطة انطلاقه كانت تورجنيف فى ملهاته « الريفيه » التى ظهرت سنة ١٨٥١ ؛ فما الذى نراه فى رواية دوستويفسكى ؟ رجل من المجتمع الراقى بالعاصمة ، يصل فى يوم من الأيام الى مدينة بالأقاليم . فيفازل امرأة موظف مسن محدود ، فلا يلقى فى اغوائها عناء . ولكن دوستويفسكى لا يبدأ ذكر هذه الواقعة الا بعد ذلك بكثير . فالرجل الذى أغوى المرأة قد عاد الى العاصمه ، والمرأه التى خانت زوجها قد ماتت . فلم يبق الا المغوى والزوج . ويطلع الزوج على الواقعة فى يوم من الأيام ، وذلك حين تقع بين يديه رسائل مرسلة من زوجته المتوفاه ، ويكتشف فى الوقت نفسه أنه ليس أبا بنته ، ويعرف من هو أبوها الحق . ان ما صوره دوستويفسكى بنفاذ أليم هو تلك المواجهه بين الشخصين ، الزوج والعشيق . وهى مواجهة تتم بطيئة ، وتلف وتدور حتى لكأنها كابوس . أن الرجلين المتواجهين ليسا رجلين ؛ بل هما نوعان من الرجال : زوج أبدى وعشيق أبدى ، رجل هو دائما عبد امرأة ، ولكن تعيش معه امرأة ؛ ورجل يغوى النساء ويترك أخلتهن ، ولكن النساء لا يعشن معه كأن القدر يملى ذلك ويفرضه . فالعشيق معزل متوحد دائما ، والزوج مصحوب دائما ولكنه مخدوع مخون . والمرأه لا يملكها فى الواقع لا هذا ولا ذاك . فالأطراف جميعها مخفقة ، وان يكن اخفاق كل منها من نوع خاص . انهم جميعا يملكون كل شىء ولا يملكون شيئا . هذا هو الظرف الانسانى نراه فى مرآتهم هم الثلاثة . وفلتشانينوف ، المغوى ، يشعر نحو « الزوج الأبدى » بشفقة يمازجها احتقار بل واشمئزاز ، وهو يقول عنه : ان انسانا كهذا انما يولد ويكبر لا لشىء الا أن يتزوج وأن يصبح تتمة لزوجته . ويتصالب مصير هذين الانسانين المتعارضين ، يتصالبان بغير انقطاع . فكأن نوعا من المغناطيسية يقرب أحدهما من الآخر ويشده اليه ؛ ان هناك قوة تحركهما وتقترب بهما فى ذات ليلة من أبواب جريمة القتل . حتى أن تروسوتسكى ، الأرمل ، يصطحب غريمه ذات يوم الى خطيبته الجديده .. ويقع ما لابد

من وقوعه . ما أروع مشهد الاغواء الذى نرى فيه فلتشانينوف يحركه شيطان حقا ، فيفتن الفتاة بسحر لا يقاوم ، دون أن يريد ذ وبعد سنتين نرى تروسوفسكي نفسه زوجا ــ ومخدوعا ــ بلفى ذ الأبدى عرضا على رصيف محطة ، وكان يمكن أن تتكرر الواقعة ذ ــ الاغواء ــ لو أن سفر القطار قد أوقف الصراع ومنع الخاتمة .

س . د

المقامرُ

١٨٦٦

« المقامر » (Igrok) : نشرت هذه الرواية في « اعمال دوستويفسكي الأدبيـة » : مج ٣ ، سنة ١٨٦٦ .

الفصل الأول

هاأنذا

أعود أخيرا بعد غياب طال خمسة عشر يوما . كان أصحابنا قد وصلوا رولتنبرج * منذ ثلاثة أيام . وكنت أحسبهم ينتظروننى على صبر بلغ من النفاذ أقصى الشدة . لكننى كنت على خطأ .

كان الجنرال طلق الهيئة مختال الخطى ، كلمنى مستعليا ثم أرسلنى الى أخته . واضح أنهم وجدوا ما يقترضونه من مال . حتى لقد بدا لى أن الجنرال كان من حضورى فى ضيق وحرج . وكانت مارى فيليپوڤنا مضطربة كل الاضطراب . فلم تكد تخاطبنى ببضع كلمات ، لكنها أخذت المال فعدته وأصغت الى تقريرى حتى نهايته . كانوا ينتظرون على العشاء ميزتنوف والفرنسى الصغير ورجلا انجليزيا . تلكم عادة أهل موسكو دائما : متى حصلوا على مال دعوا الناس الى عشاء . وحين رأتنى پاولين ألكسندروڤنا سألتنى لماذا غبت هذا الغياب الطويل كله ، ثم مضت لم تنتظر جوابى . واضح أنها فعلت ذلك عامدة . ولا بد مع ذلك من تعليل . لقد ضاق صدرى ذرعا .

أعطيت حجرة صغيرة فى الطابق الرابع من الفندق . الناس يعرفون

هنا أننى واحد من حاشية الجنرال . لقد ظفر أصحابى بلفت الأنظار اليهم . كان ذلك واضحا . فالناس جميعا هنا يعدون الجنرال من سراة الروس الذين يملكون ثراء طائلا . وقد كلفنى قبل العشاء بعدة أمور ، منها أنه أعطانى ورقتين نقديتين لتبديلهما (كل ورقة بألف فرنك) . بدلتهما فى مكتب الفندق . الآن ، سينظر الينا الناس ، خلال أسبوعين فى أقل تقدير ، نظرتهم الى أناس من أصحاب الملايين . ذهبت أبحث عن ميشا وناديا * لأصحبهما فى نزهة : ولكننى فيما كنت أهبط السلم أرسل الجنرال يدعونى اليه . لقد رأى أن من الخير أن يعرف الى أين أقود الطفلين . ان هذا الرجل لا يستطيع حتما أن ينظر الىّ وجها لوجه . انه يتمنى ذلك ، لكننى أرد عليه فى كل مرة بنظرة تبلغ من الالحاح، أى من الوقاحة ، ما يفقده صبره .

وفى حديث متنفخ محشو باستطرادات ، فى حديث صار آخر الأمر الى فوضى كاملة واضطراب تام ، أفهمنى أن علىّ أن أنزّه الطفلين فى الحديقة على مسافة من الكازينو . ومن أجل أن يختم كلامه ، غضب يقول بلهجة فظة :

ــ أم تراك تأخذهما الى الروليت ؟ معذرة اذا قلت لك هذا ، ولكننى أعرف أنك ما تزال على شيء من الطيش ، فقد تستسلم لمغريات المقامرة . وعلى كل حال ، رغم أننى لست مَن يهديك سواء السبيل ، ولست أنوى أن أقوم بهذا الدور قط ، يحق لى أن أتمنى أن لا تعرض سمعتى لأذى ، اذا جاز لى أن أستعمل هذا التعبير ..

قلت بهدوء :

ـــ لكنك تعلم حق العلم أننى لا أملك مالا ، ولا بد أن يملك المرء مالا حتى يخسره فى القمار .

أجاب الجنرال وقد أحمر وجهه قليلا :

ـــ سأعطيك حالا .

قال ذلك ثم نبش مكتبه قليلا ، فأخرج منه دفترا ، فوجد أنه مدين لى بما يقارب مائة وعشرين روبلا .

وأردف يسأل :

ـــ كيف أدفع لك هذا المبلغ ؟ يجب أن نحوله الى تاليرات . اليك الآن مائة تالير رقما مدوّرا . أما الباقى فنصفيه فيما بعد .

تناولت المال دون أن أنبس بكلمة .

ـــ لا يغضبنك كلامى ، أرجوك .. أنت امرؤ سريع التأذى .. ولئن أبديت لك هذه الملاحظة ، فمن قبيل التحذير ان صح هـــذا التعبير ، وأحسب أن ذلك من حقى ..

وفيما كنت عائدا بالأطفال قبيل العشاء صادفت فى الطريق جماعة راكبة خيـــلا . كان أصحابنا ذاهبين فى زيارة لبعض الآثار . عربتان فخمتان ، جياد رائعة ! كانت مدموازيل بلانش فى احدى العربتين مع مارى فيليپوڤنا وپاولين ؛ وكان الفرنسى الصغير والانجليزى وصاحبنا الجنرال يخفرون العربة على صهوات أفراسهم . وكان المارة يتوقفون لينظروا اليهم . لقد أحدث هذا أثره . لكن ذلك ســـوف ينتهى بالجنرال الى نهاية سيئة . لقد حسبت أنهم بالآلاف الأربعـــة من الفرنكات التى جئتهم بها ، وبما استطاعوا أن يقترضوه من غير شك ؛

يملكون الآن مبلغا يتراوح بين سبعة آلاف وثمانية . وهذا قليل جدا على مدموازيل بلانش .

ان مدموازيل بلانش تنزل مع أمها نفس الفندق الذى ننزله نحن، وينزله الفرنسى القصير أيضا . ان خدم الفندق ينادونه « سيادة الكونت » . أما أم مدموازيل بلانش فهى تسمى نفسها « السيدة الكونتيسة » . ومن يدرى على كل حال ؟ لعلهما كونت وكونتيسة حقا .

كنت على ثقة من أن سيادة الكونت لن يتعرفنى اذا نحن التقينا على العشاء . وواضح أن الجنرال لم يخطر بباله لحظة أن يعرّف أحدنا بالآخر ، أو أن يقدمنى اليه على الأقل . لقد عاش سيادة الكونت فى روسيا ، فهو يعرف اذن صِغَر شأن ما يسمى هنالك « أوتشيتل » (المربى) . على أن سيادة الكونت يعرفنى حق المعرفة . لكننى لم أكن منتظرا فى العشاء . لا شك أن الجنرال نسى أن يصدر أوامره فى هذا الشأن ، والا لأرسلنى الى المائدة المعدة من غير شك. جئت من تلقاء نفسى ، فرمقنى الجنرال بنظرة استياء . وسرعان ما بادرت مارى فيليبوفنا الشهمة فعينت لى مكانا . غير أن التقائى بمستر آستلى قد أخرجنى من الحرج فاذا أنا بحكم الظروف واحد من الحفل .

فى بروسيا انما كنت قد التقيت أول مرة بهذا الرجل الغريب الأطوار . كنا جالسين متقابلين فى حجرة واحدة من حجرات القطار . كنت يومئذ مسافرا للحاق بأصحابنا . ثم التقيت به مرة أخرى على الحدود الفرنسية ، والتقيت به أخيرا فى سويسرا . معنى ذلك أننى

اجتمعت به مرتين فى مـدى خمسة عشر يوما . وهأنذا ألقـاه اليوم فى رولتنبرج ! ما رأيت فى حياتى رجلا فى مثل خجله . انه خجول الى درجة عجيبة . وهو يعلم ذلك حق العـلم لأنه ليس بالغبى قط . على أنه دو طبع مسالم لطف . لقد حملته على الكلام أثناء لقائنا الأول . فذكر لى أنه زار فى ذلك الصيف رأس الشمال ، وأنه يرغب كثيرا فى أن يرى معرض نيجنى * نوفجورود . ولا أدرى كيف أصبح على صلة بالجنرال . يخيّل الىّ أنه مولّه بحب پاولين . فلقد احمر وجهه احمرارا شديدا حين دخلت . وقد سره كثيرا أن يكون الى جانبى على المائدة . وأظن أنه يعدنى منذ الآن صديقا حميما .

وكان الفرنسى الصغير مسرفا فى تصنع الأوضاع المجوجة . كان يعامل جميع الناس فى احتقار ودون كلفة . اننى أتذكر أنه كان فى موسكو يحب أن يذر الرماد فى العيون . وقد أطنب فى الكلام على الأحوال المالية والسياسية الروسية . فسمح الجنرال لنفسه أن يعارضه مرة أو مرتين ، ولكن على تخفٍ وتلطف ، أى بالقدر الذى لا يفقده مهابته تماما .

كنت فى حالة نفسية غريبة . ومن نافل القول أن أذكر أننى ما بلغت من العشاء نصفه حتى كنت قد طرحت على نفسى ذلك السؤال المعتاد الأبدى : « ما الذى يجرنى وراء هذا الجنرال ؟ لقد كان ينبغى لى أن أتركهم منذ زمن طويل ! » . وكنت ألقى نظرة خاطفة على پاولين ألكسندروفنا من حين الى حين ، فألاحظ أنها لا توليني أى انتباه . وصعدت أبخرة الخردل الى أنفى آخر الأمر فقررت أن أقارف وقاحة من الوقاحات .

ومن أجل أن أبدأ ذلك ، اقتحمت المناقشة على حين فجأة ، دون أن أدعى الى المشاركة فيها ، متكلما بصـــوت مرتفع . كنت أحاول خاصة أن أشاجر الفرنسى الصغير . فالتفت نحو الجنرال ، أقول دون تمهيد ولا توطئة ، بصوت عال واضح مفهوم (وأظن أننى قاطعته) : لقد استحال تقريبا على الروس فى هذا الصيف أن يتناولوا وجبات طعامهم على الموائد المعدة . فما ان سمع منى الجنرال هذا الكـــلام حتى رمقنى بنظرة دهشة . وتابعت أقول :

ــ ان من يحترم نفسه فلا بد أن يتعرض للوقاحات وأن تناله الاهانات . ففى باريس ، وعلى نهر الراين ، وحتى فى سويسرا ، ترى الموائد المهيأة غاصة بالبولونيين وأشباههم ، صغار الفرنسيين ، بحيث لا تستطيع أن تنطق بكلمة واحدة متى كنت روسيا .

قلت ذلك بالفرنسية . فكان الأمير ينظر الىّ حائرا لا يدرى أيجب عليه أن يغضب أم يكفيـــه أن يـدهش لنسيانى نفسى الى هذه الدرجة من النسيان .

قال لى الفرنسى الصغير بلهجة الاحتقار والاهمال :

ــ يظهر أن أحدا قد لقنك درسا .

فأجبته :

ــ فى باريس تشاجرت أولا مع بولونى ، ثم مع ضابط فرنسى انتصر للبولونى ، ثم ناصرنى جزء كبير من الفرنسيين حين رويت لهم اننى أوشكت أن أبصق فى قهوة أحد كبار الكهنة « مونسينيور » .

ــ تبصق ؟

كذلك سأل الجنرال بدهشة متكبرة ، حتى لقد جال ببصره فى أطراف الغرفة . وألقى على الفرنسى نظرة متفحصة مرتابة .

قلت :

ـــ تماما . لقد ظللت ثمانى وأربعين ساعة أظن أنه ربما كان على أن أثب الى روما من أجل قضيتنا ، لذلك ذهبت الى السفارة البابوية أطلب تأشيرة على جواز سفرى . فاستقبلنى هنالك قس قصير يشارف الخمسين من عمره ، نحيل القامة ، جلبدى الوجه ؛ فبعد أن أصغى الى كلامى رجانى أن أنتظر ، وذلك بلهجة مهذبة لكنها جافة جدا . وكنت مستعجلا ، لكننى جلست طبعا ، وأخرجت من جيبى جريدة «الأوپينيون ناسيونال*» ، وأخذت أقرأ فيها مقالا هو هجوم عنيف لاذع على روسيا . وفى أثناء ذلك سمعت أحدا يمضى الى «المونسينيور» فى الغرفة المجاورة ، ورأيت القس يظهر له أنواع الاحترام . وجددت طلبى الى القس ، فرجانى مرة أخرى أن أنتظر ، ولكن بمزيد من الخشونة فى لهجته . وما هى الا لحظة حتى دخل زائر نبين أنه نمساوى . فلما استمعوا الى كلامه ، صعدوا به فورا الى فوق . عندئذ شعرت بشىء من الغضب ، فنهضت عن مكانى ، واقتربت من القس وقلت له بلهجة قاطعة : ما دام « مونسينيور » يستقبل غيرى ، فان فى وسعه أن ينجز قضيتى . عندئذ التفت القس وقد بدت فى وجهه دهشة خارقة . انه لا يستطيع أن يفسر لنفسه كيف يجرؤ روسى أن يقارن نفسه بضيوف « مونسينيور » . فاذا هو ينظر الى من قمة رأسى الى أخمص قدمى ، ويصيح بأوقح لهجة ممكنة ، كأنما يفتنه ويسحره أن يهيننى : « ما ينبغى أن تظن مع ذلك أن « مونسينيور »

يمكن أن يستغنى من أجلك عن فنجان القهوة الذى يحتسيه ! »
فما كان منى الا أن صحت أنا أيضا بصوت أعلى من صوته قائلا :
« فاعلم اذن أننى أبصق فى قهوة « مونسنيورك » ، وأننى أستخف به! فاذا لم تنجز لى جواز سفرى فورا ، فسأمضى اليه بنفسى لألقاه » .

— كيف ؟ أفى اللحظة التى يستقبل فيها كردينالا ؟

كذلك صاح القس مذعورا وهو يبتعد عنى ؛ وركض نحو الباب فمدّ ذراعيه كالمصلوب ، ليفهمنى أنه يؤثر أن يهلك على أن يدعنى أدخل . عندئذ قلت له اننى زنديق واننى متوحش ، واننى لا أحفل بهؤلاء الأساقفة والكرادلة والمونسينيورين جميعا ، الخ الخ . أى أظهرت له أننى لن أخضع ولن أتنازل . فرشقنى القس بنظرة بغض عميق ، وانتزع من يدى جواز سفرى ، فمضى به الى فوق . وما هى الا دقيقة واحدة ، حتى كنت قد حصلت على التأشيرة . وهى الآن معى ، فهل تريد أن تراها ؟

أخرجت جواز سفرى ، وأريته التأشيرة البابوية .

قال الجنرال يريد أن يبدأ الكلام :

— ومع ذلك ..

فقاطعه الفرنسى الصغير قائلا وهو يضحك ضحكة صغيرة :

— ان ما أنقذك هو تصريحك بأنك زنديق ، وبأنك متوحش . كانت تلك وسيلة غير غبية * .

— أنا لا أستطيع على كل حال أن أفعل ما يفعله أصحابك الروس الذين يظلون مكتوفى الأيدى ، لا يجرأون أن ينبسوا بكلمة ،

ويقدرون اذا لزم الأمر أن ينكروا وطنهم . وعلى كل حال فان نزلاء فندق باريس قد أظهروا لى مزيدا من التقدير والاحترام حين قصصت عليهم مشاحناتى مع القس . أما ذلك الذى كان أكثر الناس فظاظة معى على المائدة المهيأة ، وهو سيد بولونى ضخم ، فقد توارى . حتى أن الفرنسيين لم يحتجوا حين رويت لهم أنتى قد رأيت منذ سنين انسانا أطلق عليه صياد فرنسى ناره سنة ١٨١٢ ، لا لشىء الا ليفرغ شحنة بندقيته . وكان ذلك الانسان طفلا فى العاشرة من عمره ، لم يتسع وقت أسرته لأن تترك موسكو .

صاح الفرنسى الصغير يقول :

ـــ مستحيل . ما من جندى فرنسى يمكن أن يطلق النار على طفل.

قلت :

ـــ مع ذلك فقد وقع الأمر . ان نقيبا محترما محالا على المعاش هو الذى روى لى هذه القصة ، وقد رأيت بأم عينى الندبة التى خلفها الجرح فى الخـــد .

وطفق الفرنسى يتكلم متدفقا . وأراد الجنرال أن يدعمه ويؤيده، فنصحت له أن يقرأ ، على ســبيل المثال ، « مذكرات » الجنرال پيروفسكى * الذى سجنه الفرنسيون سنة ١٨١٢ . وأخيرا أخذت مارى فيليپوڤنا تتكلم فى موضوع آخر تغييرا لمجرى الحديث . وكان الجنرال مستاء منى أشد الاستياء ، لأننا كنا أنا والفرنسى قد أخذنا نتصايح فيما يشبه الشتائم . ولا كذلك مستر آستلى فقد لاح لى أن

تشاجرنا قد فاز برضاه ، حتى اذا نهضنا عن المائدة دعانى الى تناول قدح من الكحول معه .

واستطعت فى المساء أن أتبادل الكلام خلال ربع ساعة مع پاولين ألكسندروڤنا كما كنت أرغب . وقد جرى الحديث بينى وبينها أثناء النزهة . كان جميع الحفل قد مضى الى الكازينو عن طريق الحديقة . فجلست پاولين على مقعد من المقاعد أمام نافورة الماء وأذنت لناديا أن تروح تلعب مع أطفال آخرين على مسافة ما . وأرسلت أنا ميشا الى قرب حوض الماء ، فمكثنا أنا وپاولين نتحدث وحيدين .

تكلمنا أول الأمر عن الأعمال بطبيعة الحال . فما كان أشد استياء پاولين حين لم أنقدها الا سبعمائة فلورين على التمام والكمال ! فلقد كانت مقتنعة بأننى استطعت أن أقترض فى باريس مالا يقل عن ألفى فلورين لقاء رهن ماساتها . قالت پاولين :

ـــ أنا فى حاجة الى المال مهما كلف الأمر ، فلا بد لى من الحصول عليه ، والا فقد ضعت .

سألتها عما جرى أثناء غيابى . فقالت :

ـــ لا شىء . لقد تلقينا نبأين من بطرسبرج ، أولهما أن جدتى فى حالة صحية سيئة ، والثانى (وقد بلغنا بعد يومين) أنها لعلها توفيت.

وأضافت پاولين الى ذلك قولها :

ـــ وهذا عرفناه من تيموتى پتروڤتش ، وهو انسان دقيق فيما ينقل من أنباء ، ونحن فى انتظار أن يتأكد الخبر .

قلت :

ـــ فالجميع اذن هنا ينتظرون ؟

ـــ نعم ، الجميع ينتظرون . لقد قضينا حتى الآن ستة أشهر لا نأمل غير هذا .

ـــ أأنت أيضا تأملين ؟

ـــ أنا لا أمت اليها بقربى ، ما أنا الا قريبة الجنرال . ولكننى على يقين من أنها لن تنسانى فى وصيتها .

قلت بلهجة التأكيد :

ـــ أظن أنك ستتلقين مبلغا ضخما .

ـــ أظن ذلك ، فلقد كانت تحبنى كثيرا . ولكن من أين تستمد أنت هذا الاعتقاد ؟

أجبتها سائلا :

ـــ قولى لى : هل المركيز مطلع أيضا على جميع أسرار الأسرة ؟

ـــ أيعنيك أن تعرف هذا ؟

كذلك سألتنى پاولين وهى تنظر الىّ فى برود وقسوة .

ـــ أظن ذلك . اذا لم يخطىء ظنى فان الجنرال قد استطاع أن يدبر أموره فيقترض منه بعض المال .

ـــ تخميناتك صحيحة .

ـــ أكان يقرضه لو كان يجهل قصة الجدة ؟ ألم تلاحظى حين كنا على المائدة أنه قد دعاها بابولنكا * ثلاث مرات اذ جاء على ذكرها ؟ يا لها من مودة حميمة بغير كلفة !

ـــ نعم ، انك على حق . ولسوف يخطبنى متى علم أننى سأنال من الميراث نصيبا . هذا ما ترغب فى معرفته ، أليس كذلك ؟

ـــ أما يزال فى مرحلة التفكير فى خطبتك ؟ كنت أحسب أنه يعد نفسه خطيبا منذ زمن طويل .

قالت پاولين غاضبة :

ـــ أنت تعلم أن الأمر ليس كذلك .

وأردفت تسأل بعد لحظة صمت :

ـــ أين التقيت بهذا الانجليزى ؟

ـــ كنت على يقين من أنك ستطرحين علىّ هذا السؤال .

ـــ وقصصت عليها لقاءاتى بمستر آستلى أثناء السفر . ثم أضفت:

ـــ انه خجول وعاطفى ، ولا شك أنه قد وقع فى هواك .

ـــ نعم انه يحبنى .

ـــ وهو أغنى من الفرنسى عشر مرات . هل للفرنسى ثروة حقا ؟ أهذا أمر لا يتطرق اليه أى شك اطلاقا ؟

ـــ اطلاقا ! ان له قصرا منيفا . ولقد أكد لى الجنرال ذلك أمس . أيكفيك هذا ؟

ـــ لو كنت فى مكانك لتزوجت الانجليزى .

ـــ لمـــاذا ؟

ـــ الفرنسى فتى أجمل . ولكنه حقير مجرم . أما الانجليزى فرجل شريف ، وهو فوق ذلك أغنى من الفرنسى عشر مرات .

قلت لها ذلك بلهجة قاطعة .

أجابت بهدوء :

ـــ هذا صـــحيح ، ولـكن الفرنسى مركيز ، وهو أذكى فؤادا وأخف ظلا .

قلت بتلك اللهجة نفسها :

ـــ أهذا مؤكد ؟

ـــ مؤكد تماما ؟

كانت أسئلتى تسوء پاولين كثيرا ، ولاحظت أنها تريد أن تغيظنى وأن تغضبنى بلهجة جوابها وغرابته . فلم ألبث أن ذكرت لها ذلك ، فأجابت بقولها :

ـــ صحيح . انه ليسلينى أن أثير غيظك . وعليك أن تكافئنى لمجرد أننى أسمح لك بالقاء هذه الأسئلة وتصور هذه الافتراضات .

قلت بهدوء :

ـــ اننى أعترف لنفسى بحق القاء جميع ما أريد القاءه من أسئلة ، لأننى مستعد لدفع أى ثمن تريدينه لها ، ولأننى لا أقيم لحياتى نفسها أى وزن .

فانفجرت پاولين ضاحكة :

ـــ لقد قلت لى ذات يوم ، ونحن على جبل شلانجنبرج ، انك مستعد ، بكلمة واحدة منى ، أن تلقى بنفسك الى تحت ، منكس الرأس ، بينما نحن على علو ألف قدم . لسوف أقول هذه الكلمة يوما ،

لا لشيء الا لأرى أأنت تقدم على التنفيذ حقا ؛ وثق أنني سأظهر يومئذ ما أتصف به من صلابة وحزم . أنا انما أكرهك لأنني سمحت لك بتلك الأشياء كلها ، وأنا أكرهك مزيدا من الكره لأنني لا غنى لي عنك . انني ما زلت في حاجة اليك . فلا بد اذن من أن أدخرك .

قالت ذلك ثم نهضت . كانت تبدو خارجة عن طورها . لقد أصبحت في الآونة الأخيرة تختم أحاديثنا دائما بمثل هذه اللهجة من الشراسة والحقد ، وهو حقد لا تظاهر فيه ولا افتعال .

قلت لها ، رغبةً مني في أن لا أدعها تمضي من غير تفسير :

ـــ هل تسمحين لي أن أسألك من هي مدموازيل بلانش ؟ .

ـــ أنت تعرف ذلك حق المعرفة . لم يحدث أي شيء جديد . ان مدموازيل بلانش ستصبح زوجة الجنرال من غير شك ؛ هذا اذا صح طبعا أن الجدة قد توفيت ، ذلك أن مدموازيل بلانش وأمها وابن عمها المركيز يعرفون جميعا تمام العلم أننا لا نملك شيئا البتة .

ـــ وهل الجنرال هائم بها موله ؟

ـــ ليس هذا هو الموضوع الآن . اسمع ما سأقوله لك وعه تمام الوعي : خذ هذه السبعمائة فلورين ، والعب بها على الروليت ، واجن أكبر قدر ممكن من الربح . لا بد لي من مال الآن ، مهما كلف الأمر .

قالت هذا الكلام ، ثم نادت ناديا وذهبت الى الكازينو تلحق بأصحابنا . وسرت أنا في أول ممر على اليسار . كنت أفكر وأفكر فما تنقضي دهشتي . ان هذا الأمر الذي أصدرته اليّ باللعب على الروليت قد صعقني . والغريب في الأمر أني رغم كثرة ما يشغل بالي ،

غرقت غرقا كاملا فى تحليل عواطفى نحو پاولين . صحيح أننى أثناء الخمسة عشر يوما التى غبتها عنها كنت أشعر بخفة لا أشعر بمثلها اليوم بعد عودتى ؛ ولكننى تألمت أثناء هذه الرحلة كمن فقد صوابه : كنت أركض من مكان الى آخر كأن الشيطان يطاردنى ؛ وحتى فى المنام كنت أراها دائما أمامى . وفى ذات مرة (كان ذلك فى سويسرا)* خاطبتها بصوت عال ، فأضحك ذلك جميع من كانوا معى فى القطار .

مرة أخرى طرحت اليوم على نفسى هذا السؤال : « أأنا أحبها ؟ » . ومرة أخرى لم أستطع أن أجد لهذا السؤال جوابا ؛ أو قل اننى أجبت ، للمرة المائة ، بأننى أكرهها ، نعم أكرهها . مرت بى لحظات (وخاصة فى ختام الأحاديث التى تقوم بيننا) تمنيت فيها أن أهب نصف عمرى فى سبيل أن أخنقها ! أقسم أنه لو كان فى وسعى أن أغمد خنجرا مسنونا فى صدرها على مهل ، لشعرت من ذلك بمتعة فيما أظن . ومع ذلك أقسم بأقدس ما أقدّس أننى لو طلبت منى ونحن على جبل شلانجنبرج ، أن ألقى بنفسى من أعلى قمة يرتادها النـاس ، لرميت نفسى فورا ، ولشعرت من ذلك بغبطة . لقد كنت أعرف ذلك . كان يجب أن ينحل هذا الأمر بطريقة من الطرق . وهى تفهم ذلك كله أروع فهم ، فاذا تصورت° أننى أدرك حق الادراك أن لمسها مستحيل، وأننى أعى كل الوعى أن رغباتى كلها عبث لا رجاء فيه ، شعرت من ذلك بلذة لا تفوقها لذة . اننى على ثقة من ذلك . والا فهل كان لها ، هى التى تملك ما تملك من رصانة وذكاء ، أن تعاملنى بهذه الألفة كلها وبهذه الصراحة كلها ؟ يخيل الىّ أنها حتى هذا اليوم تنظر الىّ نظرة تلك الامبراطورة القديمة التى نضت عنها ثيابها حتى أصبحت عارية

كل العرى أمام عبد من عبيدها ، لأنها لا تعده رجلا . نعم انه يتفق لها فى كثير من الأحيان أن لا تعدنى فى الرجال .

ومع ذلك فقد عهدت الىّ اليوم بمهمة : أن أربح فى الروليت مهما كلف الأمر . وليس يتسع الوقت لأن أتساءل لماذا يجب أن أربح، وخلال أية مـــدة من الزمن يجب أن أحقق هـــذا الربح ، وما هى الحسابات الجديدة التى بزغت فى هذا الرأس الذى لا يكف عن العمل لحظة واحدة ! ثم ان من الواضح أن أحداثا جديدة كثيرة قد وقعت خلال هذه الأيام الخمسة عشر : اننى ما زلت أجهل الأحداث . فيجب علىّ أن أجلو هذا كله ، يجب علىّ أن أُخرج هذا كله الى النور ، بأقصى سرعة . ولكن مهمة أخرى تقع على عاتقى الآن : هى أن أذهب الى الروليت .

الفصل الثاني

لقد ساءتنى هذه المهمة والحق يقال : كنت قد قررت أن أقامر ، ولكننى لم أتوقع أبدا أن أبدأ المقامرة لغيرى . حتى لقد شعرت بشىء من الحيرة ، ودخلت قاعات المقامرة متجهم المزاج . وكل ما رأيته فيها قد ساءنى منذ أول نظرة . اننى لا أستطيع أن أحتمل تلك المقالات التى تكتب فى العالم بأسره ، وخاصة فى جرائدنا الروسية ، والتى يعالج فيها أصحابها كل عام تقريبا ، عند مطلع الربيع ، موضوعين اثنين : أولهما البذخ والترف فى قاعات المقامرة من مدن المياه على نهر الراين ، والثانى أكوام الذهب التى يزعمون أنها تتكدس على الموائد . هذا رغم أن هؤلاء الكتاب لا يؤجرون على هذه المقالات ، وانما هم يتطوعون تطوعا منزها عن الغرض مبرأ من المنفعة. ان هذه القاعات الرديئة خالية من كل بهاء أو سناء ؛ والذهب فيها لا يتكوم على موائدها ويندر أن يُرى على هذه الموائد . لقد يفد طبعا من حين الى حين رجل شاذ الطبع متفرد المزاج ، انجليزى أو آسيوى (تركى كما حدث فى هذا الصيف) فيربح أو يخسر مبالغ خرافية فى مدة قصيرة . أما الآخرون فانهم لا يجازفون الا بدريهمات ؛ ولست ترى على المائدة الا قليلا من المال فى المتوسط .

حين دخلت قاعة القمار (لأول مرة فى حياتى) بقيت بعض الوقت مترددا لا أعزم أمرى . أضف الى ذلك أن الجمهور كان يقف فى طريقى. ولكن هبنى كنت وحيدا ، فأغلب ظنى أننى كنت سأنصرف قبل أن أبدأ المقامرة . أعترف أن قلبى كان يخفق خفقانا قويا وأننى لم أملك رباطة الجأش وهدوء النفس . كنت مقتنعا منذ زمن طويل أننى لن أبارح رولتنبرج كما جئتها ، وكنت مزمعا على أن لا أبارحهـا كما جئتها . فلا بد أن حدثا أساسيا حاسما سيتدخل فى مصيرى لا محالة . يجب أن يقع هذا ، ولسوف يقع . ومهما يكن هذا الأمل الذى عقدته على الروليت سخيفا مضحكا ، فاننى أجـد أن الرأى الذى يسلم به عامة الناس اذ يقولون ان من السخف أن يتوقع المرء من المقامرة أى شيء ، أقرب الى السخف وأبعث على الضحك . لماذا تكون المقامرة أسوأ من أية وسيلة أخرى من وسائل الحصول على المال ؟ لماذا تكون المقامرة أسوأ من التجارة مثلا ؟ صحيح أن واحدا من مائة يربح . ولكن هل يهمنى هذا ؟

ومهما يكن من أمر ، فلقـد قررت أولا أن لا أشرع جـادا فى ذلك المساء . فاذا حدث شيء فسيكون من قبيل المصادفة العابرة . ذلك ما كنت أنويه . أضف الى هذا أنه كان علىّ أن أدرس المقامرة نفسها ، ذلك أننى رغم كثرة ما قرأت من أمور لا حصر لها فى وصفه الروليت ، وقد قرأتها فى نهم شديد وشراهة قوية ، لا أستطيع أن أفهم شيئا من أصول ممارستها قبل أن أراها بعينى رأسى .

فى الوهلة الأولى ، لاح لى كل شيء قذرا ، قذرا حقيرا بالمعنى الأخلاقى . لا أريد أن أتحدث عن تلك الوجوه الشرهة القلقة التى

تحاصر موائد القمار عشرات بل مئات . انني لا أرى أى ضير فى رغبة المرء فى أن يربح أكبر مقدار ، بأقصى سرعة . لطالما استبلدت فكرة ذلك الواعظ البطر الذى كان فى منجى من العوز والحاجة ، فقال فى الرد على ما ذكر له بعضهم من أنهم يقامرون على مبالغ زهيدة قال : « وهذا أنكى وأسوأ ، لأنه صادر عن طمع صغير » . لكأنه يظن الطمع الصغير والطمع الكبير شيئين مختلفين لا شيئا واحدا . ان المسألة مسألة نسب . فما هو صغير فى نظر روتشيلد هو الثراء الطائل نفسه فى نظرى أنا . والناس فيما يتصل بالأرباح والخسائر ، لا فى الروليت فحسب ، بل فى كل مجال آخر ، انما يحركهم دافع واحد : هو أن يربحوا أو أن ينتزعوا شيئا من شخص آخر . هل الربح والنفع عيبان فى ذاتهما ؟ تلك مسألة أخرى . وما هنا سأحلها . ولما كنت أنا ممن تستبد بهم الرغبة فى الربح الى أقصى حد ، فان هذا الطمع كله ، بل ان رذيلة الطمع هذه ، اذا شئتم هذا الاسم ، كانت قريبة منى مألوفة عندى ، ان صح التعبير ، منذ دخولى الى القاعة . لا شىء أمتع من أن لا يتحرج المرء أمام الآخرين ، بل ينطلق فى عمله صريحا لا يصده عنه صاد . وفيم يخدع المرء نفسه ؟ ذلك أسخف وأغبى ما يشغل به الانسان باله . غير أن الشىء الذى كان يثير الاشمئزاز منذ النظرة الأولى فى هذا الحشد كله انما هو الجد الكبير والاهتمام العظيم بل والاحترام الهائل الذى كان هؤلاء الناس جميعا يحيطون به موائد القمار . من أجل هذا انما يجب أن نميز هنا تمييزا واضحا بين نوع من اللعب الردىء وبين اللعب الذى يباح لانسان محترم . هناك نوعان من المقامرة : مقامرة المهذبين من الناس ، ومقامرة الغوغاء . والحدود

بين هذين النوعين واضحة فاصلة . وما أعيب هذا فى حقيقة الأمر ! الرجل المهذب ، مثلا ، يمكن أن يجازف بخمس ليرات ذهبية أو عشر؛ وقلما يجازف بأكثر من ذلك ، فاذا كان غنيا فقد يجازف بألف فرنك لكنه لا يفعل ذلك الا لعبا ، الا على سبيل التسلية ، من أجـل أن يتابع مجرى الربح أو الخســارة . فاذا ربح كان يمكن مثــلا أن يروح يضحك ملء صوته ، وأن يشارك واحدا ممن حوله ملاحظاته ، بل وأن يقامر مرة أخرى مضاعفا رهانه ، ولكنه لا يفعل ذلك الا من باب حب الاطلاع ، بغية أن يلاحظ الحظوظ كيف تجرى وتدور ، بغية أن يجرى حسابات ، لا رغبةً مبتذلة منه فى الربح . أى أنه لا يرى فى جميع موائد القمار هذه (سواء الروليت منها أو « الثلاثين والأربعين ») الا تسلية جُعلت للذة وحدها . حتى أنه ما ينبغى له أن تخطر بباله الاغراءات والمصائد التى يعتمد عليها « البنك » ؛ بل انه ليكون ظرفا وأناقة منه أن يتخيل أن سائر اللاعبين ، أن جميع هؤلاء الصغار الذين يرتجفون من أجل فلورين واحد انما هم أناس مهذبون أغنياء مثله ، وأنهم لا يقامرون الا على سبيل التسلية ازجاءً للوقت . ان هذا الجهل الكامل بالواقع ، وهذه الآراء الساذجة فى البشر تعد ولا شك من أرفع الأشياء ارستقراطية .

كنت أرى أمهات يدفعن بناتهن الى أمام ، صبايا ضعيفات بريئات فى الخامسة عشرة من أعمارهن أو فى السادسة عشرة ، يعطينهن بضع نقود ذهبية ويعلمنهن سير اللعب . فاذا ربحت الصبية أو خسرت ، انسحبت مفتتنة ، تبتسم ابتسامة واحدة لا تختلف باختــلاف الربح والخسارة . وقد دنا جنرالنا من المائدة بثقة قوية متينة ، فهرع أحد

الخـدم يدفع له كرسيا ، ولكنه لم ينتبه هو الى ذلك ؛ وأخـرج محفظته ببطء ، وببطء أخرج من المحفظة ثلاثمائة فرنك ، نقدا ذهبيا وضعه على الأسود فربح ؛ فلم يأخذ المال بل تركه فى مكانه على المائدة، فربح الأسود مرة أخرى ، وفى هذه المرة أيضا لم يأخذ المال بل تركه حيث هو ، فلما ربح الأحمر فى المرة الثالثة خسر الجنرال ألفا ومائتى فرنك ، فانسحب مبتسما ، مسيطرا على نفسه كامل السيطرة . أنا واثق أن قلبه كان يضطرب ، فلو كان ما راهن عليه ضعفى المبلغ أو ثلاثة أضعافه لما ملك أن يحافظ على رباطة جأشه ، ولظهر اضطرابه . ومن جهة أخرى كان الى جانبى فرنسى ربح ثم خسر حوالى ثلاثين ألف فرنك ، وظل وجهه مع ذلك هادىء المظهر لم يتلمح فيه أثر من آثار انفعال . فليس للارستقراطى الحق أن ينفعل ولو خسر ثروته كلها . يجب أن يظل المال دون الارستقراطى حتى لكأن الارستقراطى لا يكاد يحفل به أو يقلق له . ومن الارستقراطية طبعا أن يظهر المرء جاهلا بالوحل والمشهد اللذين يضطرب فيهما هذا الحشد كله من الناس . ومع ذلك فان الموقف المناقض موقف مرموق فى بعض الأحيان كالموقف الأول سواء بسواء : أن تلاحظ هؤلاء الحشرات جميعا ، أى أن تنظر اليهم ، بل أن تراقبهم وترصدهم أيضا ، ولو بالنظارة المقربة . ولكن شريطة أن لا ترى فى هذا الجمهور كله وفى هذا الوحل كله الا نوعا من تسلية ، الا تمثيلا أعد لدفع الملل عن « الجنتلمان » . وقد تقحم نفسك فى هذا الجمهور ، شريطة أن تنظر حواليك مقتنعا كل الاقتناع أنك لست فيه الا مشاهدا ، وأنك لست منه ولا هو منك . على أنه لا يليق أيضا أن تلاحظ بكثير من الالحاح واللجاجة : والا لم تكن

جديرا بصفة الجنتلمان ، لأن هذا المشهد لا يستحق على كل حال أن تشد اليه انتباهك متصلا غير منقطع . وقلّ بين المشاهد على وجه العموم مشهد يستحق من الجنتلمان أن يشد اليه انتباهه متصلا غير منقطع . أما أنا فكنت أحس أن هذا كله يستحق انتباها مشدودا متصلا ، لا سيما ممن لم يجىء ليلاحظ فحسب ، بل لينضم الى هذه الجمهرة كلها أيضا . ويجب أن يكون واضحا فى الأذهان أنه لا محل فيما أسوقه الآن من ملاحظات ، مكان لآرائى الأخلاقية التى أضمرها فى قرارة نفسى . ومهما يكن من أمر ، فاننى أقول هذا الكلام تخفيفا عن ضميرى . ولكننى أحرص على أن أضيف ما يلى : لقد صرت فى الآونة الأخيرة أشعر بنفرة قوية من اخضاع أفكارى وأفعالى لأى مقياس أخلاقى . فأنا الآن مسوق فى اتجاه آخر .

ان هذه الجمهرة الوضيعة تقامر حقا على نحو قذر . بل لست بعيدا عن التفكير فى أن سرقات عادية تُقترف هنا كثيرا حول مائدة القمار . ان القيّمين « الكروپييه » الجالسين عند أطراف الموائد ، يراقبون المبالغ التى يضعها المراهنون ، ويجرون الحسابات ، فيقومون بعمل مضن مرهق . ويا لهم من لصوص ، هم أيضا ! ان أكثرهم فرنسيون ! على أننى اذا كنت أجرى هذه الملاحظات ، فلست أفعل ذلك من أجل أن أصف الروليت . فانما أنا أتلاءم مع الجو ، بغية أن أعرف كيف أسلك فى المستقبل . لقد لاحظت مثلا أنك كثيرا ما ترى يدا تمتد على المائدة فجأة فتلمّ ما تكون قد ربحته أنت . ويتبع ذلك أن تشب مشاجرة بطبيعة الحال ، وأن يعلو صراخ . وانى لأتحداك

أن تستطيع البرهان باستشهاد الشـــهود على أن الربح كان ربحك أنت حقا .

كانت هذه المهزلة كلها ألغازا عسيرة على الحل فى نظرى . ولـكننى تعلمت ، على نحو من الأنحاء ، أن المرء يراهن على أرقام (فاما شفع واما وتر) ، ويراهن على ألوان . فقررت أن أجازف فى ذلك المساء بمائة فلورين من أموال پاولين ألكسندروڤنا . غير أنه أزعجنى أننى أُقبل على اللعب لغيرى لا لنفسى . كان ذلك احساسا شاقا الى أبعد حدود المشقة ، وتمنيت أن أتخلص منه بأقصى سرعة . كنت أشعر طوال الوقت أننى اذ أبدأ اللعب لحساب پاولين انما أخرّب حظى أنا . هل يستحيل حقا أن يدنو المرء من مائدة القمار دون أن تسرى اليه عدوى الايمان بالخرافات فورا ؟

ومن أجل أن أبدأ أخرجت خمسة فريدريكات * ، أى خمسين فلورينا ، فوضعتها على رقم شفع . ودارت الدائرة ، فربح الرقم ١٣ ؛ لقد خسرت اذن . فتألمت ألما شديدا ؛ ورغبةً منى فى الخلاص من هذه الورطة وفى الانصراف ، وضعت خمسة فردريكات أخرى على اللون الأحمر . فربح الأحمر . فوضعت الفردريكات العشرة .. فربح الأحمر أيضا . فتركت المبلغ كله ، فربح الأحمر مرة ثالثة . فتناولت أربعين فردريكا ، فوضعت منها عشرينا على الأرقام الاثنى عشر من الوسط ، دون أن أعرف ما قد تعطيه هذه الأرقام عند الربح . فدُفع لى المبلغ ثلاثة أضعاف . فجأةً استحالت فردريكاتى العشرة الى ثمانين . لـكننى شعرت عندئذ باحساس غريب بلغت من العجـز عن احتماله أننى قررت أن أخرج من المكان . خيل الىّ أننى لو كنت ألعب لنفسى لما

لعبت على هذا النحو . ومع ذلك وضعت الثمانين فردريكا على رقم شفع . فربح الرقم « أربعة » : فتقدت ثمانين فردريكا أيضا . فوضعت المائة والستين فردريكا فى جيبى ومضيت باحثا عن پاولين ألكسندروفنا.

كانوا يتنزهون جميعا فى الحديقة ، فلم أرها الا على العشاء . لم يكن الفرنسى هناك فى هذه المرة ، فاستطاع الجنرال أن يتمتع بكامل حريته . ورأى أن من الواجب أن ينبهنى مرة أخرى الى أنه لا يجب أن يرانى على مائدة القمار ، فهو يرى أننى اذا خسرت كثيرا أساء ذلك الى سمعته اساءة كبيرة . ثم أضاف يقول بلهجة فخمة :

ــ واذا ربحت كثيرا ، فان هذا أيضا يسيء الى سمعتى . طبعا ليس من حقى أن أتحكم فى أفعالك ، ولكن يجب أن تقتنع أنت نفسك بأن ..

ولم يكمل جملته بل تركها معلقة على عادته .

فأجبته بلهجة جافة بأن ما أملكه من مال قليل جدا ، وانني اذن لن أخسر خسارة ظاهرة جدا ، ولو بدأت ألعب . وحين صعدت الى غرفتى أتيح لى أن أمد الى پاولين المبلغ الذى ربحته لها ، وقلت اننى لن ألعب من أجلها بعد اليوم قط .

فسألتنى بلهجة قلقة :

ــ لماذا ؟

فأجبت وأنا أنظر اليها دهشا :

ــ لأننى أريد أن ألعب لنفسى ، لأن هذا يزعجنى .

— اذن فما زلت تعتقد أن الروليت مخرجك الوحيد ، وسبيلك الوحيد الى الخلاص ؟

ألقت عليّ هذا السؤال ساخرة .

فأجبتها جادا كل الجد بأن هذا صحيح . أما عن يقينى بأننى سأربح لا محالة ، فاننى أسلم بأن ذلك يبدو مضحكا ، ولكن « دعونى وشأنى » .

ألحت پاولين ألكسندروفنا على ضرورة أن أقاسمها ربح ذلك اليوم ، ومدت الىّ ثمانين فردريكا ، عارضةً علىّ أن أستمر فى المقامرة على هذا الشرط . فرفضت رفضا قاطعا ، وأكدت لها أننى اذا كنت لا أستطيع أن أقامر للآخرين ، فما ذلك لأننى لا أريد ذلك ، بل لأننى واثق من الخسارة .

قالت لى شاردة اللب :

— ومع ذلك ، فأنا أيضا لم يكد يبقى لى من أمل فى غير الروليت . لهذا يجب عليك قطعا أن تستمر فى اللعب على أساس المناصفة . وستفعل ذلك . فهمت ؟

قالت هذا وتركتنى دون أن تستمع الى احتجاجاتى .

الفصل الثالث

مع ذلك لم تحـدثنى أمس مرة واحـــدة عن اللعب . وتحاشت على وجه العموم أن تتجه الىّ بكلام . انها لم تغير أساليبها فى معاملتى . فاذا لقيتها قابلتنى بذلك الهدوء المطلق نفسه ، وبنوع من شعور مبغض محتقر . ومهما يكن من أمر فانها لا تحاول حتى اخفاء نفورها منى . اننى أرى ذلك واضحا كل الوضوح . على أنها ، رغم هذا ، لا تخفى عنى أيضا أنها فى حاجة الىّ ، وأنها تحتفظ بى لغرض أجهله . لقد نشأت بيننا صلات غريبة يصعب علىّ فهم أكثرها ، هذا اذا نظرنا بعين الاعتبار الى ما تقابل به سائر الناس من زهو وصلف واحتقار . انها تعرف مثلا اننى أحبها حب جنون . بل انها لتسمح لى أن أحدثها عن هيامى بها . وهل ثمة وسيلة أفضل من هذه الوسيلة لاظهار ازدرائها بى ؟ ان خير ما يمكن أن تفعله اظهارا لهذا الازدراء هو أن تتيح لى أن أحدثها عن حبى حديثا حرا طليقا لا تحول دونه حواجز أو حجب . فكأنها تقول : « اننى من قلة الاحتفال بعواطفك بحيث لا أكترث أى اكتراث بكل ما قد تقوله ، بكل ما قد تعبّر لى عنه من عواطف » . ولقـــد كانت تحدثنى فى الماضى عن شئونها ، ولكنها

لم تكن فى يوم من الأيام مخلصة صادقة . أكثر من ذلك أنها فى استهاناتها بى كانت تعمد الى « براعات » من هذا القبيل : هب أنها كانت تعلم أننى مطلع على ظرف من ظروف حياتها ، أو على احتمال من الاحتمالات يوقظ بعض المخاوف فى نفسها : لقد كانت تقص علىّ من تلقاء نفسها بعض هذه الأحداث ، اذا هى كانت فى حاجة ، من أجل بلوغ أهدافها ، الى استخدامى عبدا أو ساعيا . ولكنها لم تكن تكشف لى الا عما لابد من معرفته لانسان يوفد فى مهمة . حتى اذا ظل ترابط الوقائع مجهولا لدى ، ولاحظتْ أن عذابها يعذبنى ويقلقنى لم تتنازل أن تطمئننى طمأنة كاملة بصراحة كالصراحة التى تكون بين أصدقاء ، مع أننى أرى أنها ما دامت تعهد الىَّ فى كثير من الأحيان بمهمات دقيقة بل ومحفوفة بالمخاطر فقد كان عليها أن تصارحنى . ولكن أتراها كانت تحفل بعواطفى ، وتكترث بمشاركتى اياها مخاوفها ، وتهتم بضروب القلق التى كانت تثيرها فى نفسى همومها مضاعفةً ثلاث مرات فى أغلب الظن !

كنت منذ ثلاثة أسابيع أعرف أنها عقدت نيتها على أن تلعب الروليت . حتى لقد طلبت الىّ أن أتولى اللعب نيابة عنها ، اذ لا يليق أن تلعب بنفسها . وقد لاحظتُ من لهجة كلامها أن هناك أمرا هاما يشغل بالها ، ليس مجرد الرغبة فى المقامرة . والمال فى ذاته لا يعنيها . لا شك أن هناك هدفا وظروفا أستطيع أن أخمّنها ولكننى ما زلت أجهلها . واضح أن وضع الاستعباد والاذلال الذى تضعنى فيه سوف يتيح لى (وهو كثيرا ما يتيح لى ذلك) أن أسألها بلا لف ولا دوران ولا كلفة . فما دمت عبدا لها ، وما دمت غير موجود فى نظرها ،

فلا يمكن أن تشعر باهانة تلحقها اذا أنا لم ألتزم معها حدود الأدب ، واذا أنا أظهرت شيئا من حب الاستطلاع . ولكنها فى الواقع ، رغم أنها تسمح لى أن أطرح عليها بعض الأسئلة ، لا تجيب على هذه الأسئلة ، بل انها فى بعض الأحيان لا توليها أى اتنباه ! تلكم كانت العلاقات بيننـــا ! .

ولقد تحدثوا أمس كثيرا عن برقية أُرسلت الى بطرسبرج منذ أربعة أيام ولم يصل جوابهـــا الى الآن . كان واضـــحا أن الجنرال مضطرب مشغول البال . لا شك أن الموضـــوع يتعلق بالجـــدة . والفرنسى مضطرب أيضا . من ذلك أنهما ظلا يتحدثان ، أمس ، بعد العشاء ، زمنا طويلا ، حديثا تبدو فيه علائم الجد . ان الفرنسى يصطنع فى معاملتنا أوضاعا متعاليه متغطرسة لا يصدقها العقل ؛ يصدق عليه المثل القائل : « تدعوه الى مائدتك فما يلبث أن يضع فوقها قدميه » . وحتى مع پاولين يصل عدم تحرجه الى درجة الغلظة والفظاظة . يجب أن أضيف الى هـــذا أنه كان يشترك فى النزهات العائلية بحـــديقة الكازينو ، أو فى النزهات التى كانت الأسرة تقوم بها ركوبا على الخيل فى الضواحى . لقد اطلعت منذ زمن طويل على بعض الظروف التى جعلت الفرنسى على علاقة بالجنرال : لقـــد كان فى نيتهما أن ينشئا مصنعا فى روسيا معا . ولست أدرى الآن هل هُجر هذا المشروع أم هما ما يزالان يتكلمان فيه . أضف الى ذلك أننى وقعت عرضا على جزء من سرهما العائلى : ان الفرنسى قد أخرج الجنرال من مأزق حقا فى العام الماضى ، اذ أقرضه ثلاثمائة روبل اكمالا للمبلغ الذى كان الجنرال يدين به للتاج حين استقال من مناصبه . والجنرال هو الآن

فى قبضة الفرنسى . ولكن مدموازيل بلانش هى التى تمسك بالدور الأساسى فى هذه الكوميديا كلها ، وأنا على يقين من أننى لا أخطىء التقدير حين أقول هذا الكلام .

فمن هى مدموازيل بلانش ؟ يقال هنا عندنا انها فرنسية من طراز رفيع ، تسافر مع أمها ، وتملك ثروة طائلة . ويقال أيضا انها تمت بقرابة بعيدة للمركيز من جهة العمومة . ويروى أن علاقات مدموازيل بلانش بالمركيز كانت قبل رحلتى الى باريس تتصف بمزيد من الكلفة والتأنق . أما الآن فان صداقتهما وقرابتهما تظهران ظهورا أبعد عن التكلف وأقرب الى الصلة الحميمة . ولعل أوضاعنا تظهر لهما الآن على حالة من السوء تجعلهما يريان أنه من غير المفيد بعد اليوم أن يعمدا الى التظاهر والمراعاة والمداراة . وقد لاحظت أمس كيف كان مستر آستلى يتفرس فى مدموازيل بلانش وأمها . بدا لى أنه كان يعرفهما . حتى لقد اعتقدت أن صاحبنا الفرنسى قد سبق أن التقى هو أيضا بمستر آستلى . ومهما يكن من أمر فان مستر آستلى يبلغ من الخجل والحياء والخفر والصمت أنه لا يمكن أن يُعقد عليه أى أمل : فسيظل الغسيل الوسخ يغسل داخل الأسرة . والفرنسى لا يكاد يحييه على كل حال ، ولا يكاد يوليه أى انتباه . معنى ذلك أنه لا يخشاه . وهذا أمر أفهمه . ولكن لماذا تتجاهله مدموازيل بلانش أيضا ؟ لا سيما وأن المركيز قد زل لسانه أمس فجأة أثناء الحديث (لا أتذكر الآن فى أية مناسبة) فقال ان مستر آستلى ثرى ثراء فاحشا فهو يعرف ذلك . وفى تلك اللحظة انما كان على مدموازيل بلانش أن تنظر الى مستر آستلى ! المهم أن الجنرال قلق . ولا شك أنك تقدر مدى ما يمكن أن يكون لبرقية قد تصل من موسكو معلنةً موت عمته من خطورة الشأن عنده!

ورغم اقتناعى بأن پاولين كانت تتحاشى عن قصد أن يقوم بينى وبينها حديث ، فقد اصطنعت هيئة البرود وقلة الاكتراث : كنت أقدر أنها ستقرر فجأة أن تجيء الىّ . وعلى خلاف ذلك وجهت انتباهى كله ، أمس واليوم ، الى مدموازيل بلانش . مسكين هذا الجنرال .. انه ضائع لا محالة . فلأن يهيم هـذا الهيام كله ، وهو فى الخامسة والخمسين من عمره ، فتلك مصيبة ولا شك . أضف الى ذلك ترمله ، وأولاده ، والدمار الذى هو فيه ، والديون .. وأخيرا هذه المرأة التى فتنت عقله وسحرت لبه . ان مدموازيل بلانش جميلة ولكننى لا أدرى هل يفهمنى القارىء اذا قلت ان وجهها هو من تلك الوجوه التى توقظ الرعب فى النفس . أنا على الأقل ، كنت أخاف دائما هذا النوع من النساء . انها فى نحو الخامسة والعشرين من عمرها ، فارعة الطول ، جميلة الكتفين ، مكتنزة العنق والثديين ، لها بشرة بلون البرونز ، ولها شعر أسود كأنه الأبانوس سوادا ، الى غزارة تكفى رأسين لا رأسا واحدا . أما العينان فسوداوان ، الى ازرقاق فى بياضهما ، وجرأة فى نظرتهما . والأسنان ساطعة ، والشفتان مصطبغتان دائما . والجسم كله يعبق بشذى كأنه المسك . وهى تحسن اختيار ملابسها ثرية باذخة ولكن على ذوق مرهف أنيق . قدماها ويداها رائعـة . صوتها أبح . قد تضحك فى بعض الأحيـان قهقهة فتظهر أسنانها كلها ، ولكنها فى أكثر الأحيان تظل صامتة صمتا فيه شيء من وقاحة ، على الأقل فى حضور پاولين ومارى فيليپوفنا (تروج الآن اشاعة غريبة هى أن مارى فيليپوفنا عائدة الى روسيا) . ويخيـل الىّ أن مدموازيل بلانش ليست على شيء من ثقافة ، حتى لقد تكون غبية ،

ولكنها فى مقابل ذلك شديدة الحذر ماكرة . وأعتقد أن حياتها لم تخل من مغامرات . ومن الجائز جدا أن لا يكون بينها وبين المركيز أية قرابة ، ومن الجائز جدا أن لا تكون أمها أمها حقا . ولكن يبدو أنها وأمها كانتا ، فى برلين ، حيث التقينا بهمـا ، على عـلاقات طيبة . أما المركيز ، فاننى ما زلت أشـك حتى الآن فى أنه مركيز ، أما أنه ينتمى الى المجتمع الراقى ، سواء عندنا فى موسكو أو فى ألمانيا ، فذلك أمر يبدو أنه لامجال للريب فيه . لست أدرى ما هو فى فرنسا . يقال انه يملك هنالك قصرا . وقد أيقنت أن مياها كثيرة كان لابد أن تجرى تحت الجسور أثناء غيابى خلال خمسة عشر يوما ، ولكننى ما زلت لا أدرى على وجه الدقة هل تكاشف الجنرال ومدموازيل بلانش بكلام حاسم . ومهما يكن من أمر فان كل شىء مرهون الآن بأحوالنا ، أى بمقدار المال الذى يمكن يلألئه الجنرال أمامهم . فاذا عُرف مثلا أن الجدة ما تزال على قيد الحياة ، فيقينى أن مدموازيل بلانش ستختفى فورا . انى لأدرك بنفسى أن من الغريب والمضحك أن يصبح المرء نماما ومشاءً الى هذا الحد . وان ذلك كله ليثير فى نفسى الاشمئزاز جدا . وما أشد ما ستكون فرحتى حين أترك هؤلاء الناس جميعا ، وهذه الأمور كلها ! ولكن هل أستطيع أن أبتعد عن پاولين ، هل أستطيع أن لا أحوم حولها مستطلعا متجسسا ؟ صحيح أن التجسس أمر حقير .. ولكننى لا أعبأ بهذا ..

أمس واليوم ، ظهر لى مستر آستلى غريب الأطوار هو أيضا . نعم اننى مقتنع بأنه يحب پاولين . انه لطريف ومضحك كل ما قد تعبر عنه فى بعض الأحيان نظرة رجل عاشق ، يتصف بالخجل الشديد ،

وبالخفر الى درجة المرض ، بينما هو يؤثر أن يغيب فى غياهب الأرض على أن يفضح نفسه بكلمة أو بنظـرة . اننا كثيرا ما نلتقى بمستر آستلى أثناء النزهة : يخرج من مخبئه ويمضى فى طريقه وهو يحترق رغبة فى الانضمام الينا بغير شك . فاذا رجوناه أن ينضم الينا أذعن على الفور . وفى الأماكن التى تستريح فيها ، سواء بالكازينو أو عند الفرقة الموسيقية أو أمام نافورة المياه ، فانه يقف دائما على مقربة من مقعدنا . وحيثما نكن ، سواء فى الحديقة أو فى الغابة أو فى جبـل شلانجنبرج ، يكفى أن ندير البصر من حولنا حتى نرى مستر آستلى فى أقرب ممر أو وراء دغل . يخيل الىّ أنه يبحث عن فرصة للتحدث معى خاصة . وقد التقينا فى هذا الصباح فتبادلنا بضع كلمات . انه فى بعض الأحيان يتكلم بجمل متقطعة . صاح يقول لى ، حتى قبـل أن يحيينى تحية الصباح :

— آ .. الآنسة بلانش .. لقد رأيت نساءً كثيرات مثل الآنسة بلانش ! .

قال ذلك وصمت ينظر الىّ نظرة بليغة . لا أدرى ما الذى أراد أن يقوله بهذا الكلام . ذلك أنه حين سألته : « ماذا تريد أن تقول » ، هز رأسه وهو يبتسم ابتسامة ماكرة ، وأردف :

— هكذا .. هل تحب الآنسة پاولين الأزهار كثيرا ؟

قلت :

— لا أعرف .

فصاح مشدوها :

ـــ كيف ؟ حتى هذا لا تعرفه ؟

ـــ لا ، لا أعرفه . لم أفطن الى ذلك ولم أتنبه اليه .

ذلك ما ردّدته وأنا أضحك .

ـــ هِمْ .. هذا يعطينى فكرة .

قال ذلك ثم حيانى بحركة من رأسه وتابع طريقه . وكان وجهه ينم عن سرور على كل حال . وقد تحدثنا كلانا بلغة فرنسية فظيعة .

الفصل الرابع

كان النهار مضحكا فاضحا سخيفا . هى الآن الساعة الحادية عشرة من المساء . وهأنذا فى غرفتى الصغيرة أحاول أن أرتب ذكرياتى . لقد ابتدأت الأمور فى الصباح على النحو التالى : كان علىّ أن أذهب الى الروليت أقامر من أجل پاولين ألكسندروڤنا . أخذت فردريكاتها الستمائة ، ولكن على شرطين : أولهما أننى لا أقبل أن ألعب على أساس المناصفة ، أى اننى اذا ربحت فلن آخذ لنفسى شيئا ؛ والثانى أن تشرح لى پاولين فى المساء لماذا هى فى مثل هذه الحاجة الماسة الى الربح ، وما هو المبلغ الذى تود أن تربحه . كنت لا أستطيع أن أفترض أنها تريد ذلك للمال وحده . لقد كان واضحا أنها فى حاجة كبيرة للمال ، لا أدرى لأى غرض . فوعدتنى پاولين أن تشرح لى ذلك . ومضيت .

الناس محتشدون فى قاعات القمار يسحق بعضهم بعضا . ألا ما أشد وقاحتهم جميعا ، وما أشد شراهتهم ! شققت طريقى بين الجمهور ووقفت قرب القيِّم . ثم بدأت اللعب وجلا ، لا أجازف الا بليرتين أو ثلاث دفعة واحدة . وكنت أثناء ذلك أراقب

وألاحظ . يخيل الى أن جميع هذه الحسابات ليس لها كبير قيمة ، وليس لها من خطورة الشأن ما يزعمه نها كثير من اللاعبين . ان هؤلاء يجلسون هنالك وبين أيديهم أوراق مملوءة أرقاما : فهم يسجلون الضربات ، ويعدون ، ويقدرون الاحتمالات ، ويجرون عملية حسابية أخيرة ، ثم يراهنون بعد ذلك كله .. فاذا هم يخسرون ، كما يخسر الناس البسطاء الذين يلعبون دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الحساب . وفى مقابل ذلك استخرجت نتيجة تبدو صادقة : فالواقع أن تعاقب الحظوظ عرضاً يخضع لنوع من الترتيب ، ان لم يكن لنوع من النظام . ذلكم شيء غريب جدا بطبيعة الحال . انه يتفق مثلا أن يعقب ظهورَ الأرقام الاثنى عشر الوسطى، ظهورُ الأرقام الاثنىعشر الأخيرة. يحدث هذا مرتين مثلا . فالضربة تقع على الأرقام الاثنى عشر الأخيرة ، ثم تنتقل الى الأرقام الاثنى عشر الأولى ؛ حتى اذا وقعت على الأرقام الاثنى عشر الأولى عادت الى الأرقام الاثنى عشر الوسطى . وثلاث مرات أو أربعا متتالية تخرج الأرقام الوسطى، ثم تخرج الأرقام الاثنا عشر الأخيرة من جديد ؛ وبعد دورتين نعود الى الأولى ، التى لا تخرج الا مرة واحدة ثم تخرج الأرقام الوسطى ثلاث مرات متتاليات ، ويستمر ذلك ساعة ونصف ساعة أو يستمر ساعتين . واحد ، ثلاثة ، اثنان . واحد ، ثلاثة ، اثنان . شيء عجيب جدا . وفى أحد الأصباح أو فى أحد الأصائل ترى الأسود والأحمر يتناوبان ، على غير نظام تقريبا ، وفى كل لحظة ، ولا يخرج كل لون الا مرتين متتاليتين أو ثلاثا حتى اذا جاء الغد أو كان المساء رأيت الأحمر وحده مثلا يخرج ، حتى لقد يظل يخرج اثنتين وعشرين مرة متتالية . ويستمر الحال على هذا

المنوال زمنا ، وقد يستمر نهارا بأسره . انني مدين بجزء كبير من هذه الملاحظات لمستر آستلي الذي يقضي النهار كله قرب موائد اللعب ، لكنه لا يقامر أبدا .

ولنعد الى ما حدث لي . لقد خسرت كل شيء حتى آخر قرش ، وذلك خلال برهة وجيزة . وضعت في أول الأمر عشرين فردريكا على رقم شفع ، فربحت ، ووضعتهما مرة أخرى فربحت ، وهكذا مرتين أو ثلاثا . أعتقد أن المبلغ الذي تجمع بين يدي بعدئذ قد صار أربعمائة فريدريك في مدى خمس دقائق . وقد كان عليّ في تلك اللحظة أن أنصرف ، ولكن احساسا غريبا قام في نفسي هو رغبة في استفزاز القدر ، في نقر القدر على خده ، في اخراج لساني له . فجازفت بأكبر مبلغ تجوز المقامرة به : أربعة آلاف فلورين ، فخسرت . فازدادت حرارة رأسي فأخرجت كل ما كان قد بقي لي ، فوضعته حيث وضعت المبلغ الأول في المرة السابقة فخسرت أيضا . عندئذ تركت المائدة طائش اللب مصعوقا . كنت عاجزا حتى عن استيعاب ما جرى لي ؛ ولم أبلغ پاولين ألكسندروڤنا عثاري الا قبيل العشاء . أما ما قبل ذلك فقد ظللت أضرب في الحديقة ذاهبا آيبا .

وأثناء العشاء كنت مضطربا كاضطرابي قبل ذلك بثلاثة أيام . وكان الفرنسي والآنسة بلانش ما يزالان يتناولان طعام العشاء معنا . وقد اتفق أن الآنسة بلانش كانت في الصباح بالكازينو فشهدت ما وقع لي . فرأيتها في هذه المرة تخاطبني بمزيد من الاعتبار . أما الفرنسي فقد مضى بخطوات أسرع وأصرح فسألني من غير لف ولا دوران هل المال الذي خسرته كان مالي أنا . أعتقد أنه يقدر أن المال مال پاولين .

« ان فى الرز بصلا » . فما لبثت أن ارتجلت الجواب فقلت ان المال الذى خسرته مالى .

كان الجنرال دهشا الى أقصى حدود الدهشة : من أين جئت بهذا المبلغ كله ؟ فشرحت له اننى قد بدأت المقامرة بعشرة فردريكات ، فلما ضاعفت المبلغ بعد ذلك ست مرات متتالية أو سبعا أصبح ما معى يبلغ خمسة آلاف فلورين أو ستة ، خسرتها بعدئذ فى ضربتين اثنتين.

هذا الكلام كله يحتمل التصديق طبعا . ولقد كنت أنظـر الى پاولين أثناء ارتجالى تلك الشروح ، فلم أستطع أن أكشف فى وجهها عن أى تعبير . لكنها تركتنى أتم كلامى دون أن تستوقفنى . فاستنتجت من ذلك أنه كان علىّ أن أكذب وأن أخفى أننى قامرت بمالها . ومهما يكن من أمر فقد قلت لنفسى : ان عليها أن تشرح لى الليلة ما وعدتنى بشرحه فى هذا الصباح .

وكنت أحسب أن الجنرال سيبدى لى ملاحظة ما ، ولكنه لزم الصمت . وفى مقابل ذلك ، رأيت فى وجهه أنه كان مضطربا قلقا . لعله ، وهو يعانى ما يعانيه من مصاعب ، لم يزد على أن آلمه أن يسمع واحدا من الناس يذكر أن كومة كهذه الكومة الكبيرة من الذهب قد صارت فى مدى ربع ساعة بين يدى غبى يبلغ هذا المبلغ كله من الطيش .

وأغلب الظن أنه قد نشبت بينه وبين الفرنسى فى مســاء أمس مناقشة حادة . لقد تحدثا حديثا حارا عنيفا خلال مدة طويلة ، بعد أن أحكما اقفال باب الغرفة عليهما بالمفتاح . وخـرج الفرنسى من

الاجتماع حانقا غاضبا . وعاد فى هذا الصباح يلقى الجنرال مبكرا .. لاستئناف حديث الليلة البارحة ما فى ذلك شك .

حين علم الفرنسى بخسارتى نبهنى بلهجة ساخرة ، وشىء من الخبث والمكر ، الى أن على المـــرء أن يكون أقرب الى التعقـــل والتبصر . ولا أدرى لماذا أضاف الى ذلك قوله ان الروس عاجزون فى رأيه عن المقامرة رغم أنهم كثيرا ما يقامرون .

فقلت :

ـــ فى رأيى أنا أن الروليت لم تخترع الا للروس .

فلما رأيت الفرنسى يسمعنى ضحكة صغيرة تحمل معنى الاحتقار، لفت نظره الى أننى على حق ، ذلك أن وصف الروس بأنهم مقامرون يشتمل على تقريع أكثر كثيرا مما يشتمل على اطراء . فعليه اذن أن يوافق على ما قلت . فسألنى الفرنسى :

ـــ على أى أساس تبنى رأيك ؟

ـــ على أساس أن ملكة جمع رءوس الأموال قد دخلت ، خلال التاريخ ، فى سجل فضائل الانسان الغربى المتمدن ومزاياه ؛ بل لعلها أصبحت البند الرئيسى فى هذا السجل . أما الروسى فليس عاجزا عن جمع رءوس الأموال فحسب ، بل أيضا يبعثر هذه الأموال هنا وهناك دون أى احســاس بما يحسن وما لا يحسن . ونحن الروس فى حاجة أيضا الى مال على كل حال . لذلك ترانا شرهين الى وســـائل ، كالروليت وما اليها ، نستطيع بها أن نحصل ثروة طائلة على حين بغتة خلال ساعتين من غير أن نعمل . ان هذا يغرينا ويفتن لبنا . ولما كنا نقامر بلا تعقل ونخبط خبط عشواء دون أن يسوءنا ذلك ، فاننا نخسر .

قال الفرنسى موافقا على خيلاء :

ــ هذا صحيح بعض الصحة .

فقال الجنرال بلهجة قاسية متفخمة :

ــ بل هو خطأ . وعار عليك أن تقول مثل هذا الكلام فى حق بلدك .

فأجبته قائلا :

ــ عفوك .. اننا لا نستطيع أن نقول أيضا أى الأمرين أسوأ : أطيش الروس أم أسلوب الألمان فى جمع المال بالعمل الشاق الشريف !

صاح الجنرال متعجبا :

ــ يا لها من فكرة قليلة الحياء !

وصاح الفرنسى :

ــ فكرة روسية حقا !

وكنت أضحك . كنت أحترق شوقا الى وخزهما واستفزازهما ، فقلت :

ــ انى لأوثر طوال حياتى أن أعيش حياة بداوة مترحلة فى خيمة من خيام الكرخيز على أن أعبد معبود الألمان .

فقال الجنرال وقد بلغ غضبه مبلغ الجد :

ــ أى معبود ؟

ــ أسلوب الألمـــان فى تكديس الثروات . اننى هنا منذ وقت قصير ، ومع ذلك فان الأمور التى أتاح لى هذا الوقت القصير أن

ألاحظها وأن أتحقق منها تثير طبيعتى التترية وتبعثها على التمرد . يمينا اننى لا أريد لنفسى تلك الفضائل . لقد قطعت أمس حـوالى عشرة فراسخ فى الضواحى . ان ما رأيته هو عين ما نقرؤه فى تلك الكتب الألمانية الصغيرة التى تدعو الى مكارم الأخلاق وتزدان بالصور : لكل بيت ههنا « فاتر » * رهيب التمسك بالفضائل ، خارق التشبث بمزايا الاخلاص والشرف : هو من ذلك كله بحيث يخاف المرء أن يدنو منه . اننى لا أطيق أولئك الشرفاء الذين يخشى المرء أن يقترب منهم . ولكل « فاتر » أسرة يجتمع أفرادها كل مساء يقرأون جميعهم كتبا مثقفة بصوت عال ؛ وفوق البيت الصغير يسمع حفيف أشـجار الدردار والكستناء .. غروب الشمس .. طائر على السطح .. كل ذلك شعرى مؤثر الى أقصى الحدود .. لا تغضب يا سيدى الجنرال ، واسمح لى أن أتكلم عن الأسلوب الذى يؤثر فى القلب . أذكر أن المرحوم أبى كان يقرأ لنا كتبا من هذا القبيل ، يقرؤها لى ولأمى ، فى المسـاء ، تحت أشجار الزيزفون فى حديقتنا الصغيرة . فأنا اذن قادر على أن أقطع فى الأمر برأى . ان كل أسرة هنا يستعبدها « فاتر » استعبادا كاملا . انهم جميعا يعملون كأبقار ويكنزون المال كيهود . فلنفرض أن الأب قد سبق أن جمع مبلغا من المال ، وينوى أن يورث ابنه الأكبر مهنته أو أرضه : انه لن يمهر بنته التى لن تتزوج . وسيبيعون الابن الأصغر خادما أو جنديا فيضمون ثمنه الى الميراث . هذا صحيح . هذا ما يحدث هنا . لقد سألت فعرفت أن هذا ما يحدث . وذلك كله انما مصدره الاخلاص ، مصدره اخلاص مسرف الى أبعد حدود الاسراف ، حتى ليعتقد الابن الأصغر الذى باعوه ، اعتقادا جازما ، انهم انما باعوه

بداعى الشرف والاخلاص . ذلك هو المثل الأعلى حقا ، حين تغتبط الضحية نفسها باقتيادها الى التضحية بها ! ثم ماذا بعد ذلك ؟ ان الابن الأكبر لن تكون حياته أملأ بالفرح : ان له فتاة يحبها قلبه ، ولكنه لا يستطيع أن يتزوجها ، اذ لم يجمع بعد مبلغ كاف من الفلورينات. وها هما ينتظران متمسكين بأهداب الفضيلة والاخلاص ، ويمضيان الى التضحية مبتسمين . وتأخذ وجنتا الفتاة بالتخدر ، ويجف ماؤهما . وأخيرا ، بعد عشرين عاما ، يكون ما لهما قد ازداد ، فالفلورينات تكدست بالاخلاص والفضيلة . فيبارك « فاتر » ابنه الأكبر الذى بلغ الأربعين ، والفتاة التى بلغت الخامسة والثلاثين ، فذبل منها الصدر واحمر الأنف .. ويبكى الأب فى هذه المناسبة ، ويعظ بمكارم الأخلاق، ويلفظ أنفاسه .. ويصبح الولد الأكبر « فاتر » فاضلا هو أيضا ، وتتكرر الحكاية . حتى اذا انقضى خمسون عاما أو ستون كان حفيد « فاتر » الأول قد جمع حقا رأس مال ضخم ، فتركه لابنه ثم أورثه هذا ابنه ، وبعد خمسة أجيال أو ستة يظهر البارون دو روتشيلد بشخصه أو يظهر هوب وشركاه * ، أو يظهر لا أدرى أى شيطان ! أليس هذا مشهدا فخما رائعا : قرن أو قرنان من عمل شاق وصبر دائب وذكاء نشيط ، واخلاص كامل ، وطاقة مستمرة ، وحزم صلب ، وتبصر بالمستقبل ! ماذا تريدون أكثر من ذلك ؟ لا شيء أروع من هذا ولا أرفع : ومن وجهة النظر هذه انما يأخذون يحكمون على العالم بأسره ، ويعاقبون المذنبين ، أى أولئك الذين يختلفون عنهم ولو أيسر الاختلاف ! ألا ان الاستهتار على الطريقة الروسية أو جنى الثراء بالروليت أحب الى نفسى وآثر فى قلبى . لا أريد أن

أكون هوب وشركاه فى ختام خمسة أجيال ! اننى فى حاجة الى مال لنفسى ، ولا أقيس نفسى أبدا برأس مال . أعرف أننى قلت سخافات كثيرة . ولكن لا ضمير .. تلكم هى آرائى .

قال الجنرال مفكرا واجما :

— لا أدرى هل يشتمل كلامك على جانب من حق ، غير أن هناك شيئا أنا منه على يقين ، وهو أنك تبدى غرورا لا يطاق متى ترك لك الحبل على الغارب ..

ولم يكمل الجنرال جملته ، على عادته حين يعالج موضوعا أوسع قليلا من موضوعات الأحاديث العادية . ان جنرالنا لا يتم أبدا جملة فى مثل هذه الأحوال . وكان الفرنسى يصغى الى الكلام محملقا وقد اتخذ وضع من لا يكترث به . وكانت پاولين تظهر بمظهر متعال لا يبالى ؛ حتى لكأنها لم تسمع شيئا من هذه الأحاديث التى دارت هذه المرة على المائدة .

الفصل الخامس

كانت حالمـــة مفكـّـرة أكثر ممـا تكون كذلك فى العادة . ولكن ما ان نهضنا عن المائدة حتى سألتنى أن أرافقها فى النزهة . فأخذنا الأطفـال ومضينا الى الحديقة من جهة نافورة المياه .

واذ كنت مهتاجا شديد الاهتياج ، فقد سألتها فى حماقة وفظاظة وسرعة ، لماذا أرى أن صاحبنا المركيز دى جريو * ، الفرنسى القصير ، أصبح لا يقتصر على أن لا يصحبها حين تخرج ، بل يبقى كذلك أياما برمتها لا يخاطبها بكلمة .

فأجابتنى بصوت غريب :

ـــ لأنه غليظ .

لم يسبق قط أن سمعتها تتكلم عن دى جريو بهذه الطـريقة ، فصمت ، خشية أن أفهم سبب هذا الحنق وهذا الغيظ . ثم قلت :

ـــ هل لاحظتِ أنه كان اليوم على غير وفاق مع الجنرال .

فأجابت بلهجة جافة مغتاظة :

ـــ أنت تعلم أنه أقرض الجنرال مالا على رهن جميع أمـلاك

الجنـرال . فاذا لم تمت الجـدة آلت الرهائن كلها الى الفرنسى ، فأصبح هو مالكها .

ـــ أصحيح اذن أن كل شيء قد رهن ؟ لقد سمعت عن هـذا الأمر ، لكننى لم أكن واثقا .

ـــ بلى !

قلت :

ـــ وداعا اذن يا مدموازيل بلانش . انها لن تصبح زوجة الجنرال. هل تعلمين أنه يخيل الى أن الجنرال قد بلغ من فرط هيامه بالآنسة بلانش أنه سوف ينتحر اذا هى هجرته . ان الغرام العنيف خطـر جدا فى مثل سنه .

قالت پاولين ألكسندروڤنا حالمة شاردة :

ـــ أعتقد أيضا أنه سيقع له شيء ما .

صحت قائلا :

ـــ ألا ما أروع هذا ! ما من برهان أعنف من هذا البرهان على أنها لم تكن راضية بالزواج منه الا فى سبيل المال . انهما لم يراعيا حتى أصول اللياقة والحشمة ، ولم يحفلا بشيء البتة . هذا رائع ! ثم ما هذا الذى يعمدون اليه فيما يتعلق بالجدة ؟ هل هناك ما هو أسخف أو أحط من ارسال البرقية ليسألوا : « هل ماتت ؟ هل ماتت؟ هل ماتت حقا ؟ » . ما رأيك يا پولين ألكسندروڤنا ؟

قالت تقاطعنى مشمئزة :

ـــ ما هذا الكلام كله الا سخافات غبية ! وانى ليدهشنى أن تكون فرح المزاج الى هذا الحد . ما الذى يبهجك ؟ أتراك مبتهجا لأنك خسرت مالى ؟

ـــ لماذا أعطيتنى هذا المال لأخسره ؟ لقد قلت لك اننى لا أستطيع أن ألعب لغــيرى ، ولا أســتطيع أن ألعب لك أنت من باب أولى ! اننى أطيع كل ما يمكن أن تأمرينى به . وقد حذرتك مع ذلك ، قائلا انه لن يخرج من هذا كله خير . ولكن قولى : هل يؤثر فيك كثيرا أن تخسرى مثل هذا المبلغ الضخم من المال ؟ فيم كان يمكن أن ينفعك هذا المــال ؟

ـــ لماذا هذه الأسئلة ؟

ـــ ولكنك وعدتنى أن تشرحى لى الأمور .. اسمعى : أنا مقتنع بأننى اذا أخذت ألعب لنفسى (وعلى اننى عشر فردريكا) فلسوف أربح . وسأعطيك عندئذ كل ما تريدينه من مال .

فنظرت الىّ نظرة احتقار . فتابعت أقول :

ـــ لا تغضبى منى اذا أنا عرضت عليك هذا . فان شعورى هو من شدة الامتلاء بأننى فى نظرك « صفر » بحيث تستطيعين أن تقبلى منى حتى مالا . ليس يضيرك ولا يلحق بك اهــانة أن أقــدم اليك هدية . ثم اننى قد خسرت مالك .

فرشقتنى بنظرة عجلى ؛ واذ لاحظت أننى أتكلم حانقا ساخرا ، غيرت موضوع الحديث مرة أخرى .

ـــ لا شيء من أمورى يمكن أن يعنيك . فاذا حرصت على أن

تعرف ، فاعلم أن عليّ ديونا . لقد اقترضت مالا ، وأود أن أرد المال الى صاحبه . لقد راودتني فكرة مجنونة عجيبة هي أنني سأربح هنا في القمار . لماذا ؟ لا أدرى . ولكنني كنت أعتقد أنني سأربح . ومن يدرى ؟ لعل هذا الأمل قد استقر في نفسى لأننى لم يكن لى خيار ، ولأن الربح في القمار كان آخر حظ يمكن أن أعوّل عليه .

— أو لأنه كان ينبغى الربح مهما كلف الأمر ؛ مثلك فى ذلك كمثل انسان يغرق فاذا هو يتشبث بقشة . أكان يحسب القشة جذع شجرة لولا أنه كان بسبيل أن يغرق ؟

ظهرت الدهشة على پاولين . فسألتنى :

— كيف ؟ أليس يراودك هذا الأمل نفسه أنت أيضا ؟ لقد قلت لى منذ خمسة عشر يوما ، وأنت تطنب فى الشرح ، انك واثق من الربح هنا فى الروليت ؛ ورجوتنى أن لا أنظر اليك نظرتى الى مجنون . أكنت تمزح اذن ؟ لكننى أذكر أنك كنت تتكلم بلهجة تبلغ من الجد أن المرء يستحيل عليه أن يحمل كلامك على محمل المزاح .

قلت مفكرا :

— صحيح . وما زلت واثقا كل الثقة أننى سأربح . بل انى لأعترف لك بأنك تقودينني الآن الى أن أطرح على نفسى هذا السؤال : لماذا لم تؤد هذه الخسارة الغبية الفاضحة التى خسرتها اليوم الى ادخال الشك فى نفسى ؟ اننى مازلت مقتنعا بأننى رابح حتما متى لعبت لنفسى لا لغيرى .

— لماذا هذا الاقتناع كله ؟

ـــ الحق اننى لا أدرى . لكننى أعرف أنه يجب أن أربح ، وأن هذا الربح مخرجى الوحيد . ولعل هذا هو السبب أيضا فى شعورى بأننى سأربح لا محالة .

ـــ اذن يجب أيضا أن تربح مهما كلف الأمر ، ما دمت على يقين يبلغ هذا المبلغ كله من الصلابة .

ـــ أراهن أنك تشكين فى أن يكون من الجائز أننى أشعر بضرورة ماسة وحاجة ملحة ؟

قالت پاولين بلهجة هادئة غير مكترثة :

ـــ ذلك أمر لا يعنينى فى شىء . ولكن ما دمت تسألنى فأنا أقول لك : نعم . اننى أشك فى أن يكون هناك شىء يعذبك عذابا عميقا . فلقد تشعر ببعض عذاب ، ولكن عذابك لا يمكن أن يكون خطيرا . أنت امرؤ مشوش لا تستقر على حال . ما حاجتك الى المال ؟ اننى فى كل ما ذكرته لى من أسباب ، ذلك اليوم ، لم أجد شيئا ذا بال .

قاطعتها قلاًئلا :

ـــ بالمناسبة ، قلت انك فى حاجة الى سداد دين ، دين كبير فيما يخيل الىّ . أليس الفرنسى هو الدائن ؟

ـــ ما هذا ؟ انك اليوم لفارس . أتراك سكران ؟

ـــ أنت تعلمين أننى أبيح لنفسى أن أقول كل شىء ، وأن أطرح فى بعض الأحيان أسئلة مباشرة جدا . فأنا عبدك ، وما يستحى امرؤ من عبده ، ولا يشعر امرؤ بشىء من غضاضة أمام عبده .

ـــ يا لها من سخافات ! اننى لا أطيق نظرية « العبودية » هــذه التى تعرضها !

ـــ لاحظى أننى لا أتكلم عن عبوديتى لأننى أرغب فى أن أكون عبدك . وانما أنا أتكلم عنها شيئا مستقلا عن ارادتى كل الاستقلال

ـــ قل لى بصراحة : لماذا أنت فى حاجة الى مال ؟

ـــ وأنت لماذا تريدين أن تعرفى ذلك ؟

فأجابت تقول وهى تهز رأسها بحركة ملأى كبرياء :

ـــ أنت حــر ..

قلت :

ـــ أنت لا تطيقين نظرية العبودية ، ولكنك تطلبين أن يستعبد لك المرء : « أجب دون أن تناقش » . هذا لسان حالك . ألا فليكن ما تريدين : لماذا أنا فى حاجة الى مال ؟ هــذا ســؤالك . ويا له من سؤال . ان المال هو .. كل شىء ..

ـــ مفهوم . ولكن يجب أن لا يجن المرء هذا الجنون كله رغبة فى المال ! ذلك أننى أرى أنك تمضى الى حد الهذيان .. ان ثمة شيئا بعينه ، ان هناك هدفا بذاته . تكلم بلا لف ولا دوران . أريد هذا .

لكأنهـــا أخذت تغتاظ . ومــــلأنى افتتانا أن أراها تظل تطرح علىّ أسئلة بهذه اللهجة الغضبى .

قلت :

ـــ ان لى هدفا ولا شك . ولكننى لا أعرف كيف أشرح لك ما هو

هذا الهدف . كل ما هنالك أنني بالمال سأصبح رجلا آخر ، حتى فى نظرك أنت ، فما أبقى عبدا .

ــ كيف ؟ كيف تصل الى هذا ؟

ــ كيف أصل الى هذا ؟ انك لا تستطيعين حتى أن تفهمى أن فى امكانى أن أصل الى أن تنظرى الىّ نظرتك الى انسان غير عبد ! وذلك بعينه هو ما أصبحت لا أريده . أصبحت لا أريد هذه الدهشات وهذه الاستغرابات !

ــ كنت تقول ان هذه العبودية تهيىء لك لذائذ عذبة . وكنت أنا أصدق هذا الكلام !

صحت أقول وأنا أشعر بلذة غريبة نادرة :

ــ كنت تصدقين ذلك ؟ يا لها من سذاجة جميلة ! نعم ان العبودية التى تخضعيننى لها هى عندى لذة عذبة . ان المرء ليجد لذة فى أدنى درجة من درجات الانحطاط والمذلة ! (كذلك استمررت أهذى) . ومن يدرى ؟ فلعل المرء يجد هذه اللذة العذبة أيضا تحت ضربات المقرعة حين تهوى على ظهره وتسلخ جلده .. ولكن لعلنى أريد أن أشعر بمتع أخرى .. منذ قليل ، قرّعنى الأمير أمامك ، من أجل سبعمائة روبل قد لا أقبضها يوما ؛ ورفع المركيز دى جريو حاجبيه يتفرسنى متظاهرا فى الوقت نفسه بأنه يجهل وجودى . هذا على حين أننى ربما كنت ، من جهتى ، أحترق شوقا الى أن أمسك بالمركيز ، أمامك ، من أرنبة أنفه .

ــ كلام صبية أغرار ! ان فى وسع المرء ، فى كل ظرف من الظروف ،

أن يتصرف تصرفا يحفظ له كرامته . ان الكفاح يرفع قدر الانسان ولا يخفضه .

— جمل محفوظة أو أقوال مأثورة : هكذا تتكلمين ! انك تفترضين أننى لا أحسن الظهور بالمظهر الكريم ، وأننى على كونى انسانا ذا كرامة ، لا أعرف كيف أتصرف تصرفا يصون الكرامة . تظنين أن الأمر يمكن أن يكون كذلك ! ألا ان جميع الروس هكذا . لأن الروس يبلغون من غنى المواهب وتنوعها أنهم يعجزون عن أن يجدوا ، بسرعة ، شكلا يناسبهم . أما هنا فالشكل هو الأمر الهام . اننا ، نحن معشر الروس ، نبلغ من غنى المواهب أنه لابد لنا من عبقرية حتى نجد لأنفسنا شكلا مناسبا . ونحن فى أغلب الأحيان تعوزنا العبقرية ، لأن العبقرية شيء نادر جدا على وجه العموم . ان الشكل ، لدى الفرنسيين وربما لدى أوروبيين آخرين أيضا ، يبلغ من كمال التحديد ودقة التعيين أن من الممكن أن يظهر المرء بمظهر كريم الى أبعد حدود الكرامة ولو كان أبعد الناس عن الكرامة . هذا هو السبب الذى يجعل للشكل لديهم هذه الأهمية كلها . ان الفرنسى قد يتحمل اهانة من الاهانات دون أن يقطب جبينه غيظا ، مع أن الاهانة قد تكون عميقة ، حقيقية ؛ ولكنه لن يتحمل بحال من الأحوال نقرة على أنفه بسبابة ، لأن ذلك مخالف للآداب المقررة والشكل التقليدى . ولئن كنا نرى الفرنسيين يظفرون بهذه الحظوة وهذا النجاح لدى بناتنا ، فلأن لهم شكلا حسنا . على أننى ، من جهتى ، لا أرى هنا أى شكل وانما أرى ديكا ، ديكا من ديوك بلاد

الغال ؛ ولست بمن يستطيع أن يفهم هذا على كل حال ، لأننى لست امرأة . ولعل فى الديكة خيرا أجهله . ولكننى أقول ترهات ثم أنت لا توقفيننى عن الكلام . ألا أوقفينى أكثر من ذلك . حين أتحــدث اليك فانى أحب أن أقول كل ما فى قلبى ، كله ، كله .. فأفقد القدرة على مراعاة أى شكل . بل اننى أعترف أننى لا أفتقــد الشكل فحسب ، بل تعوزنى كل مزية . أصرح لك بهذا . حتى اننى لا أحفل بأية مزية . لقد تجمد الآن كل شيء فى نفسى . وأنت تعرفين سبب ذلك . لم يبق فى ذهنى فكرة واحدة . أصبحت منذ زمن طويل لا أعرف ماذا يجرى فى العالم ، لا فى روسيا ولا هنا . هذا مثل : لقد مررت بمدينةدرسدن، ونسيت ماذا تشبه هذه المدينة . انك تعرفين ما الذى يستغرقنى .. واذ لم تكن لى أى أمل ، واذ كنت فى نظرك صفرا . فاننى أسوق كلامى صريحا صريحا : اننى لا أرى فى أى مكان شيئا سواك ، وكل ما عداك فهو عندى سواء . لماذا أحبك ؟ وكيف أحبك ؟ لا أدرى . قد لا تكونين من الجمال على شيء البتة . هل تتصورين أننى لا أعرف أأنت جميلة أم لا ، حتى من ناحيــة جمــال الوجه ؟ أما قلبك فسيىء ولا شك ، وأما فكرك فمن الجائز جدا أن يكون مجردا من كل رفعة ونبل .

ـــ فلعلك لعــدم ايمانك بنبلى تعوّل على أن تشترينى اذن بالمــال ؟

هتفت أقول :

ـــ متى عولت على أن أشتريك ؟

ـــ لقد ضللت الطريق ، وفقدت المنطق . ان لم تكن تأمل أن تشترينى أنا بالمال ، فان اعتبارى لك هو ما تأمل أن تشتريه .

ـــ ليس الأمر كذلك تماما . قلت لك ان من الصعب عليّ أن أشرح ما بنفسى . انك تسحقيننى سـحقا . لا تغضـبنك ثرثرتى . أنت تفهمين لماذا يجب أن لا يزعل منى . أنا امرؤ مجنون ، هذا كل ما فى الأمر . على أن ذلك لا يهمنى ، فازعلى اذا شئت . انه ليكفينى وأنا بغرفتى الصغيرة ، فى أعلى ، أن أتذكر أو أن أتخيل حفيف ثوبك حتى أكون مستعدا لعض أصابعى . لماذا زعلت منى ؟ ألأننى أعلن أننى عبدك ؟ استفيدى من عبوديتى ، استفيدى منها ! هـل تعلمين أننى سأقتلك فى ذات يوم ؟ لا غيرة ولا لأننى أكون قد انتهيت من حبك ! لا ، وانما سأقتلك لمجرد أننى أشعر فى بعض الأيام برغبة فى أن ألتهمك . تضحكين ؟

قالت بلهجة غضبى :

ـــ لست أضحك . ولكننى آمرك أن تسكت .

وتوقفت ، وهى تختنق غضبا . شهد الله لا أدرى أهى جميلة ، لكننى أحب أن أنظر اليها حين تتوقف أمامى هذا التوقف ؛ ومن أجل ذلك انما أحب أن أستثير غضبها . ولعلها لاحظت هى ذلك ، فتعمدت أن تغضب . وقلت لها ذلك . فصاحت مشمئزة :

ـــ يا للشناعة !

واستأنفت كلامى قائلا :

ـــ يستوى عندى .. ثم اعلمى أيضـا أن من الخطر أن تتنزه معا : فكثيرا ما تراودنى رغبة لا تقاوم فى أن أضربك ، فى أن أشوهك ،

فى أن أخنقك . أتظنين أن الأمر لا يمكن أن يمضى الى هذا الحد ؟ انك تغيظينني . أتحسبين اننى أخشى الفضيحة ؟ أتحسبين أننى أخشى سخطك ؟ أنا أستخف بسخطك ! اننى أحبك بغير أمل ، وأعرف أن حبى سيزداد بعد ذلك ألف مرة . واذا قتلتك يوما فسيكون علىّ أن أقتل نفسى أيضا . ولكننى سأؤجل قتل نفسى ما استطعت الى التأجيل سبيلا ، حتى أشعر من فراقك بذلك العذاب الذى لا يطاق ! هل تصدقين هذا الشىء الذى لا يصدق : أننى فى كل يوم أحبك أكثر مما كنت أحبك فى اليوم السابق ؛ وهذا أمر مستحيل مع ذلك ! أفتريدين بعد ذلك أن لا أومن بالقدر ! تذكرى : لقد قلت الك أول أمس ، ونحن على جبل شلانجنبرجر ، قلت لك بصوت خافت جدا ، حين تحديتنى : « قولى كلمة واحدة ، فأرمى بنفسى الى الهاوية » . لو أنك قلت تلك الكلمة اذن لرميت نفسى . أنت تصدقين هذا ، أليس كذلك ؟

صاحت تقول :

— ثرثرة غبية .

— يستوى عندى أن تكون غبية أو أن لا تكون كذلك . أنا أعلم أننى حين أكون معك أحتاج الى أن أتكلم ، أن أتكلم ، أن أتكلم .. فأتكلم . اننى حين أكون معك أفقد حب نفسى كله ، وليس يهمنى هذا .

قالت بلهجة خشنة ، ونبرة مهينة :

— فيم عسانى أجبرك على أن تلقى بنفسك من قمة جبل شلانجنبرجر ؟ لا فائدة من هذا البتة .

هتفت أقول :

— رائع ! لقد استعملت هذا التعبير الرائع عامدة لاذلالى : « لا فائدة » . كشفتك . تقولين : « لا فائدة » . ولكن اللذة مفيدة دائما ، والسلطة المطلقة التى لا حدود لها نوع من المتعة ، ولو كانت سلطة على ذبابة . الانسان ظالم بطبيعته : انه يحب التعذيب . وأنت تحبين هذا أكثر مما تحبين أى شىء آخر .

أذكر أنها كانت تتفرسنى باتنباه خاص . لا شك أن وجهى كان يعبر عندئذ عن جميع الاحساسات العجيبة السخيفة الخارقة التى كنت أشعر بها . وأذكر الآن أن حديثنا قد جرى بهذه الألفاظ نفسها التى أوردها هنا تقريبا . كانت عيناى محتقنتين دما . وكان الزبد يصعد الى شفتى . أما عن قصة جبل شلانجنبرجر ، فأقسم بشرفى ، حتى هذه اللحظة ، لكنت ألقى بنفسى الى تحت لو أمرتنى بذلك ؛ ولكنت أفعل حتى ولو طلبته منى مازحة محتقرة باصقة علىّ .

قالت :

— لا ، لماذا ؟ اننى أصدقك .

ولكنها قالت ذلك بتلك اللهجة التى تجيد وحدها استعمالها ، بلهجة تبلغ من الاحتقار والمكر والتعالى ما كان يمكن أن يدفعنى الى قتلها فى تلك اللحظة . لقد عرّضت نفسها لمثل هذا فعلا . ولم أكذب عليها حين قلت لها ذلك .

سألتنى فجــأة :

ـــ ألست جبانا ؟

ـــ لا أدرى . قد أكون كذلك . منذ زمن طويل لم أسأل نفسى هذا السؤال .

ـــ هبنى قلت لك : « اقتل هذا الرجل » .. أفتقتله ؟

ـــ من ؟

ـــ من أريد .

ـــ الفرنسى ؟

ـــ لا تسألنى بل أجبنى . أتقتل من أسألك أن تقتله ؟ أريد أن أعرف هل كنت جادا فيما كنت تقوله منذ هنيهة .

كانت من شدة الاهتمام ونفاد الصبر فى انتظــار جوابى اننى دُهشت حقا . فهتفت أقول :

ـــ هلاّ قلت أخيرا ماذا يحدث هنا ؟ أتراك خائفة منى ؟ اننى أرى جميع التعقيدات التى تضطربون هنا فى زوبعتها . أنت قريبة رجل مدمر مجنون ، يخربه هيامه بهذا الشيطان .. الآنسة بلانش . ثم هنالك الفرنسى وما له عليك من نفوذ خفى . وها أنت ذى تطرحين علىّ منذ لحظة ذلك السؤال . فلأعلم شيئا على الأقل . والا جننت واندفعت الى تطرف لا نعرف ما عسى يكون ! أم تراك تستحين أن تشرفينى بصراحتك؟ ولكن ليس فى الامكان أن تستحى أمامى .

ـــ ما عن هذا قط أكلمك . لقد ألقيت عليك سؤالا وأنا أنتظر الجــواب .

فانفجرت أقول :

ــ طبعا أقتل من تسألينني أن أقتله ، ولكن هل يمكن أن .. هل يمكن أن تأمريني بشيء من هذا القبيل ؟

ــ لا تقدّر على كل حال أنني سأدخرك ! وانما أنا أصدر اليك أمري ، وأبقى بعيدة . أفي وسعك أن تتحمل هذا ؟ ما أظن .. فلست أهلا لذلك ! ولسوف ترجع اليّ تقتلني لأنني تجرأت فأرسلتك ترتكب جـريمة .

شعرت بكلماتها كأنها تصعقني صعقا . طبعـــا ، كنت حتى ذلك الحين أحمل كلامها على محملٍ نصفه المزاح ونصفه التحدى . ولكنها كانت قد تكلمت جادة مفرطة فى الجد . لقد أذهلني أنها تكلمت على هذا النحو ، فأكدتْ أن لها عليّ مثل هذا الحق ، واعترفت لنفسها بمثل هذه السلطة ، وقالت صراحة : « تهلك أنت ، وأبقى أنا بعيدة ». ان فى هذه الأقوال من الاستهتار والصراحة ما يخرج فى رأيي عن القصد ويتجاوز الحد . وكيف تراها تتصرف معي بعد أن أنفذ أمرها ؟ ان هذا يتخطى حدود العبودية والحطة . ان هذه الطريقة فى النظر الى الأمور ترفعني الى مستواها . ومهما يكن الحديث الذى دار بيننا سخيفا لا يصدق فقد أحسست بقلبي يتهاوى .

وفجأة ، انفجرت ضاحكة . كنا جالسين على مقعد أمام الأطفال الذين كانوا يلعبون ؛ تماما مقابل المكان الذى تتوقف عنده العربات لتنزل الناس فى الممر المؤدى الى الكازينو .

هتفت تقول :

ـــ أترى هـــذه البارونة الضخمة ؟ انها البارونة ڤورمو هلم . هى هنا منذ ثلاثة أيام فحسب . أنظر الى زوجها : هذا الپروسى النحيل المتخلع الذى يمسك فى يده عصـا . هـل تذكر كيف تفرسـا فينا أول أمس . الحق فورا بالبـارونة ، واظهر لها ، وقل لهـا شيئا بالفرنسية .

ـــ لماذا ؟

ـــ لقد حلفت لى لترمين" نفسك من أعلى جبـل شلانجنبرجر اذا أنا أمرتك بذلك ، وأنت تحلف اليوم أنك مستعد للقتل اذا أنا أمرتك أن تقتل . فبدلا من هذه الجرائم وهذه المآسى أريد اليوم أن أتسلى قليلا . أريد أن أرى البارون يضربك بعصاه .

ـــ أتتحديننى ؟ أتظنين أننى لن أفعل ؟

ـــ نعم أتحداك . هيا اذهب اليها . أريد ذلك .

ـــ طيب . سأذهب : ولكنها نزوة غريبة جدا . يجب أن لا يجلب هذا الأمر بعض المكاره للجنـرال ، ولا أن يجلب لك أنت بعض المكاره تبعا لذلك . يمينا ما أنا بالخائف على نفسى ، بل عليك .. وعلى الجنرال . أية فكرة غريبة هذه : أن أمضى أهين امرأة !

قالت لى باحتقار :

ـــ ما أنت اذن الا ثرثار كما أرى . عيناك وحدهما كانتا محتقنتين منذ قليل . ولعل مرد ذلك على كل حال الى أنك أسرفت فى الشراب أثناء الغداء . أنا أعرف أن ما أسألك أن تفعله سخيف ودنىء ، وأن

الجنرال سيغضب . ولكننى أحب أن أتسلى . هذا كل ما فى الأمر . ولن تكون فى حاجة الى اهانة امرأة . لسوف تخبط قبل أن تفعل .

نهضت ومضيت أنفذ مهمتى دون أن أنطق بكلمة واحدة . واضح أن الأمر كان سخيفا . ولم أستطع أن أتملص . ولكننى أذكر أننى ، بينما كنت أقترب من البارونة ، شبت فى نفسى رغبة فى أن أقارف عملا أرعن طائشا . ثم اننى كنت من شدة اهتياجى كسكران .

الفصل السادس

حَدَث ذلك منـذ يومين . يا له من نهـار أحمق ! ما أكثر ما ارتفع فيه من صياح ، وما قام فيه من ضجة وجلبة ، وما جرى فيه من تعليق وتعقيب ! وأنا السبب فى كل هـذا الهـرج والمرج ، فى كل هذا السخف ، فى كل هذه العامية ! على أن الأمـر مهزلة تبعث على الضحك ، فى رأيى على الأقل . لا أستطيع أن أفهم ما وقع لى : أأنا فى حالة من حماسة وحميا ، أم أنا انسان خرج عن جادة العقل ، وراح يقارف السفاهات تلو السفاهات بانتظار أن يحبس ؟ يخيَّل الى فى بعض اللحظات اننى بسبيل أن أجن ؛ ويخيـل الى فى بعض اللحظات أننى لم أكد أتجاوز عهد الطفولة ، لم أكد أخـرج من المدرسة فأنا أندفع فى أعمـال صـبيانية فظـة مما ينـدفع فيه التـلاميذ .

ان الخطأ خطأ باولين ؛ ان كل الذنب ذنبها . لعلنى ما كنت أندفع فى تلك الأعمال الصبيانية لولا أنها كانت هنالك . ومن يدرى على كل حال ؟ لعلنى فعلت ذلك كله يأسا (رغم أن تفسير الأمر على هذا

النحو غباء) . ولست أفهم ، لا لست أفهم ما تتمتع به من مزايا . انها جميلة ، أو هذا ما أعتقده فى أقل تقدير . ولست المجنون الوحيد بها . انها فارعة القوام ، حسنة الخلقة . لكنها نحيلة جدا . يخيل الىّ أن فى وسع المرء أن يربطها عقدة أو أن يثنيها نصفين . أثر قدمها طويل ضيق .. معذّب . نعم معذب .. هذه هى الكلمة . فى شعرها انعكاسات ضاربة الى حمرة . عيناها عينا قطة حقا .. وما أكثر ما تستطيع أن تضع فيهما من كبرياء وعجرفة ! منذ حوالى أربعة أشهر، وكنت قد دخلت فى خدمتهم منذ قليل ، شب بينها وبين دى جريو ، ذات مساء ، حديث طويل ، فى الصالون . كانا يتكلمان فى اندفاع وحرارة . فكانت ترمقه بنظرة تبلغ من القوة .. أننى حين صعدت أنام بعد ذلك تخيلت أنها قد صفعته ، أنها قد صفعته منذ لحظة ، وأنها الآن واقفة أمامه تنظر اليه .. وفى المساء الما وقعت فى هـواها .

ولنعد الى ما وقع .

سرت فى مضيق صغير يؤدى الى الطريق ، فتوقفت فى وسطه أنتظر وصول البارون والبارونة . فلما صارا منى على مسافة خمس أقدام ظهرت لهما وألقيت عليهما السلام .

أذكر الآن أن البارونة كانت ترتدى ثوبا من حرير أشهب واضح ، واسع سعة عظيمة تبعث على الدهشة ، مزدان بتخاريم مطرزة ، ونسيج من شعر ، وذيل سابغ . انها قصيرة ، بدينة جدا ، لها ذقن كثيفة متراجعة تختلط بخديها ، ووجه أحمر ، وعينان صغيرتان خبيثتان

وقحتان ؛ ومشية تفيض طواعية وانقيادا . أما البارون فرجـل جاف خشن ، طويل القامة ، ذو وجه مقلوب تخدده طائفة من غضون صغيرة. وهو يضـع على عينيه نظارتين ، كعادة النـاس فى ألمانيا . وهو فى الخامسة والأربعين من عمره ؛ تكاد ساقاه من طولهما أن تخرجا من صدره رأسا : وتلك علامة نبالة المحتد . انه مغرور كطاووس . ثقيل قليلا . وشىء من مظهر الخروف فى التعبير ينوب عنده مناب العمق .

لاحظت ذلك كله فى بضع ثوان .

لم يكادا يلتفتان فى أول الأمر الى تحيتى التى ألقيتها عليهما حاملا قبعتى فى يدى . واكتفى البارون بأن قطب حاجبيه قليلا . وأقبلت البارونة علىّ قدما وهى تسير بخطى جليلة . قلت بصوت مسموع مفهوم ، مميِّزا كل مقطع من مقاطع كلامى :

ـــ سيدتى البارونة ، انه ليشرفنى أن أكون عبدك* .

قلت ذلك ثم انحنيت اجلالا ، وأعدت قبعتى الى رأسى ، ومضيت قرب البارون أنظر اليه بابتسامة رقيقة متوددة .

لقد أمرتنى پاولين أن أظهر لهما . أما التذللات والصبيانيات فهى من عنـدى أنا . لا يعلم الا الله ما الذى كان يدفعنى الى ذلك دفعـا . كان يخيل الى أننى أهوى من أعلى جبل .

ـــ هيـه !..

كذلك صرخ البارون أو قل كذلك عوى وهو يستدير نحـوى بدهشة غاضبة .

فالتفت متجمدا على وضـع الاحترام ، منتظرا ما سيحدث ، مستمرا فى النظر اليه بابتسام . كان واضحا أنه متحير . ثم ها هو ذا يقطب حاجبيه الى أقصى حد ، ويكفهر وجهه شيئا بعد شيء مزيدا من الاكفهرار . والتفتت البارونة أيضا الى جهتى دهشة مستاءة . وأخذ مارة من الناس يراقبوننا . حتى لقد توقف بعضهم يشاهد .

ـــ هيـــه !..

كذلك عوى البارون مرة أخرى بصوت تضاعف صراخه وتضاعف حنقـــه .

ـــ يا ڤول * .

قلت له ذلك أجر الكلمة جرا ، وظللت أحدق فى عينيه .

ـــ أأنت مجنون . ؟ * .

قال ذلك ملوحا بعصاه ، حتى ليخال المرء حين يراه أنه أخــذ يرتجف . لعل ردائى هو الذى أدخل الاضطراب فى قلبه ؛ وكنت حسن الهندام ، بل جيد الأناقة ، كرجل ينتسب الى أرقى طبقة .

ـــ يا ڤووول ..

صحت هكذا بكل ما أملك من قوى ، مطيلا « الواو » كما يفعل سكان برلين الذين يستعملون هذه الكلمة « يا ڤول » فى الحــديث كل لحظة مطيلين الواو أو مقصريها تبعا لاختلاف ما يريدون التعبير عنه من الفكر أو من العاطفة بعض الاختلاف .

استدار البارون والبارونة فجأة ، وابتعدا بما يشبه الركض . لقد خافا خوفا شديدا . أما المارة الذين تجمهروا فبعضهم أخذوا يتكلمون ، وبعضهم راحوا ينظرون اليّ مدهوشين . ولست أذكر جيدا على كل حال .

عدت أدراجي بخطواتى العادية نحو پاولين ألكسندروفنا ولكن ما ان صرت على مسافة مائة متر تقريبا من مقعدها حتى رأيتها تنهض وتتجه نحو الفندق مع الأطفال .

وأدركتها أمام درجات سلم المدخل ، حتى اذا صرت حذوها قلت لها :

ـــ ها قد نفذت .. تلك السخافة .

فأجابتنى بقولها :

ـــ والآن دبر نفسك .

وصعدتْ درجات السلم ، حتى دون أن تلقى عليّ نظرة .

ظللت السهرة كلها أطوف فى الحديقة . ثم اجتزت الحديقة ، واستمررت أسير الى أن بلغت قرية من القرى ، فطعمت لدى بعض الفلاحين بيضا وشربت خمرا ، فكلفتنى هذه القصة الشعرية تاليرا ونصف تالير .

ولم أعد الا فى الساعة الحادية عشرة من المساء . فما ان وصلت حتى استدعيت الى لقاء الجنرال .

ان أصحابنا يحتلون من الفندق شقتين . انهم يشغلون أربع غرف. فأما الأولى فهى الصالون : غرفة واسعة يزينها بيانو ذو ذيل ، وتتصل بغرفة واسعة أخرى هى مكتب الجنـــرال . فهنالك كان الجنـــرال ينتظرنى واقفا فى وسط الغرفة ، متخذا وضعا فى غاية الفخامة والجلال. وكان دى جريو متمددا على الديوان فى تكاسل واسترخاء .

بدأ الجنرال كلامه قائلا :

ــ هلا أذنت لى أيها السيد العزيز أن أسألك ماذا فعلت ؟

أجبت :

ــ أوثر أن تمضى الى الأمـــر رأسا يا سيادة الجنرال . لعلك تريد أن تكلمنى فى أمر لقاء مع أحد الألمان منذ قليل .

ــ أحـــد الألمان ؟ ان هذا الألمـــانى هو البارون ڤورمرهلم . انه شخصية كبيرة . لقد كنت فظا غليظا معه ومع البارونة .

ــ أبدا ..

ــ لقد أرعبتهما أيها السيد .

كذلك صاح الجنرال .

ــ لم أرعبهما قط . لقد كنت فى برلين أسمع كلمة « ياڤول » هذه فى كل حديث ، يرددها الناس بعد كل كلمة ، ويطيلونها اطالة مزعجة . فلما صادفت البارون فى الطريق الذى تحف به الأشـــجار ، استيقظت هذه الكلمة فى ذاكرتى فجأة (لا أدرى لماذا ؟) ، فأثارت حفيظتى .. زد على هذا أن البارونة قد لقيتنى فى الطريق ثلاث مرات قبل ذلك ، فكانت تسير نحوى قدما كما لو كنت دودة من ديدان

الأرض يمكن سـحقها . ويجب أن تسلم بأننى انسان له كرامته . فما كان منى الا أن نزعت قبعتى وقلت لها فى أدب جم (أؤكد أننى كنت جم الأدب) : « يشرفنى يا سيدتى أن أكون عبدك » . فلما التفت البارون صارخا : « هيه ؟ » ، اشتهيت أن أصرخ أنا أيضا بقولى « يا قول » . ولقد قلت هذه الكلمة مرتين : مرة بطريقة عادية ، ومرة أخرى باطالتها ما وسعتنى الاطالة . هذا كل ما حدث .

أعترف أن هذا الشرح قد راقنى وفتننى الى أقصى حد يليق بفتى وقح . كنت أحترق شوقا الى تطريز هذه القصة على أسخف صورة ممكنة . وكنت كلما أمعنت فى ذلك ، ازددت تلذذا به .

صاح الجنرال :

ـــ أنت تسخر منى فيما يبدو .

والتفت نحو المركيز فشرح له باللغة الفرنسية أننى كنت أسعى الى خلق مشكلة حتما . فابتسم دى جريو ابتسامة احتقـار ، رافعا كتفيـه .

هتفت أقول :

ـــ لا تصدق هذا .. ليس فى الأمر شيء من ذلك قط . صحيح أن حركتى كانت مزعجة .. أعترف لك بذلك صادقا مخلصا . ويمكن أن توصف بأنها سخيفة ، بأنها عمل صبيانى قليل الحياء غبى .. لا أكثر. واعلم ، يا جنرال ، أننى أشعر بندامة كبيرة على ما بدر منى . غير أن هنالك ظرفا يكاد يعفينى فى رأيى من الندم . اننى فى الآونة الأخيرة ، منذ خمسة عشر يوما ، وربما منذ ثلاثة أسابيع ، أشعر بأننى فى حالة

صحية سيئة : انني مريض ، عصبى ، سريع الاهتياج ، كثير الهواجس، حتى لأفقد فى بعض المناسبات كل سـيطرة على نفسى وكل تحكم بأعمالى . هذا صحيح . من ذلك مثلا أننى قد شبت فى نفسى عـدة مرات رغبة رهيبة فى أن أقوم فجأة الى المركيز دى جريو فـ .. ولكن لا فائدة من اكمال كلامى .. والا فقد يشعر الأمير من ذلك باهانة فيثور غضبه .. المهم أن هذه الأشياء أعراض مرض .. لا أدرى هل تأخذ البارونة ڤورمرهلم هذا الظرف بعين الاعتبار ، حين سأعتذر اليها (وفى نيتى أن أعتذر اليها) . ولكن أغلب الظن أنها لن تفعل ، خاصة وأن الناس ، فى الآونة الأخيرة ، قد أخذوا ، فيما أعلم ، يسيئون استعمال هذا المبرر فىعالمالقضاء : فالمحامون ، فى القضايا الجنائية ، أخذوا يبررون جرائم موكليهم زاعمين أن هؤلاء كانوا لحظة ارتكاب الجريمة لا يشعرون بما يفعلون ، وأن هـذا مرض من الأمراض . يقول هؤلاء المحامون مثلا : « لقد ضرب ، نعم . لكنه لا يتذكر الآن شيئا » . وتصور ، يا سيادة الجنرال ، أن الطب يؤيدهم .. فهو يدعى أن هناك مرضا من هذا النوع ، أن هناك جنونا موقتا اذا اسـتبد بالانسان لحظةً جعله لا يتذكر أو لا يتذكر الا نصف تذكر . ولكن البارون والبارونة هما من الجيل القديم ، ناهيك عن أنهما من النبلاء البروسيين وأنهما من الريف ، فهما لمّا يعلما ، بعد ، بهذا التطور الذى حققه الطب الشرعى ، لذلك لن يقبلا شروحى وتعليلاتى . ما رأى الجـنرال ؟

قال الجنرال بغتة وهو يكظم استياءه :

ـــ كفى أيها السيد كفى ! .. سوف أحاول أن أجعل نفسى فى

منجى من أعمالك الصبيانية مرة واحدة الى الأبد . لن يكون عليك أن تعتذر للبارون والبارونة . ان أى اتصال لك بهما ، ولو اقتصر على الاعتذار اليهما ، سيبدو لهما ذلا ما بعده ذل . وحين علم البارون أنك واحد من منزلنا ، حدثنى فى الأمر بالكازينو وأوشك أن يطالبنى بترضية ، أعترف لك بذلك . فهل فهمت على ماذا حملتنى أنا ، أيها السيد العزيز ؟ لقد اضطررت أن أعتذر اليه ، وأن أعده وعد الشرف أنك منذ هذا اليوم لن تكون واحدا من منزلنا ..

— اسمح لى ، اسمح لى يا جنرال ، أهو الذى طلب أن لا أكون منذ اليوم واحدا من منزلكم ، على حد تعبيرك ؟

— لا .. ولكننى شعرت بأننى مضطر أن أصلح الأمر بهذه الطريقة ، وطبيعى أن يظهر البارون ارتياحه لذلك ورضاه به . بقى أن أدفع لك أربعة فردريكات وثلاثة فلورينات . فاليك مالك ، وهذا هو الحساب ، فى وسعك أن تراجعه . والوداع . فنحن بعد الآن غرباء لا يعرف بعضنا بعضا . اننى لم أجن منك الا ما يصدع الرأس ويزعج النفس . وسوف أستدعي « الجرسون » الآن فأقول له اننى لن أكون مسئولا عن نفقاتك بالفندق ابتداء من غد . الوداع .

تناولت المال والورقة التى سجل عليها الحساب بالقلم الرصاص ، ثم حييت الجنرال ، وقلت له بلهجة جادة كل الجد :

— ان الأمر لا يمكن أن ينتهى على هذا النحو ، يا جنرال . يؤسفنى ويؤلمنى أن البارون قد أبدى لك ملاحظات مزعجة ، ولكن اسمح لى أن أقول ان الخطأ خطؤك . فلماذا توليت أن تكون مسئولا

أمام البارون نيابةً عنى ؟ وما معنى هذا التعبير : « أننى واحد من منزلكم » ؟ أنا معلم أولادك لا أكثر . فلا أنا ابنك ، ولا أنت وصى علىّ ، وما كان لك أن تسأل عن أعمالى . ان لى شخصيتى القانونية. عمرى خمسة وعشرون عاما . وأنا متخرج من الجامعة . وأنا نبيل . ولست أمت اليك بأية قربى ، فأنا غريب عنك كل الغرابة . ثق أن ما أحمله لمزاياك من احترام لا حد له هو الذى يصدنى الآن عن أن أطالبك باصلاح ما بدر منك حين أعطيت نفسك حق أن تكون مسئولا عنى .

بلغ الجنرال من شدة الانشداه أن تهدلت ذراعاه ؛ ثم اذا هو يلتفت نحو الفرنسى فجأة ، فيقول له موجزا اننى أوشكت أن أطلبه لمبارزة . فانفجر الفرنسى ضاحكا بقهقهة .

واستأنفت كلامى فقلت بهدوء كامل ، دون أن أدع لنفسى أبدا أن تستفزها قهقهات مسيو دى جريو :

— على أن حسابى لا يكون بذلك قد صفى مع البارون ، وما دمت قد رضيت اليوم أن تصغى الى شكاوى البارون ، وأن تعنى بشئونه هذه العناية ، فانك قد دخلت فى هذه القضية بمعنى من المعانى، لذلك يشرفنى أن أبلغك يا سيادة الجنرال أننى ، غداً لا بعده ، سوف أطالب البارون ، باسمى أنا ، بتفسير قاطع للأسباب التى حملته ، رغم أن شأنه كان معى ، على أن يتجاهلنى وأن يتجه الى شخص ثالث ، كما لو كنتُ غير قادر على أن أتحمل مسئولية أفعالى ، أو كما لو كنت غير جدير بذلك .

وحدث ما كنت أتوقعه . فها هو ذا الجنرال يأخذه الخوف اذ يسمع هذه السخافة الجديدة . وصاح يقول :

ـــ أتراك تنوى أن تسير بهذه القضية المشئومة أشواطا أخرى ! ألا انك لتضعنى فى أحرج المواقف ! .. ولكن حذار أيها السيد .. حذار ثم حذار .. والا فاننى أقسم بشرفى .. لاحظ أن فى هذا البلد سلطات أيضا .. وأنا .. أنا .. الخلاصة .. نظراً لمركزى .. ونظرا لمركز البارون أيضا .. الخلاصة .. لسوف توقفك الشرطة ، ولسوف تطردك من هذه المدينة ، منعا لك من ارتكاب فضيحة .. فاجعل هذا ماثلا فى ذهنك .. لقد حذرتك ..

كان الجنرال خائفــا خوفا شـــديدا ، رغــم أن الغضب كان يخنقه خنقا .

أجبت قائلا بهدوء مثير :

ـــ سيادة الجنرال ، لا يمكن أن يُعتقل أحد لفضيحة قبل ارتكابه الفضيحة . اننى لم أفاتح البارون بعد ، وما زلتَ تجهل كل الجهل من أى جانب أنوى أن أواجه القضية ، وعلى أى أسس أنوى أن أعالجها، ان كل ما أريده هو أن أبدد ذلك الظن الذى يلحق بى اهانة كبيرة ، ألا وهو أن هناك وصيا علىّ يملك أن يضغط على حرية ارادتى . فأنت اذن تفزع وتقلق فى غير ما حاجة الى الفزع أو القلق .

بدل الجنرال أوضاعه المتكبرة فجأة فقلبها الى لهجة توسل وضراعة حتى لقد أمسك بيدى ، وقال :

ـــ ناشدتك الله ، ناشدتك الله يا الكسى ايفانوفتش ، دعك من

هذا المشروع السخيف المستحيل . تصور ما قد ينجم عنه ! مزعجات جديدة . لاحظ أن عليّ هنا أن أظهر بمظهر خاص ، لا سيما الآن ، لا سيما الآن .. لعلك لا تعرف الوضع كله . أنا مستعد لاستردادك متى سافرنا من هنا . أما الآن فالقضية قضية شكل .. الخلاصة .. انك تعرف الأسباب التى تدفعنى الى هذا دفعا .. ألكسى ايڤانوڤتش ، ألكسى ايڤانوڤتش (كذلك صاح يائسا) .

فرجوته مرة أخرى ، وأنا أنسحب ، أن لا يتملكه القلق ، ووعدته بأن تجرى الأمور مجرى حسنا ، وأسرعت أبارح الغرفة .

ان الروس يسرفون فى الجبن أحيانا حين يكونون فى الخارج . ان بهم خوفا رهيبا مما سيقال عنهم ، من نظرة الناس اليهم . انهم يخشون أن يخلوا بمظاهر اللباقة ، ولا سيما أولئك الذين يطمعون فى أن يكون لهم شأن كبير . انهم يحرصون أشد الحرص على أن يراعوا ، مراعاة العبودية ، شكلا معينا سبق تصوره وسبق تقريره مرة الى الأبد ، سواء فى الفنادق أو فى النزهات أو فى الاجتماعات أو فى الأسفار .. ولكن الجنرال قد أفلت من لسانه أن هنالك ظروفا تضطره « الى الظهور بمظهر خاص » . فلذلك شعر فجأة بذلك الخوف كله ، وغيّر اللهجة التى كان يخاطبنى بها . وقد لاحظت ذلك ووعيته . انه أجبن من أن يلجأ الى السلطات ، وعليّ أن أعمل فى روية وحذر .

على أننى لم تكن بى أى شهوة الى اغضاب الجنرال . ان پاولين هى من كنت أتمنى الآن لو أحنقه . لقد بلغت من القسوة فى معاملتى ، ودفعتنى فى طريق بلغ من السخف أننى أصبحت أرغب فى حملها على

أن ترجونى هى نفسها أن أتوقف .. ان الأعمال الصبيانية التى قد أقوم بها يمكن أن تسىء الى سمعتها هى أيضا . ثم ان احساسات جديدة ورغبات جديدة قد نبتت فى نفسى : فلئن تلاشيت أمامها بارادتى ، مثلا ، فان ذلك لم يكن يعنى أبدا أننى ازاء الآخرين كدجاجة مبللة ، وليس الأمير حتما من كان عليه أن يؤدبنى « بالعصا » . كنت أريد أن أسخر من جميع هؤلاء الناس ، وأن أخرج من ذلك بأمجاد الحرب . لسوف يرون . ولا شىء يُخشى منه ! وهبها لم تستدعنى ، فلسوف ترى على كل حال أننى لست بالدجاجة المبللة ..

وهذا نبأ مدهش : لقد علمت منذ لحظة من خادمة الأولاد التى صادفتها على السلم أن مارى ڤيليبوڤنا سافرت اليوم وحدها الى ابنة عمتها بكارلسباد فى قطار المساء . ما معنى هذا ؟ وقالت الخادم ان مارى فيليبوڤنا كان فى نيتها أن تسافر منذ زمن طويل . فكيف لم يعلم أحد بشىء من هذا ؟ على كل حال ، قد أكون الشخص الوحيد الذى كان يجهل الأمر . وقد أفهمتنى الخادم أن مارى ڤيليبوڤنا قد قامت بينها وبين الجنرال مناقرة عنيفة أول أمس . فهمت . لا شك أنها .. مدموازيل بلانش . نعم : ان شيئا حاسما يهم أن يقع .

الفصل السابع

في هـذا الصباح استدعيت خادم الفندق وطلبت اليه أن يجعل حسابى مستقلا . ولم يكن أجر غرفتى بالأجر الباهظ حتى أخاف فأترك الفندق نهائيا . كان معى ستة عشر فردريكا .. وهناك .. هناك .. ربما كانت تنتظرنى ثروة ! شيء غريب : لم أكن قد ربحت بعد ، ولكننى أتصرف وأحس وأفكر كما لو كنت رجلا غنيا ، ولم يكن فى وسعى أن أرى نفسى غير ذلك .

كنت أنوى ، رغم بكرة الصباح ، أن أذهب حالا الى مستر آستلى الذى كان يقيم فى « فندق انجلترا » القريب من فندقنا كل القرب ؛ فاذا أنا أرى دى جريو داخلا الى غرفتى على حين فجأة . لم يكن قد حدث هذا قبل اليوم قط ، وأكثر من ذلك أن صلاتى بهذا السيد قد أصبحت فى الآونة الأخيرة كلها بعيدة كل البعد متوترة أشد التوتر . حتى لقد أصبح لا يكفيه أن لا يخفى استخفافه بى واحتقاره لى ، بل أصبح كذلك يحاول اعلان ذلك جهارا .. أما أنا .. فكان لى من الدواعى ما يجعلنى لا أحبه ؛ حتى ليمكن أن أقول اننى كنت أكرهه كرها .

لذلك أدهشني مجيئه كثيرا ، وسرعان ما أدركت أن شيئا خاصا غير مألوف كان يحدث .

كان لطيفا معي كل اللطف ، وأخذ يطرى غرفتي ؛ فلما رآني أحمل قبعتي بيدي أدهشه أن أخرج للنزهة في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح . فقلت له انني كنت ذاهبا الى مستر آستلي لبعض الأعمال ، فشرد لحظة ، وعبر وجهه عن هم شديد .

كان دي جريو رجلا كسائر الفرنسيين ، أي انسانا دمثا مرحا متى وجب عليه أن يكون كذلك ومتى كان ينفعه أن يكون كذلك ، ولكنه انسان ممل مضجر الى حد لا يطاق متى زالت الضرورة التي كانت تحمله على أن يكون دمثا مرحا . ان الفرنسي قلما يكون لطيفا محببا من أول اندفاعة ، وانما هو لطيف محبب على نظام مرسوم ، وبحساب مدروس . فاذا رأى مثلا أن من الضرورة أن يخرج على المألوف ، وأن يركب هواه ، وأن يشذ عن القاعدة ، وأن يتفرد في السلوك ، رأيت أشد ألوان الشذوذ اغراقا في العجب تكتسي لديه أشكالا مقررة مقبولة من قبل ، شائعة مبذولة من زمان بعيد . أما اذا ترك نفسه على سجيتها الطبيعية فهو انسان وضعي ، بورجوازي ، تافه ، لا طعم له ؛ هو على وجه الاجمال أكثر من على وجه الأرض املالا واضجارا . وفي رأيي أن الاغرار وحدهم ، ولا سيما الفتيات الروسيات ، هم الذين يمكن أن يفتنهم الفرنسيون . وما من انسان حصيف الا ويلاحظ ثم يكره رأسا تلك السلسلة المتكررة من الأشكال الثابتة التي يصطنعها الفرنسيون لطفاً في الصالونات ، وطلاوة في الحديث ، ومرحا في الحركة .

بدأ الكلام يقول منطلق الحركة ولكن على لباقة وأدب :

ـــ انما جئتك اليوم لعمل . لا أكتمك أنني موفد اليك من الجنرال سفيرا أو وسيطا . انني لم أكد أفهم شيئا من الحديث الذي جرى بينك وبين الجنرال أمس ، لأنني أسيء معرفة اللغة الروسية جدا ، ولكن الجنرال شرح لي كل شيء تفصيلا ، وأنا أعترف ..

فقاطعته قائلا :

ـــ اسمع يا سيد دي جريو .. هأنت ذا ، في هذه القضية أيضا ، تقوم بدور الوسيط . أنا لست الا معلما ، ولم أزعم لنفسي يوما شرف وجود صداقة حميمة بيني وبين هذا البيت ، ولا شرف وجود علاقات وثيقة خاصة تربطني به ، ولذلك فان هناك ظروفا أجهلها . ولكن هلا قلت لي شيئا : أأنت قد أصبحت الآن واحدا من الأسرة على وجه التمام ؟ ذلك أنني أرى أنك تبلغ من الاهتمام بهذه الأمور جميعها أنك تطرح نفسك وسيطا في كل شأن ..

ساءه سؤالي . انه سؤال مسرف في الشفافية ، والرجل لا يريد أن يكشف أمره .

قال في جفاء وخشونة :

ـــ تربطني بالجنرال أعمال من جهة ، وظروف خاصة من جهة أخرى . وقد أوفدني اليك الجنرال لأرجوك أن تعدل عما كنت تنتويه أمس . ان كل ما تخيلته شيء ظريف طبعا . ولكن الجنرال يرجوني أن ألفت نظرك الى أنك لن تصل الى أية نتيجة . وأكثر من ذلك .. أن البارون لن يستقبلك وهو يملك على كل حال جميع الوسائل التي

تمكنه من تجنب ما قد يجيئه منك من ازعاجات . اعترف بهذا أنت نفسك . ففيم العناد اذن ؟ والجنرال يعدك بأن يستردك متى سمحت الظروف بذلك ، ويتعهد بأن يحتفظ لك حتى ذلك الحين بمرتباتك ألا ترى أن العرض مربح ؟

فأجبته بلهجة هادئة كل الهدوء أنه مخطىء قليلا ، وأن البارون قد لا يطردني ، بل سيصغي الى كلامي . ورجوته أن يعترف بأنه انما جاء اليّ الآن ليعرف ما عساني فاعلا على وجه الدقة !

قال :

ــ ما دام الجنرال مهتماً بالأمر هذا الاهتمام فانه ليسره طبعا أن يعرف ما سأقوم به ؛ فذلك أمر طبيعي .

فأخذت أشرح ، وأخذ يصغي ، مسترخيا على مقعده ، مائلا برأسه قليلا نحوي ، وفي عينيه شعاع من استهزاء لا يخفيه ؛ أي كان يعاملني بكثير من الاستعلاء . حاولت ما وسعني ذلك أن أتظاهر بأنني أعد هذه القضية على جانب عظيم من الخطورة . قلت ان البارون ، حين شكاني الى الجنرال كما لو كنت خادم هذا الجنرال ، قد خفض من شأني أولا ، وانه ، ثانيا ، قد عاملني معاملة شخص لا يمكن أن يكون مسئولا عن أفعاله ، بل ولا يستحق أن يخاطب . فلقد ألحقت بي اذن اهانة كبيرة . ومع ذلك ، فانني ، نظرا الى فارق السن والمركز الاجتماعي ، الخ ، الخ (لم أكد أستطيع أن أحبس نفسي عن الضحك حين قلت هذه الجملة الأخيرة) ، لن أندفع الى ارتكاب عمل طائش جديد ، أي أنني لن أطالب البارون صراحة ، بل ولا أن أعرض عليه

أن يصلح ما أفسد . ومهما يكن من أمر فأنا أرى أن من حقى تماما أن أعتذر اليه (وأن أعتذر الى البارونة خاصة) ، لا سيما وأننى أشعر حقا فى هذه الأيام الأخيرة بأننى مريض مهدم النفس غريب الأطوار ان صح التعبير ، الخ ، الخ . غير أن البارون نفسه ، اذ قام بذلك العمل الذى ألحق بى الاهانة ، وأصر على الجنرال أن يفصلنى من عملى ، قد وضعنى فى موقف أصبح يستحيل علىّ معه أن أعتذر اليه وأن أعتذر الى البارونة ، لأننى لو فعلت لظن هو ولظنت البارونة ولظن جميع الناس ، بدون أى شك ، أننى انما جئت أعتذر اليه خوفا وطمعا فى العودة الى عملى . وينتج عن هذا كله أننى أجد نفسى الآن مضطرا أن أرجو البارون أن يعتذر هو الىّ أولا ، وذلك بعبارات معتدلة الى أبعد حدود الاعتدال ، كأن يقول مثلا انه لم يشأ أبدا أن يهيننى. فاذا وافق البارون على طلبى هذا ، يكون قد أطلق يدى من عقالهما ، فاعتذرت اليه صادقا من أعماق القلب .

وختمت كلامى قائلا : ان كل ما أطلبه هو أن يطلق البارون يدى من عقالهما .

ــ هه .. يا لها من حساسية ! ويا لها من حذاقات ! لماذا تعتذر ؟ هيا اعترف ، يا مسيو .. ، يا مسيو .. أنك دبرت هذه المكيدة كلها لازعاج الجنرال .. وربما كانت لك أهداف شخصية يا مسيو .. يا مسيو .. اعذرنى لقد نسيت اسمك .. مسيو الكسى ، أليس كذلك؟

ــ ولكن اسمح لى يا عزيزى المركيز ، فيم يعنيك هذا الأمر ؟

ـــ وفيم يضير الجنرال هذا ؟ لقد قال لى أمس انه مضطر أن يظهر بمظهر ما .. اننى لم أفهم شيئا .

ـــ هنا انما يكمن ظرف خاص ..

كذلك أجاب دى جريو بلهجة ضارعة متوسلة تشف شيئا فشيئا عن مزيد من الغضب . أنت تعرف مدموازيل دى كومانج ؟

ـــ تقصد مدموازيل بلانش ؟

ـــ نعم ، مدموازيل بلانش دى كومانج .. والسيدة والدتها .. انك تسلم أنت نفسك أن الجنرال .. أعنى .. أن الجنرال مغرم بها .. حتى أن .. حتى أن .. الزواج قد يتم هنا . فتخيل الفضائح والمشاكل فى هذه المناسبة ! ..

ـــ لست أرى لا فضائح ولا مشاكل فيما يتعلق بهذا الزواج .

ـــ ولكن البارون رجل شديد الغضب سريع التأثر : طبع بروسى، كما تعلم ؛ ولسوف يثير الأمر شجارا كما يثيره ألمانى ..

ـــ سيكون هذا شأنى أنا ، لا شأنكم أنتم ، لأننى لست بعد الآن واحدا من المنزل (كنت أحاول أن أتغابى الى أقصى حد ممكن) . ولكن اسمح لى : لقد تقرر الأمر على هذا النحو : مدموازيل بلانش تتزوج الجنرال . فماذا ينتظرون اذن ؟ أقصد : لماذا يخفون الأمر ، لماذا يخفونه عنا على الأقل ، نحن أهل البيت ؟

ـــ لا أستطيع أن .. على كل حال .. ليس هناك شىء حاسم بعد .. مع ذلك .. أنت تعلم أنهم ينتظرون أخبارا من روسيا . يجب أن يرتب الجنرال أموره ..

ـــ ها .. ها .. الجدة العزيزة ..

ورشقني دى جريو بنظرة كارهة مبغضة ، وقال يقاطعنى :

ـــ انني أعتمد اعتمادا قويا على رهافتك التى فطرت عليها ، أعتمد على ذكائك وذوقك .. ويقينى أنك ستفعل ذلك فى سبيل هذه الأسرة التى استقبلت فيها استقبال قريب معزز مكرم ..

ـــ اسمح لى .. لقد طردونى . انك تذهب الآن الى أن المسألة مسألة شكل ، ولكن لابد أن تسلم معى بأنه اذا قال لك أحد الناس : « أنا لا أريد طبعا أن أشدك من أذنيك ، ولكن اسمح لى أن أشدك من أذنيك مراعاة للشكل » لابد أن تسلم معى بأن الأمرين واحد .

قال بلهجة مستعلية متغطرسة :

ـــ اذا كان الأمر كذلك ، اذا كان لا يجدى فيك أى رجاء ، فدعنى أؤكد لك أن اجراءات ستتخذ . ان فى البلد سلطات مسئولة ، ولسوف تطرد فى هذا اليوم نفسه .. أمر عجيب .. أفتى غر مثلك يريد أن يطلب للنزال شخصية فى مثل منزلة البارون ؟! .. ثم تظن أنهم سيدعونك وشأنك ! ثق تمام الثقة أن أحدا لا يخشاك هنا ! ولئن قدمت اليك ذلك الرجاء ، لقد فعلت هذا من تلقاء نفسى ، لأنك أقلقت الجنرال . كيف تستطيع أن تتصور أن البارون لن يطردك بمجرد أمر بسيط يلقيه الى خادم ؟

قلت هادئا كل الهدوء :

ـــ ولكنى لن أذهب الى البارون بنفسى . أنت مخطىء يا مسيو دى جريو . ان الأمور ستجرى على غير هذا النحو الذى تصوره

خيالك . سوف أذهب توا الى مستر آستلى أرجوه أن يكون وسيطى، أى بايجاز ، أن يكون معاونى . ان هذا الرجل يشعر بمحبة نحوى . فلن يرفض طلبى حتما . سيمضى الى البارون ، وسيستقبله البارون . لئن كنت أنا معلما ، ولئن ظهرت بمظهر المرءوس الخاضع لغيره العاجز عن الدفاع عن نفسه ، فان مستر آستلى هو ابن أخى لورد من اللوردات ، لورد حقيقى ؛ جميع الناس هنا يعرفون ذلك ؛ انه اللورد پيبروك ، وهو الموجود هنا الآن . ثق أن البارون سيكون مهذبا مع مستر آستلى ، وأنه سيصغى اليه . واذا لم يصغ اليه ، فان مستر آستلى سيعد ذلك اهانة لحقت بشخصه هو (وأنت تعرف مدى عناد الانجليز) ؛ فيرسل أحد أصدقائه الى البارون ، وان له لكثيرا من الأصدقاء . هل ترى الآن كيف أن الأمر قد ينحل على غير الصورة التى تخيلتها ؟

جزع الفرنسى حقا . والواقع أن هذا كله كان قريبا من الحقيقة ؛ وكان يبدو علىّ اذن أننى قادر فعلا على أن أقوم بفضيحة .

فعاد يقول بلهجة متوسلة :

ـــ أرجوك .. دعك من كل هذا ! لكأنه يسرك أن تثير فضيحة ! لكأنك لا تنشد اصلاح ما فسد من الأمر ، بل تنشد فضيحة . قلت لك ان هذا كله قد يصبح مثار تسلية وتفكه ، ولعلك محقق هذا الهدف .. ولكن ..

هنا لاحظ أننى أنهض وأتناول قبعتى فختم يقول :

ـــ لقد جئت اليك بكلمة من شخص .. فاقرأها .. وقد رُجيت أن أنتظر الجواب .

قال هذا وسل من جيبه ورقة صغيرة مطوية مختومة ، فمدها الى .

كانت الورقة من پاولين ، كتبت فيها بخط يدها ما يلي :

« سمعت أنك تنوي متابعة هذه القصة . أنت زعلان ، وقد بدأت تلعب لعب الصبية . غير أن هناك ظروفا خاصة ، قد أشرحها لك يوما ، فرجائي اليك أن تتوقف وأن تعقل . ما أسخف هذا كله ! أنا في حاجة اليك ، وقد وعدتني بأن تطيعني . هل تتذكر جبل « شلانجنبرج ؟ أطلب اليك أن تكون طيعا ، بل آمرك أمرا اذا لزم . » .

المخلصة لك

پ

حاشية : « اذا كنت حانقا عليّ بسبب ما حدث أمس ، فسامحني » .

رأيت كل شيء يرقص وأنا أقرأ هذه الأسطر . اصفرت شفتاي وأخذت أرتعش . تظاهر الفرنسي الملعون بقلة الانتباه ، وحوّل عينيه عني كمن لا يريد أن يرى اضطرابي . كنت أؤثر لو ينفجر ضاحكا أمام أنفي . قلت :

— حسن . قل للآنسة أن تهدأ وأن تطيب بالا .

ثم ما لبثت أن أردفت أقول فجأة :

— ولكن اسمح لي .. لماذا انتظرت هذا الانتظار كله حتى تعطيني هذه الورقة ؟ كان في وسعك أن تبدأ باعطائي هذه الورقة ، بدلا من قول تلك السخافات كلها ، اذا كنت قد جئت للقيام بهذه المهمة .

— كنت أريد .. على كل حال .. ان هذا الأمر كله يبلغ من الغرابة أن عليك أن تعذر ما رأيته من نفاد صبري .. وهو طبيعي . لقد

كنت أريد أن أعرف ، بأقصى سرعة ، من فمك نفسه ، ما كنت تضمر من نيات . وأنا أجهل على كل حال ماتتضمنه هذه الورقة ، فقدرت أن فى الوقت متسعا لاعطائك اياها .

ـــ فهمت الآن . كل ما فى الأمر أنهم أمروك بأن لا تعطينى الورقة الا عند الضرورة ، وأن لا تستعملها اذا أنت استطعت أن تدبر المسألة بالنصح . أليس كذلك ؟ أجبنى بصراحة يا مسيو دى جريو !

قال وهو يصطنع أقصى التحفظ ، وينظر الىّ نظرة غريبة :

ـــ ربمـــا ..

تناولت قبعتى ، وحيانى بحركة من رأسه ، وخرج . يخيل الىّ أننى رأيت على شفتيه ابتسامة ساخرة . وكيف يمكن أن لا يكون الأمر كذلك ؟

دندنت وأنا أهبط السلم :

ـــ ما يزال بيننا حساب يا أيها المتظرف .. ولسوف نعرف من يكون غالبا ومن يكون مغلوبا .

كنت ما أزال عاجزا عن جمع شتات فكرى . كان يتراءى لى أننى كمن تلقى على رأسه ضربة مطـرقة . ولكن الهـواء النقى الطرى أحسن الىّ .

فبعد دقيقتين ، منذ أصبحت قادرا على التفكير ، عرضتْ لذهنى فكرتان واضحتان : الأولى أن تسلية صبيانية ، وتهديدات خياليـة قالها أمس فى الهواء فتى غر ، قد أثارت ذعرا شاملا ؛ والثانية : ما أعظم ما لهذا الفرنسى اذن من نفوذ على پاولين ! كلمة واحدة منه تحملها على

أن تفعل ما هو فى حاجة اليه ، فتكتب رسالة ، وتمضى الى حد أن ترجونى . صحيح أن العلاقات بينهما كانت دائما لغزا فى نظرى . ولكننى لاحظت فى الأيام الأخيرة أنها أصبحت تنفر منه نفورا قويا ، بل تحتقره احتقارا . أما هو فكان لا يلتفت اليها ولا يلقى عليها نظرة ، وكل ما فى الأمر أنه كان فظا معها . وكنت أنا ألاحظ ذلك . حتى لقد أقرت لى پاولين باشمئزازها منه ، وأفلتت من لسانها اعترافات بليغة الدلالة الى أقصى الحـــدود .. فهو اذن قابض عليها بيده ، وهى اذن خاضعة لسيطرته ..

الفصل الثامن

في « النزهة » ، كما يقال هنا ، أى فى الطريق الذى تصطف على حافتيه أشجار الكستناء ، التقيت بصاحبى الانجليزى
صاح اذ لمحنى يقول :

ـــ أوه ! أوه ! أنا ذاهب اليك ، وأنت آت الىّ ! اذن فقد تركت أصحابك ؟

فسألته مدهوشا :

ـــ قل لى أولا كيف اطلعت على هذا كله . أجميع الناس على علم اذن بالأمر ؟

ـــ لا .. لا جميع الناس .. فالمسألة لا تستحق .. وما من أحد يتكلم فيها .

ـــ فكيف تعلم بها اذن ؟

ـــ أعلم بها ، أو قل لقد أتيح لى أن أعلم بها عرضا . الى أين أنت الآن ذاهب ؟ انى أحمل لك شعورا بالصداقة ، لذلك كنت ذاهبا اليك .

قلت وقد تملكتنى الدهشة من اطلاعه على المسألة :

ــ انت رجل شهم يا مستر آستلى ؛ واذ أننى لما أشرب قهوتى بعد ، واذ أنك لم تتناول فى أغلب الظن افطارك ، فهيا بنا الى الكازينو. وسندخن هناك ، فأقص عليك كل شىء .. وربما رويت لى شيئا أنت أيضا ..

كان المقهى على مسافة مائة متر .. شربنا ، وجلسنا جلسة مريحة ، وأشعلت أنا سيجارة . وكان مستر آستلى لا يدخن ، وها هو ذا يثبت نظره فىّ متهيئا للاصغاء الى حديثى . بدأت الكلام بقولى :

ــ لن أسافر الى أى مكان . سأبقى هنا .

ــ كنت موقنا أنك باق .

كذلك قال مستر آستلى بلهجة التحبيذ والتأييد .

حين كنت ذاهبا الى مستر آستلى لم يكن فى نيتى أبدا أن أحدثه عن حبى لپاولين . بل لقد كنت أريد أن أتجنب هذا الموضوع . ولم أكن طوال تلك الأيام الأخيرة قد نبست بكلمة واحدة فى هذا الشأن . ثم انه انسان خجول جدا . وكنت قد لاحظت الأثر القوى الذى تحدثه پاولين فى نفسه ، ولكنه لم ينطق باسمها فى يوم من الأيام . شىء غريب عجيب : منذ جلس مستر آستلى وثبت فىّ نظرته الكابية الملحاح ، شبت بى ، لا أدرى لماذا ، رغبة عنيفة فى أن أروى له كل شىء ، أى أن أحدثه عن حبى كله بجميع ما يشتمل عليه من ألوان. فاذا أنا أتكلم نصف ساعة تماما ، واذا أنا أحس من ذلك بارتياح عظيم : تلك أول مرة أفتح فيها نفسى لأحد فى هذا الأمر . واذ لاحظت

أنه كان يضطرب حين أصل من حديثى الى فقرات حارة ، فقد زدت حرارة قصتى عامدا . شيء واحد أندم عليه : لعلنى أسرفت فى الكلام على الفرنسى .

كان مستر آستلى يصغى الىّ جالسا أمامى ، ساكنا لا ينطق بكلمة ولا يتفوه بحرف ، مثبتا عينيه فى عينى ، ولكن حين ألمعت الى الفرنسى ، استوقفنى فجأة وسألنى بلهجة قاسية هل يحق لى أن أذكر هذا الظرف الثانوى . لقد كان لمستر آستلى دائما طريقة عجيبة جدا فى القاء الأسئلة . قلت :

ـــ انك على حق . أخشى أن لايكون لى هذا الحق .

ـــ عن هذا المركيز وعن الآنسة پاولين لا تستطيع أن تقول شيئا معينا دقيقا الا على سبيل الافتراض ؟

ـــ نعم ، لا شيء معيناً دقيقا .. هذا أكيد .

ـــ فاذا كان الأمر كذلك فقد أخطأت لا حين حدثتنى فى هذا فحسب ، بل حين فكرت فيه أيضا .

فقاطعته أقول وقد شعرت بدهشة بينى وبين نفسى :

ـــ طيب . طيب . موافق .

ثم قصصت عليه قصة الأمس بحذافيرها : نزوة پاولين ، مغامرتى مع البارون ، طردى من عملى ، ما أظهره الجنرال من جبن خارق ؛ وحكيت له أخيرا زيارة الفرنسى تفصيلا ، وختمت القصة باظهاره على الورقة التى أرسلتها الىّ پاولين . ثم سألته :

ـــ فماذا تستنتج من دلك ؟ انما جئت اليك لأسألك رأيك .

أما أنا فلا مانع عندى من قتل هذا الفرنسى الصغير المتظرف ، ولعلنى فاعل ذلك .

قال مستر آستلى :

ـــ وأنا أيضا . أما عن الآنسة پاولين .. فأنت تعلم أننا نعقد صلات حتى بأناس نكرههم ، اذا قادتنا الضرورة الى ذلك . فقد يكون هنالك صلات تجهلها ، صلات لها علاقة بظروف ثانوية طارئة . فتستطيع أن تطمئن نفسك من هذه الناحية .. بعض الطمأنينة طبعا .. وأما عن نزوتها أمس فهى غريبة واضحة الغرابة ، لا لأنها أرادت أن تتخلص منك بارسالك الى عصا البارون (وانى لأستغرب حقا أنه لم يستعمل العصا وقد كانت فى يده) بل لأن نزوة كهذه من فتاة مرموقة مثلها .. هى نزوة تعوزها الحشمة .. وأغلب الظن أنها ما كانت تقدّر أنك تنفذ هذه الرغبة الخبيثة حرفا حرفا ..

هتفت فجأة أقول وأنا أتفرس فى مستر آستلى :

ـــ هل تعرف ؟ أحس أنك قد سمعت هذه القصة كلها . هل تدرى ممن ؟ من الآنسة پاولين نفسها ؟ !

فنظر الى مستر آستلى مندهشا . ثم سرعان ما استرد هدوءه فقال :

ـــ عيناك تلتمعان ، وانى لأرى فيهما الاشتباه . وليس لك أن تدع لشبهاتك أن تظهر . اننى لا أعترف لك بهذا الحق ، وأرفض رفضا قاطعا جازماً أن أجيب عن سؤالك .

ـــ طيب . دعنا من هذا . وما هو بالأمر المفيد على كل حال ..

هكذا صحت وقد أخذني اضطراب شديد ، ولم أفهم كيف خطر ببالي هذا . ثم متى وأين وكيف كان يمكن أن تكون پاولين اختارت مستر آستلي نجيا لها تفضي اليه بأسرارها . ثم انني في هذه الأيام الأخيرة كان مستر آستلي قد غاب عن عيني تماما . أما پاولين فلقد كانت لغزا يحير عقلي دائما ، حتى أنني الآن ، مثلا ، حين قررت أن أحكي لمستر آستلي قصة حبي كلها فوجئت لحظة شرعت في رواية القصة بأنني أكاد أعجز عن أن أذكر أي شيء دقيق واضح محدد عن صلاتي بها . بالعكس : كان كل شيء أقرب الى الخيال ، غريبا ، مهلهلا ، مفككا ، لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء .

قلت وأنا أكاد ألهث :

ـــ طيب . طيب . لقد خرجت عن الموضوع ، وفقدت تسلسل الكلام .. هناك أشياء أخرى كثيرة لا أقدر الآن أن أفكر فيها .. ومهما يكن من أمر ، فأنت انسان شهم : وسأسألك الآن لا نصحا ، بل سأسألك رأيك .

وصمت لحظة ثم أردفت أقول :

ـــ ما هو السبب الذي جعل الجنرال يخاف ذلك الخوف كله ، في نظرك ؟ لماذا جعلوا من ذلك العمل الصبياني المضحك الذي عملته مأساة خطيرة ، حتى بلغوا من ذلك أن دي جريو نفسه وجد أنه لابد أن يتدخل في الأمر (وهو لا يتدخل الا في أخطر الظروف شأنا) ، فجاء اليّ (نعم !) ، وأخذ يرجوني ، ويتضرع اليّ ، هو ، دي جريو ! .. لاحظ أخيرا أنه جاءني قبيل الساعة التاسعة،

وكانت ورقة الآنسة پاولين معه . فمتى كتبت تلك الورقة ؟ للمرء أن يسأل نفسه هذا السؤال . أتراهم أيقظوا الآنسة پاولين من نومها خصيصا لهذا الغرض ؟ اننى ، عدا كونى أستنتج من ذلك أن الآنسة پاولين مستعبدة له (ما دامت تسألنى أنا الصفح والمغفرة) ، أتساءل: ما شأنها هى فى هذا الأمر كله ؟ ما معنى شدة اهتمامها به ؟ لماذا خافوا من أول بارون يظهر لهم ؟ وما عسى أن يكون لهذا كله من شـأن بزواج الجنرال ومدموازيل بلانش ؟ هم يقولون ان على الجنرال أن يظهر بمظهر خاص ، بسبب هذا الظرف ؛ ألا انه لمظهر خاص أكثر مما يجب . ألا توافقنى على ذلك ؟ ما رأيك أنت ؟ انى لأقرأ فى عينيك أنك هنا أيضا تعرف من الأمر أكثر مما أعرف .

ابتسم مستر آستلى وهز رأسه ، ثم قال :

ــ نعم . أعتقد فعلا أننى ، فى هذا الموضوع أيضا ، أعرف أكثر كثيرا مما تعرف . ان القضية كلها لا تتعلق الا بمدموازيل بلانش، وأنا على يقين بأن هذه هى الحقيقة المطلقة .

صحت أقول نافدَ الصبر (وقد أمّلت فجأة أن أعرف شيئا عن الآنسة پاولين) :

ــ ما شأن مدموازيل بلانش هنا ؟

ــ أعتقد أن للآنسة بلانش الآن مصلحة خاصة فى أن تتحاشى ، بأية طريقة ، أى لقاء مع البارون أو البارونة ، فكيف اذا كان لقاء مزعجا ، وكيف اذا كان لقاء فاضحا ؟

ــ دعكِ من هذا ..

— ان الآنسة بلانش كانت هنا فى رولتنبرج ، منـذ سنتين ، أثناء الموسم . واتفق ان كنت أنا أيضا هنا . ان اسمها حينذاك لم يكن مدموازيل دى كومنج ، ولم يكن لمدام أرملة كومنج وجـود فى ذلك الوقت . ولا كان دى جريو هناك أيضا . وأنا مقتنع فى قرارة نفسى لا بأنهم ليسوا أقرباء فحسب ، بل بأنهم لم يتعارفوا الا منذ وقت قصير . ليس دى جريو مركيزا الا من عهد قريب : هناك ظـرف معين يجعلنى على يقين من هذا ؛ حتى ليمكن أن نفترض أنه لا يسمى نفسه دى جريو الا منذ فترة . أعرف هنا شخصا قابله باسم آخر .

— ومع ذلك فان له حلقة متينة من العلاقات .

— أوه .. هذا ممكن جدا . وان مدموازيل بلانش نفسها يمكن أن تكون لها علاقات . ولكن مدموازيل بلانش هذه قد استدعتها الشرطة منذ سنتين ، بناء على شكايات من هذه البارونة نفسها ، وطلبت اليها مغادرة البلد ، فغادرتها .

— كيف هذا ؟

لقد ظهرت أول الأمر هنا فى صحبة رجل ايطالى ، أمير ذى اسم تاريخى ، باربينى .. أو شىء من هذا القبيل ، رجل تغطيه الخواتم ويغطيه الماس . كانا يتنزهان فى عربة رائعة تخلب الألباب . وكانت مدموازيل بلانش تلعب « ثلاثين وأربعين » : ربحت فى أول الأمر ، ثم دار الحظ على ما أذكر ؛ حتى لقد خسرت فى ذات مساء مبلغا خرافيا . ولكن الأنكى من هذا أن أميرها غاب فى أحـد الأصـباح لا يدرى أحد أين .. وغابت الخيول ، وغابت المركبة الفخمة ، وغاب

كل شيء . وكانت مدينةً للفندق بمبالغ ضخمة . فكنت ترى مدموازيل زلما (استحال اسم دي‌باربيني الى اسم مدموازيل زلما فجأة) في ذروة الألم واليأس ، فهي تنتحب وتملأ الفندق نعاقا وعياطا ، وتأخذ تمزق ثوبها وهي في سورة الحنق والغيظ . وكان أيامئذ في الفندق كونت پولوني (ان جميع البولونيين كونتات حين يكونون على سفر) ، فلما رأى مدموازيل زلما تمزق ثيابها وتخدش وجهها بيديها الجميلتين المعطرتين ، كما تفعل قطة ، أحدثت في نفسه بعض التأثير ، فجرى بينهما حديث ، فما جاء موعد العشاء الا وكانت زلما قد تأست عن حزنها ؛ حتى اذا كان المساء ظهرت في الكازينو متأبطة ذراع الكونت الپولوني ؛ فكانت تضحك ضحكا عاليا على عادتها ، وأصبحت أكثر انطلاقا على السجية في حركاتها ، فسرعان ما أصبحت في عداد تلك الزمرة من السيدات اللواتي اعتدن لعب الروليت ، فاذا أرادت احداهن أن تشق لنفسها طريقا الى مائدة القمار رأيتها تدفع أحد اللاعبين من منكبه لتتخذ لها مكانا . هذه أناقة خاصة من أناقات السيدات هنا ، لابد أنك لاحظتها .

— نعم لاحظتها .

— والأمر لا يستحق ذلك . ان الناس يحتملوهن هنا على مضض ، أو يحتملون على الأقل أولئك اللواتي يبدلن أوراقا نقدية من ذات الألف فرنك . حتى اذا انقطعن عن تبديل الأوراق النقدية ذات الألف فرنك ، أخذوا يرجونهن أن يبتعدن . وقد استمرت مدموازيل زلما تبدل أوراقا نقدية من ذات الألف فرنك ، ولكن حظها في القمار ساء مزيدا من السوء . لاحظ أن أمثال هاته السيدات

كثيرا ما يحالفهن الحظ فى اللعب ، فانهن يملكن السيطرة على أنفسهن. على أن حكايتى قد انتهت . ففى ذات يوم اختفى الكونت كما اختفى قبله الأمير . فجاءت زلما تقامر فى المساء وحيدة ، لم يتقدم اليها هذه المرة أحد بذراعه تتأبطها . فما انقضى يومان حتى كانت قد خسرت كل ما كانت تملك ، ولما قامرت بآخر ليرة ذهبية فخسرتها ، نظرت حولها فرأت البارون ڤورمرهلم يتأملها باتنباه وقد ظهر فى وجهه استياء عميق ؛ لكن مدموازيل زلما لم تميز الاستياء ، فاتجهت الى البارون بابتسامة لا لبس فيها ، راجية منه أن يضـع من أجلها عشرة ليرات ذهبية على الأحمر . وبعد ذلك ، على أثر شكاية قدمتها البارونة ، طلب من مدموازيل زلما أن لا تظهر بعد ذلك اليوم فى الكازينو . فاذا كان يدهشك أننى أعرف جميع هذه التفاصيل التافهة ، فاعلم أننى اطلعت عليها من مستر فيدر ، وهو قريب من أقربائى اصـطحب مدموازيل زلما فى ذلك المساء نفسه الى « سپا » بمركبته . فافهم الموضوع اذن : اذا كانت مدموازيل بلانش تريد أن تصبح زوجة جنرال فأغلب الظن أنها تريد ذلك حتى لا يطلب اليها بعد الآن طلب" كذاك الطلب . لقد أصبحت لا تقامر ، ولكن ذلك يرجع الى أنهـا تملك الآن ، كما تدل على هذا جميع القـرائن ، رأس مال تقرضه للمقامرين هنا بفائدة . ذلك أقرب الى العقل وأدنى الى الحكمة . وفى ظنى أن الجنرال المسكين واحد من المدينين لها . ولعل دى جريو يدين لها بمال أيضا .. اللهم الا أن يكون شريكها . فافهم اذن لماذا لا تتمنى مدموازيل بلانش ، على الأقل الى أن يتم الزواج ، أن تلفت اليها انتباه البارون والبارونة . ان الأمر أمر فضيحة يمكن أن تسىء

اليها أكثر مما يمكن أن يسىء اليها أى شىء آخر فى الظرف الذى هى فيه الآن . انك ملحق بأسرتهم ، ويمكن لأفعالك أن تثير فضيحة ، لا سيما وأنها تظهر كل يوم أمام الناس متأبطة ذراع الجنرال أو ذراع الآنسة پاولين . فهل فهمت الآن ؟

— كلا .. لم أفهم ..

بهذا صحت وأنا أضرب المنضدة بيدى ضربة قوية جعلت خادم المقهى يهرع مذعورا .

وأردفت أقول وأنا فى سورة شديدة من الغيظ والحنق :

— فاذا كنت ، يا مستر آستلى ، تعرف حق المعرفة من هى مدموازيل بلانش دى كومانج ، فكيف لم تحذرنا ، لا أنا ، ولا الجنرال ، ولا الآنسة پاولين خاصة ، التى تظهر هنا فى الكازينو على مرأى من جميع الناس متأبطة ذراع مدموازيل بلانش ؟ أهذا ممكن ؟

فأجاب مستر آستلى هادئا :

— لم يكن فى وسعى أن أحذركم ، اذ لم يكن فى وسعكم أن تفعلوا شيئا . ثم مم أحذركم ؟ لعل الجنرال يعرف من أمر مدموازيل بلانش أكثر مما أعرف ، ثم لا يمنعه ذلك من أن يتنزه معها ومع الآنسة پاولين . ان الجنرال انسان سىء الحظ . لقد رأيت مدموازيل بلانش بالأمس تعدو على حصان رائع فى صحبة مسيو دى جريو والأمير الروسى القصير ، ورأيت الجنرال يتبعهم على فرس أشهب . كان قد شكا فى الصباح من ألم فى ساقيه ، وها هو ذا الآن يمتطى

صهوة الفرس مع ذلك . فخطر ببالى فى تلك اللحظة على حين فجأة أن الجنرال رجل ضاع الى الأبد ، أضف الى دلك أن هذا الأمر كله لا يعنينى فى شىء ، وأنا لم أشرف بمعرفة الآنسة پاولين الا منـــذ فترة قصيرة .

صمت مستر آستلى ، ولكنه لم يلبث أن أردف يقول فجأة :

ـــ ثم اننى قد سبق أن أعلنت لك أننى لا أخولك حق القاء بعض الأسئلة علىّ ، رغم ما أحمله لك من صداقة مخلصة ..

قلت وأنا أنهض :

ـــ يكفينى هـــذا . اننى أرى الآن رؤية واضـــحة أن الآنسة پاولين تعرف هى أيضا ما تريد أن تعرفه عن مدموازيل بلانش ، لكنها لا تستطيع أن تنفصل عن الفرنسى ، وهى من أجل ذلك انما ترضى أن تتنزه معها . ثق أنه ما من نفوذ آخر كان يمكن أن يجبرها على التنزه مع مدموازيل بلانش ، وعلى أن تضرع الىّ فى رسالة تكتبها بخط يدها أن لا أمس البارون . هنالك انما تدخّل هذا النفوذ الذى ينحنى أمامه كل شىء ! ومع ذلك ، فانها هى نفسها قذفتنى نحـــو البارون ! عجيب ! .. أمور لا يفهم المرء منها شيئا ..

ـــ أنت تنسى أولا أن هذه المدموازيل دى كومانج هى خطيبة الجنرال ، وتنسى ثانيا أن للآنسة پاولين ، بنت زوجة الجنرال ، أخا وأختا أصغر منها سنا ، هما ولدا هذا الجنرال المجنون ، وهما مهملان اهمالا تاما ، ولا شك أنهما فى دمار .

ـــ نعم نعم ، هذا صحيح ؛ ان ترك هذين الولدين يعنى هجرهما

هجرا كاملا ، أما البقاء ففيه دفاع عن مصالحهما ، وقد يكون فيه انقاذ لبعض فتات من ثروتهما نعم نعم ، هذا كله صحيح . ولكن مع ذلك .. مع ذلك ! أوه ! . فهمت لماذا يهتمون جميعا كل هذا الاهتمام بالجدة الآن !

ـــ بمن ؟

ـــ بتلك العجوز الخرفة المقيمة بموسكو والتى لم تقرر أن تموت بعد . انهم ينتظرون البرقية التى تبلغهم نبأ وفاتها .

ـــ طبعا . الاهتمام كله مركز عليها . ان كل شيء متوقف على الوصية . فمتى فتحت الوصية تزوج الجنرال ، وأصبحت پاولين مطلقة اليدين ، واستطاع دى جريو ..

ـــ ماذا يستطيع دى جريو ؟

ـــ أن يسترد قروضه . ذلك كل ما ينتظره .

ـــ أتعتقد أن هذا هو كل ما ينتظره ؟

فأجاب مستر آستلى معتصما بصمت عنيد :

ـــ لا أعرف بعد شيئا .

قلت أكرر غاضبا حانقا :

ـــ أنا أعرف ، أنا أعرف .. انه ينتظر الميراث أيضا ، لأن پاولين ستحظى بمهر ، فمتى حصلت عليه ، ارتمت على عنقه . جميع النساء سواء . أكثرهن كبرياء يصبحن أحطهن عبودية ! ان پاولين لا تستطيع أن تحب الا حبا قويا ، هذا كل شيء ! ذلك هو رأيى ! أنظر اليها ، خاصة حين تكون جالسة وحدها تفكر : انها تبدو كمن كتب عليه

النحس ، وكتبت عليه اللعنة ، وكتب عليه أن يقاسي جميع مكاره الحياة والهوى الجامح ! .. انها .. انها .. ولكن من ذا ينادينى (كذلك صحت فجأة) .. من ذا يصرخ ؟ (لقد سمعت من يصرخ باسمى بالروسية : ألكسى ايفانوفتش . انه صوت امرأة) . اسمع اسمع !

كنا فى تلك اللحظة نقترب من فندقنا . لقد تركنا المقهى منذ مدة طويلة ، دون أن نلاحظ ذلك تقريبا .

قال مستر آستلي وهو يمد الىّ يده :

ـــ سمعت صوت امرأة تصيح ، ولكننى لا أعرف من كانت تنادي . كانت تتكلم بالروسية . والآن أرى من أين يأتى الصوت : انها نلك المرأة ، الجالسة على مقعد فخم حمله الآن هؤلاء الخدم الكثر الى الشرفة . وها هم أولاء يحملون وراءها حقائب . اذن لقد وصـــل القطار .

ـــ ولكن لماذا تنادينى ؟ ها هى ذى تستأنف المناداة : أنظر ! انها تومىء الينا .

قال مستر آستلى :

ـــ نعم ، أرى .

ـــ ألكسى ايفانوفتش ! ألكسى ايفانوفتش ! أوه ! رباه ما أغباه! كانت هذه الصيحات تصل الينا من شرفة الفندق .

فركضنا حتى درجات المدخل تقريبا . فما ان اجتزت فسحة السلم حتى تهدلت ذراعاى من شدة الذهول ، وحتى تسمرت قدماى فى الأرض لا تتحركان .

الفصل التاسع

على الفسحة العليا من السلم العريض ال
نقلت اليه قاعدة يحيط بها الخدام والخادما
ويحف بها ذلك العدد الذى لا يحصى
مـهّان الفندق الذين يبالغون فى اظهار آ
الاحترام بحضور مدير الفندق نفسه الذى جاء يستقبل هذه الزائرة ذ
المكانة الرفيعة والمنزلة العالية ، التى تنزل الفندق مع هذه الجلبة
ومع ناسها هؤلاء كلهم ومع هـذه الأكوام الكبيرة من الحقا
والصناديق .. كانت تتربع على عرشها .. الجدة ! نعم انها بعـ
آنطونين ڤاسيلڤنا تراسڤتش ، الرهيبة ، الثرية ، البالغة من ال
خمسة وسبعين عاما ، صاحبة الأملاك ، السيدة العظيمة من سيد
موسكو ، مدار تلك البرقيات الذاهبة الآيبة ، الميتة التى ما تز
حية ، تنبجس الآن بيننا بشخصها دون سابق انذار . لقد فقـ
القدرة على استعمال رجليها ، فهى تحمل دائما على مقعد ، منذ خـ
سنين ، ولكنها ما تزال على عهدى بها نشيطة يقظى حادة الطـ
معجبة بنفسها منتصبة الجذع عالية الصوت حين تتكلم ، تصـ
بلهجة الأمر ، وتقرع جميع الناس ، أى على عهدى بها تماما .

شرفت برؤيتها مرتين فى الفترة التى عينت فيها معلما أو مربيا فى منزل الجنرال . ولقد كان طبيعيا أن أقف أمامها متجمدا من الدهشة. كانت هى قد لمحتنى حينما كانوا يصعدون بها على مقعدها درجات السلم . فعرفتنى فنادتنى باسمى الصغير ثم باسمى الأبوى ، وكانت قد حفظتهما الى الأبد بما عرفت به من قوة الذاكرة . مر فى خاطرى هذا السؤال : « امرأة كهذه يأملون أن يروها فى القبر ويعولون على ميراثها ؟ ألا انها لسوف تدفننا نحن وجميع من فى هذا الفندق !! رباه رباه ما عسى يحدث للآخرين الآن ، ما عسى يفعل الجنرال ! لسوف تقلب البيت فتجعل عاليه سافله ! » .

وتابعت الجدة تصرخ قائلة :

ـــ هيه يا عزيزى .. ما الذى دهاك حتى جمدت فى مكانك هذا الجمود محملقا ؟ ألا تعرف كيف تحيينى ؟ ألا تعـرف كيف تقول صباح الخير ؟ ألا تعرف ؟ أم تراك أشد كبرياء وأشد زهوا من أن تفعل ؟ أم تراك لم تعرفنى ؟ هل تسمع يا پوتاپتش (كذلك تابعت كلامها وهى تلتفت نحو عجوز قصير أبيض الشعر ، يرتدى لباسا رسميا مع ربطة عنق بيضاء ، ورأسه أصلع بلون الورد ، انه رئيس خدمها الذى يصحبها فى الأسفار) هل تسمع يا پوتاپتش، انه لم يتعرفنى! لقد دفنونى وانتهوا ! كانوا يرسلون البرقية تلو البرقية يسألون : « هل ماتت ؟ أما ماتت بعـــد ؟ » . أنا أعرف كل شىء . وهاأنت ذا ترى . ان الدم ما يزال يجرى فى عروقى !

قلت بلهجة مرحة حين ثبت الى نفسى :

ـــ عفوك يا أنطونين ڤاسيليڤنا ، فيم عسانى أتمنى لك سوءا .. كل ما فى الأمر أننى دهشت .. وكيف لا تصيبنى الدهشة ؟ ان وصولك أمر لا يتوقع ..

ـــ وما الذى يدهشك ؟ .. ركبت القطار وسافرت . وكان القطار مريحا ، فلا اهتزاز ولا ارتجاج . هل كنتَ فى نزهة ؟

ـــ نعم قمت بجولة فى الكازينو .

قالت الجدة وهى تنظر فيما حولها :

ـــ يرتاح المرء هنا . الجو دافئ والأشجار رائعة ! هذا ما أحبه ! هل جماعتنا هناك ؟ الجنرال ؟

ـــ نعم هو فى جناحه . انهم يلتقون جميعا هناك فى هذه الساعة .

ـــ ها .. هنا أيضا .. يضبطون المواقيت ويراعون الأصول ويضعون القواعد . قيل لى ان لهم مركبة ، هؤلاء السادة الروس ! انهم بعد أن أتلفوا ثروتهم ، انسلوا الى خارج البلاد . هل پراسكوڤيا معهم أيضا ؟

ـــ نعم ، پاولين ألكسندروڤنا هنا أيضا ؟

ـــ والفرنسى القصير ؟ ولكننى سأراهم جميعا بنفسى . ألكسى ايڤانوڤتش ، قدنى الى الجنرال . وأنت ، أأنت هنا بخير ؟

ـــ لا بأس .. يا أنطونين ڤاسيليڤنا .

ـــ أنت يا پوتاپتش ، قل لهذا الخادم الثقيل أن ينزلونى شقة مريحة ، جميلة ، فى الطابق الأول ؛ وليحملوا اليها متاعى على الفور .

ولكن لماذا يسارعون جميعا ليحملونى ؟ ما الذى يدفعهم الى هذه العجلة ؟ يا لها من مذلة ..

والتفتت الىّ مرة أخرى فسألتنى :

ــ من هذا الرجل الذى معك ؟

قلت :

ــ انه مستر آستلى ؟

ــ من هو مستر آستلى ؟

ــ مسافر من المسافرين أصبح لى نعمَ الصديق . وهو يعرفه الجنرال أيضا .

ــ هو انجليزى . لذلك يتفرس فىّ دون أن يفتح فاه . على كل حال ، أنا أحب الانجليز . طيب انقلونى الى فوق ، قودونى فورا الى شقتهم . أين يقيمون ؟

أُنهضت الجدة عن الأرض ، وتقدمت أنا الموكب أصعد سلم الفندق العريض . كان موكبنا يخطف الأبصار . كان جميع من نصادفهم يتوقفون ويأخذون ينظرون بكل أبصارهم . ان فندقنا يعد أجمل فنادق المدينة ، وأغلاها سعرا ، وأرفعها ارستقراطية . وأنت تلتقى دائما على السلم ، وفى الأروقة والممرات ، بسيدات بارعات الحسن ، وانجليز من ذوى المهابة والوقار . وقد مضى كثير من هؤلاء يسألون مدير الفندق عن هذه السيدة من تكون ، وكان مدير الفندق نفسه مأخوذا مفتونا ، فكان يجيب السائلين طبعا بأنها أجنبية مرموقة من الطبقة الراقية ، روسية ، كونتيسة ، سيدة عظيمة الشأن ، وبأنها

ستحتل الجناح الذى كانت تحتله منذ ثمانية أيام دوقة ن .. العظيمة .. ان القسمات الصارمة والملامح المسيطرة فى الجدة المتربعة على عرشها هى التى كانت تجذب الانتباه خاصة . وكانت كلما صادفنا أحدا نزنه بنظرته الفاحصة فورا ، ولا تنى تلقى علىّ أسئلة عن جميع الناس بصوت عال . كان للجدة مزاج قوى ، ورغم أنها لم تبارح كرسيها فان المرء يحزر متى رآها أنها طويلة القامة . انها تجلس منتصبة الجذع كحرف الألف لا تستند على الكرسى ، وترفع رأسها الواسع عاليا ، أبيض الشعر ، سميك القسمات بارز الملامح . وهى تنظر اليك نظرة كبرياء بل ونظرة تحد . ولكنك تحس أن نظرتها وحركاتها طبيعية تماما لا اصطناع فيها . ورغم الخمسة والسبعين عاما، كان فى وجهها شىء من نضارة ، وحتى أسنانها لم تكن قد ساءت حالها كثيرا . وكانت ترتدى ثوبا من حرير أسود ، وتضع على رأسها قبعة صغيرة بيضاء .

قال لى مستر آستلى مدمدما وهو يصعد السلم الى جانبى :

— انها تشوقنى كثيرا ..

قلت لنفسى : « انها على علم بأمر البرقيات ، وهى تعرف دى جريو ، ولكنها ما تزال تجهل مدموازيل بلانش فيما يظهر » . وسرعان ما أفصحت عن هذا لمستر آستلى .

أعترف ، على خجل ، أننى ما ان ذهبت عنى دهشتى الأولى ، حتى شعرت بابتهاج شديد واغتباط عظيم للضربة التى كنا ذاهبين نكيلها للجنرال بعد لحظة . وكان لهذا الشعور فى نفسى أثر الحافز والدافع ، فكنت أغذ الخطى فرحا كل الفرح .

كان أصحابنا قد اتخذوا مقرهم فى الطابق الثالث . فلما وصلت فنحت الباب على مصراعيه دون انذار ومن غير أن أطرقه ، فدخلت الجدة دخولها المظفر . كانوا جميعا هنالك ، كأنما على عمد ، قد التأم شملهم فى حجرة الجنرال . وكان الوقت ظهرا ، وكانوا ينوون ، فيما يظهر ، أن يقوموا بنزهة مشتركة ، اما فى المركبة واما على ظهور الخيل . وكان هناك ضيوف أيضا .. كان فى الحجرة ، عدا الجنرال وپاولين والأولاد وخادمتهم : دى جريو ، ومدموازيل بلانش مرتديةً تنورة الفارسات من جديد ، وأمها مدام أرملة دى كومنج ، والأمير القصير ، وعالم ألمانى كنت قد رأيته عندهم مرة .

قُدِّم كرسى الجدة حتى صار فى وسط الحجرة على بعد ثلاث خطوات من الجنرال . اللهم انى لن أنسى الأثر الذى أحدثه دخولنا ما حييت ! .. حين دخلنا كان الجنرال يحكى شيئا ما ، وكان دى جريو يناقشه . يجب أن أذكر أن مدموازيل بلانش ودى جريو قد أصبحا منذ يومين أو ثلاثة ملتفين حول الأمير القصير يحتفلان به أشد الاحتفال بحضور الجنرال المسكين . وكان الجمع قد اصطنع أسلوبا لعل فيه شيئا من تكلف ولكنه مرح ودود حميم . فلما رأى الجنرال الجدة جمد فاغرا فاه على النصف من كلمة كان ينطق بها .. وأخذ يحدق فيها جاحظ العينين كأن غولا ظهر له فأذهله وفتنه عن نفسه . وكانت الجدة تتأمله أيضا دون أن تنطق بكلمة ، ولكن ما كان أعجبها نظرة ظافرة متحدية ساخرة ! هكذا ظل الاثنان ينظر أحدهما فى الآخر مدى عشر ثوان فى صمت مطبق . وقد ذهل دى جريو أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن ظهر فى وجهه قلق شديد الى أبعد حدود

الشدة . أما مدموازيل بلانش فقد رفعت حاجبيها ، وفغرت فاها ، وراحت تتفرس فى الجدة كالبلهاء . وكان الأمير والعالم يتأملان هذا المنظر متحيرين مرتبكين . وفى نظرة پاولين كان يقرأ المرء دهشة عظيمة واضطرابا شديدا ، ثم لم تلبث أن أصبحت بيضاء كالثلج على حين فجأة ؛ وما هى الا لحظة حتى عاد الدم يزدحم فى وجهها فاذا خداها بلون الأرجوان حمرة . نعم لقد كان وصول الجـــدة كارثة للجميع ! وكنت أنا لا أزيد على أن أنقل نظراتى بين الجدة وسائر الحضور . أما مستر آستلى فقد ظل ، على عادته ، متنحيا وقورا هادئا.

وانفجرت الجدة تقطع الصمت أخيرا فتقول :

ـــ نعم .. هأنذا ! لقد جئتكم بدل البرقية . ما كنتم تتوقعون مجيئى ، أليس كذلك ؟

ـــ أنطونين ڤاسيليڤنا .. يا عمتى الطيبة .. يا لها من مصادفة !

كذلك جمجم الجنرال ، ولو قد لزمت الجدة الصمت بضع ثوان أخرى ، اذن لكان يمكن أن يصاب بنوبة .

ـــ عن أية مصادفة تتحدث ؟ لقد ركبت القطار وجئت . وما فائدة السكك الحديدية اذن ؟ كنتم تتصورون أننى سأخرج من منزلى على نعش ، تاركة لكم الميراث ؟ اننى أعرف أنك أرسلت برقيات . ولا بد أن يكون ذلك قد كلفك نفقات باهظة . ان أجور ارسال البرقيات من هنا ليست بالزهيدة . ولكننى حملت شجاعتى بين يدى وجئتكم بنفسى . هوذا الفرنسى ؟ مسيو دى جريو فيما أظن ؟ ..

أجاب دى جريو :

ـــ نعم يا سيدتى ، وثقى أننى مبتهج أشد الابتهاج ، مغتبط

أعظم الاغتباط ، لاستردادك عافيتك .. انها لمعجزة أن نراك هنا .. انها لمفاجأة رائعة ..

ـــ أما أنها رائعة فنعم . انني أعرفك أيهـا الممثل المهـرج ، ولا أصدق من كلامك مقدار أنملة (قالت ذلك وهى ترفع خنصرها). من هذه ؟ (سألت هذا السؤال وهى تشير الى مدموازيل بلانش) . كان واضحا أن الفرنسية التى يدل مظهـرها على كثرة الحـركة والصخب ، والتى ترتدى تنورة الفارسات ، وتحمل بيدها سوطا ، قد خطفت بصر الجدة .

وأردفت الجدة تقول :

ـــ أهى من هنا ؟

قلت :

ـــ هى مدموازيل بلانش دى كومنج ، وهـذه أمها مـدام دى كومنج ؛ وهما تنزلان هذا الفندق .

سألت السـيدة العجوز بغير كلفة ولا حرج :

ـــ أهى متزوجة ؟

قلت بأكبر احترام ممكن وأنا أغض طرفى عامدا :

ـــ بل هى آنسة .

ـــ أهى مرحة ؟

ولم أفهم السؤال .

ـــ ألا يشعر المرء بالضجر من صحبتها ؟ هل تتكلم الروسية ؟ لقد كان دى جريو فى موسكو يلثلث بضع كلمات .

فشرحت لها أن مدموازيل دى كومنج لم تذهب الى روسيا يوما.

قالت الجدة بلهجة مباغتة وهى تتجه بالكلام الى مدموازيل بلانش بغير نوطئة ولا تمهيد :

ــ صباح الخير .

ــ صباح الخير يا سيدتى .

كذلك ردت مدموازيل بلانش ، مغرقةً فى تبجيل مقصود واحتفال مدروس ، مظهرةً من تحت ستار هذا التهذيب الشديد ، بكل تعبير وجهها وشخصها ، دهشتها من سؤال غريب هــذه الغرابة ، ومن سلوك شاذ هذا الشذوذ .

ــ أوه .. انها تغض عينيها ، وتصطنع الأدب ، فيرى المرء فورا مع أى طير من الطيور يتعامل : ممثلة أو شىء من هذا القبيل . لقد نزلتُ هذا الفندق ، وسكنت تحت (قالت هذه الجملة الأخيرة وهى تتجه فجأة نحو الجنرال) . سنصبح جيرانا . أيسرك هذا أم لا ؟

فأجاب الجنرال :

ــ أوه .. عمتى .. ثقى أننى أشعر بأصدق عواطف الابتهاج ..

كان الجنــرال قد ثاب الى نفسه بعض الشىء ، واذ كان يعرف عند الضرورة كيف يجد التعابير المناسبة طامعا فى أن تحدث أثرها ، فقد أخذ يسهب فى الكلام ويطنب فيقول فيما يقول : لشد ما آلمنا وهزنا ما كان يصــل الينا من أنباء عن مرضك .. لقد كانت تصلنا برقيات تبلغ من شدة ايلامنا أننا .. وفجأة ..

فقاطعته الجدة فورا تقول :

ـــ أنت تكذب .. أنت تكذب ..

فقاطعها الجنرال بدوره ، رافعا لهجتــه متظاهرا بأنه لم يسمع :

ـــ كيف قررت أن تقومى برحلة كهذه الرحلة ؟ لا شك أنك توافقيننى على أن قيامك برحلة كهذه ، فى مثل سنك وفى مثل حالتك الصحية .. هو .. على الأقل .. أمر لا يتوقع فلا عجب اذا دهشنا .. ولكننى سعيد جدا بوصولك الينا . وسوف نبذل كل ما فى وسعنا (هنا أخذ يبتسم معبرا عن فرح حنون) من أجل أن نجعل اقامتك هنا ممتعة الى أقصى حد ممكن ..

ـــ دعك من هذا الكلام .. كفى ثرثرات لا فائدة منها ولا جدوى فيها . ما أراك تقول الا ترهات ، على عادتك . لسوف أعرف بنفسى كيف أحسن قضاء الوقت . على أننى غير حانقــة عليك ، فما أنا بالحقود .. تسألنى كيف قررت القيام بهذه الرحلة ؟ الأمر بسيط غاية البساطة . ما لهم يتعجبون جميعا ؟ صباح الخير يا پراسكوف ماذا تفعلين هنا ؟

قالت پاولين ، وهى تقترب :

ـــ صباح الخير يا جدتى . هل طالت رحلتك ؟

ـــ هذا سؤال ذكى على الأقل ، بدلا من تلك الأوهات والآهات جميعها .. هذا ما حدث : لبثت زمانا طويلا راقدة فى سريرى أعالج من المرض . وبعدئذ طردت جميع الأطباء ، واستدعيت قندلفت كنيسة القديس نيقولا ، وكان قد شفى احدى النساء من هذا المرض نفسه

ببعض الأعشاب ؛ فخفف هذا الدواء عنى ، اذ رأيتنى فى الغداة أنضح عرقا من كل جسمى ، فنهضت ، وجاء الألمـان فقالوا لى مجمعين ، بعد أن وضعوا نظاراتهم على أعينهم ، وبعد أن تذاكروا فى الأمر : « اذا قمت الآن برحلة الى الخارج للتداوى بالمياه المعدنية ، فان انسداد الشريان سيزول زوالا كاملا » . قلت لنفسى : « لم لا ؟ ». وأخذ أفراد أسرة دور زايجين يصيحون صيحات عالية قائلين : « انه لجنون أن تذهبى الى هنالك ؟ » . ولكننى لم أكترث . فما انقضت أربع وعشرون ساعة حتى صُرّت أمتعتى . فأخذت خادمة وپوتاپتش ثم فيدور الذى عدت فأرجعته من برلين اذ رأيت أننى فى غير حاجة اليه قط ، وأنه كان فى وسعى أن أسافر وحدى .. وحجزت فى القطار حجرة خاصة . ألا ما أكثر الحمالين فى جميع المحطات ! تنقدهم عشرين كوبكاً ، فينقلونك الى حيث تشاء .

وختمت الجدة كلامها وهى تنظر حواليها قائلة :

ـــ ان لكم لشقة جميلة . من أين تجىء بالمال يا عزيزى ؟ لقد رهنت كل شىء اذا صدق ظنى : هذا الفرنسى الصغير وحـده له عليك أكوام من مال . أنا أعرف كل شىء .. لا تؤاخذنى .. أعرف كل شىء .

قال الجنرال وقد بلغ ذروة الاضطراب :

ـــ أنا يا عمتى فى دهشة .. وأحسب أننى أستطيع دون رقابة أحد أن .. ثم ان نفقاتى لا تزيد على مواردى ، ونحن هنا ..

ـــ نفقاتك لا تزيد على مواردك ؟ ألا انك لجرىء ! .. لابد أنك جردت أولادك من آخر قرش اذن ، وأنت الوصى عليهم ..

عاد الجنرال يقول :

ـــ بعد هذا ، بعد مثل هذا الكلام الذى تقولينه .. لا أدرى ..

ـــ لا تدرى ماذا ؟ اننى أفرض أنك لا تترك الروليت ! فأنت اذن على الحصير !

بلغ الجنرال من الانصعاق أنه كاد يختنق من شدة الانفعال .

ـــ أنا أذهب الى الروليت ؟ أنا ؟ أرجل فى مثل مركزى يفعل ذلك ؟ هدئى روعك يا عمتى .. انك ما شفيت بعد ! ..

ـــ كل هذا أكاذيب ! أراهن على أنه يستحيل انتزاعك من الروليت ! أنت تهرف لا أكثر .. سأذهب اليوم بنفسى لأرى ما هى هذهالروليت ؟ پراسكوڤيا ، اذكرى لى ما يستحق أن يزار هنا . سيقودنى ألكسى ايڤانوڤتش .. أنت يا پوتاپتش سجِّل قائمة بجميع الأماكن التى سنزورها . ما الذى يستحق أن يرى هنا ؟ (كذلك رددت تقول متجهة بالسؤال الى پاولين) .

ـــ فى الضواحى توجد آثار قصر خرب ؛ ثم هنالك شلانجنبرج .

ـــ ما هو شلانجنبرج هذا ؟ أهو غابة ؟

ـــ بل جبل . وتوجد هنالك قمة .

ـــ ما هى هذه القمة ؟ ..

ـــ هى أعلى موضع فى الجبل ، قد أحيط بسياج ، فليس لجمال المنظر هنالك ما يضارعه .

— ويجب الصعود الى هناك فى الكرسى . أهذا ممكن ؟

قلت :

— جدا . فى امكاننا استئجار حمالين .

وفى لحظة من اللحظات جاءت فيدوسيا ، الخادمة ، تحيى الجدة ، وأتت لها بأولاد الجنرال ..

— آ .. دعونا من التبويس .. أنا لا أحب تقبيل الأطفال . انهم جميعا تسيل أنوفهم .. كيف تجدين نفسك هنا يا فيدوسيا ؟

أجابت فيدوسيا تقول :

— نحن هنا بخير يا سيدتى الطيبة أنطونين ڤاسيليڤنا . وأنت كيف حالك يا سيدتى العزيزة ؟ لشد ما أقلقنا أمرك !

— أعرف . أنت وحدك على الأقل انسانة بسيطة النفس . أجميع هؤلاء الناس ضيوف عليكم ؟ (هكذا أضافت الجدة توجه السؤال مرة أخرى الى پاولين) . من هذا النحيل ذو النظارتين ؟

فأجابت پاولين بصوت خافت :

— هو الأمير نلسكى يا جدتى .

— آ .. هو اذن روسى ؟ وأنا كنت أظن أنه لا يفهم كلامنا .. لعله لم يسمع ! لقد سبق أن رأيت مستر آستلى ! ولكن ها هو ذا مرة أخرى (قالت الجدة ذلك حين لمحته) .

وحيته مسرعة بقولها :

— صباح الخير .

فانحنى مستر آستلى دون أن يقول شيئا .

قالت الجدة :

ــ هيا .. قل لى شيئا ممتعا . قل شيئا ما .. ترجمى له كلامى يا پاولين .

وترجمت پاولين .

ــ سأقول لك اننى مبتهج برؤيتك ابتهاجا كبيرا ، ويسعدنى أن أراك موفورة العافية .

كذلك أجاب مستر آستلى بلهجة جادة ، ولكن على لطف كبير .

وترجمت هذه الكلمات للجدة ، فكان واضحا أنها أعجبت بها .
قالت الجدة :

ــ ان لدى هؤلاء الانجليز جوابا على كل شىء دائما . لا أدرى لماذا أحب الانجليز ! لقد أحببتهم عمرى كله . لا وجه للمقارنة بينهم وبين الفرنسيين ! أرجو أن تزورنى يا مستر آستلى ، وسأحاول أن لا أضجرك كثيرا . ترجمى له هذا الكلام ، وقولى له اننى أقيم فى الطابق الأول . فى الطابق الأول ، هل فهمت ؟ (كررت الجدة هذه الجملة الأخيرة وهى تشير بأصبعها الى أرض الغرفة) .

سُر مستر آستلى لهذه الدعوة سرورا عظيما .

وألقت السيدة العجوز على پاولين نظرة منتبهة راضية لفتها من قمة رأسها الى أخمص قدميها . ثم قالت لها بغتة :

ــ سأحبك كثيرا يا پراسكوفيا . أنت فتاة شهمة . أنت خيرهم

جميعا . لكن لك طبعا من تلك الطباع .. وأنا مثلك على كل حال .. استديرى قليلا : هل شعرك هذا مستعار ؟

ـــ لا ياجدتى ، هذا شعرى أنا !

ـــ الحمد لله .. اننى أمقت تلك « الموضة » السخيفة . أنت جميلة جدا . لو كنت شابا لوقعت فى غرامك . لماذا لا تتزوجين ؟ ولكن آن لى أن أنصرف . أحب أن أتنزه قليلا بعـــد أن قضيت ذلك الوقت كله فى عربة القطار ..

وأضافت تقول للجنرال :

ـــ هه .. أما زلت غضبان ؟

قال الجنرال وقد هدأ روعه :

ـــ كفى يا عمتى ، أرجوك .. اننى أفهم .. فى مثل سنك ..

دمدم دى جريو يقول لى همسا :

ـــ هذه العجوز رجعت الى الطفولة .

قالت الجدة للجنرال تسأله :

ـــ أريد أن أرى كل شىء هنا ؛ هل تستغنى لى عن ألكسى ايفانوفتش ؟

ـــ المدة التى تريدين . ولكننا جميعا ، أنا وپاولين ومســـيو دى جريو .. سيسعدنا كثيرا أن نصحبك .

قال دى جريو وهو يبتسم ابتسامة مخادعة متملقة :

ـــ ولكن يا سيدتى ، انها لمسرة لنا أن ..

فقاطعته قائلة :

ـــ هم .. مسرة .. أنت تضحكنى يا عزيزى . على كل حال لن أعطيك شيئا من المال (أضافت هـــذه الجملة الأخيرة متجهـــة الى الجنرال) . خذونى الى شقتى : أريد أن ألقى عليها نظرة ؛ ومن ثم نمضى نطوف فى كل مكان . انقلونى .

حملت الجدة من جديد ، ونزلنا السلم موكبا وراء كرسيها . كان الجنرال يسير كمن أطاشت صـــوابه ضربة من عصا . وكان دى جـــريو ممعنـــا فى التفكير . أما مدموازيل بلانش فقد أرادت فى أول الأمـــر أن تمكث فى الفنـــدق ولكنها رأت بعـــد ذلك أن من الأفضل أن تتبعنا ، فمشى الأمير وراءها رأسا . فلم يبق فى شقة الجنرال الا الألمانى ومدام أرملة دى كومنج .

الفصل العاشر

فى مدن المياه المعدنية ، وربما فى أوربا كلها ، ترى مديرى الفنادق ، حين يعينون لأحد النزلاء شقة من الشقق ، لا يستوحون اختيارهم من رغبات النزيل أو مطالبه ، بل يستوحونه من رأيهم فى هذا النزيل . ويجب أن نعترف أنهم قلما يخطئون . ولكنهم خصصوا للجدة ، الله يدرى لماذا ، مسكنا يبلغ من البذخ أنهم فى هذه المرة تجاوزوا الحدود : أربع غرف مزدانة بفاخر الأثاث ، مع حمام ، وحجرات ملحقة للخدم ، وغرفة مستقلة للوصيفة ، الخ الخ . ان دوقة عظيمة قد قضت فى هذه الغرف ثمانية أيام فعلا ، وسرعان ما أُبلغ النزلاء الجدد هذه الواقعة طبعا ، بغية أن يُخلع على المسكن مزيد من القدر والقيمة . نقلت العجوز بل قل نُقّلت بين جميع الغرف ، فكانت تدقق النظر فيها بانتباه وقسوة ، يصحبها المدير نفسه ، وهو رجل متقدم فى السن قليلا ، ويلاطفها أثناء هذه الجولة التى قامت بها تتفقد الحجرات تفقد مالك .

لا أدرى ماذا حسبوا الأميرة . لا شك أنهم عدوها شخصية

مرموقة جدا ، وثرية جدا بخاصة . حتى لقد أسرعوا يسجلون فى سجل النزلاء : السيدة الجنرالة ، أميرة ثاراسفشيفا ، رغم أن الجدة لم تكن يوما أميرة . ولا شك أن كثرة الخدم ، والجناح المحجوز فى القطار ، وهذا الجبل من الرزم التى لا لزوم لها ، ومن الحقائب ، بل ومن الصناديق التى أنزلت مع الأميرة ، لا شك أن هذا كله كان بمثابة قاعدة قامت عليها مهابتها فى نظرهم ؛ ثم ان الكرسى الذى تقعد عليه ، واللهجة القاطعة التى تخاطب الناس بها ، وصوتها، وأسئلتها الغريبة الشاذة التى تلقيها طلقة بلا تحفظ ، ولا تحتمل أى رد عليها ، وجملة شخصيتها المنتصبة ، العنيفة ، المتسلطة ، أقول ان هذا كله قد انتهى بأن أكسبها تعظيم جميع الناس وتبجيلهم . كانت السيدة العجوز ، أثناء استعراض شقتها ، تأمر بوقف كرسيها فجأة ، فتشير الى قطعة من قطع الأثاث ، وتلقى على المدير أسئلة ليست فى التوقع أو الحسبان ، فيبتسم المدير اجلالا واحتراما ، ولكنه كان قد أخذ يرتجف ويرتعد . وكانت تلقى عليه أسئلتها بفرنسيتها الرديئة ، فكان علىّ فى أكثر الأحيان أن أتولى الترجمة . وكانت أجوبة المدير لا يرضيها أكثرها ، وكانت تبدو لها هذه الأجوبة ناقصة غير كافية . ثم انها كانت تلقى أسئلة لا معنى لها تمليها عليها النزوة الطارئة والخيال العجيب : كانت تتوقف مثلا أمام لوحة من اللوحات على حين فجأة ، لوحة هى نقل ضعيف عن أصل شهير موضوعه مستمد من الأساطير اليونانية ، فتسأل :

— من تصوّر هذه الصورة ؟

فيجيب المدير بقوله :

ـــ لعلها تصوّر احدى الكوتنيسات .

ـــ كيف ؟ أأنت لا تعلم ذلك علم اليقين ؟ أتسكن هنا ثم لا تعلم علم اليقين ؟ لماذا وضعت هذه الصورة فى هذا المكان ؟ ولماذا تنظر المرأة هذه النظرة الحولاء ؟

فكان المدير لا يستطيع أن يجيب على هذه الأسئلة كلها اجابات ترضيها ، حتى لقد كان يشده ويذهل :

قالت الجدة باللغة الروسية :

ـــ يا له من غبى !

وتنقلت الجدة الى أبعد من ذلك ، فتكرر هذا الأمر نفسه بصدد تمثال صغير من الساكس تأملته العجوز طويلا ، ثم أمرت باخراجه من هذا المكان ، لا يدرى أحد لماذا ! وأغرقت المدير أخيرا بوابل من الأسئلة : كم كانت أثمان سجادات غرفة النوم ، وأين تصنع هذه السجادات ، فوعدها المدير بأن يستعلم عن هذه الأمور .

دمدمت تقول :

ـــ يا لهم من حمير !

ثم التفتت باتنباهها كله الى السرير . وقالت :

ـــ يا لهذه المظلة كأنها مظلة عرش ! هيا .. فكّوها !

ففكت مظلة السرير

ـــ أيضا أيضا ، انزعوا كل شيء . انزعوا المخدات ، والأغطية ، واللحاف .

قلب السرير رأسا على عقب . وراحت الجدة تنعم النظر فى كل شيء .

ـــ من حسن الحظ أنه لا يوجد بق . خذوا جميع الأغطية . وستضعون فى مكانها أغطيتى ومخداتى . على كل حال ، هذا كله مسرف فى الترف والبذخ . ما حاجتى الى مثل هذه الشقة وأنا فى هذه السن ؟ ان المرء يشعر بالملل والضجر وحده ! يا ايڤان ايڤانوڤتش لا يفوتنك أن تأتى الىّ كثيرا بعد فراغك من تدريس الأولاد .

قلت :

ـــ لقد أصبحت لا أعمل فى خدمة الجنرال منذ أمس .

ـــ لماذا ؟

ـــ وصل من برلين منذ مدة ألمانى ذو مكانة ، تصحبه زوجته . انه بارون . وأمس ، أثناء النزهة ، خاطبته بالألمانية دون أن أراعى اللهجة البرلينية .

ـــ وبعد ذلك ؟

ـــ عدّ ذلك وقاحة منى ، فشكانى الى الجنرال ، فطردنى الجنرال من عملى فورا .

ـــ ولكن ماذا ؟ هل أنت شتمت ذلك البارون ؟ وهبك فعلت ، فليس فى هذا ضير كبير !

ـــ بالعكس . انه هو الذى رفع عصاه علىّ .

فقالت العجوز للجنرال بغتة :

ـــ وأنت يا مخاط ، كيف سمحت للبارون أن يعامل مربى أولادك هذه المعاملة ؟ ثم تطرده من عمله فوق ذلك كله ؟ .. ما أرى الا أنكم جميعا تافهون لا تصلحون لشىء .

أجاب الجنرال بلهجة فيها الألفة والتعالى معا :

ـــ لا تقلقى يا عمة . اننى أعرف كيف أدبر شئونى بنفسى . ثم ان ألكسى ايفانوفتش لم يصور لك الواقع تصويرا صحيحا .

قالت لى الجدة :

ـــ وكيف احتملت ذلك ؟

قلت مصطنعا أكبر التواضع وأعظم الهدوء :

ـــ أردت أن أدعوه الى المبارزة ، ولكن الجنرال عارض فى ذلك.

سألت الجدة :

ـــ لماذا ؟

ثم التفتت الى المدير فقالت له :

ـــ امض الى شأنك أنت يا عزيزى ، ثم تعود متى ناديناك .

وأضافت :

ـــ اننى لا أطيق رؤية هؤلاء النورنبرجيين الذين تشبه وجوههم وجوه السكارى .

فحيا المدير وانصرف ، دون أن يفهم هذا التقريظ طبعا .

أجاب الجنرال وهو يطلق ضحكة صغيرة :

ـــ عفوك يا عمتى .. هل المبارزات ممكنة ؟

ـــ ولم لا ؟ الرجال جميعا ديكة . كانا سيقتتلان ، وينتهى الأمر. ولكنكم دجاجات مبتلة ، هذا واضح . انكم عاجزون عن الدفاع عن شرف بلدكم . هيا احملونى . پوتاپتش ! أصدر الأوامر بأن يكون

هنالك دائما شيالان فى خدمتى . عينهما وحدد الشروط . يكفى اثنان. لن يكون عليهما أن يحملانى الا عند صعود السلم . أما على الأرض المستوية ، وفى الشارع ، فسأجر جرا . اشرح لهما هذا . وانقدهما سلفة، فيكونوا أكثر أدبا وتهذيبا . وستظل أنت دائما قربى . وأنت يا ألكسى ايفانوفتش ، سوف ترينى هذا البارون أثناء النزهة : أحب على الأقل أن أرى من هو هـذا الـ « فون بارون » . هيا بنا ! أين هى تلك الروليت ؟

فشرحت لها أن موائد الروليت موضوعة فى قاعات الكازينو . ثم أخذت أسئلة الجدة تنهمر : « هل هناك كثير من موائد الروليت هذه ؟ هل ثمة ناس كثيرون يقامرون ؟ هل تستمر المقامرة طول النهار ؟ كيف هى مرتبة ؟ .. » فأجبت أخيرا بأن الأفضل أن ترى هذا كله بعينيها ، لأن الوصف بهذه الطريقة صعب .

ـــ طيب . احملونى اذن الى هناك رأسا . تقدمنا أنت يا ألكسى ايفانوفتش !

ـــ كيف هذا يا عمتى ؟ هلا نلت قسطا من الراحة أولا ؟

كذلك سألها الجنرال متلطفا متوسلا .

كان الجنرال مضطربا بعض الاضطراب . على أن الجميع كان يبدو فى وجوههم شىء من الارتباك ، وكانوا يتبادلون النظرات . ولعل مرد ذلك الى أنه كان يزعجهم أو يخجلهم أن يصحبوا الجدة الى الكازينو ، فقد تندفع هنالك فى سلوك شاذ ، على مرأى من الناس فى هـذه المرة . ومع ذلك اقترحوا أن يرافقوها .

ـــ وعلام ارتاح ؟ لست تعبانة . لقد لبثت خمسة أيام برمتها ساكنة لا أتحرك . وبعد ذلك نمضى الى ينابيع المياه المعدنية ، المياه الحارة .. وبعد ينابيع المياه نذهب الى .. كيف سميتها يا پراسكوڤيا ؟ .. الى القمة .. أهكذا سميتها ؟

ـــ نعم يا جدتى !

ـــ اذهب الى القمة . وماذا يوجد هنا أيضا ؟

قالت پاولين مرتبكة :

ـــ يوجد أشياء كثيرة .

ـــ طيب . أنت لا تعرفين شيئا . مارتا ، تعالى معى أيضا .
كذلك خاطبت الجدة وصيفتها .

فقال الجنرال قلقا على حين فجأة :

ـــ لماذا تريدين أن ترافقك يا عمتى ؟ هـذا مسـتحيل . وانى لأشك أيضا فى أن يسمح لپوتاپتش بالدخول الى الكازينو .

ـــ سخافات . أندعها اذن خـارج الكازينو ، لأنهـا خادم ؟ أليست مخلوقا حيا ؟ لقد قضينا ثمانية أيام نقطع الطرق ، فهى تحب أيضا أن ترى شيئا . مع من يمكن أن تذهب اذا لم تذهب معى أنا ؟ انها لا تجرؤ حتى أن تخطو فى الشارع وحدها !

ـــ ولكن يا جدتى ..

ـــ لعلك تخجل أن تصحبنى . فما عليك الا أن تبقى حيث أنت ،

ولست أطلب منك شيئا . جنرال ! شخصية عظيمة ! ولكننى جنرالة أنا أيضا ! ثم انني لست فى حاجة الى أن أجر ورائى كل هذا الموكب ، سأرى كل شيء فى صحبة الكسى ايفانوفتش . .

ولكن دى جريو أصر على أن يرافقوها جميعا ، وأخذ يتدفق جملاً لطيفة تعبر عن متعة مرافقتها ، الخ . وسار الجميع .

كرر دى جريو يقول للجنرال :

ـــ لقد رجعت الى الطفولة .. فلو تركناها وحدها اذن لارتكبت حماقات . .

ولم أسمع ما قاله بعد ذلك . ولكن لا شك أنه كان يبيّت فى ذهنه فكرة ما ، بل لعله قد عاوده الأمل ..

المسافة بيننا وبين الكازينو خمسمائة متر تقريبا . سلكنا طريق أشجار الكستناء حتى وصلنا الى الدائرة فدرنا حولها ثم دخلنا الكازينو رأسا . كان الجنرال قد اطمأن روعه بعض الاطمئنان ، لأن موكبنا كان ، على غرابته وشذوذه ، لا يخلو من مهابة ووقار . وليس غريبا أن تأتى الى مدن المياه شخصية مريضة أصابها الضعف والكساح . ولكن كان واضحا أن الجنرال يخشى الكازينو . فعلام تذهب امرأة كسيحة ، هى فوق ذلك عجوز هرمة ، علام تذهب امرأة كهذه الى الروليت ؟ وكانت پاولين ومدموازيل بلانش تسيران على جانبى الكرسى المتحرك . ان مدموازيل بلانش تضحك، وتظهر شيئا من مرح متخفف ، وتتبادل والجدة بعض الأمازيح من حين الى حين ، حتى أن الجدة لم يسعها الا أن تكيل لها آخر الأمر

بعض المديح . وكانت پاولين ، على الجهة الأخرى من الكرسى ، مضطرة الى الاجابة على الأسئلة الكثيرة المستمرة التى تلقيها عليها السيدة العجوز ، وهى من نوع الأسئلة التالية : « من هذا الذى صادفناه الآن ؟ من هى تلك المرأة الراكبة العربة ؟ هل المدينة كبيرة؟ هل الحديقة واسعة ممتدة الأطراف ؟ ما هذه الأشجار ؟ ما أسماء هذه الجبال ؟ هل يوجد هنا نسور ؟ ما هذا السطح المضحك ؟ » .. وتمتم مستر آستلى الذى كان يسير الى جانبى ، تمتم يقول لى : اننى أتوقع من هذا الصباح أشياء كثيرة .

وكان پوتاپتش ومارتا يسيران فى الخلف وراء الكرسى تماما : فأما پوناپتش فهو يرتدى لباسا رسميا مع ربطة عنق بيضاء ، ولكنه يضع على رأسه قبعة من نوع « الكاسكيت » ، وأما مارتا ، وهى فى الأربعين من العمر ، وذات خدين حمراوين وشعر غزاه الشيب منذ ذلك الحين ، فقد كانت تضع على رأسها قبعة من نوع «البونيه»، وتلبس ثوبا من حرير الهند ، وتنتعل حذاءين من جلد الماعز يطقطقان . وكانت الجدة تلتفت اليها كثيرا فتكلمها . وقد ظــل دى جــريو والجنرال وراءنا بعيدين بعض البعد ، يدور بينهما الحديث حاميا حارا كان الجنرال مصعوقا خائر القوى . وكان دى جريو يحاول أن يرد الى رفيقه بعض الشجاعة ، وكان واضحا أنه يسدى اليه بعض النصائح . ولكن الجدة كانت قد نطقت بجملتها الحاسمة : « لن أعطيك شيئا من المال » . فلعل دى جريو يعد هذا الكلام بعيدا عن التصديق ، ولكن الجنرال يعرف عمته حق المعرفة . وكنت قد لاحظت أن دى جريو ومدموازيل بلانش مستمران فى تبادل النظرات

المختلسة . ولمحت الأمير والألمانى فى آخر الطريق : لقد تركا لنا أن تتقدم . ومضيا فى اتجاه آخر .

دخلنا الكازينو دخول الظافرين . وقد أظهر السويسرى والحجاب من الاحتفال بمقدمنا مثل الذى أظهره خدم الفندق . ومع ذلك كانوا ينظرون الينا متعجبين . وأصدرت الجدة أمرها أولا بالقيام بجولة فى القاعات . فكانت تكيل المديح والاطـراء تارة ، وتبقى غير مكترثة ولا مبالية تارة أخرى . ولكنها كانت تسأل عن كل شىء . ووصلنا أخيرا الى قاعات القمار . فما ان رآنا الحاجب الواقف أمام البـاب الموصد ، حتى فتح الباب على مصراعيه كمن تملكته دهشة .

وأحدث ظهور الجدة فى قاعة الروليت أثرا عميقا فى الناس . كان يتجمهر حول موائد الروليت وفى الطرف الآخر من القاعة ، حيث وضعت مائدة « الثلاثين والأربعين » ، نحو من مائة وخمسين مقامرا أو مائتين اصطفوا صفوفا متراصة . ان الذين استطاعوا منهم أن يتسللوا حتى المائدة يحرصون على البقاء فى أماكنهم أشد الحرص ، وقد جرت العادة أن لا يتنازلوا عنها لأحد قبل أن يخسروا كل ما كان معهم من مال . ذلك أنه ليس يباح لأحد أن يكون فى مكان من تلك الأماكن مشاهدا فحسب ، فيحتل بالمجان مكان لاعب . ورغم أن هناك كراسى مصفوفة حول المائدة ، فان عددا قليلا من اللاعبين كان يجلس على الكراسى ، خاصة حين يكون الجمهور كثيفا ، لأن الوقوف يشغل حيزا أضيق من الحيز الذى يشغله الجلوس ، كما أن الواقف يسهل عليه أن يضع الرهان حيث يريد أن يضعه أكثر مما يسهل ذلك على القاعد . والناس يتزاحمون فى الصف الثانى أو الثالث وراء الواقفين

فى الصف الأول ، ينتظرون دورهم ؛ ولكن صبرهم ينفد فى بعض الأحيان فتراهم يدسون أيديهم بين اللاعبين ليضعوا رهانهم على المائدة. والواقفون فى الصف الثالث يجاهدون على هذه الطريقة نفسها من أجل أن يوصلوا رهانهم الى المائدة الخضراء . لذلك ما تكاد تنقضى عشرة دقائق أو خمس حتى يسمع المرء أصوات مشاجرة أو مناقرة عند طرف من أطراف المائدة . على أن شرطة الكازينو منظمون أحسن تنظيم . انهم لا يستطيعون طبعا أن يمنعوا الهرج والمرج . حتى ليسرهم أن يكون الازدحام شديدا ، لأنهم يستفيدون من ذلك . غير أن هناك ثمانية موظفين جالسين حول المائدة يراقبون اللعب مراقبة يقظة . انهم هم الذين يدفعون الأرباح ، فاذا نشب خلاف كانوا هم الذين يفصلون فى الخلاف . ولا تستدعى الشرطة الا فى الحالات القصوى ، فيسوى الأمر عندئذ على الفور . ورجال الشرطة فى القاعة يرتدون اللباس المدنى ، ويقفون بين المشاهدين ، فلا يستطيع المرء أن يعرفهم . وهم يراقبون خاصة صغار اللصوص والمحترفين ، وما أكثرهم فى الروليت ، وما أسهل ممارستهم صناعتهم فى قاعتها ! ذلك أن السرقة فى غير هذا المكان تحتاج الى نبش جيوب أو كسر أقفال ، وقد تجلب للسارق فى حالة الاخفاق متاعب كثيرة . أما هنا فحسب اللص أن يقترب من الروليت ، وأن يأخذ يقامر ، ثم اذا هو فجأة ، على رءوس الأشهاد ومن غير تخف ولا مداورة ، يمد يده الى ربح غيره فيستولى عليه ويضعه فى جيبه . فاذا حدث اعتراض راح اللص يصيح بصوت عال مفهوم أن الربح ربحه . فاذا كان قد أحكم الضربة حاذقا ، وتردد الشهود ، استطاع اللص فى كثير من الأحيان أن يحتفظ بالمال ، هذا

اذا لم يكن المبلغ ضخما بطبيعة الحال ، والا فان القيِّمين يكونون قد لاحظوه ، أو يكون لاعب آخر قد لاحظه . أما اذا لم يكن المبلغ ذا بال، فان الرابح الحقيقى يكف من تلقاء نفسه عن مواصلة الشجار فى بعض الأحيان وينسحب من اللعب مخافة الفضيحة . ولكن اذا أمكن كشف القناع عن وجه اللص ، طُرد من اللعب فورا بغير مراعاة ولا مداراة .

تأملت الجدة هذا كله ، من بعيد ، باستطلاع شره . ولشد ما كانت تسر حين يطرد لص من اللصوص . ولم تفتنها كثيرا لعبة « الثلاثين والأربعين » وانما أعجبتها الروليت وأسرتها ، وخاصة حين كانت تدور الكرة . وأرادت أخيرا أن تشاهد اللعب عن كثب . فاذا بالخدم وأفراد أخر (أغلبهم پولونيون دمرهم القمار ، فهم يفرضون خدماتهم على المقامرين الموفقين وعلى جميع الأجانب) يسارعون فيؤمنون لها مكانا قريبا من وسط المائدة قرب القيِّم الرئيسى ، ويجرون كرسيها اليه رغم الزحام الشديد . وها هى ذى جمهرة كبيرة من الزوار الذين لا يقامرون بل يشاهدون (وأكثرهم من الانجليز مع أسرهم) تتزاحم فورا نحو المائدة تريد أن ترى الجدة من فوق أكتاف المقامرين . وعقد القيمون على الجدة آمالا كبارا : ان مقامِرة غريبة هذه الغرابة ، شاذة هذا الشذوذ ، لتعد حقا بأشياء خارقة . امرأة فى السبعين من عمرها ، كسيحة ، تريد أن تقامر .. ذلك ظرف نادر قلَّ أن يواتى .. واندسست أنا أيضا حتى وصلت الى المائدة فوقفت قرب الجدة . أما پوتاپتش ومارتا فقد ظلا بعيدين وسط الجمهور .وانضم الجنرال وپاولين و دى جريو الى صفوف المشاهدين كذلك .

أخذت الجدة فى أول الأمر تلاحظ اللاعبين الذين يحيطون بها ، فتسألنى بصوت خافت أسئلة سريعة : « من هذا الرجل ؟ » « من تلك المرأة ؟ » . وقد اهتمت اهتماما شديدا بشاب صغير كان على طرف المائدة يقامر بمبالغ ضخمة ، فهو يضع الفرنكات آلافا ، وكان قد ربح، فيما كان يدمدم به الجيران ، حوالى أربعين ألف فرنك كانت قابعة أمامه كومة من الليرات الذهبية والأوراق النقدية . كان الفتى ممتقع اللون، وكانت عيناه تقدحان شررا ، وكانت يداه ترتجفان . كان يضع المال من غير أن يعده ، فانما هو يتناوله قبضات قبضات ، وما ينفك مع ذلك يربح ، وما ينفك المال يتكدس أمامه ، وكان الخدم يتحركون من حوله ، فهذا يحمل اليه كرسيا ، وذاك يوسع من حوله المكان ، حتى تزداد حركته طلاقة ، وحتى لا يزحمه الناس .. كل ذلك أملا فى مكافأة طيبة . ان بعض المقامرين الموفقين يعطونهم أحيانا بلا عد ، يخرجون المال من جيوبهم قبضات ملأى يمدونها اليهم عطايا . والى جانب الفتى كان قد جلس بولونى لا يستقر فى مكانه ، ويوشوشه فى كل لحظة باحترام ، ليسدى اليه النصح وليوجهه فى اللعب من غير شك ، أملا فى مكافأة بطبيعة الحال . ولكن الفتى المقامر لا يكاد ينتبه اليه ، وانما هو يراهن ذات اليمين وذات الشمال خبط عشواء ، وما ينفك يكدس ثم يكدس . كان واضحا أنه فقد صوابه .

لاحظته الجدة خلال بضع دقائق .

ثم اهتاجت فجأة فلكزتنى بكوعها وقالت لى :

ـــ قل له أن يكف ، قل له أن يلم ماله بأقصى سرعة وأن يفر . سوف يخسر ، سوف يخسر كل شىء فى لحظة واحدة .

قالت ذلك وهى تكاد تلهث من فرط الانفعال . ثم أضافت :

ـــ أين پوتاپتش ؟ أرسلوا اليه پوتاپتش . لماذا لا تقول له ؟ قل له أن يرحل (قالت لى ذلك وهى تنكعنى) . ولكن أين پوتاپتش ؟ أخرج ، أخرج (هكذا أخذت تصيح لتهيب بالفتى أن يخرج) .

فملت عليها وقلت بصوت خافت ولهجة حاسمة انه لا يُسمح بالصراخ فى هذا المكان على هذا النحو ، بل ويحظر الكلام الا بصوت منخفض .. لأن ذلك يعرقل اجراء الحسابات ، ولسوف يخرجوننا من القاعة ..

ـــ خسارة ! ان هذا الرجل ضائع لا محالة . لا شك أنه يريد ذلك .. لا أستطيع أن أنظر اليه . لقد حولت بصرى عنه .. يا له من غبى !

قالت الجدة ذلك ، والتفتت الى جهة أخرى على الفور .

وهناك ، على الشمال ، كانت تُرى بين اللاعبين سيدة شابة يصحبها رجل يشبه أن يكون قزما من الأقزام . من هو هذا القزم ؟ لا أدرى .. أهو قريب من أقربائها ، أم انها جاءت به لتحدث أثرا ، وتلفت نظرا ؟ كنت قد لاحظت هذه السيدة قبل ذلك . انها تجىء الى الكازينو كل يوم ، فى الساعة الواحدة بعد الظهر ، وتنصرف فى الساعة الثانية تماما . كانت تلعب اذن ساعة فى كل يوم . والناس يعرفونها ، وسرعان ما قدم لها كرسى قعدت عليه . فأخرجت من جيبها بضعة دنانير ذهبية وبضع أوراق نقدية من ذات الألف فرنك ، وأخذت تراهن برصانة وبرود ، وتسجل الأرقام على ورقة ، محاولةً أن تكتشف نظام تجمع الاحتمالات

فى لحظة من اللحظات . كانت تخاطر بمبالغ كبيرة . وتربح فى كل يوم ألف فرنك ، أو ألفين ، أو ثلاثة آلاف ، لا أكثر من ذلك ، ثم ما تلبث أن تنسحب . راقبتها الجدة برهة طويلة .

— هذه لن تخسر .. هذه لن تخسر . من هى هذه السيدة ؟ هل تعرف ؟

فدمدمت أقول :

— هى فرنسية ، لعلها من أولئك النسوة ..

— من طيرانه يُعرف الطير . واضح أن لها مخالب حادة .. اشرح لى الآن ماذا تعنى كل دورة ، وكيف تجب المراهنة .

فشرحت للجدة ، ما أمكننى الشرح ، مزاوجات اللعب التى لا حصر لعددها : أحمر وأسود ، شفع ووتر ، الخ ؛ وشرحت لها بعد ذلك بعض الأمور المتصلة بنظام الأعداد . فكانت السيدة العجوز تصغى الى كلامى منتبهة أشد الانتباه ، وتحفظ ما أقول ، وتلقى أسئلة جديدة وتستزيد من التعلم والفهم . وكان من السهل أن أضرب لها مثالا مباشرا على كل نظام من نظم المراهنة ، فكان ذلك ييسر لها حفظ الدرس . وسرت الجدة من ذلك كله سرورا عظيما .

— وماذا يعنى صفر ؟ ان القيّم الرئيسى ، هناك ، ذا الشعر الأجعد ، قد صاح يقول الآن : صفر . ولماذا لمّ كل ما كان على المائدة ؟ هل أخذ تلك الكومة كلها لنفسه ؟ ما معنى هذا ؟

قلت :

— الصفر ، يا جدة ، يعنى أن الرابح هو البنك . فاذا وقفت الكرة

على الصفر كان كل ما على المائدة للبنك بغير تمييز . الواقع أنهم يديرون دورة أخرى تبرئة للذمة ، ولكن البنك لا يدفع شيئا .

ـــ غريب .. ولا آخذ شيئا !

ـــ اذا كنت قد راهنت على الصفر سلفا ، فانهم يدفعون لك المبلغ الذى وضعته مضاعفا خمسا وثلاثين مرة .

ـــ خمسا وثلاثين مرة ؟ وهل يخرج الصفر كثيرا ؟ فلماذا لا يضعون عليه ، هؤلاء الأغبياء ؟

ـــ لأن هناك ستة وثلاثين احتمالا مخالفا ، يا جدة !

ـــ يا له من سخف ! پوتاپتش ! پوتاپتش ! انتظر . ان معى بعض المال . خذه (أخرجت من جيبها كيسا منتفخا فتناولت منه فردريكا) . خذ هذا ، وضعه على الصفر فورا .

ـــ ولكن الصفر قد خرج الآن ، ولن يخرج مرة أخرى الا بعد زمن طويل . انك تجازفين كثيرا : تريثى بعض التريث .

ـــ لن أنتظر . كلامك سخيف . ضع هذا .

ـــ اسمحى لى . قد لا يخرج مرة أخرى قبل المساء ، ولو وضعت عليه ألف مرة . هذا شىء معروف .

ـــ سخافات ، سخافات . لا يذهب الى الغابة من يخاف الذئب . ماذا ؟ خسرت ؟ ضع مرة ثانية .

وخسرنا مرة ثانية . ووضعنا مرة ثالثة . ان الجدة لا تكاد تستقر فى مكانها . انها تحضن بعينيها البراقتين الكرة التى تتواثب بين حجرات الصفيحة الدائرة . لقد خرجت الجدة عن طورها . أصبحت

لا تستطيع المحافظة على هدوئها ، حتى لقد ضربت المائدة بقبضة يدها حين نادى الموظف قائلا : ست وثلاثون ، بدلا من أن يعلن خروج الصفر المرتقب .

قالت الجدة زعلانة :

ـــ هيا .. لا بأس .. ان هذا الصفر اللعين سيخرج قريبا ! أفضل أن أضيع على أن لا أبقى الى أن يخرج الصفر ! الذنب ذنب ذلك القيِّم الخبيث الأجعد الشعر ، ان الصفر لا يخرج معه أبدا . الكسى ايفانوفتش ضع دينارين مرة واحدة ! ان ما تضعه قليل ، فلو خرج الصفر لما ربحنا شيئا .

ـــ جدة ! ..

ـــ ضع ، ضع ، ليس المال مالك !

ووضعت فردريكين . وتدحرجت الكرة برهة طويلة على الصفيحة، ثم أخذت تتواثب فوق الحجرات . تهالكت الجدة وشدت على ذراعى. وفجأة .. تك ..

ـــ صفر .

كذلك أعلن القيِّم .

قالت الجدة وهى تلتفت نحوى بحماسة :

ـــ رأيت ؟ رأيت ؟ قلت لك ان الصفر سيخرج .. قلت لك .. الرب نفسه هو الذى ألهمنى أن أضع دينارين ذهبيين . كم أقبض الآن ؟ لماذا لا يدفعون ؟ پوتاپتش ، مارتا ! أين هى اذن ؟ وجماعتنا كلهم ، أين ذهبوا ؟ پوتاپتش ، پوتاپتش !

فدمدمت أقول لها :

ــــ حالا ياجدة . پوتاپتش على الباب . لن يأذنوا له بالدخول الى هنا . أنظرى يا جدة .. ها هم يدفعون لك المال . خذيه .

وألقيت الى الجدة لفة ثقيلة تضم ٥٠ فردريكا مغلفة بورق أزرق قاتم ، وعَدَدْتُ لها عدا ذلك عشرون فردريكا بغير لف . وقربت المبلغ كله بمجرفة الى أمام الجدة .

ــــ العبوا أيها السادة ! العبوا أيها السادة ! هل انتهى كل شيء ؟

كذلك صاح القيِّم يدعو اللاعبين الى الحط ، ويتهيأ لقذف الكرة.

ــــ رباه ! تأخرنا فى الحط . سيبدأون فورا . حــط . حط . أسرع . لا تضيع الوقت .

هكذا أخذت تقول الجدة ، وقد خرجت عن طورها وأخــذت تلكزنى بكوعها .

ــــ ولكن أين أحط يا جدة ؟

ــــ على الصفر ! على الصفر ! أيضا على الصفر ! حط أكبر مبلغ ممكن . كم يبلغ كل ما معنا ؟ سبعين فردريكا ؟ لا فائدة من التباخل. حط عشرينا دفعة واحدة !

ــــ تعقلى يا جدة ! قد لا يخرج الصفر بعد مائتى دورة ! كذلك هو فى بعض الأحيان . أحلف لك . لسوف تخسرين كل ما معك من مال .

ــــ كفى سخافات ، كفى سخافات . حط بسرعة . هذه هى المطرقة تدق ! أنا أعرف ما أفعل .

هذا ما قالته الجدة التى كانت ترتجف من توتر أعصابها .

قلت :

ــ النظام يحظر أن يحط اللاعب أكثر من اثنى عشر فردريكا على الصفر ، ها قد حططتها .

وكان القيِّم على يسارها يهم أن يقذف الكرة ، فلكزته الجدة بكوعها تسأله بفرنسية لا تفهم :

ــ كيف هذا ؟ أصحيح هذا يا مسيو ؟ أصحيح هذا يا مسيو ؟ كم على الصفر ؟ اثنا عشر ؟ اثنا عشر ؟

فأسرعت أشرح السؤال بالفرنسية . فأجابها القيِّم فى أدب :

ــ نعم يا سيدتى ، كما لا يجوز أن تتجاوز حطة كل فرد أربعة آلاف فلورين .

وأضاف معللا ذلك قوله :

ــ بهذا يقضى النظام .

ــ طيب . لا حيلة لنا اذن . حط اثنى عشر فردريكا .

صاح القيِّم :

ــ تم اللعب .

ودارت الدائرة ، فخرج الرقم « ثلاثة عشر » . لقد خسرنا .

صاحت الجدة تقول لى :

ــ حط أيضا ، حط أيضا .

لم أعترض فى هذه المرة ، لم أظهر أية مقاومة ، بل أسرعت أحط

اثنى عشر فردريكا وأنا أرفع كتفى . ودارت الدائرة زمنا طويلا . فكانت الجدة ترتجف وهى تلاحقها . قلت لنفسى وأنا أنظر اليها مندهشا: « أهى تعتقد حقا أن الصفر سيربح أيضا » . وكان يلتمع فى وجهها ايمان مطلق بأنها ستربح ، وأمل راسخ فى أنها ستسمع القيِّم يصيح بعد قليل : صفر . ووثبت الكرة الى احدى الحجرات : فهتف القيِّم:

ـــ صفر .

قالت الجدة ملتفتة نحوى وقد بدا فى وجهها معنى الانتصار وروح التهجم :

ـــ أرأيت ؟

لقد كنت مقامرا . أحسست بذلك فى تلك اللحظة عينها . كانت ذراعاى وساقاى ترتجف . لقد كان نادرا بطبيعة الحال أن يخرج الصفر ثلاث مرات خلال عشر ضربات . ولكن لم يكن فى هذا ما يبعث على دهشة خاصة . فلقد رأيت الصفر بنفسى ، أول البارحة ، يخرج ثلاث مرات متتالية ؛ وقال أحد اللاعبين فى تلك المناسبة ، وكان قد سجل الضربات على ورقة تسجيلا دقيقا ، قال بصوت عال ان الصفر ، فى اليوم السابق نفسه ، لم يخرج الا مرة واحدة خلال أربع وعشرين ساعة .

أعطيت الجدة ربحها مقرونا بالاحترام والانتباه الخاصين اللذين يستحقهما كل من حقق ربحا ضخما . لقد تقاضت أربعمائة وعشرين فردريكا على التمام والكمال ، أى أربعة آلاف فلورين وعشرين فردريكا . عُدت لها الفردريكات نقودا ذهبية ، وأُعطيت الفلورينات أوراقا مالية .

ولكن الجدة لم تناد پوتاپتش فى هذه المرة . لقد كان فى رأسها شىء آخر يشغلها عن ذلك ! أصبحت الآن لا تضطرب ولا ترتعش فى الظاهر ، ولكنها كانت فى داخل نفسها ترتعش ان صح هذا التعبير . كان انتباهها كله مركزا على نقطة كأنها تسدد الى هدف ؛ وقررت أخيرا فقالت لى :

ـــ الكسى ايڤانوڤتش ، لقد قال القيّم ان اللاعب لا يجوز له أن يحط أكثر من أربعة آلاف فلورين فى آن واحد ، أليس كذلك ؟ اليك اذن هذه الأربعة آلاف ، حطها على الأحمر .

كان من العبث أن يحاول المرء صرفها عن تصميمها . ودارت الدائرة . واذا بالقيّم يصيح :

ـــ أحمر .

ربح جديد قدره أربعة آلاف فلورين . أصبح المجموع ثمانية آلاف .

أمرتنى الجدة بقولها :

ـــ دع لى أربعة آلاف ، وحط الأربعة الأخرى على الأحمر مرة ثانية .

فجازفت بالآلاف الأربعة مرة أخرى . ثم اذا بالقيّم يعود فيصيح:

ـــ أحمر .

ـــ المجموع اثنا عشر ألفا . أعطنى كل شىء . ضع الذهب فى الكيس ، ولمّ الأوراق المالية . كفانا هذا الآن . لنعد الى المنزل . دحرجوا كرسيى .

الفصل الحادي عشر

دحرج الكرسى نحو الباب فى الطرف الآخر من القاعة . كانت الجدة مشرقة . وأسرع جماعتنا كلهم يحيطون بها مهنئين . فمهما يكن سلوك الجدة غريبا شاذا ، فان انتصارها يغطى أشياء كثيرة ؛ لقد أصبح الجنرال لا يخشى على سمعته ومهابته بين الناس من قرابته بامرأة غريبة الأطوار هذه الغرابة كلها ؛ حتى لقد أخذ يطرى الجدة وهو يبتسم ابتسامة متلطفة ، ويظهر مرحا ودودا ، كما يفعل المرء مع طفل يريد أن يسليه . وكان واضحا من جهة أخرى أنه كان مأخوذا كسائر المشاهدين ، الذين يعلقون على الحادث ويشيرون الى الجدة . حتى أن كثيرا منهم كانوا يمرون قربها ليروها عن كثب . وكان مستر آستلى يتحدث عنها بعيدا مع اثنين من أصدقائه الانجليز . وهذه سيدات مرموقات وقورات يتأملنها فى دهشة فخمة نظرتهن الى ظاهرة عجيبة . وكان دى جريو يتدفق تهانيوبسمات . قال:

— نصر عظيم !

وأضافت مدموازيل بلانش وهى تبتسم ابتسامة مداهنة متملقة :

ــ ولكن ، يا سيدتى ، لقد كنت كمن يطلق النار !

فقالت الجدة :

ــ نعم ، بدون أن أعد واحدا أو اثنين ، ربحت اثنى عشر ألف فلورين . ماذا أقول ؟ اثنى عشر ألف ؟ هذا عدا الدنانير الذهبية . فيكون المجموع ثلاثة عشر ألفا على وجه التقريب . كم يساوى هذا المبلغ روبلات ؟ حوالى ستة آلاف ؟

فأوضحت لها أن المبلغ يساوى أكثر من سبعة آلاف روبل ، وقد يصل الى ثمانية آلاف بالسعر الراهن .

ــ ثمانية آلاف .. ليس هذا بمزحة ! ما لكما تجمدان هنالك ككلاب من خزف ؟ هل رأيتما يا پوتاپتش ويا مارتا ؟

صاحت مارتا مفرطة فى الاطراء :

ــ ولكن كيف فعلت يا سيدتى ؟ ثمانية آلاف روبل ..

ــ خذا ، هذه خمسة دنانير ذهبية لكل منكما ، خذا ..

فأسرع پوتاپتش ومارتا يقبلان يدها .

ــ وليوهب فردريك واحد لكل حمال . أعط كلا منهم دينارا ذهبيا يا ألكسى ايڤانوڤتش . ما لذلك الخادم ينحنى تلك الانحناءات ؟ وذاك الآخر أيضا ؟ تهنئة لى ؟ هب لكل منهما دينارا أيضا .

ــ سيدتى الأميرة .. فقير منفى من وطنه .. شقاء متصل .. الأمراء الروس كرام جدا .

كذلك أخذ يقول مستجديا مستعطيا شخص ذو شاربين وقف قرب الكرسى بردنجوته المهترىء وصديرته المبرقشة ، رافعا قبعته ، مبتسما ابتسامة التذلل والخضوع .

ـــ اعطه دينارا أيضا ، بل اعطه دينارين . والآن كفى ! والا لما كان لهذا نهاية .. احملونى ، انقلونى ! براسكوفيا ! (قالت هذا لپاولين ألكسندروفنا) سأشترى لك ثوبا فى الغد ، وكذلك مدموازيل .. ما اسمها ؟ مدموازيل بلانش ، أليس كذلك ؟ سأعطيها ما تشترى به ثوبا . ترجمى لها هذا الكلام يا پراسكوفيا !

ـــ شكرا يا سيدتى .

ـــ كذلك قالت مدموازيل بلانش وهى تنحنى اجلالا للجدة ، وترسم على شفتيها ابتسامة ساخرة تتجه بها الى دى جريو والجنرال. وكان الجنرال منزعجا بعض الانزعاج ، فلم يتخفف من ضيقه وبرمه الا حين بلغنا الطريق الذى تصطف على حافتيه أشجار الكستناء .

قالت الجدة وهى تتذكر خادمة الأطفال :

ـــ وفيدوسيا ، وفيدوسيا ! لن تصدق أذنيها حين تسمع النبأ . يجب أن أعطيها أيضا ما تصنع به لنفسها ثوبا . هيه ! ألكسى ايڤانوڤتش، ألكسى ايڤانوڤتش اعط هذا الشحاذ شيئا .

كان يمر فى الطريق رجل مقوس الظهر يرتدى أسمالا باليــة ، وينظر الينا .

قلت :

ـــ قد لا يكون هذا الرجل شحاذا بل وغد من الأوغاد !

ـــ اعطه ! اعطه ! أعطه فلورينا !

فاقتربت من الرجل ومددت اليه قطعة النقد ، فنظر الىّ مشدوها ، ولكنه تناول الدرهم دون أن ينبس بكلمة . وكانت رائحة الخمرة تفوح منه .

— وأنت يا ألكسى ايڤانوڤتش ، ألم تجرب حظك بعد ؟

— لا لم أفعل بعد .

— كانت عيناك تلتمعان ؛ لاحظت أنا ذلك .

— سأحاول حتما ، يا جدة ، ولكن فى المستقبل .

— وحطّ على الصفر دون تردد . وسوف ترى ! كم معك من مال ؟

— عشرون فردريكا يا جدة .

— ليس هذا بالكثير . سأقرضك خمسين فردريكا اذا شئت . خذ ، خذ هذه اللفة . أما أنت يا عزيزى (قالت هذه الجملة متجهة بها الى الجنرال على حين فجأة) فلا تراودنك الأوهام والأحلام : لن أعطيك شيئا .

فاضطرب الجنرال ولكنه لم يقل شيئا ؛ وقطب دى جريو حاجبيه ؛ ثم التفت الى الجنرال يدمدم من بين أسنانه قائلا :

— امرأة فظيعة .

صاحت الجدة .

— شحاذ ، شحاذ ، شحاذ آخر ! يا ألكسى ايڤانوڤتش ، اعط هذا الرجل فلورينا أيضا .

كان يقبل علينا فى هذه المرة شيخ عجوز أبيض الشعر ، يسير على ساق من خشب ، ويرتدى نوعا من معطف طويل كحلى اللون ، ويحمل بيده عصا يتوكأ عليها . انه يشبه أن يكون واحدا من قدماء

المحاربين . فما ان مددت اليه الفلورين حتى ارتد خطوة الى وراء ، وهو يحدق الىّ مهددا ، ويقول بالألمانية :

ــ ما هذا ؟

ثم يضيف الى سؤال التعجب هذا سيلا من الشتائم .

قالت الجدة وهي تومىء بيدها ايماءة احتقار .

ــ يا له من غبى ! امضوا بى . أكاد أموت جوعا . سوف أتناول غدائى فورا ، ثم أرتاح قليلا ، لأعود بعد ذلك الى هناك .

هتفت متعجبا :

ــ أتريدين أن تقامرى أيضا يا جدة ؟

ــ ماذا تظن اذن ؟ أتحسب أن علىّ ، اذا أنت لبثت تتعفن هناك ، أن أكتفى بالنظر الى محياك ؟

قال دى جريو وهو يقترب :

ــ ولكن الحظوظ يا سيدتى يمكن أن تنقلب . ورب حظ سيىء واحد يفقدك كل شيء ، وخاصة اذا لعبت على طريقتك الرهيبة تلك !

وزأزأت مدموازيل بلانش تقول :

ــ لسوف تخسرين حتما !

ــ وما شأنك أنت ؟ ان ما سأخسره ليس مالك بل مالى ! ولكن أين هو ذلك المستر آستلى ؟ (ألقت هـذا السؤال علىّ) .

ــ بقى فى الكازينو يا جدة .

ــ خسارة ! انه لفتى شهم حقا !

فلما وصلنا الى المنزل ، فصادفت الجدة رئيس الخدم على السلم ، نادته وأخذت تتباهى بما حققته من ربح . ثم استدعت فيدوسيا فأعطتها ثلاثة فردريكات ، وأمرتها باعداد الغداء . وفى أثناء تناول الطعام كانت فيدوسيا ومارتا تتدفقان عبارات تعجب .

قالت مارتا :

ــ كنت أنظر اليك يا عزيزتى ، فأقول لپوتاپتش : « ماذا تريد سيدتنا أن تفعل ؟ » . ثم تكدس المال وتكدس . يا قديسى السماء ! لم أر فى حياتى مالاً بهذا المقدار ! وليس من حولك الا رجال ، ليس من حولك الا رجال ! « من أين يأتى جميع هؤلاء السادة يا پوتاپتش؟ » كذلك كنت أسأل پوتاپتش . ثم أقول : « فلتساعدها العذراء أم الرب ! » كنت أدعو لك يا سيدتى الطيبة . وكان قلبى يكاد يبارحنى ؛ لقد توقف عن الخفقان . وكنت أرتعش ارتعاش ورقة . « كن فى عونها يا رب » كذلك كنت أضرع الى الله . وقد حماك الله ورعاك . وما زلت أرتعش من ذلك حتى الآن ، ما زلت أرتعش من قمـــــة رأسى الى أخمص قدمى .

ــ ألكسى ايڤانوڤتش ! هيىء نفسك بعد الغداء . سنعود الى هناك فى نحو الساعة الرابعة . فالى ذلك الحين أودعك الآن . ولا تنس أن تبعث الىّ بواحد من أولئك الأطباء التافهين . يجب علىّ أن أعالج بالمياه المعدنية أيضا . أتراك تنسى أن تفعل ؟

خرجت من عند الجدة كمن طاش صوابه . كنت أحاول أن أتصور ما سيحدث لأفراد جماعتنا كلهم ، وأن أتخيل المجرى الذى ستجرى

فيه الأمور . كنت أرى رؤية واضحة أنهم لما يفيقوا بعد من الصدمة الأولى (وخاصة الجنرال) . ان وصول الجدة بدلا من البرقية التى كان يترتقب وصولها من ساعة الى ساعة منبئة بموتها (ومنبئة تبعا لذلك بفض الوصية) قد دمر جميع ما بنوه من مشاريع وخرب ما اتخذوه من قرارات ، حتى أصبحوا يتابعون باضطراب شديد وبنوع من الانشداه ما ستقوم به السيدة العجوز من مغامرات فى الروليت . ومع ذلك فلعل هذا الأمر الثانى أن يكون أخطر شأنا من الأمر الأول ، ذلك أن تصريح الجدة مرتين بأنها لن تعطى الجنرال شيئا من المال ، يجب أن لا يفقدهم مع ذلك كل أمل . لا شك أن دى جريو ، المشارك فى جميع شئون الجنرال ، لم ييأس . وأغلب الظن أن مدموازيل بلانش التى تهتم بالأمر اهتماما كبيرا (أو التى لابد أن تهتم به اهتماما كبيرا على الأقل : زواج من الجنرال ، وميراث عريض) لن تتثبط عزيمتها كذلك ، وأنها سوف تعمد الى جميع ما تملكه من وسائل الاغراء والفتنة والغنج للتأثير فى الجدة ، خلافا لپاولين المتغطرسة المتعجرفة التى لم تكن تجيد الخضوع ولا تحاول أن تجامل سعيا الى الارضاء . أما الآن ، الآن وقد قامت الجدة بتلك المغامرات الطائشة فى الروليت ، الآن وقد تأكدت شخصيتها أمام أعينهم واضحة هذا الوضوح كله (عجوزا عنيدة مستبدة متقهقرة الى عهد الطفولة) ، أما الآن فلعل كل شىء قد ضاع . لقد كانت سعيدة سعادة تلميذ تحــرر من الحجر عليه ، فلابد أنه سيندفع فى اللعب الى أن ينتف ريشه نتفا . قلت لنفسى (وأنا أشعر بفرح خبيث أسأل الله أن يغفره لى) : يا رب ، يا رب ! ان كل دينار جازفت به الجدة منذ قليل ، كان يطعن قلب الجنرال طعنا ، وكان

يحنق دى جريو حنقا شديدا ، وكان يثير غضب مدموازيل كومنج التى تمر الملعقة تحت أنفها ! شيء آخر : حتى حين راحت الجدة ، وهى فى فرحة الربح ، توزع المال على جميع الناس ، وتعد كل عابر شحاذا ، حتى حينذاك لم تستطع الجدة أن تمنع نفسها أن تقــول للجنرال : « أما أنت فلن أعطيك شيئا » . هذا معناه أن العجوز قد استقرت على هذه الفكرة ، وأنها مصرة عليها ، وأنها آلت على نفسها أن تفعل . فالأمر اذن خطر خطر !

هذه الخواطر كلها كانت تضطرب فى رأسى بينما كنت أصعد من عند الجدة على سلم الشرف الى غرفتى الصغيرة فى الطابق الأخير . كان ذلك كله يهمنى كثيرا . ورغم أننى استطعت أن أستشف الخيوط المتينة التى تشد هؤلاء الممثلين بعضهم الى بعض أمام بصرى ، فلقد كنت أجهل دوافع هذه التمثيلية وأسرارها . ان پاولين لم تمحضنى ثقة كاملة فى يوم من الأيام . صحيح أنها كانت قد فتحت لى قلبها أحيانا كالمكرهــة على ذلك ، ولكننى كنت قد لاحظت أنهــا فى كثير من الأحوال ، بل فى جميع الأحوال تقريبا ، ما تكاد تفضى الىّ ببعض الأسرار حتى تحيل الى مزاح كل ما سبق أن قالته ، أو حتى تبادر الى « لخبطة » كل شيء فتعمّى الأمور عامدة . نعم .. لقد كانت تخفى عنى أشياء كثيرة . ومهما يكن من أمر ، فقد كنت أحس أن هذا الوضع السرى العجيب المتوتر يقترب من خاتمته . فما هى الا ضربة واحدة حتى ينتهى كل شيء ، ويزول كل قناع . أما مصيرى أنا ، وهو مرتبط بهذا كله أيضا ، فكنت لا أكاد أحفل به .

ما أغرب هــذه الحالة النفســية التى أنا فيها : ليس فى جيبى

الا عشرون فردريكا ، وأنا بعيد عن وطنى ، بلا مركز ، بلا موارد ، بلا أمل ، بلا مشاريع ، الخ .. ثم لا يقلقنى ذلك ! ولولا أن پاولين ماثلة فى ذهنى ، اذن لاستسلمت استسلاما تاما لهذا الاهتمام بالخاتمة القريبة التى ستختتم بها هذه المهزلة ، ولضحكت ملء صدرى . ولكن پاولين تبث فى نفسى الاضطراب . اننى أحس أن مصيرها سيتقرر قريبا. ومع هذا فأنا أعترف أن ذلك ليس ما يشغل بالى . لعلنى أتمنى أن أنفذ الى أسرارها ، أن تجىء الىّ فتقول « أنت تعلم أننى أحبك » ، والا فما الذى أرغب فيه ، اذا لم تكن هذه الفكرة الجنونية ممكنة التحقيق ؟ هل أعرف ما الذى أرغب فيه ؟ اننى كالذى فقد صوابه . ان كل ما أريده هو أن أبقى قريبا منها ، فى الهالة التى تحيط بها ، فى الاشعاع الذى يصدر عنها ، الى الأبد ، مدى الحياة . لا أعرف أكثر من هذا .. هل أطيق أن أبتعد عنها ؟

فلما بلغت الطابق الثالث شعرت ، فى دهليزهم ، بما يشبه الصدمة؛ فالتفت فاذا أنا ألمح پاولين على مسافة عشرين خطوة خارجةً الى الممر. لكأنها كانت تتربص بى ، وتتجسس على ، وسرعان ما أومأت الىّ أن أقترب .

هتفت :

ـــ پاولين ألكسندروڤنا ..

فأمرتنى بقولها :

ـــ أخفض صوتك .

فقلت بصوت خافت :

ـــ تصورى أننى أحسست فى هذه اللحظة بما يشبه ضربة فى جنبى ، فالتفت فاذا أنا أراك ! لكأن شعاعا يخرج منك .

قالت پاولين وقد بان فى وجههـــا التجهم والهم (وأغلب الظن أنها لم تسمع كلامى) :

ـــ خذ هــذه الرسالة فاعطها مستر آســتلى حــالا . فورا . أرجوك . ولن يعطيك جوابا ، انه ..

ولم تتم پاولين جملتها .

قلت مدهوشا :

ـــ أعطى الرسالة الى مستر آستلى ؟

ولـكن پاولين كانت قد اختفت .

ـــ هـكذا اذن . ان بينهما مراسلة ..

وهرعت طبعا أبحث عن مستر آستلى : ذهبت أولا الى الفندق فلم أجده ، ثم مضيت الى الـكازينو فطفت فى جميع قاعاته فلم أجده، وفيما كنت أعود الى المنزل حانقا غاضبا يائسا ، رأيته مصادفة مع موكب من الانجليز ، رجال ونساء على ظهور الجياد . فأشرت اليه ، فوقف ، فناولته الرسالة . ولم يتسع الوقت لأن نتبادل كلمة واحدة . وأظن أن مستر آستلى قد تعمد ذلك ، فانه ما ان تناول الرســالة حتى لـكز حصانه يستحث خطاه !

هل كانت الغيرة تعــذبنى ؟ لقد كنت منهـــارا انهيارا كاملا . لم أشأ حتى أن أستطلع موضوع المراسلة . هو موضع سرها ومحل ثقتها اذن ! أما أنه صديقها فذلك واضح (منذ متى ؟) ، ولـكن

هل بينهما حب ؟ همس لى عقلى قائلا : « حتما لا » . ولكن العقل وحده ليس له كبير وزن فى مثل هذه الحوادث . وكيف كان الحال ، يجب علىّ أن أُخرج هذا أيضا الى النور . كانت الأمور تنعقد تعقدا مزعجا .

ما كدت أدخل الفندق حتى هرع الىّ البواب ورئيس الخدم يبلغانى أن الجماعة طلبتنى ، وأنها تسأل عنى ، وأنها أرسلت ثلاث مرات حتى الآن تستطلع عن المكان الذى ذهبت اليه ، وأنها ترجونى أن أمضى الى منزل الجنرال بأقصى سرعة . كنت معتكر المزاج مضطرب النفس . وجدت الجنرال فى حجرته ومعه دى جريو ، ومدموازيل بلانش ، وحدها دون أمها ؛ لا شك أن هذه الأم كانت تمثل دور من له شأن ، وهى فى حقيقة الأمر لا شأن لها البتة . فمتى كان هناك « قضية » حقا ، رأيت مدموازيل بلانش تصرّف الأمور وحدها ؛ بل اننى لأشك فى أن تكون هذه المرأة على علم بشئون ابنتها المزعومة .

كانوا يتناقشون فى كثير من الحرارة والاندفاع ، حتى أن باب الغرفة كان مقفلا بالمفتاح ، وذلك أمر لم يسبق أن حدث يوما . سمعت ، حين اقتربت من الباب ، صيحات متدفقة : سمعت لهجة دى جريو الوقحة الساخرة المستهزئة ، وسمعت الشتائم الحانقة البذيئة تطلقها مدموازيل بلانش ، وسمعت الصوت المتباكى ، صوت الجنرال الذى كان واضحا أنه يحاول أن يبرىء نفسه . فلما دخلت عليهم ثابوا الى أنفسهم ، وأصلحوا وضعهم . فها هو ذا دى جريو يعدل شعره ويصنع لنفسه وجها باسما : يا لهذه البسمة الفرنسية ،

المتظـرفة ، الرسمية ، كم أمقتهـا ! وهذا هو الجنرال ، المرهق ، الطائش اللب ، ينتصب ، ولكن بحـركة تشبه أن تكون آلية . ان مدموازيل بلانش وحدها لم تكد تغير هيئة الغضب والحنق فى وجهها ، فصمتت وهى تحدق الى بنظرة نافدة الصبر . يجب أن أذكر هنا أنها كانت الى ذلك الحين تعاملنى معاملة فيها من قلة الاكتراث ما لا يصدقه عقل ، فهى ترفض حتى أن ترد على تحياتى وتتجاهل وجودى تجاهلا كاملا .

ابتدرنى الجنرال يقول لى بلهجة عتب ودود :

ــ الكسى ايفانوفتش ! اسمح لى أن ألفت نظرك الى أنه من الغريب ، من الغريب كل الغرابة .. أقول باختصار ان سلوكك نحوى ونحو أسرتى .. أقول بايجاز ان هـذا السلوك عجيب ، غريب الى أقصى حدود الغرابة .

ــ ليس هذا هو الموضوع ..

هكذا قاطعه دى جريو بحنق يمازجه احتقار (كان لابد أن يتدخل فى كل أمر ..) ؛ وأردف يقول :

ــ يا سيدى العزيز ، يا سيدى العزيز ، ان الجنرال يخطىء حين يتخذ هـذه اللهجة (تابعت كلامه بالروسية) . انه يريد أن يقول لك ، أعنى أن ينبهك ، أو قل أن يرجوك ملحا أن لا تضيعه ، نعم أن لا تضيعه ! وأنا أستعمل هذا التعبير صراحة ..

فقاطعته قائلا :

ــ ولكن كيف ؟ كيف ؟

قال دى جريو مرتبكا :

ـــ اسمح لى ، لقد جعلت من نفسك اليوم دليلا (أو ماذا أقول؟) نعم ، جعلت من نفسك دليلا لهذه السيدة العجوز ، لهذه العجــوز الرهيبة . ولكنها ستخسر ، ستخسر آخر قرش تملكه ! لقد رأيت بنفسك كيف تلعب ، لقد شهدت ذلك بنفسك . فاذا أخذت تخسر ، فلن تترك مائدة القمار بعد ذلك قط ، عنادا واصرارا أو حنقا وغيظا، وستقامر بكل شيء ، ستقامر بكل شيء ! ان المرء فى مثل هذه الحالة لا يئوب الى رشده ، وعندئذ ، عندئذ ..

قال الجنرال مؤيدا :

ـــ وعندئذ ستضيع الأسرة كلها .. اننا ، أنا وأسرتى ، ورثتها ، فليس هناك من هو أقرب اليها منا . وانى لأقول لك بصراحة : ان أمورى مضطربة ، مضطربة أشد الاضطراب . ولعلك تعرف طرفا من ذلك .. فاذا خسرت مبلغا ضــخما أو اذا خسرت ثروتهــا كلها وهذا ممكن (يارب !) ، فما عسى أن يصير اليه أولادى (قال الجنرال ذلك وهو يلقى نظرة على دى جريو) ، وما عسى أن أصير اليه أنا (قال هذا ونظر الى مدموازيل بلانش التى أشاحت وجهها باحتقار). أنقذنا يا ألكسى ايڤانوڤتش !

قلت :

ـــ ولكن كيف يا جنرال ، قل لى كيف أستطيع أن .. أية سلطة لى عليها ؟

قال :

ـــ أرفض ، أرفض ، اتركها !..

فصحت أقول :

ـــ سيوجد شخص آخر ..

فقال دى جريو مقاطعا مرة أخرى :

ـــ ليس هذا هو الموضوع ! ليس هذا هو الموضوع ! لا لا تتركها ، ولكن عظها ، انصحها ، اصرفها عن القمار .. أو لا تدع لها أن تخسر كثيرا ، سلّها بطريقة من الطرق .

فقلت مصطنعا السذاجة :

ـــ ولكن كيف أفعل ؟ ليتك تتولى هذا الأمر بنفسك يا مسيو دى جريو !

فما ان قلت هذا الكلام حتى رأيت نظرة سريعة ، محرقة ، متسائلة ، تلقيها مدموازيل بلانش على دى جريو . فاذا بوجه دى جريو يتخذ ، فى مدى لمحة طرف ، تعبيرا خاصا صادقا لم يستطع اخفاءه .

ـــ المصيبة أنها لن تقبل هذا فى أغلب الظن !

كذلك هتف دى جريو وهو يحرك يده باشارة عجز . أما اذا .. فيما بعد ..

ثم ألقى دى جريو نظرة ذات دلالة على مدموازيل بلانش .

فاذا بمدموازيل بلانش نفسها تجىء الىّ وهى تبتسم ابتسامة فاتنة ، فتتناول كلتا يدى ، وتشد عليها ، وتقول لى :

ـــ عزيزى السيد ألكسى ، كن طيبا ، كن شهما .

ان هذا الوجه الشيطانى يعرف كيف يتحول على الفور ! ان وجهها يعبر الآن عن ضراعة كبيرة ، ولطف عظيم ، الى ابتسامة كابتسامة الأطفال ، ومكر كمكر الأطفال . حتى لقد توجهت الىّ ، فى ختام عبارتها ، بغمزة عابثة مختلسة ؛ أتراها تريد أن تغزونى ؟ انها تعرف كيف تفعل ذلك ، ولكن الأسلوب كان هنا مفضوحا !

وانبجس الجنرال وراءها (نعم «انبجس» ، هذه هى الكلمة)، فأخذ يقول لى متوسلا :

ـــ ألكسى ايڤانوڤتش ، اغفر لى الطريقة التى استعملتها فى التعبير منذ هنيهة ؛ ليس ذلك ما كنت أريد أن أقوله تماما . فانما أنا أرجوك ، بل أضرع اليك ، وأنحنى لك حتى الحزام على الطريقة الروسية . أنت وحدك ، وحدك تستطيع أن تنقذنا ! أنا ومدموازيل دى كومنج نتوسل اليك ، نبتهل اليك . أنت فاهم ، أنت فاهم ، أليس كذلك ؟

قال هذه العبارة الأخيرة وهو يدلنى بنظرته على مدموازيل بلانش . كان يـرثى لحاله حقا ، كان يبعث على الشفقة .

وفى هذه اللحظة نقر الباب ثلاث نقرات خفيفة مهذبة . فلما فتح للطارق ، ظهر خادم الطابق ، وظهر وراءه ، على مسافة بضع خطوات ، پوتاپتش واقفا . لقد أرسلتهما الجدة ، وأمرتهما أن يبحثا عنى ، وأن يجيئوها بى حالا .

قال پوتاپتش :

ـــ انها غاضبة .

قلت :

ـــ ولكن الساعة لم تتجاوز الثالثة والنصف .

ـــ لم تستطع أن تنام ، لم تزد على أن التفتت ، ثم اذا هى تنتصب فجأة ، فتطلب كرسيها ، وترسل تستدعيك . هى الآن على باب الفندق .

صاح دى جريو يقول :

ـــ امرأة فظيعة .

ووجدت الجدة فعلا عند فسحة المدخل ، حانقة من غيابى - لم تطق الانتظار حتى الساعة الرابعة .

صاحت حين رأتنى :

ـــ هيا . قدنى الى هناك !

وعدنا الى الروليت .

الفصل الثاني عشر

كانت الجدة مهتاجة اهتياجا شديدا وكان واضحا أن الروليت تحاصر فكرها انها لا تنتبه الآن الى شيء آخر غير الروليت ، وتبدو ذاهلة ذهولا قويا على وجه العموم. من ذلك مثلا أنها لم تلق عليّ أسئلة أثناء الطريق كما فعلت في الصباح . وحين لمحت عربة فخمة تتبختر أمامنا ، حركت يدها قليلا تسألنى عن صاحب العربة ، ولكنها لم تسمع جوابى فى أغلب الظن . وكان يقطع استرسالها فى الأحلام حركات متقطعة تنبىء عن نفاد الصبر ، هيجانات مفاجئة ليست فى الحسبان . حتى اذا اقتربنا من الكازينو ، فرأيت البارون والبارونة ڤورمرهلم ، فأشرت اليهما وسميتهما ، نظرت اليهما نظرة ذاهلة تدل على أنها لا تكترث للأمر أقل اكتراث ، ولم تزد على أن قالت: « هه ! » وهى تلتفت بحركة قوية نحو پوتاپتش ومارتا اللذين كانا يتبعانها ، فتقول لهما :

— ما لكما تلازمانى ؟ لن أصحبكما فى كل مرة ! عودا ..

وأضافت تقول لى حين انصرف الآخران بعد أن ودعاها بتحية سريعة :

— أنت تكفينى .

كانت الجدة تنتظر فى الكازينو . وسرعان ما حجز لها المكان نفسه ، قرب القيِّم . يخيل الىَّ أن هؤلاء القيميِّين الذين يظهرون بمظهر الموظفين المتجردين الذين يكاد يستوى عندهم أن تربح الخزنة أو أن تخسر ، ليسوا فى حقيقة الأمر غير مبالين بالخزنة. فلا شك أنهم مزودون بتعليمات لاجتذاب المقامرين ، والحرص على مصالح الضرائب ، ولا شك أن هذا يعود عليهم بمكافآت وهبات . ان أقل ما يقال هو أنهم كانوا ينظرون منذ الآن الى الجدة نظرتهم الى ضحية .

ووقع ما كان يتوقعه جماعتنا . واليكم كيف جرت الأمور :

اختارت الجدة الصفر رأسا ، وأمرتنى أن أحط اثنى عشر فردريكا دفعة واحدة . فحططنا مرة أولى ، فمرة ثانية ، فمرة ثالثة .. ولكن الصفر لم يظهر . فكانت الجدة ما تنفك تلكزنى بكوعها نافدة الصبر قائلة : « استمر ، استمر » . فكنت أطيع الأوامر .

وسألتنى أخيرا وهى تصر بأسنانها من شدة الغيظ والحنق :

— كم مرة لعبنا ؟

— اثنتى عشرة مرة . وقد خسرنا مائة وأربعة وأربعين فردريكا. أعود فأقول لك ، قد يجىء المساء قبل أن ..

فقاطعتنى تقول :

ـــ اسكت . حط على الصفر ، وحط ألف فلورين أيضا على الأحمر . هاك ورقة نقدية .

فخرج الأحمر ، ولكن الصفر امتنع عن الخروج فى هذه المرة أيضا . ولمحت الألف فلورين .

قالت الجدة بصوت خافت :

ـــ أرأيت ؟ أرأين ؟ ها نحن استرجعنا كل ما خسرناه . حط أيضا على الصفر . وسننصرف بعد عشر دورات .

ولكن العجوز استغنت عن الصفر بعد خمس دورات .

قالت لى آمرة :

ـــ دعك من هذا الصفر المنحوس . خذ . حط أربعة آلاف فلورين على الأحمر .

فتضرعت اليها قائلا :

ـــ هذا كثير يا جدة ! .. ماذا اذا لم يخرج الأحمر ؟ ولكنها أوشكت أن تضربنى (هذا الى أن لكزات كوعها كانت لطمات حقا) ، وكان لابد من الامتثال لأمرها ، فوضعت على الأحمر الأربعة آلاف فلورين التى ربحناها فى الصباح . وأخذت الدائرة تدور . كانت الجدة هادئة ، منتصبة القامة ، معتزة ، واثقة من أنها ستربح .

صاح القيِّم :

ـــ صفر .

فلم تفهم الجدة فى أول الأمر ؛ ولكنها حين رأت القيّم يلم ألوفها الأربعة من الفلورينات مع كل ما كان موجودا على المائدة ، فأدركت أن الصفر الذى ظل مختفيا طوال تلك المدة والذى حططنا عليه ما يقرب من مائتى فردريك ، قد ظهر الآن ، كأنما عن عمد وقصد ، بعيد أن أهانته وهجرته ، صرخت صرخة تعجب ، وصفقت كفا بكف صفقا مدويا . فأخذ الناس من حولها يضحكون .

صرخت الجدة بصوت حاد تقول :

ـــ يا قديسى الجنة ! ها هو ذا يخرج الآن ، هذا الجرو ! الذنب ذنبك . هذا كله ذنبك (قالت ذلك وهى تهجم علىّ حانقة وتأخذ تنكعنى) . أنت ثنيتنى عن الصفر .

ـــ يا جدة ، أنا حاولت أن أردك الى التعقل ، ولستمسئولا عن جميع الحظوظ .

فجمجمت تقول بلهجة التهديد :

ـــ لسوف أعطيك حظوظا . هيا انصرف !

قلت وأنا أتحول عنها كمن يريد أن ينصرف :

ـــ وداعا يا جدة .

ـــ ألكسى ايفانوفتش ، ألكسى ايفانوفتش ! ابق معى . الى أين أنت ذاهب ؟ ابق ، ابق قليلا أيضا . أنا الحمقاء . أنا الغبية . قل لى الآن ما يجب أن نفعل .

ـــ لن أنصحك بشىء بعد الآن يا جدة ، حتى لا تلومينى . العبى بنفسك . أنت تأمرين ، وأنا أحط .

— طيب طيب : حط أيضا أربعة آلاف فلورين على الأحمر . اليك محفظتى (قالت ذلك وهى تخرج محفظتها من جيبها وتمدها الىّ) . أسرع . فيها عشرون ألف روبل .

تمتمت أقول :

— يا جدة ! هذه مبالغ ..

— أوثر أن أشنق على أن لا أسترد . حط .

فحططنا وخسرنا .

— حط أيضا . حط أيضا . حط ثمانية آلاف دفعة واحدة .

— هذا محظور ياجدة . الحد الأقصى الذى يجوز حطه هو أربعة آلاف .

— حط اذن أربعة آلاف .

فربحنا فى هذه المرة . فاستردت الجدة شجاعتها .

قالت لى وهى تلكزنى بكوعها :

— أرأيت ؟ أرأيت ؟ حط أربعة آلاف أخرى .

فحططنا ، فخسرنا ، ثم حططنا ثم خسرنا ..

قلت لها مبلّغا :

— ضاعت الاثنا عشر ألف فلورين يا جدة .

فأجابتنى بنوع من الحنق الهادىء ان صح التعبير :

— أعرف أنها ضاعت .

ثم أضافت مدمدمة ، وهى جامدة النظرة كأنها تفكر :

ـــ أعرف أنها ضاعت يا عزيزى ، أعرف . هيه ! سوف أخسر هنا جلدى نفسه . ولكن لا ضير .. حط أربعة آلاف فلورين أخرى .

ـــ لم يبق معنا نقود يا جدة . لم يبق فى محفظتك الا صكوك روسية بفائدة خمسة فى المائة ، وبضعة سندات ؛ أما المال فلا مال .

ـــ وفى كيسى ؟

ـــ نقود صغيرة يا جدة .

فقالت الجدة بلهجة قاطعة :

ـــ ألا يوجد هنا صرافون ؟ لقد قيل لى ان فى وسعنا أن نبدّل جميع ما معنا من سندات وصكوك .

ـــ تستطيعين تبديل كل ما تريدين تبديله . ولكنك ستخسرين فى عملية التبديل .. ألا ان يهوديا ليرتعش من هذا .

ـــ سخافات ! أريد أن أسترد مالى . قدنى الى الصرافين . استدع هؤلاء الأوغاد .

فدحرجت الكرسى ، وهرع الحمالون يدركوننا ، وخرجنا من الكازينو .

قالت الجدة آمرة :

ـــ مزيدا من السرعة ، مزيدا من السرعة ! أرنى الطريق يا ألكسى ايفانوفتش .. خذنا الى أقرب صراف .. أهو بعيد ؟

ـــ على مسافة خطوتين يا جدة .

ولكن ، عند المنعطف ، حين اجتزنا الساحة وسلكنا طريق أشجار الكستناء ، صادفنا جماعتنا كلها : الجنرال ودى جريو ومدموازيل بلانش وأمها ، ولم تكن پاولين ألسكندروفنا معهم ، ولا مستر آستلى .

— هيا بنا ، هيا بنا . لن نتوقف . ما ذا تريدون ؟ ليس فى وقتى متسع لكم !

كذلك صاحت الجدة .

وكنت أسير فى الخلف ، فلحق بى دى جريو ، فقلت له بصوت خافت على عجل :

— خسرت كل ما ربحته فى الصباح ، واثنى عشر ألفا زيادة . ونحن ذاهبون نبدل سندات فائدتها خمسة فى المائة . فضرب دى جريو الأرض برجله ، وهرع ينبىء الجنرال بالخبر . وكنا ما نزال ندفع كرسى الجدة .

فتمتم الجنرال يقول لى وقد جن جنونه غضبا :

— امنعها ، امنعها .

فأجبته :

— حاول ذلك أنت !

فقال الجنرال وهو يقترب :

— يا عمتى ، يا عمتى الطيبة .. نحن ذاهبون .. نحن ذاهبون (كان صوته يرتجف ثم تكسر) نستأجر جيادا لنقوم بجولة فى البرية.. منظر رائع .. القمة .. كنا آتين لندعوك أن تصحبينا .

فقالت الجدة بحركة من نفد صبره لتدفعه عنها :

ـــ اذهب أنت وقمتك الى الشيطان !

فاستأنف الجنرال يقول وقد فقد الأمل فى هذه المرة :

ـــ يوجد هنالك قرية .. نحتسى فيها الشاى ..

وأضاف دى جريو بلهجة تنم عن عداوة كاسرة :

ـــ وسنشرب لبنا على العشب الطرى الأخضر .

لبن ، عشب طرى أخضر ، ذلك أقصى ما يتخيله باريسى من متعة شعرية ؛ ذلك هو ، كما تعرفون ، كل نص والحقيقة .

قالت الجدة :

ـــ لا يهمنى لبنك . اذهب فاشرب منه وحدك . أ، يؤذى معدتى . لماذا تلح ؟ قلت ان وقتى لا يتسع !

صحت أقول للجدة :

ـــ وصلنا يا جدة !

ودفعنا كرسيها نحو المكان الذى يوجد فيه مكتب ومضيت أنا أتولى تبديل السندات ، ولبثت الجدة تنتظرنى وظل دى جريو والجنرال وبلانش بعيـــدين لا يعرفون صانعين . ورشقتهم الجدة بنظرة غضبى ، فساروا فى الكازينـــو .

عرض علىّ الصراف سعرا بخسا جدا ، فترددت و ع الجدة ما تأمر به .

فصاحت الجدة وهى تصفق يدا بيد :

— آ .. يا لهم من لصوص ! ولكن اقبل مع ذلك .

ثم قالت لى متداركة :

— انتظر . ادع لى صاحب المصرف .

— بل أحد الموظفين يا جدة !

— سيان . أدع أحد الموظفين . آه .. يا للصوص !

ورضى الموظف أن يخرج حين علم أن التى تستدعيه كونتيسة عجوز ، ضعيفة عاجزة . فألقت عليه العجوز خطابا طويلا ، وصفته فيه بأنه نشال ، وبأنه مختلس ، وبأنه .. وكان خطابها مزيجا من روسية وانجليزية وألمانية ، فكنت مضطرا أن أترجمه له . فكان الموظف ، القاسى الوجه ، ينظر الينا كلينا هازا رأسه دون أن ينبس بكلمة ؛ حتى لقد كان يتفرس فى الجدة باستطلاع ملحاح يقارب قلة الأدب . ثم أخذ يبتسم .

صرخت الجدة تقول :

— طيب طيب .. هيا .. ان شاء الله يخنقك مالى . بدل عنده يا ألكسى ايفانوفتش ، ليس لدينا متسع من الوقت ، فان لم نبدل عنده كان علينا أن نمضى الى غيره ..

— هو يدعى أن غيره يعطى سعرا أبخس من سعره .

لا أتذكر الآن كم كانت « العمولة » على وجه الضبط ، ولكنها كانت رزية . قبضت اثنى عشر ألف فلورين ، دنانير ذهبية وأوراقا نقدية ، وأخذت فاتورة الحساب ، ومضيت بها الى الجدة .

قالت الجدة وهى تحرك يدها :

— طيب طيب . لا داعى الى الغد . أسرع . أسرع .

حتى اذا صرنا قرب الكازينو دمدمت قائلة :

— لن أحط شيئا بعد الآن قط لا على الصفر المنحوس ولا على الأحمر .

وحاولت فى هذه المرة ، بكل ما أوتيت من قوة ، أن أقنعها بأن لا نحط الا مبالغ ضئيلة فى أول الأمر ، حتى اذا رأينا الحظ يواتينا أخذنا نحط مبالغ ضخمة . ولكنها كانت نافدة الصبر ، فرغم أنها استجابت لحججى فى البداية ، لم تستطع أن تملك زمام نفسها أثناء اللعب . وما ان أخذت تربح عشر فردريكات أو عشرين حتى راحت تلكزنى بكوعها قائلة :

— أرأيت ؟ أرأيت ؟ لقد ربحنا ، فلو قد حططنا أربعة آلاف فلورين بدلا من عشر ، اذن لربحنا أربعة آلاف . أما الآن .. ان الذنب فى ذلك كله ذنبك .

فقررت أخيرا أن أصمت وأن أعدل عن اسداء النصح لها بتاتا رغم ما كنت أشعر به من غيظ حين أراها تقامر بهذه الطريقة .

وها هو ذا دى جريو ينبجس على حين فجأة . لقد كانوا هنا الثلاثة فى أطراف القاعة . لاحظت أن مدموازيل بلانش كانت منتحية جانبا مع أمها فى صحبة الأمير القصير تلاطفه وتتودد اليه . وكان واضحا أن الجنرال منبوذ ، حتى ليكاد يكون منفيا . ان مدموازيل بلانش ترفض حتى أن تنظر اليه ، رغم تقربه منها واحتفاله بها . مسكين

هذا الجنرال ! لقد كان يصفر ويحمر ويرتعش ، منصرفا حتى عن مراقبة مقامرات الجدة . وخرجت بلانش أخيرا مع الأمير ، فهرع الجنرال يعدو فى اثرهما .

قال دى جريو موشوشا الجدة بصوت متلطف متظرف :

ـــ مدام ، مدام .. هذا اللعب لن يربح .. مستحيل .

قال ذلك بلغة روسية رديئة .

فسألته الجدة :

ـــ فماذا أفعل اذن ؟ قل لى ما ترى أن أفعله !

فأخذ دى جريو يتكلم بالفرنسية متدفقا ، ويسدى النصائح تلو النصائح ، ويقول انه كان عليها أن تنتظر موافاة الحظ ، حتى لقد أخذ يجرى بعض الحسابات . لم تفهم الجدة شيئا . وكان دى جريو يلتفت الىّ فى كل لحظة من أجل أن أترجم . وكان يسدد اصبعه نحو المائدة يظهر الجدة على ما يريد اظهارها عليه ، وتناول آخر الأمر قلما فألقى على الورق بعض الأرقام . فنفد صبر الجدة ، فقالت له :

ـــ امض ، امض ! ما أراك قائلا الا خزعبلات : « مدام ، مدام ». وأنت لا تفقه شيئا ! هيا اذهب .

فتمتم دى جريو يقول مستأنفا التوضيح والشرح ، وكان جلياً أنه كالملسوع :

ـــ ولكن يا مدام ..

فأمرتنى الجدة قائلة :

ــــ طيب .. حط مرة كما يقول : فقد ينجح نصحه .

كان كل ما يريده دى جريو أن يمنعها من حط مبالغ ضخمة : فاقترح عليها أن تحط على الأرقام منفصلة متسلسلة . فاتبعت رأيه ، فحطت فردريكا على سلسلة من الأعداد الشفعية فى الاثنىعشر الأولى، وحطت خمسة فردريكات على مجموعات من الأرقام من اثنى عشر الى ثمانية عشر ومن ثمانية عشر الى أربع وعشرين : وبذلك حططنا مبلغا مقداره ستة عشر فردريكا . وأخذت الدائرة تدور .

ــــ صفر .

بهذا صاح القيِّم . فخسرنا كل ما حططناه .

هتفت الجدة ملتفتة نحو دى جريو تقول :

ــــ ما هذا القوق الذى جاءنا ! ما هذا الفرنسى السخيف ! انظر الى هذا الطِرْح يسدى الينا بنصائحه ! هيا امض ، امض . لا يفقه شيئا ثم يحشر أنفه فى كل شىء !

فاستاء دى جريو استياء فظيعا ، فرفع كتفيه استخفافا ، وألقى على الجدة نظرة احتقار ، ثم انسحب . لقد شعر بالعار من تدخله فى شأنها وتعريض نفسه للمهانة منها ، ولكنه لم يطق أن يمنع نفسه عن ذلك .

وما انقضت ساعة واحدة ، الا وقد خسرنا كل شىء ، رغم جميع الجهود المستميتة .

صرخت الجدة قائلة :

ــــ لنعد الى المنزل .

فخرجنا . ولم تنبس الجدة بكلمة واحدة طوال مسيرتنا حتى بلغنا طريق أشجار الكستناء . وهناك ، فى هذا الطريق ، حين أوشكنا أن نصل الى الفندق ، أفلتت من لسانها عبارات كهذه :

— يا لى من بلهاء ! يا لى من حمقاء ! ما أنا الا عجوز غبية ..

حتى اذا صرنا فى مسكنها صاحت تقول :

— الىّ بشىء من الشاى . ولنتهيأ للسفر رأسا بعد ذلك . سوف نسافر .

قالت مارتا مجازفة :

— الى أين تريدين أن تذهبى يا سيدتى الطيبة ؟

فأجابتها الجدة :

— أهذا شأنك ؟ اهتمى بأمورك أنت . يا پوتاپتش ، هيىء جميع الأمتعة . نحن عائدون الى موسكو . لقد خسرت خمسة عشر ألف روبل فضة .

— خمسة عشر ألفا ، يا سيدتى العزيزة ؟ رباه رباه !

هكذا صاح پوتاپتش ، وهو يضرب كفا بكف ، مظهرا الاشفاق والحزن ، لاعتقاده أن هذا يرضى سيدته .

— هيا هيا أيها الغبى ! ها هو ذا قد أخذ يتباكى ! أسكت . وامض هيىء السفر . وليأتونى بفاتورة الحساب بأقصى سرعة .

قلت من أجل أن أهدىء روعها :

— يسافر القطار التالى فى الساعة التاسعة والنصف ، يا جدة .

ـــ وكم الساعة الآن ؟

ـــ السابعة والنصف .

ـــ شيء مضـــجر ! لا بأس ! ألكسى ايفانوفتش ، لم يبق معى قرش واحد . اليـــك بهاتين الورقتين النقديتين ، فأسرع الى هنـــاك لتبديلهما ، والا لم يكن معى ما أسافر به .

فخرجت ممتثلا لأمرها . حتى اذا رجعت بعد نصف ساعة وجدت جميع أصدقائنا عند الجدة . كانوا كمن أذهلهم نبأ رحيلها المفاجىء الى موسكو ، أكثر مما أذهلهم نبأ الخسارة التى منيت بها فى الروليت. ما عسى أن يصير اليه الجنرال بعد رحيلها ، مع التسليم بأن رحيلها هذا ينقذ ثروتها من الضياع ؟ من ذا الذى سيرد الى دى جريو ديونه ؟ ان مدموازيل بلانش لن تنتظر موت الجدة ، ولا شك أنها ستنسل مع الأمير الصغير أو مع شخص آخر . لقد كانوا جميعا هنالك ، أمام الجدة ، يحاولون أن يواسوها وأن يردوها الى الصواب . وكانت پاولين غائبة فى هذه المرة أيضا . وكانت الجدة تصليهم نارا من السب المقذع والشتم القاسى .

ـــ ابعدوا عن طريقى أيها الجن ! لماذا تتدخلون فى شئونى ؟ فيم تأتى لحية التيس هذا فتتحكك بى ؟ (بهذا كانت الجدة تصيح فى وجه دى جريو) . وأنت يا ببغاء ، ماذا تريدين ؟ (بهذا قذفت مدموازيل بلانش) مالك تنهزين ؟ .

كانت عينا مدموازيل بلانش تقـــدح شررا من شـــدة الغضب ، فما لبثت أن دمدمت تقول :

ـــ يا للشيطان ! ..

ولكنها انفجرت تقهقه على حين فجأة ، ثم مضت تخرج من الغرفة. حتى اذا صارت على الباب صرخت تقول للجنرال :

ـــ لسوف تعيش مائة عام .

فصاحت الجدة بصوت حاد تقول للجنرال :

ـــ اذن فأنت تعوّل على موتى ! هيا أغرب عن وجهى . يا ألكسى ايفانوفتش ، اطردهم جميعا ! ما شأنكم أنتم ؟ لقد خسرت مالى أنا لا مالكم أنتم !

فرفع الجنرال كتفيه ، وحنى ظهره ، وخرج . وتبعه دى جريو .

قالت الجدة تأمر مارتا :

ـــ ناد براسكوفيا .

فما هى الا خمس دقائق حتى عادت مارتا مصطحبة پاولين . لقد ظلت پاولين طوال تلك الفترة فى غرفتها مع الأطفال (لا شك أنها قررت عامدة أن لا تخرج فى ذلك النهار) . وكان وجهها ينم عن حزن وهم .

بادرتها الجدة بقولها :

ـــ أصحيح يا پراسكوفيا ما علمته منذ قليل على نحو غير مباشر من أن زوج أمك يريد أن يتزوج تلك المرأة المذبذبة ، تلك«الفرنسية» التى لا أدرى أهى ممثلة أم هى شر من ذلك أيضا ؟ قولي أصحيح هذا؟

فأجابت پاولين :

ـ لا أعلم شيئا علم اليقين يا جدة ، ولكننى أستنتج من أقوال

مدموازيل بلانش التى لا ترى أن من المفيد أن تخفى الأمر ، أستنتج أن ..

فقاطعتها الجدة قائلة بلهجة قوية :

ـــ كفى . فهمت كل شيء ! ولقد كنت دائما أقدر أنه سينتهى الى هذه النهاية ، وكنت دائما أعده أفرغ رجل وأطيش رجل على وجه الأرض . انه يتباهى برتبة الجنرال التى يحملها (وقد أخذها حين أحيل على التقاعد وهو فى رتبة كولونيل) ، ويتخذ أوضاع الأبهة والعظمة . ولكننى أعرف كل شيء يا عزيزتى ؛ أعرف أنكم أرسلتم البرقية تلو البرقية الى موسكو تسألون : « هل ماتت الجدة العجوز ؟ هل هى مشرفة على الموت ؟ » . هذا هو معنى تلك البرقيات . كنتم تنتظرون أن ترثونى . ولولا هذا المال لما كان لهذه المخلوقة (ما اسمها ؟ دى كومنج فيما أظن !) أن ترضاه خادما لها بأسنانه المصنوعة هذه ! يقال انها تملك مالا كثيرا ، وانها تقرض بالربا ، وانها كوّنت لنفسها كنزا خبيثا . لست أتهمك يا پراسكوفيا ، فما أنت التى أرسلت البرقيات ، ولا أريد أن أعود الى الماضى . أنا أعلم أن لك طبعا سيئا.. أنا أعلم أنك .. زنبور .. اذا لسع أوجع وأورم ! ولكننى أشعر بالشفقة عليك ، لأننى كنت أحب والدتك المرحومة كاترين . فاسمعى ما سأقوله لك : دعى كل هذا ، وتعالى معى . ليس هناك مكان تذهبين اليه ، وليس يليق بك أن تبقى معهم الآن . انتظرى ، (قالت الجدة ذلك لپاولين حين همت پاولين أن تجيبها) لم أتم كلامى بعد . لن أطلب منك شيئا . أنت تعرفين منزلى بموسكو : انه قصر . لسوف تحتلين

طابقا بأسره اذا شئت ، وفى وسعك أن تسكنى أسابيع بكاملها دون أن تجيئى الىّ اذا كان طبعى لا يرضيك . أتقبلين أم لا ؟

— اسمحى لى أن ألقى عليك أولا هذا السؤال : أأنت تنوين حقا أن ترحلى على الفور ؟

— هل يظهر فى وجهى أننى أمزح ، يا صغيرتى ؟ قلت اننى سأسافر، فسأسافر . خسرت اليوم خمسة عشر ألف روبل فضة . فى هذه الروليت المنحوسة الملعونة .

لقد نذرت منذ خمس سنين أن أعيد بناء الكنيسة المبنية بخشب، والموجودة فى أراضىّ حوالى موسكو ، نذرت أن أعيد بناءها بحجر ؛ فبدلا من أن أحقق النذر ، رحت أدمر نفسى اليوم فى القمار . واننى أسافر الآن يا عزيزتى لأنفذ النذر فأعيد بناء كنيستى .

— والمياه المعدنية يا جدتى ؟ لقد جئت الى هنا للاستشفاء بالمياه المعدنية .

— دعينى من مياهك المعدنية ! لا تغضبينى يا پراسكوفيا ! أأنت تفعلين هذا عامدة ؟ قولى : أتجيئين معى أم لا تجيئين ؟

فبادرت پاولين تقول بانفعال وتأثر :

— أنا يا جدتى ممتنة أشد الامتنان لما تعرضينه علىّ من ايوائى فى منزلك . لقد حزرت بعض الوضع الذى أنا فيه . فأنا أشكر لك ذلك أجزل الشكر ، بل أبلغ من هذا الشعور بالجميل الذى تقدمينه لى أننى قد ألحق بك قريبا ، صدقينى . أما الآن فهناك أسباب .. هامة ..

فلا أستطيع أن أعزم أمرى وأتخذ قرارى على الفور . ولكن اذا مكثت هنا ولو خمسة عشر يوما ..

— اذن أنت لا تريدين ؟

— لا أستطيع . يضاف الى ذلك أننى لا أقدر على ترك أخى وأختى .. اذ يمكن أن يبقيا وحيدين .. فاذا كنت توافقين على ضم الطفلين يا جدتى ، فلا شك عندئذ فى أننى سأجىء اليك ؛ وثقى أننى سأكون جديرة بهذا (أضافت پاولين هذه العبارة الأخيرة بحرارة وحماسة) . أما بدون الأطفال ، فلا أستطيع يا جدتى ..

— طيب طيب .. دعيك من التباكى (والحق أن پاولين لم يخطر ببالها أن تتباكى ، ثم انها لم تذرف فى حياتها دمعة) سنجد مكانا للأفراخ : العش واسع سعة كافية . ثم انه قد آن للطفلين أن يذهبا الى المدرسة . اذن لن تسافرى الآن . حذار يا پراسكوڤيا ! اننى أريد لك الخير ، وأعلم لماذا لا تريدين أن تسافرى .. اننى أعرف كل شىء يا پراسكوڤيا ! لا تتوقعى خيرا من هذا الفرنسى الصغير الحقير .

احمرت پاولين احمرارا شديدا . وارتعشت أنا (كانوا جميعا يعلمون .. وكنت أنا الجاهل الوحيد) .

— لا أريد أن أفيض فى هذا الموضوع . ولكن حذار أن تقع كارثة .. هل تفهمين ما أريد أن أقول ؟ أنت فتاة ذكية ، ولسوف يحز فى نفسى أن يصيبك سوء . حسبى هذا الآن . ولا ترينى وجهك بعد اليوم ! هيا اذهبى . وداعا .

قالت پاولين :

ـــ سأصحبك يا جدتى ..

ـــ لا فائدة ، لسوف تزعجينني .. وقد غمرتمونى بالمزعجات حتى قمة الرأس .

قبلت پاولين يد الجدة ، ولكن الجدة سحبت يدها وقبلت الفتاة على خدها .

وحين مرت پاولين أمامى ألقت علىّ نظرة سريعة ، ثم أشاحت ببصرها عنى على الفور .

ـــ أودعك أنت أيضا يا ألكسى ايڤانوڤتش ! لم يبق لسفر القطار الا ساعة واحدة . وما أحسب الا أنك قد تعبت منى . خذ هـذه الخمسين فردريك .

قلت :

ـــ أشكر لك هذا أجزل الشكر يا جدة ولكننى لا أجرؤ أن ..

فصاحت الجدة تقول بصوت بلغ من العنف والتهديد أننى لم أتجاسر أن أرفض ، فتناولت المال .

وأضافت قولها :

ـــ اذا وُجدت يوما فى موسكو بغير وظيفة ، فتعـال الىّ لأوصى بك . والآن هيا انصرف ..

مضيت الى غرفتى وتمددت على سريرى . لبثت مستلقيا على ظهرى ، طاويا ذراعى تحت رأسى ، قرابة نصف ساعة . لقد انفجرت الكارثة ، وثمة ما يوجب التفكير . وقررت أن أحدث پاولين فى الغداة جادا . هـه ! الفرنسى الصغير . الأمر اذن صحيح ! ولكن

ما الذى عساه حدث ؟ پاولين ودى جريو ؟ يارب يارب ! أى تقارب هذا التقارب ؟ .

حقا ان هذا أمر لا يصدقه العقل . ورأيتنى أنهض فجأة وقد خرجت عن طورى ، لأمضى باحثا عن مستر آستلى على الفور ، ولأحمله على الكلام مهما كلف الأمر . لا شك عندى فى أنه يعرف عن هـذا الأمر أكثر مما أعرف . مستر آستلى ؟ ألا انه للغز هو أيضا ! .

ولكننى ما لبثت أن سمعت طرقا على باب غرفتى ، ففتحت لأرى من عسى يكون الطارق ، فوجدتنى أمام پوتاپتش .

— يا سيدى الطيب ألكسى ايڤانوڤتش ، ان سيدتى تطلب أن تجىء اليها .

— ماذا جرى ؟ هل عدلت عن الرحيل ؟ لم يبق لسفر القطـار الا عشرون دقيقة ؟ .

— انها مضطربة أشد الاضطراب يا عزيزى ، لا تكاد تستطيع الاستقرار فى مكانها . « أسرع ، أسرع ! » انها تطلبك أنت . ناشدتك الله لا تتأخر ! .

فنزلت حالا . فوجدت العجوز قد نقلت الى الدهليز ، وفى يدها محفظة نقودها . فما ان رأتنى حتى قالت :

— ألكسى ايڤانوڤتش ، سر أمامنا ، اننا ذاهبون الى هناك .

— الى أين يا جدة ؟ .

ـــ لسوف أسترد مالي ولو كان عليّ أن أهلك ! هيا ، امش . لا تلق عليّ أي سؤال . اللعب يستمر الى منتصف الليل ، أليس كذلك ؟ .

جمدت في مكاني مطرقا أفكر . ولكنني ما لبثت أن اتخذت قرارا .

ـــ لك ما تشائين يا أنطونين ڤاسيليڤنا . ولكنني لن أصحبك .

ـــ لماذا ؟ ما الذي جرى ؟ أية ذبابة لسعتكم جميعا ؟ .

ـــ لك ما تشائين يا جدة . ولكنني لا أريد أن أندم في المستقبل، لا أريد . لن أكون لا شاهدا ولا مشاركا . اعفيني من هذا يا أنطونين ڤاسيليڤنا ! اليك الخمسين فردريكا التي اعطيتنيها ، والوداع ! .

قلت هذا ووضعت لفة الدنانير الذهبية على منضدة صغيرة كانت موجودة الى جانب كرسي الجدة ، ثم حييت وانصرفت .

صاحت الجدة تقول :

ـــ ما هذه البلاهة ! طيب ، لا تجيء ، سأعرف الطريق بنفسي . تعال معي يا پوتاپتش . هيا جروني ! .

لم أعثر على مستر آستلي ، فعدت الى الفندق . وفي وقت متأخر من الليل ، في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، عرفت من پوتاپتش كيف انتهى يوم الجدة . لقد خسرت كل ما كنت قد بدلته لها ، أي عشرة آلاف روبل أخرى . ان الپولوني الذي سبق أن أهدت اليه دينارين ، قد تعلق بأذيالها ، ووجّه لعبها طوال الوقت . اعتمدت

فى أول الأمر على پوتاپتش ، ولكنها لم تلبث أن طردته . وفى تلك اللحظة انما ظهر البولونى . ومن المصادفات التى تشبه أن تكون مقصودة أن هذا البولونى كان يفهم اللغة الروسية ، وكان يرطن بعض الرطن بخليط من ثلاث لغات ، فأمكن أن يتفاهما . وكانت الجدة تقسو عليه قسوة شديدة وتغلظ له القول رغم أنه « يزحف بين قدميها زحفا » .

وأضاف پوتاپتش يحكى القصة قائلا :

ـــ لا وجه للمقارنة بينك وبينه يا ألكسى ايڤانوڤتش . لقد كانت تعاملك أنت معاملتها سيدا من السادة . أما الآخر (رأيته بأم عينى ، وليصعقنى الله صعقا ان كنت كاذبا) فقد كان يسرق مالها على مرأى منها ، حتى لقد ضبطته متلبسا بالجرم مرة أو مرتين ، فشتمته ، ووصفته بجميع الأوصاف ، بل لقد شدت شعره . صحيح . لست أكذب . وقد ضحك الناس من ذلك . خسرت كل شىء يا سيدى الطبيب : خسرت كل ما كان معها ، كل ما بدّلته لها . ورجعنا بها الى هنا ، السيدة العزيزة . فما زادت على أن طلبت كأسا من ماء ، ثم رسمت اشارة الصليب ، ومضت الى فراشها على الفور . أسأل الله أن يبعث اليها بأحلام ملائكية ! .

وختم پوتاپتش قصته قائلا :

ـــ آه آه من البلاد الأجنبية ! لقد قلت ان هذه الرحلة الى الخارج لن تأتى بخير . فلنعد بسرعة الى مدينتنا العزيزة موسكو . ماذا كان ينقصنا هنالك ؟.. حديقة جميلة ، وأزهار لا نرى لها هنا مثيلا ، وهواء نقى ، وأشجار غضة ، ومكان فسيح .. لا .. يجب أن نسافر الى الخارج . آه آه ..

الفصل الثالث عشر

منذ شهر تقريبا لم ألمس هذه المذكرات التى بدأت كتابتها وأنا نهب مشاعر مضطربة مشوشة لكنها قوية عنيفة . ان الكارثة التى كنت أحس اقترابها قد وقعت ، ولكنها جاءت أقوى وأسرع مما كنت أتصور ، مائة مرة . كان كل شىء عجيبا فاضحا ، بل فاجعا ، فيما يتصل بى أنا على الأقل . لقد وقعت لى أمور تشبه أن تكون معجزات ؛ أو هذا ما أراه فيها حتى الآن ، رغم أنها لا تكاد تستحق أن توصف الا بأنها استثنائية بعض الشىء ، اذا نحن نظرنا اليها من زاوية أخرى . ولكن المعجزة ، بالنسبة الىّ ، هى ذلك السلوك الذى سلكته وسط تلك الأحداث .. اننى مازلت عاجزا عن الفهم ! ولقد وقع ذلك كله كأنه حلم .. وحتى هيامى بپاولين يصدق عليه هذا الوصف . ولقد كان حبى قويا صادقا مخلصا مع ذلك . ولكن ماذا أصبح الآن ؟ انه ليخطر ببالى هذا السؤال فجأة فى بعض الأحيان : « ترى ألم أكن مجنونا حينذاك ؟ ألم أقض ذلك الوقت كله فى مستشفى من مستشفيات المجانين ؟ ألا يمكن أن أكون فى

مستشفى من مستشفيات المجانين حتى الآن ؟ ألا يمكن أن يكون كل ما وقع أشباحا ظهرت لى وما تزال ؟.. » .

ومن يدرى ؟ لعلنى ما جمعت هـذه المذكرات وأعدت قراءتها الا لأقتنع بأننى لم أكتبها فى مستشفى من مستشفيات المجانين ! أنا الآن وحيد فى هذا العالم . لقد جاء الخريف ، واصفرت أوراق الأشجار . اننى أقيم فى هذه البلدة الصغيرة الكالحة (آه ما أشد ما يمكن أن تكون المدن الألمانية الصغيرة حزينة كئيبة !) ؛ وبدلا من أن أفكر فى المستقبل ، أرانى أحيا تحت تأثير ذكريات حديثة ، تحت تأثير كل تلك العاصفة التى ما تزال قريبة ، تلك العاصفة التى حملتنى زوبعتها زمانا ثم ألقتنى على الأرض . ومازلت أحس فى بعض اللحظات أن الزوبعة ستأخذ بى ، أن الصاعقة ستنطلق ، فيطبق جناحها علىّ أثناء عبورها ، وأننى وقد فقدت التوازن وطاش صوابى، سآخذ أدور ، وأدور ، وأدور ..

على أننى قد أثبت وأكف عن الدوران ، اذا أنا أوجزت كل ما وقع خلال هذا الشهر ايجازا دقيقا صحيحا . ان بى حاجة الى الامساك بالقلم من جديد . ثم اننى فى بعض الأحيان لا أجد ما أعمله اطلاقا اذا جاء المساء . ومن عجب أننى ، من أجل أن أشغل نفسى ، أستعير من القاعة الحقيرة المخصصة للمطالعة فى هذه البلدة روايات للمؤلف پول دوكوك (مترجمة الى الألمانية) ، وهى روايات لا تطاق ولا تحتمل، ولكننى أقرؤها ، واستغرب أنا نفسى لماذا أقرؤها : لكأننى أخشى اذا أنا قرأت كتبا ذات شأن أو شغلت نفسى بأمر ذى بال ، أن أنفصل عن عالم السحر والافتتان الذى تبدد منذ حين ؛ لكأن هذا الحلم المضطرب

المشوش الذى عشت فيه وجميع تلك المشاعر التى خلفها فى نفسى ، عزيزة عندى الى حد أخشى معه كل اتصال جديد ، مخافة أن تتبدد دخانا ! أفأكون اذن حريصا على هذا كله هذا الحرص الشديد كله ؟ نعم ، لا شك فى ذلك . ولعلنى سأظل أتذكره أربعين سنة ..

هاأنا ذا أمسك بالقلم اذن . وعلى كل حال فان جميع الأمور يمكن أن تسرد الآن سردا موجزا سريعا : ذلك أن أحاسيسى ليست الآن كما كانت من قبل .

ولنبدأ أولا بالكلام على الجدة فنفرغ منها . لقد خسرت فى الغداة كل شيء . وكان لابد أن يحدث ذلك : فان من يسير مثلها فى هذه الطريق ينحدر بسرعة ما تنفك تزداد ، كأنه يتدحرج على زلاقة من قمة جبل تغطيه الثلوج . لقد ظلت تقامر طوال النهار حتى الساعة الثامنة من المساء . ولم أشهد أنا ذلك ، وانما روى لى .

كان پوتاپتش يصحبها خفيرا لها فى الكازينو من أول النهار الى آخره . والپولونيان اللذان كانا يوجهانها قد حل كل منهما محل الآخر عدة مرات . لقد بدأت بطرد الپولونى الذى وجهها فى الليلة البارحة والذى شدت شعره ؛ طردته وأحلت محله پولونيا آخر . ولكن الپولونى الثانى كان أسوأ من صاحبه ، فما لبثت أن طردته ، واستعادت الأول الذى لم يبارح المكان ، بل ظل يحوم وراء كرسيها بعد فقدانه حظوتها ، ماداً رأسه فى كل لحظة من فوق كتفها . وأصبحت الجدة آخر الأمر فى حالة انهيار كامل . والپولونى الثانى لم يشأ هو أيضا أن يغادر المكان : فاستقر أحد الرجلين على يمين الجدة ، واستقر الثانى على يسارها . وكانا لا ينفكان يتشاجران ويتشاتمان

لاختلافهما فى الرأى حول المبالغ التى يجب حطها والمواضع التى يجب حطها فيها ، وحول مجرى اللعب على وجه الاجمال ، فهما يتراشقان السباب ، وينعت كل منهما صاحبه بأنه وغد حقير ، ويصفه بصفات جميلة أخرى مما تجرى به ألسنة البولونيين ؛ ثم يتصالحان ، ويرميان المال ذات اليمين وذات الشمال على كل حال . وكانا اذا اختصما حط كل واحد منهما مبلغا فى موضع ، فهذا يحط على الأحمر مثلا ، وذاك يحط على الأسود . وقد بلغا من اخسار الجدة أنها توسلت الى قيّم عجوز ، والدموع تكاد تترقرق فى عينيها ، أن يحميها من هذين الرجلين فيطردهما . وذلك ما تم فورا ، رغم صراخهما ورغم احتجاجهما ، فقد أخذا كلاهما يرغيان ويزبدان معاً مدعيين أن الجدة مدينة لهما بمال، وأنها خدعتهما وغشتهما ، وأنها لم تعاملهما معاملة شريفة . قص عليَّ پوتاپتش هذا كله فى ذلك المساء نفسه وهو يبكى بدموع غزار ، قائلا انهما قد ملئا جيوبهما ، وانه رآهما بعينه يختلسان المال جهارا بغير حياء فيحشوان به جيوبهما . وكان من أعمالهما مثلا أن يطلب أحدهما من الجدة خمسة فردريكات أجرا له ، ثم يحط هذا المبلغ مع المبلغ الذى يحطه للجدة على موضع ما من المائدة ، فاذا ربحت الحطة صاح يقول انه هو الذى ربح ، وانها هى التى خسرت . فلما ضاقت ذرعا بهما فتم طردهما تدخل پوتاپتش قائلا ان جيوبهما ملأى ذهبا . فأسرعت الجدة تطلب الى القيّم أن يتخذ الاجراءات اللازمة ، وما هى الا لحظة اذا بالشرطة تظهر ، فتفرغ جيوبهما على الفور رغم عياطهما وشياطهما ، وترد المال الى الجدة . ان الجدة تتمتع بمهابة واحترام لدى القيّمين ولدى ادارة الكازينو ، ما بقى

معها مال . وقد ذاع صيتها فى المدينة كلها شيئا بعد شىء . وصار الناس الذين يستحمون فى المياه المعدنية من جميع البلاد ، أبسطهم وأشهرهم على السواء ، يهرعون الى الكازينو ليروا « تلك الكونتيسة الروسية العجوز التى تقهقرت الى الطفولة » ، وخسرت على مائدة الروليت « عدة ملايين » .

ولكن الجدة لم يجدها تخلصها من البولونيين الا قليلا جدا جدا . فما ان طرد البولونيان حتى ظهر ثالث يعرض عليها خدماته . وكان هذا الثالث يجيد الكلام باللغة الروسية اجادة تامة ، ويرتدى من الملابس ما يرتديه سراة القوم ، رغم أنه أشبه بخادم . كان هو أيضا يقبِّل « آثار خطوات » السيدة « ويزحف على قدميها » ، ولكنه يعامل سائر من حوله فى غطرسة ، ويأمر كما يأمر طاغية مستبد ؛ أى كان يصطنع لا وضع الخادم للجدة بل وضع الوصى عليها . وكان يلتفت اليها ، عند كل ضربة ، فيحلف لها بأغلظ الايمان أنه « سيد » محترم وأنه لن يأخذ منها قرشا واحدا . وبلغ من تكرار هذه الأيمان أن الجدة أصبحت تخشاه حقا . ولكن لما كان هذا « السيد » قد بدا فى أول الأمر أنه يصحح اللعب ، ولما كان قد أخذ يربح ، فان الجدة نفسها لم تعزم أمرها على التخلص منه . وبعد ساعة واحدة عاد البولونيان اللذان طردا من الكازينو ، فظهرا وراء كرسى الجدة ، يعرضان عليها خدماتهما من جديد ، بل ويعرضان عليها أن يشتريا لها ما تريد شراءه . وقد حلف لى پوتاپتش أن هذا « السيد المحترم » قد تبادل معهما غمزات ، بل وأنه أعطاهما بعض المال خلسة . واذ كانت الجدة جائعة لم تتناول عشاءها ولم تكد تبارح كرسيها ، فقد استطاع أحد

البولونيين أن يفيدها فعلا . فها هو ذا يهرع الى « بوفيه » الكازينو فيأتيها بفنجان من المرق أولا ، وبشيء من الشاى بعد ذلك . والحق أن البولونيين كليهما كانا يسعيان فى هذا . ولكن فى آخر النهار ، حين استطاع الناس أن يدركوا أنها تخسر آخر ورقة مالية تملكها ، كان ستة پولونيين يقفون وراء كرسيها ، لم يسبق أن رآهم أحـد قبل ذلك قط . فلما خسرت الجدة آخر نقودها أصبحوا لا يصغون اليها ، بل أصبحوا لا ينتبهون اليها البتة ، فهم يميلون على مائدة القمار من فوق كتفيها ، يلمون المال ، ويصدرون الأوامر ، ويحطون المبالغ ، ويتشاجرون ، ويخاطبـون « السيد المحترم » بلا كلفة . أما هذا « السيد المحترم » فقد نسى حتى وجود الجدة . وحين أفلست الجدة افلاسا كاملا ، فأعيدت الى الفندق فى نحو الساعة الثامنة من المساء ، كان هناك ثلاثة أو أربعة پولونيين لم يستطيعوا أن يقرروا تركها ، فهم يتراكضون حول كرسيها صائحين منادين ، يرددون جهارا أن الجدة قد خدعتهم ، وأنها مدينة لهم بمال . على هذا النحو وصلت الجدة الى الفندق ، وهناك فى الفندق طرد البولونيون ركلا بالأرجل.

لقد خسرت الجدة فى ذلك اليوم ، اذا صدقت حسابات پوتاپتش، حوالى ستة وثمانين ألف روبل ، عدا ما خسرته فى الليلة البارحة . لقد أبدلت جميع ما كانت تملكه من سندات على الدولة بفائدة خمسة فى المائة ، وباعت كل ما كان معهـا من أسـهم واحدا بعد آخـر . أدهشنى أن الجدة استطاعت أن تظل خـلال هذه الساعات السبع أو الثمانى ، قابعة فى كرسيها لا تكاد تترك مائدة القمار لحظة ، ولكن پوتاپتش روى لى أنها قد أخذت فعلا ، خلال مرتين أو ثلاث مرات ،

تجنى أرباحا ضخمة ، فقوى ذلك عزيمتها وشحذ آمالها ، فلم تملك أن تنصرف . على أن المقامرين يعرفون أن فى امكان المقامر أن يمكث فى مكانه أربعا وعشرين ساعة ، حاملا أوراق اللعب بيديه ، لا يلتفت ببصره يسرة ولا يمنة .

وفى أثناء ذلك اليوم ، كانت تقع أحداث حاسمة فى فندقنا . ففى الصباح ، قبل الساعة الحادية عشرة ، بينما كانت الجدة ما تزال فى مسكنها ، اتفقت كلمة أصحابنا على أن يقوموا بمسعى أخير يحسم الأمر (ذلك كان رأى الجنرال ودى جريو) . لقد علموا أن الجدة عدلت عن السفر ، وعادت الى الكازينو ، فجاءوا اليها جماعة (باستثناء پاولين) يحدثونها فى الأمر حديثا جازما بل و « مخلصا صادقا » . وكان الجنرال يرتجف وينهار حين يتصور العواقب الرهيبة التى ستصيبه هو من جراء سلوك الجدة هذا ، فلم يملك أن يمتنع عن أن يعنف لها القول : فبعد أن ظل مدة نصف ساعة يقدم لها الرجاء تلو الرجاء ، والضراعة تلو الضراعة ، بل وبعد أن اعترف لها بهيامه بمدموازيل بلانش (كان قد طاش صوابه تماما) لم يلبث أن اتخذ لهجة التهديد والوعيد على حين فجأة ، بل طفق يصيح ويصرخ ويضرب الأرض بقدمه ، ويصيح قائلا ان الجدة تلطخ شرف الأسرة كلها ، وانها أصبحت فضيحة فى المدينة بأسرها ، ثم انها أخيرا .. « توسخ اسم الروس » . وهتف يقول خاتما كلامه « يا سيدتى ، ان لهذا الأمر شرطة تمنعه » . فما كان من الجدة الا أن رفعت عصاها فضربت بها الجنرال تطرده من عندها طردا .

وقد تباحث الجنرال ودى جريو مرة أخرى أو مرتين أخريين

فى ذلك الضحى نفسه ، فكانا يتساءلان خاصة : ألا يستطيعان أن يستنجدا بالشرطة فعلا ؛ ألا يستطيعان أن يقولا للشرطة ان هناك امرأة مسكينة ، لكنها سيدة عجوز محترمة ، قد تقهقرت الى الطفولة ، فهى بسبيل تبديد ثروتها فى القمار ، الخ ، فهلا يمكن أن تردع أو أن تمنع بطريقة من الطرق ؟ ولكن دى جريو لم يلبث أن رفع كتفيه هازئا ، وانفجر ضاحكا أمام أنف الجنرال ، فأخذ الجنرال وقد نفدت حججه وأسقط فى يده ، يذرع حجرته جيئة وذهابا . وأخيرا حرك دى جريو يده بحركة احتقار ، ثم لم يظهر بعد ذلك قط . وعلم فى المساء أنه قد غادر الفندق الى غير رجعة بعد حديث حاسم سرى جرى بينه وبين مدموازيل بلانش . أما مدموازيل بلانش فقد اتخذت اجراءات قاطعة منذ الصباح : فطردت الجنرال طردة أخيرة ، وأصبحت لا تطيق حتى أن يوجد حيث توجد عرضا . وحين جرى الجنرال وراءها الى الكازينو ، فصادفها متأبطة ذراع الأمير الصغير ، لم تعرفه لا هى ولا السيدة أرملة دى كومنج ؛ ولا حيّاه الأمير القصير . رفضت مدموازيل بلانش النهار .كله تسبر غور الأمير وتجس نبضه وتداوره بشتى الوسائل بغية أن يصرّح لها آخر الأمر بشىء جازم ! ولكن حساباتها كانت خاطئة خطأ صاعقا وا أسفاه ! وقد وقعت هذه الكارثة الصغيرة عند المساء ، حين اكتشف فجأة أن الأمير فقير فقر أيوب ، حتى أنه كان يعوّل على أن يقترض منها مبلغا آخر ليقامر فى الروليت . فطردته بلانش مستاءة حانقة ، وحبست نفسها فى غرفتها لا تبارحها .

وفى صباح ذلك اليوم نفسه ذهبت الى مستر آستلى ، أو قل

انني ظللت أبحث عنه طول الصباح دون أن أعثر له على أثر . لم يكن في منزله ، ولا في الكازينو ، ولا في الحديقة . ولا تناول طعام الغداء في الفندق هذه المرة . وفي الساعة الخامسة بعد الظهر لمحته على حين فجأة عائدا من محطة القطار الى فندق انجلترة . وكان يحث الخطى ويبدو مهموما ، رغم أن من الصعب على المرء أن يرى في وجهه شيئا مما يشغل باله أو أي نوع من الاضطراب . مدَّ اليَّ يده مصافحا في مودة ، مطلقا صيحته المألوفة « ها ! » ، ولكنه لم يتوقف بل تابع سيره بخطى سريعة . فلحقت به ، ولكنه عرف كيف يجيبني بما لا يدع مجالا لأي سؤال ألقيه عليه . يضاف الى ذلك أنني كنت أشعر بحرج رهيب من أن أدير الحديث على پاولين ؛ ولم يهتم هو بهذا الأمر كذلك . حكيت له ما وقع للجدة ، فكان يصغي الى كلامي في جد وانتباه ، ثم لم يلبث أن هز كتفيه .

قلت :

ــ ستخسر كل شيء .

فأجاب :

ــ أوه ، طبعا . حين سافرتُ أنا كانت قد ذهبت الى الكازينو لتقامر ، وكنت على يقين من أنها ستخسر . ولسوف أمضي الى الكازينو اذا اتسع وقتي ، لأرى الأمور بنفسي ، فان هذا لطريف شائق ..

ــ الى أين سافرت ؟

كذلك هتفت مدهوشا من أنني لما أطرح عليه ذلك السؤال بعد . فقال :

— الى فرانكفورت .

— ألأعمـال ؟ .

— نعـم .

عمّ كنت أستطيع أن أسأله زيادة على ذلك ؟ ثم اننى كنت أحاذيه فى السير ، فاذا هو يتجـه فجأة نحو فندق « الفصـول الأربعة » الذى كان فى الطريق ، فحيانى مودعا بحركة من رأسه ، واختفى . وفيما كنت عائدا الى مسكنى وصلت شيئا فشيئا الى يقين كامل بأننى لو لبثت أكلمه ساعتين لما استطعت أن أعرف منه شيئا البتة . لأننى لم أكن أملك سؤالا ألقيه عليه ! نعم ، كذلك كان الأمر حتما . فاننى ما كنت لأستطيع أن أصوغ سؤالى .

وقد ظلت پاولين تتنزه فى الحديقة طول النهار مع الأطفـال والخادمة ، أو تمكث فى منزلها وحيدة . كانت قد أخذت منذ فترة طويلة تتهرب من لقاء الجنرال ، ولا تكاد تكلمه ، أو لا تكاد تكلمه فى أمور جدية على أقل تقدير . كنت قد لاحظت ذلك منذ مدة .

لكننى ، وقد عرفت كيف كان وضع الجنرال فى ذلك اليـوم ، قدرت أنه لم يستطع الا أن يلقى الفتاة ، أى لابد أن يكون قد قام بينهما حديث تناول أمورا عائلية هامة . ومع ذلك فاننى حين عدت الى الفندق بعـد المحادثة التى جرت بينى وبين مستر آستلى ، قد التقيت بپاولين والأطفال ، فرأيت فى وجهها معانى الهدوء ورباطة الجأش ، كأن تلك الزوابع العائلية كلها لم توفر أحـدا سواها . حتى اذا حييتها ردت التحية بحركة من رأسها . وصعدت الى غرفتى مهتاجا أشد الاهتياج .

كنت أتحاشى أن أكلمها طبعا ، ولم ألتق بها مرة واحدة منذ حادثتى مع ڤورمرهلم . كنت أعد القضية قضية شرف . ولكن الحنق كان يزداد غليانا فى نفسى بمرور الزمن : هبها لا تحبنى البتة ، ان هذا لا يجيز لها أن تدوس عواطفى على هذا النحو ، ولا أن تقابل اعترافاتى بمثل هذا الاحتقار . لقد كانت تعلم أننى أحبها حقا ؛ وتسامحت فأذنت لى أن أكلمها على هذه الصورة . صحيح أن الأمر بدأ بيننا بداية غريبة ؛ كنت قد لاحظت منذ زمن (زمن أصبح منذ الآن بعيدا ، فقد انقضى عليه شهران) أنها تريد أن تتخذنى صديقا ، وأن تجعلنى نجيها وموضع سرها . حتى لقد قامت بمحاولات فى هذا السبيل . ولكن الأمر لم ينجح ، فاحتفظنا بهذه الصلات الغريبة العجيبة . وبسبب هذا انما بدأت أكلمها على هذه الصورة ولكن اذا كان حبى قد ساءها ، فلماذا لم تمنعنى من أن أكلمها فيه منعا باتا ؟

انها لم تفعل شيئا من ذلك ، حتى لقد كانت فى بعض الأحيان تحضنى على الكلام .. لتسخر منى طبعا . أنا واثق من هذا . لقد شعرت به : كان يمتعها ويحلو لها ، بعد أن تصغى الىّ وتستثيرنى الى حد العذاب ، أن تبلبلنى فجأة بعلامة صارخة تنبىء عن احتقار أو تدل على قلة الاكتراث وعدم المبالاة . وهى تعلم مع ذلك أننى لا أستطيع أن أحيا بدونها . ها قد انقضت اذن أيام ثلاثة على حادثتى مع البارون ، وها أنا ذا أصبحت منذ الآن لا أستطيع احتمال « فراقنا » . وحين صادفتها منذ هنيهة قرب الكازينو ، بلغ قلبى من شدة الخفقان أن وجهى امتقع لونه . وهى أيضا لا تستطيع أن

تعيش بدونى ! انها فى حاجة الىّ .. فهل يمكن أن تكون حاجتها الىّ كحاجتها الى مهرج مثل بالاكيريف فحسب * ؟

ان لها سرا .. هذا واضح . ان حديثها مع الجـــدة قد طعن قلبى طعنا . ذلك أننى طلبت اليها ألف مرة أن تكون صريحة صادقة معى ، وهى تعلم أننى مستعد فعلا لأن أضحى بحياتى فى سبيلها . ولكنها أبعدتنى دائما باحتقار وازدراء ، أو طلبت الىّ ، بدلاً من التضحية بحياتى فى سبيلها ، أن أقوم بأعمال شاذة ، كما فعلت ذلك يوم سألتنى أن أتحرش بالبارون . أليس هذا أمرا مثيرا ؟ هل يمكن أن يكون ذلك الفرنسى كل شىء عندها ؟ ومستر آستلى ؟ هنا تستعصى القضية على الفهم ، ما فى ذلك ريب .. ومع ذلك فما أشد ما كنت أقاسى من عذاب يا رب !

حين وصلت الى غرفتى رأيتنى وقد استبد بى الحنق والغيظ أمسك بالقلم وأخط لها هذه الأسطر :

« پاولين ألكسندروڤنا ! اننى أرى اقتراب الخاتمة . وواضح أنها ستتناولك أنت أيضـــا . لذلك أعــود فأكرر لك مرة أخرى هـــذا السؤال : أأنت فى حاجـــة الى حيـــاتى ؟ اذا كان فى وسعى أن أكون مفيداً لك فى أى أمر من الأمور ، فتصرفى بى كما تشائين . أنا الآن فى غرفتى ، أمكث فيها أكثر الأوقات على الأقل ، ولا أبارحهـــا الى أى مكان . فاذا احتجت الىّ ، فاكتبى لى أو استدعينى » .

غلفت الرسالة ، وأمرت خادم الطابق أن يمضى بها الى پاولين ، فيسلمها اياها يدا بيد . ولم أكن أتوقع جوابا ، ولكن الخادم جاءنى بعد ثلاث دقائق يقول انها تبعث الىّ بتحياتها .

وفى نحو الساعة السابعة من المساء ، استدعانى الجنرال .

كان الجنرال فى حجرته مرتديا ملابسه كمن يتهيأ للخروج . وكانت قبعته وعصاه على الديوان . فلما دخلت عليه بدا لى واقفا فى وسط الغرفة مباعدا ما بين ساقيه ، خافضا رأسه ، يكلم نفسه . فما ان رآنى حتى ارتمى نحوى وهو يوشك أن يصرخ ، فاذا أنا أتراجع خطوة الى وراء ، على غير ارادة منى ، وأهم أن أولى هاربا ، ولكنه أمسكنى بكلتا يديه ، وجذبنى نحو الديوان ، فقعد عليه وأقعدنى على كرسى أمامه ، وراح يقول لى بصوت متوسل متضرع ، دون أن تطلق يداه سراحى ، وقد أخذت شفتاه ترتجفان ، بينما الدموع تتلألأ فى عينيه :

ــ ألكسى ايفانوفتش ، انقذنى ، انقذنى ، ارحمنى .

لبثت برهة طويلة لا أستطيع أن أفهم شيئا . كان يتكلم بلا توقف، ويكرر فى كل لحظة قوله : « ارحمنى ، ارحمنى » . وقدرت أخيرا أنه يطلب منى شيئا يشبه أن يكون نصحا ، أو قل انه وقد هجره الجميع وداهمه الغم واستبد به اليأس ، تذكرنى فاستدعانى لا لشىء الا أن يتكلم ، ويتكلم ، ويتكلم ..

ولكنه كان قد فقد عقله ، أو طاش صوابه تماما فى أقل تقدير . فها هو ذا يضم يديه احديهما الى الأخرى متضرعا ، ويوشك أن يرتمى على ركبتى راجيا (هل فى وسعكم أن تحزروا ما عسى أن يكون رجاؤه ؟) أن أمضى فورا الى مدموازيل بلانش ، فأبتهل اليها وأحضها على أن تعود اليه فتتزوجه .

هتفت أقول :

ـــ اسمح لى يا جنرال ! لعل مدموازيل بلانش لمّا تلاحظ وجودى بعد . فماذا أستطيع أن أفعل ؟

كان عبثا أن أحتج وأن أتعلل . فانه لم يكن يفهم شيئا مما يقال له . وطفق يفيض فى الكلام على الجدة أيضا ، فيقول عبارات مفككة غير منسجمة ، ولا يعدل عن فكرة اللجوء الى الشرطة .

أخذ يقول وهو يغلى حنقا على حين فجأة :

ـــ فى بلادنا .. فى بلادنا .. أقصد .. فى بلادنا .. فى دولة منظمة لها سلطات مسئولة ، توضع أمثال هذه العجائز تحت الوصاية على الفـــــور .

وأضاف بغتة بلهجة فخمة وهو ينهض من مكانه على حين فجأة ويأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ويخاطب شخصا خياليا فى ركن من الأركان:

ـــ نعم أيها السيد العزيز .. انك لم تكن تعرف هذا .. فاعلم اذن أن الأمر كذلك .. نعم .. فى بلادنا يحجر على العجائز اللواتى من هذا النوع ، يحجر عليهن . نعم أيها السيد . آه .. يا لشقائى ..

وارتمى على الديوان من جديد ؛ وبعد لحظة ، أخـــذ يقص علىّ مسرعا لاهثا يكاد يختنق ، وكأنه فى حلم ، كيف أن مدموازيل بلانش لا تريد أن تتزوجه لأن الجدة هى التى وصلت بدلا من البرقية ، ولأنه أصبح واضحا الآن أنه لن يرث . كان الجنرال يظن أننى لما أطلع على شىء من ذلك بعد . فأردت أن أتكلم عن دى جريو ، ولكنه أوقفنى عن الكلام باشارة منه قائلا :

ـــ سافر ! وقد رهنت جميع أملاكى لديه ، فأنا الآن عريان عرى دودة . ان ذلك المال الذى جئتنى به .. ذلك المال .. ولا أدرى كم كان

المبلغ على كل حال ..أظن أنه كان سبعمائة فرنك .. هو كل ما بقى لى ، كل ما بقى لى . والآن لا أدرى ، لا أدرى ..

صحت مذعورا :

— ومن أين ستدفع أجور الفندق ؟ ثم .. بعد ذلك ؟

فنظر الىّ نظرة شاردة ، ولكن كان واضحا أنه لم يفهم شيئا ، بل ولا سمع شيئا . وحاولت أن أجيل الكلام حول پاولين ألكسندروڤنا وحول الصغار ، فأسرع يقول « نعم نعم » ، ولكنه لم يلبث أن طفق يتحدث عن الأمير الذى سيسافر مع مدموازيل بلانش .. وعندئذ .. عنـــدئذ ..

قال وهو يلتفت فجأة نحوى :

— وعندئذ ما الذى سأصير اليه يا ألكسى ايڤانوڤتش ؟ ما الذى سأصير اليه ؟ يا رب يا رب .. قل لى يا ألكسى ايڤانوڤتش : هذا عقوق ، هذا عقوق ؟ ألا ترى أن هذا عقوق ؟

وطفق يبكى آخر الأمر بدموع سخينة .

لم يكن ثمة ما يصنعه المرء لرجل فى مثل حاله . ثم ان تركه وحيدا لا يخلو من خطر كذلك : فقد يقع له شىء ما . وعلى كل حال فقـــد تخلصت منه بطريقة من الطرق ، لكننى قلت للخادمة أن تجىء اليه من حين الى حين لترى كيف حاله . وكلمت خادم الطابق عدا ذلك ، وهو فتى ذكى جدا ، فوعدنى أن يكون يقظا هو أيضا .

ما كدت أترك الجنرال حتى جاءنى پوتاپتش يرجونى أن أوافى الجدة . كانت الساعة قد بلغت الثامنة ، وكانت الجـــدة قد عادت من

الكازينو منذ برهة قصيرة ، بعد أن خسرت فيه آخر قرش . نزلت الى الجدة . كانت السيدة العجوز قاعدة فى كرسيها مهدودة القوى مرهقة ، وكان واضحا أنها مريضة . ناولتها مارتا قدحا من الشاى حملتها على احتسائه بما يشبه القسر . وكان صوت الجدة وكانت لهجتها قد تغيرا تغيرا واضحا .

قالت لى ببطء وهى تحنى رأسها بجد ووقار :

ـــ نعمت يوما يا ألكسى ايفانوفتش ، يا عزيزى . اغفر لى ازعاجى اياك مرة أخرى ، وما أحسب الا أنك مسامح امرأة عجوزا تقدمت بها السن . لقد خلفت كل شىء هنالك يا صديقى ، لقد خسرت قرابة مائة ألف روبل . كنت على حق حين رفضت أن تصحبنى أمس . والآن ليس معى شىء البتة ، ليس معى قرش . ولا أحب أن ألبث هنا لحظة واحدة . يجب أن أسافر فى الساعة التاسعة والنصف . لذلك استدعيت صاحبك الانجليزى : اسمه مستر آستلى فيما أظن . أريد أن أقترض منه ثلاثة آلاف فرنك أردها اليه بعد ثمانية أيام . فقل له أن لا يظن بى سوءا ، وأن لا يرفض اقراضى هذا المبلغ . ما زلت حتى الآن على جانب من الغنى يا عزيزى . اننى أملك ثلاث قرى ودارين ، وما يزال عندى مال ، فاننى لم أحمل الى هنا كل ما أملك من مال . أقول لك ذلك حتى يطمئن صاحبك ولا يقلق .. ها .. ها هو ذا قد وصل . واضح أنه رجل شهم .

لقد هرع مستر آستلى يلبى نداء الجدة . ولم يلبث أن نقدها ثلاثة آلاف فرنك بغير تردد وبغير كلام نافل ، ووقعت له الجدة سندا بالمبلغ فأخذه . ثم حيا وانصرف .

ـــ والآن دعنى يا ألكسى ايڤانوڤتش . لم يبق لى من الوقت الا ساعة وبعض ساعة . سأستلقى على فراشي لحظة ، فان عظـامى تؤلمنى . لا تؤاخذنى ، فما أنا الا عجوز بلهاء . لن أتهم الشبان بعـد اليوم بالخفة . بل اننى لأتحرج الآن من لوم صاحبك الجنرال المسكين. ولكننى لن أعطيه شيئا من مال . وما ينبغى أن يسوءه هذا ، فهو فى رأيى حيوان كبير .. أما أنا فدجاجة عجوز لا أملك من الذكاء أكثر مما يملك هو . ان الله يقتص من المفترين عاجلا أو آجلا . هيا ، وداعا. انهضينى يا مارتا .

وكنت أنوى أن أصحب الجدة . غير أننى كنت فى الوقت نفسه أتوقع حدوث شىء ما . كان يخيل الىّ أن هناك أمرا سيقع بين لحظة وأخرى . لم أستطع أن أمكث فى غرفتى . فخرجت الى الدهليز أريد أن أمضى الى طريق أشجار الكستناء متنزها بعض الوقت . لقد كانت رسالتى الى پاولين واضحة قاطعة ، وكانت الكارثة الراهنة حاسمة من غير شك . لقد سمعت فى الفندق أن دى جريو سافر . الخلاصة : اذا كانت پاولين ترفضنى صديقا ، فقد تقبلنى خادما ، لأنها فى حاجة الىّ ، ولو لأشترى لها ما تريد شراءه . نعم هى فى حاجة الىّ ، ذلك واضح !

حين أزفت لحظة رحيل الجدة هرعت الى المحطة ، فأركبتها القطار، وكانوا جميعهم قد اتخذوا أماكنهم فى حجرة محجوزة .

قالت لى الجدة وهى تودعنى :

ـــ أشكر لك مسايرتك البريئة المنزهة عن الغرض يا صديقى ؛ كرر لپراسكوڤيا ما قلته لها أمس . لسوف أنتظرها .

وعدت أدراجي قاصدا غرفتي . فلما مررت قرب شقة الجنرال التقيت بالخادمة ، فسألتها عن حال سيدها . فأجابتني حزينة :

ـــ لا بأس يا سيدي الطبيب .

ودخلت مع ذلك . ولكنني لم ألبث أن تسمرت عند باب حجرته مذهولا . كان الجنرال ومدموازيل بلانش يضحكان مقهقهين . وكانت السيدة أرملة دي كومنج موجودة معهما ، جالسة على الأريكة . كان واضحا أن الجنرال قد جن عقله فرحا ، فهو يتدفق في الكلام سخافات وترهات من كل نوع ، وهو يصاب بنوبات من المرح العصبي والضحك المتواصل تخدّد وجهه بغضون صغيرة ، وتخفي عينيه .

علمت ، فيما بعد ، أن مدموازيل بلانش نفسها ، بعد أن طردت الأمير وعلمت بما آلت اليه حالة الجنرال من حزن وقنوط ، أرادت أن تعزيه فجاءت تزوره زيارة قصيرة . ولكن الجنرال المسكين كان يجهل الى تلك اللحظة أن مصيره قد تقرر ، وأن مدموازيل بلانش كانت قد أخذت تعد حقائبها وتحزم أمتعتها ، لتسافر في الغداة الى باريس على قطار الصباح الأول .

لبثت لحظة عند عتبة حجرة الجنرال ، ثم عدلت عن الدخول ، فانصرفت منسلا لم يلمحني أحد . وصعدت الى غرفتي . فلما فتحت الباب لمحت في ظلمة الغرفة قامة جالسة على كرسي في ركن قرب النافذة، فما ان رأتني داخلا حتى نهضت ، فأسرعت أقترب ، ونظرت .. فانقطعت أنفاسي : انها پاولين .

الفصل الرابع عشر

أفلتت مني صرخة .

فسألتني بصوت غريب :

ـــ ما بك ؟ ماذا دهاك ؟

وكانت شاحبة اللون ، وكانت تبدو قاتمة المزاج .

ـــ ما بي ؟ ماذا دهاني ؟ أأنت .. أأنت .. هنا .. عندي ؟

ـــ أنا اذا جئت جئت كلي . تلك عادتي . ولسوف ترى ذلك توا . أشعل شمعة .

امتثلتُ فنهضتْ واقتربت من المنضدة تضع أمامي رسالة مفضوضة ، وتأمرني أن أقرأها :

ـــ اقرأ .

صست وأنا أتناول الرسالة :

ـــ هذا خط دي جريو .

كانت يداي ترتجفان ، وكانت الأسطر تتراقص أمام عيني . لقد

نسيت الآن نصّ الرسالة ، ولكن ها هى ذى الرسالة معنى معنى ان لم تكن كلمة كلمة :

« آنستى ، ان ظروفا مؤلمة تضطرنى الى السفر بغير ابطاء . ولقد لاحظت ، ولا شك ، أننى تحاشيت عامدا أن تتصارح تصارحا حاسما قبل أن يتضح كل شيء . ان وصول السيدة العجوز بدلا من وصول البرقية ، وكذلك سلوكها الأحمق قد أنهيا كل تردد . ان اضطراب شئونى الخاصة يمنعنى قطعا من الاستمرار فى عقد تلك الآمال العذبة الحلوة التى أذنت لنفسى أن أمنى بها نفسى زمنا . انني آسف لما وقع ، ولكننى أرجو أن لا تجدى فى سلوكى ما يشين رجلا راقيا أو انسانا شريفا . اننى وقد أضعت مالى كله سدادا لديون زوج أمك ، أجدنى مضطرا الى الحفاظ على ما بقى لى تصريفا لشئونى . وقد أبلغت أصدقائى ببطرسبرج أن يبادروا دون ابطاء الى بيع الأملاك المرهونة لدى . لكننى لعلمى بأن زوج أمك قد أتلف ثروتك كلها ، قررت أن أعفيه من خمسين ألف فرنك ، فرددت اليه ما يساوى هذا المبلغ جزءا من صكوك الرهن . وبذلك يكون فى وسعك أن تستردى كل ما فقدت باللجوء الى القضاء الذى سيحكم برد أملاكك اليك . أرجو ، يا آنستى ، أن تكون هذه البادرة منى مفيدة لك فى الظروف التى تلابس أحوالك الآن ؛ كما أرجو أن أكون بهذه البادرة قد قمت بالواجبات التى تجب على رجل شريف . وثقى أن ذكراك ستظل منقوشة فى قلبى الى الأبد » .

قلت ملتفتا نحو پاولين :

ــــ الأمر واضح .

ثم أردفت أقول حانقا مغتاظا :

ــ أكنت تتوقعين غير هذا حقا ؟

فأجابتنى بهدوء ظاهر ، على نوع من الارتجاف فى صوتها :

ــ لم أكن أتوقع شيئا . لقد رأيت فيه رأيى منذ زمن طويل : كنت أقرأ أفكاره . ظن أننى أسعى الى .. ظن اننى قد ألح على ..

قالت ذلك ثم توقفت فعضت على شفتها فى وسط الجملة وصمتت.

وتابعت بعد لحظة تقول :

ــ لقد تعمدت أن أضاعف احتقارى نحوه . وكنت أنتظر ما عساه يفعل . ولو قد وصلت البرقية ، اذن لقذفته على رأسه بالمال الذى يدين له به هذا الأبله (زوج أمى) ، ولطردته بعدئذ شر طردة . لقد أصبحت منذ زمن طويل لا أطيق أن أراه ! آه .. كان من قبل رجلا آخر ، رجلا آخر تماما .. أما الآن فما أشد ما سأشعر به من فرح عظيم لو أتيح لى أن أرمى له هذه الخمسين ألف فرنك ، وأن أبصق فى وجهه .

ــ ولكن هذا الصك الذى يرد الخمسين ألفا هو الآن بين يدى الجنرال ، فما عليك الا أن تأخذيه وأن ترديه الى دى جريو !

ــ أوه .. ليس الأمران سواء ! ليس الأمران سواء !

قلت :

ــ صحيح صحيح . وما حال الجنرال الآن ؟ لأى شىء يصلح هو الآن ؟

ثم رأيتنى أهتف على حين فجأة :

ــــ والجدة ؟

فنظرت الى پاولين ذاهلة نافدة الصبر . ثم قالت معتكرة المزاج :

ــــ لماذا تسألنى عن الجدة ؟ اننى لا أستطيع أن أذهب اليها ..

ثم أضافت بصوت يفيض حنقا :

ــــ ولن أطلب من أحد غفرانا .

هتفت أقول :

ــــ وما العمل ؟ ولكن قولى لى : كيف ، كيف أمكنك أن تحبى دى جريو ؟ هذا وغد حقير ، هذا وغد حقير . هل تريدين أن أقتله بمبارزة ؟ أين هو الآن ؟

ــــ فى فرانكفورت ، وسيمكث هنالك ثلاثة أيام .

قلت متحمسا تحمسا أهوج :

ــــ قولى كلمة واحدة فاذهب اليه غدا على أول قطار .

فأخذت تضحك ثم قالت :

ــــ لعله سيقول لك : « ردوا الىّ الخمسين ألفا أولا ! » ولماذا تراه يرضى أن يبارز ؟ ما هذا الغباء ! ..

فكررت أقول وأنا أصر بأسنانى ، كأن من الممكن فجأة أن نلم هذا المبلغ من الأرض :

ــــ ولكن من أين اذن نأخذ هذه الخمسين ألف فرنك ، من أين ؟

وراودتنى فكرة غريبة فأردفت أسألها :

— اسمعى ! ومستر آستلى ؟

فأخذت عيناها تلتمعان ، ثم قالت وهى تحدق الىّ بنظرة ثابتة مع ابتسامة مرة :

— أتريد اذن أن أتركك أنت من أجل هذا الانجليزى ؟

وكانت هذه أول مرة تخاطبنى فيها بصيغة المفرد .

ولا شك أن دوارا ألم بها فى تلك اللحظة ، من شدة الانفعال : فانها لم تلبث أن تهالكت على الديوان ، وكان واضحا أنها مهدودة القوى منهكة .

وشعرت أنا بغشاوة تعمينى كأن برقا بهر بصرى . فتسمرت فى مكانى واقفا ، لا أصدق عينى ولا أصدق أذنى . هى اذن تحبنى . لقد جاءت الىّ أنا ، ولم تذهب الى مستر آستلى ! هى الفتاة العذراء تجىء الى غرفتى بالفندق وحيدة على مرأى من جميع الناس ! ولبثت متسمرا فى مكانى أمامها لا أفهم !..

ولمعت فى خاطرى فكرة مجنونة !

قلت :

— پاولين ، امهلينى ساعة واحدة ! انتظرى هنا ساعة واحدة فقط .. أعود بعدها اليك . لابد من هذا .. لابد منه . لسوف ترين . امكثى هنا ، امكثى هنا !

وخرجت من الغرفة راكضا دون أن أجيب على نظرتها المستفهمة. وصاحت تقول لى شيئا ، ولكنى لم أرجع .

نعم ، رب خاطر هو أقرب الخواطر الى الجنون ، وأدناها الى الاستحالة ، يبلغ من قوة رسوخه فى الفكر أن المرء يخاله ممكن التحقيق ، حتى اذا كان هذا الخاطر مرتبطا برغبة قوية ملتهبة جامحة اعتقد المرء أخيرا أنه أمر حتمي ، ضروري ، فرضه القدر منذ الأزل ، أمر لا يمكن الا أن يكون ، ولا يمكن الا أن يحدث ! وربما كان ههنا شيء أكثر من ذلك : ربما كان ههنا مزيج من نبوءات يحسها المرء ، ومن جهد خارق تبذله الارادة ، ومن خيال سمم المرء به نفسه بنفسه ، ومن أشياءأخرىأيضا .. لستأدرى .. ولكننى فى ذلك المساء (فى ذلك المساء الذى لن أنساه ما حييت) وقعت لى مغامرة معجزة . ولئن كانت المعجزة تفسر بالحساب ، فانها تظل فى نظرى معجزة . ولماذا ، لماذا كان هذا اليقين قد بلغ ذلك المبلغ من العمق والرسوخ فى نفسي ، منذ أمد طويل ؟ لقد كنت أفكر فيه (أعود فأكرر ذلك) لا تفكيرى فى احتمال جائز (ومن ثم غير مؤكد) ، بل كنت أفكر فيه تفكيرى فى شيء لا يمكن الا أن يحدث .

كانت الساعة هى العاشرة الا ربعا . دخلت الى الكازينو ممتلئا بأمل قوى ، وطافحا بانفعال قوى لا عهد لى بمثله من قبل . كان لا يزال فى قاعات القمار ناس ، وان يكن عددهم نصف عددهم فى الصباح .

وليس يبقى حول الموائد فى الساعة الحادية عشرة الا المقامرون حقا ، المقامرون المدمنون الذين لا يوجد فى مدن المياه المعدنية فى نظرهم الا الروليت . انهم لم يجيئوا الا من أجلها ، ولا يكادون يلاحظون شيئا مما يجرى حولهم ، ولا يعنون بشيء غيرها طوال الفصل . ليس لهم عمل الا أن يقامروا من الصباح الى المساء ، ولا شك

أنهم مستعدون لأن يستمروا فى المقامرة الليل كله حتى مطلع الفجر لو كان ذلك فى الامكان . وهم لا يتفرقون الا على مضض وحسرة ، حين يقفل الكازينو أبوابه عند منتصف الليل . فاذا صاح أعرق القيمين يعلن ، قبيل اغلاق الكازينو ، أى قبيل منتصف الليل ، أنه « لم يبق الا ثلاث ضربات أيها السادة » ، رأيتهم مستعدين فى بعض الأحيان أن يحطوا فى هذه الضربات الثلاث الأخيرة كل ما فى جيوبهم؛ وفى تلك الساعة انما تقع أضخم الخسارات فى الواقع . اتجهت نحو تلك المائدة نفسها التى كانت تقامر عليها الجدة . ولم يكن الزحام شديدا ، فسرعان ما استطعت أن أشغل مكانا قرب المائدة واقفا . وأمامى تماما ، على المائدة الخضراء ، كانت مكتوبة كلمة : « پاس » .

ان الپاس هذه هى سلسلة من الأرقام تمضى من ١٩ الى ٣٦ ؛ أما السلسلة الأولى فهى من ١ الى ١٨ ، وتسمى «مانك» . ولكن هل يهمنى هذا كله فى شىء ؟ اننى لم أكن أحسب ، ولا سمعت الرقم الأخير الذى ظهر . ولا سألت عنه حين بدأت اللعب ، كما يفعل أى لاعب مهما يكن قليل الاحتياط والحذر . أخرجت العشرين فردريكا ورميتها على الپاس .

صاح القيِّم :

ـــ اثنان وعشرون .

لقد ربحت . وغامرت مرة أخرى بالمجموع أى بما حططته فى المرة الأولى مضافا اليه الربح .

نادى القيم :

ـــ واحد وثلاثون .

ربحت أيضا . أصبح معى اذن ثمانون فردريكا . حططت المبلغ كله على الأرقام الاثنى عشر التى فى الوسط (الربح هنا ثلاث لا مثنى ، ولكن الاحتمالات المعاكسة ثلاثة أيضا لا اثنان) . وأخذت الدائرة تدور ، فخرج الرقم ٢٤ ؛ فنقدت ثلاث لفـات من ذات الخمسين فردريكا ، وعشر دنانير ذهبية . أصبحت أملك الآن مائتى فردريك .

اعترانى نوع من الحمى فدفعت بهذه الكدسة كلها من المـال أحطها على الأحمر .. وثبت الى رشدى فجأة . كانت تلك هى المرة الأولى أثناء ذلك المساء كله ، التى جمدنى فيها الخوف حتى صرت كالثلج ، فيداى وقدماى ترتجفان . لقد أدركت مذعورا هلعا فى ومضة من شعور ، ماذا كان يعنى الخسران عندى فى هذه اللحظة !

لقد قامرت بحياتى كلها !

صاح القيِّم :

ـــ أحمـــر .

فرُدَّت الىّ روحى ، وأحسست كأن نملا محرقا يجرى على جسمى كله . أُعطيت أوراقا مالية . كان المبلغ فى هذه المرة أربعة آلاف فلورين وثمانين فردريكا (كنت ما أزال أستطيع أن أحسب) .

وبعد ذلك ، أذكر أننى حططت ألفى فلورين على الاثنى عشر رقما التى فى الوسط ، فخسرت ، ثم حططت ما كان معى من ذهب بالاضافة

الى الثمانين فردريكا فخسرت أيضا . استبد بى غيظ شديد : فتناولت الألفى فلورين التى بقيت لى فحططتها على الاثنى عشر رقما الأولى .. حططتها هكذا .. على غير هدى ، على عماوة ، دون حساب .. فكان ثمة لحظة انتظار ، وكان ثمة انفعال لعله يشبه الانفعال الذى شعرت به مدام بلانشار حين هوت فى باريز من منطادها على الأرض * .

هتف القيّم :

ــ أربعة .

أصبح معى ستة آلاف فلورين من جديد . أصبحت منذ الآن اتخذ أوضاع الظافرين ، لا أهاب شيئا . رميت أربعة آلاف فلورين على الأسود . فسارع نحو من عشرة أشخاص يحطون مثلى على الأسود .. وتبادل القيّمون النظرات وتكلموا فيما بينهم . ومن حولى كان الناس يتكلمون وينتظرون .

وظهر الأسود ، أصبحت منذ تلك اللحظة لا أتذكر المبلغ ولا تعاقب الضربات . كل ما أتذكره أننى كنت قد ربحت حوالى ستة عشر ألف فلورين ، وأنا فيما يشبه الحلم ؛ ثم اذا بثلاث ضربات شقية تخسرنى من ذلك المبلغ اثنى عشر ألفا . فرأيتنى أضع الآلاف الأربعة الأخيرة على الپاس (ولكننى لم أشعر بشىء تقريبا فى تلك اللحظة ، وانما كنت أنتظر انتظارا آليا دون أن أفكر فى شىء) . فربحت من جديد ، ثم ربحت أيضا فى أربع ضربات متتالية . كل ما أذكره اننى كنت ألم الفلورينات آلافا آلافا . وأذكر أيضا أن أرقام الوسط التى تشبثت بها هى التى

كانت تظهر فى أغلب الأحيان . كانت تظهر ، على نحو مطرد ، ثلاث مرات متتالية أو أربعا ثم تغيب دورتين لتعود الى الظهور بعد ذلك فى ثلاث ضربات متتالية أو أربع . ان هــذا الاطراد الذي يبعث على الدهشة والاستغراب يحدث فى فترات ، وذلك ما يبلبل المقامرين المحترفين الذين يحملون أقلاما ويجــرون حسابات . أية سخريات رهيبة لا يظهرها الحظ هنا ؟ .

أظن أنه لم يكن قد انقضى على وصولى أكثر من نصف ساعة ، حين أعلن لى القيم فجأة أن أرباحى بلغت ثلاثين ألف فلورين ، وأن الخزنة ليست مسئولة عن أكثر من ذلك فى جلسة واحدة ، فلذلك ستغلق الروليت الى صباح الغد . أخذت ذهبى كله ، فحشوت به جيوبى ، ثم لمت جميع أوراقى النقدية وذهبت الى قاعة أخرى كان فيها روليت ثانية . فهرع الجمهور يلحق بى ، وسرعان ما أُفسح لى هنالك مكان ، فاستأنفت أقامر خبط عشواء بغير حساب . لست أدرى ما الذى أنقذنى!

على أن فكرة الحساب كانت تراودنى من حين الى حين . كنت أتعلق ببعض الأرقام ، ببعض الاحتمالات ، ثم ما ألبث أن أهجرها ، وأعود ألعب على غير شعور . لا شك أننى كنت فى حالة ذهول شديد . أذكر أن القيمين قد صححوا لعبى عدة مرات . فلقد كنت أرتكب أخطاء جسيمة . وهرع پولونيون يعرضون علىّ خدماتهم ، ولكننى لم أصغ الى أحد . وكان الحظ حليفى لا يفارقنى . وفجــأة دوت من حولى صــيحات وقهقهات . وأخذ الناس يهتفون « مرحى ، مرحى ! » ، حتى أن بعضهم أخذ يصفق . لقــد بلغت أرباحى ثلاثين ألف فلورين مرة أخرى ، وأغلقت الخزنة حتى صباح الغد .

ـــ اذهب ، انصرف .

كذلك دمدم يقول لى رجـل كان على يمينى . انه يهـودى من فرنكفورت ، كان قد ظل الى جانبى طول الوقت ، وأظن أنه أعاننى مرة أو مرتين .

ووشوشنى صوت آخر فى أذنى اليسرى قائلا :

ـــ ناشدتك الله أن تذهب .

فألقيت نظرة سريعة على من وشوشنى : انها سيدة فى نحو الثلاثين من العمر ، ترتدى ملابس متواضعة لكنها لائقة ، ويبدو فى وجهها التعب وشحوب المرض ، ولكن الناظر اليها يدرك أنها كانت على جانب عظيم من جمال أخاذ . وكنت فى تلك اللحظة أحشو جيوبى بالأوراق النقدية مجعدا اياها ، وألم ما قد بقى على المائدة من ذهب ، فتناولت آخر لفة من ذات الخمسين فردريكا ، واستطعت ، دون أن يلاحظنى أحد ، أن أدسها فى يد السيدة الشاحبة اعترافا بجميلها ؛ ولم يستغرق هذا كله الا ثانية واحدة .

حتى اذا فرغت من لـمّ كل شىء ، أسرعت أذهب الى مائدة « الثلاثين والأربعين » .

ان مائدة « الثلاثين والأربعين » يرتادها جمهور أرستقراطى . انها غير الروليت . انها من ألعاب الورق . والخزنة هنالك تتحمل مائة ألف تالير . وأكبر حطة هى أربعة آلاف فلورين أيضا . كنت أجهل مجرى اللعب جهلا تاما ، ولا أكاد أعرف كيف أحط ، اللهم الا على الأحمر والأسود ، الموجودين فيها أيضا . لذلك تعلقت بهما . وتحلق الكازينو

كله حولى . لا أذكر أن پاولين خطرت ببالى مرة واحدة فى تلك السهرة. كنت ، وأنا أمسك بالأوراق المالية التى تتكدس أمامى ثم أردها ، أشعر بلذة لا سبيل الى مقاومتها .

لكأن القدر كان يدفعنى حقا . وفى هذه المرة ، طرأ ظرف غريب ، كأنما على عمد ، وان يكن يطرأ فى القمار أحيانا كثيرة . كان يتشبث الحظ بالأحمر مثلا فما يتركه الا بعد عشر دورات أو خمس عشرة دورة . حتى لقد كنت سمعت أول البارحة أن الأحمر ظهر فى الأسبوع الماضى اثنتين وعشرين مرة على التوالى . وذلك أمر لا يتذكر أحد أنه وقع فى الروليت مرة واحدة ، فكان الناس يتحدثون عنه مدهوشين . ومن الطبيعى أن اللاعبين ما يلبثون أن يتركوا الأحمر ، فما من أحد يجرؤ أن يحط عليه بعد أن يظهر عشر مرات متتالية مثلا . ولكن ما من مقامر خبير يحط عندئذ على الأسود ، نقيضه . فان المقامر المجرب يعرف ماذا تعنى « نزوة الصدفة » ؛ فاذا ظهر الأحمر ست عشرة مرة مثلا اعتقد اللاعبون أن الضربة السابعة عشرة ستقع على الأسود حتما ؛ فاذا باللاعبين الأغرار يترامون على الأسود ، مضاعفين المبالغ مثنى وثلاث ، فيتكبدون من ذلك خسائر فادحة .

أما أنا فقد بدا لى ، بنزوة غريبة ، بعد أن ظهر الأحمر سبع مرات متتالية ، أن أتعلق به وأثبت عليه . اننى مقتنع بأن لحب الظهور دخلا فى هذه النزوة ، فلقد كنت أحب أن أبعث الدهشة فى نفوس المشاهدين بمجازفة هوجاء طائشة (ألا انه لاحساس غريب !) ؛ ولكننى ما زلت أذكر بوضوح أن ظمأ الى المجازفة قد تملكنى على حين فجأة دون أن يحضنى على ذلك شىء من حب الظهور . لعل نفس الانسان ، بعد أن

تعانى مثل هذا العدد الكبير من الاحساسات ، لا تنتهى الى الشبع منها ، بل تهتاج وتطلب المزيد من احساسات جديدة ما تنفك تعنف ثم تعنف، الى أن تصل الى درجة الانهاك . ولست أكذب حين أقول اننى كنت مستعدا للمجازفة بخمسين ألف فلورين حطةً واحدة لو كانت الأنظمة تسمح بذلك . وكان الناس من حولى يصيحون قائلين ان هذا جنون ، فقد ظهر الأحمر أربع عشرة مرة متتالية !

قال رجل كان بجانبى :

— ربح السيد حتى الآن مائة ألف فلورين .

فلما سمعت كلامه صحوت فجأة . كيف ؟ أربحت فى هذه السهرة مائة ألف فلورين ؟ ولكننى لست فى حاجة الى أكثر من ذلك ! وما لبثت أن تناولت الأوراق المالية بسرعة فدسستها فى جيبى فوضى على غير ترتيب ، ومن غير عد ، ثم لممت الدنانير الذهبية لفات لفات ، وأسرعت أخرج من الكازينو . كان جميع الناس يضحكون وهم يروننى أجتاز القاعات منتفخ الجيوب مترنح الخطى من ثقل الذهب . أعتقد أن وزن الذهب الذى كنت أحمله يربو على نصف « پاود » * . وامتدت الىّ بعض الأيدى ، فوزعت المال قبضات قبضات ، على قدر ما كانت تسع منه يدى . وأوقفنى يهوديان عند الباب ، فقالا لى :

— أنت متهور ، متهور جدا ! فسافر غدا ، غدا فى الصباح ، فى أبكر ساعة من الصباح ، والا فلسوف تخسر كل شىء ..

لم أصغ اليهما . وكانت الظلمة فى طريق أشجار الكستناء من الشدة بحيث لم أكن أستطيع أن أميز يدى . والمسافة بينى وبين الفندق

نصف فرسخ تقريبا . وأنا امرؤ ما خفت من اللصوص ولا من قطاع الطرق يوما ، منذ أن كنت طفلا . فكذلك لم أقلق فى تلك اللحظة أيضا . ثم اننى لا أتذكر الآن فيم كنت أفكر أثناء الطريق . كان رأسى خاليا . ولكننى كنت أشعر بلذة عنيفة قوية ، هى لذة النجاح ، والانتصار ، والقوة . لا أدرى كيف أعبر لكم عما كان يختلج فى نفسى آنذاك . كان خيال پاولين يخطر أمام عينى ، ولم يغب عن بالى أننى كنت ذاهبا اليها .. ولكننى كنت لا أكاد أتذكر ما قالته لى منذ قليل ، ولا السبب الذى حملنى على الذهاب الى الكازينو ؛ ان جميع تلك الأحاسيس الحديثة التى امتلأت بها نفسى منذ ما لا يزيد عن ساعة ونصف ساعة ، أصبحت تبدو لى الآن منتمية الى ماض قد انقضى وزال ، حتى لقد لا نلمع اليه الماعا ، لأن كل شيء سيبدأ بداية جديدة .

وفى نهاية طريق أشجار الكستناء تقريبا انما استولى علىّ الخوف. قلت فى نفسى : « ماذا لو قتلت الآن وسرق مالى ؟ » . وأخذ ذعرى يشتد خطوة بعد خطوة . فكنت أسير سيرا هو بالركض أشبه . وفجأة، عند نهاية طريق ، تلألأت واجهة فندقنا على حين بغتة ، ساطعة بألف ضوء . الحمد لله . لقد وصلت .

صعدت درجات السلم أربعا أربعا حتى وصلت الى غرفتى ، ففتحت الباب فجأة ؛ فاذا پاولين ما تزال هنالك ، جالسة على ديوانى ، أمام شمعة مشتعلة ، ضامة يديها احديهما الى الأخرى. نظرت الىّ فى ذهول، فلا شك أن وجهى كان فى تلك اللحظة غريبا . وقفت أمامها ، ورميت بالمال كله على المنضدة .

الفصل الخامس عشر

حدقت پاولين الىّ ، دون أن تتحـــرك ، بل دون أن تغير وضعها . هتفت أقول لها وأنا أخرج من جيوبى آخر لفة :

— ربحت مائتى ألف فرنك * .

ان كومة كبيرة من الأوراق المالية والنقود الذهبية تغطى المنضدة كلها . كنت لا أستطيع أن أحول نظرى عنها ؛ حتى لقد كنت فى بعض اللحظات أنسى وجود پاولين . فأنا تارة آخذ أرتب الأوراق المالية كدسات كدسات ؛ وتارة أجمع الدنانير الذهبية على حدة ؛ وتارة أبعثر كل شىء وأطفق أذرع الغرفة جيئة وذهابا بخطى سريعة غارقا فى أحلامى أو أعود الى المنضدة فجأة أعد مالى . وانى لفى ذلك ، اذا أنا أعود الى رشدى على حين بغته ، فأمضى الى الباب أقفله بالمفتاح دورتين، ثم أقف أمام حقيبتى الصغيرة حائرا مترددا .

سألت پاولين وأنا ألتفت اليها فجأة متذكرا وجودها :

— هل يجب أن أضع المال فى الحقيبة الى الغد ؟

وكانت پاولين ما تزال جالسة فى مكانها نفسه لم تتحرك ، ولكنها كانت لا تحول عنى بصرها . كان فى وجهها تعبير غريب ساءنى أن أراه . ما أحسبنى مخطئا اذا قلت انه كان تعبيرا عن الكره والبغض .

فاقتربت منها مسرعا أقول :

ـــ پاولين ، اليك خمسة وعشرين ألف فلورين . انها تساوى خمسين ألف فرنك وتزيد . فخذيها وارميها فى وجهه غدا .

فلم تجب .

ـــ اذا شئت حملتها اليه أنا فى صباح الغد . هل تريدين ؟ .

فأخذت تضحك مقهقهة على حين فجأة . وظلت تقهقه على هذه الحال برهة طويلة .

فكنت أنظر اليها بدهشة موجعة أليمة . ان هذا الضحك يشبه كل الشبه ذلك الضحك الساخر الهازىء الذى كانت تستقبل به فى كثير من الأحيـــان (وفى أوان حديث أيضا) ما كنت أعلنه لها من عواطف حبى اللاهب الجامح . وحبست ضحكها أخيرا ، وقطبت ما بين حاجبيها، ونظرت الىّ نظرة قاسية من أدنى ، وقالت لى باحتقار :

ـــ لن آخذ شيئا من مالك ؟

فصحت أقول :

ـــ كيف هذا ؟ ماذا هنالك ؟ لم هذا يا پاولين ؟

ـــ لن أقبل أخذ شىء من مال دون ما سبب ! .

ـــ ولكننى أقدمه لك تقدمة الصديق للصديق ؛ اننى مستعد لأن أقدم لك حياتى كلها .

فنظرت الىّ نظرة طويلة فاحصة ، كأنها تريد أن تنفذ الى نفسى .

قالت وهى تضحك ضحكة صغيرة :

ـــ أنت رجل كريم سخى . ان خليلة دى جريو لا تستحق خمسين ألف فرنك .

فهتفت أقول بلهجة العتب :

ـــ پاولين ، كيف تستطيعين أن تكلمينى هكذا ؟ أنا لست دى جريو !

فصرخت تقول وقد أخذت عيناها تقدحان شررا :

ـــ أنا أكرهك ! نعم .. نعم .. أنا لا أحبك أكثر مما أحب دى جريو .

قالت ذلك وأخفت وجهها فى يديها واعترتها نوبة عصبية ، فارتميت نحوها .

أدركت أن شيئا قد وقع لها أثناء غيابى ولا شك ، فانها لم تكن مالكة رشدها .

وانفجرت تقول من خلال النحيب والتشنج :

ـــ هيا اشترنى ! هل تريد ؟ اشترنى بخمسين ألف فرنك ، مثل دى جريو !

ضممتها بذراعى ، وقبلت يديها ، وقدميها ، وركعت أمامها على ركبتى .

وانقضت النوبة . فوضعت يديها على كتفى ، وأخذت تتفرس فى وجهى . لكأنها تريد أن تقرأ شيئا فى هذا الوجه . وكانت تصغى الىّ ولكن كان واضحا أنها لا تسمع ما كنت أقوله لها . وظهر على قسمات وجهها ما ينبىء عن هم ، ويدل على أنها فى حلم . قلقت . أحسست أنها بسبيل أن تجن . ها هى ذى تشدنى اليها برفق ، وقد طافت على شفتيها بسمة ثقة واطمئنان ؛ ثم ها هى ذى تدفعنى عنها على حين فجأة ، وتعود تتفرسنى وقد أظلم وجهها .

وها هى ذى تمسك ذراعى بغتة وتأخذ تقول :

ــ أنت تحبنى ، أليس كذلك ؟ ما دمت .. ما دمت قد أردت أن تقاتل البارون من أجلى !

وانفجرت تقهقه قهقهة من خطرت بباله ذكرى مضحكة مسلية . كانت تضحك وتبكى فى آن واحد .

ماذا كان فى وسعى أن أفعل ؟ لقد كنت أنا نفسى محموما . أذكر أنها أخذت تكلمنى .. ولكننى لم أستطع أن أفهم شيئا تقريبا . كان كلامها ضربا من هذيان . انها تتمتم تمتمة كما لو كانت تريد أن تقص علىّ شيئا من الأشياء بسرعة . وكان يقطع هذا الهذيان من حين الى حين ضحك فرح ينفجر انفجارا فيأخذ يخيفنى .

كانت تردد :

ــ لا ، لا ، أنت لطيف ، لطيف . أنت مخلص لى .

وتعود تضع يديها على كتفى ، وتعود تتأملنى وتكرر :

ـــ أنت تحبنى ، أنت تحبنى .. وسوف تحبنى ؟

لم أحول بصرى عنها . ما كنت قد رأيتها قبل ذلك قط فى مثل هذه الحالة من الرقة والحنان والحب . صحيح أن ذلك كان هذيانا ، وها هى ذى تلاحظ نظرتى الولهى ، فتبتسم ابتسامة خبيثة ماكرة على حين فجأة . ثم ها هى ذى تأخذ تتكلم عن مستر آستلى بغتة .

على أنها كانت تدير الحديث على مستر آستلى بغير انقطاع (ولا سيما منذ قليل ، حين حاولت أن تقص علىّ شيئا ما) ، غير أننى لم أستطع أن أفهم ماذا كان يعنى هذا على وجه الدقة . بل اننى لأعتقد أنها كانت تسخر منه . وأخذت تردد فى كل لحظة أنه ينتظر ، وأننى ربما كنت أجهل أنه ينتظر تحت نافذة غرفتى .

ـــ نعم ، نعم ، تحت النافذة . افتح النافذة وأنظر . انه هناك !

قالت ذلك ودفعتنى نحو النافذة . فما ان هممت أن أمضى الى النافذة حتى استبد بها ضحك مجنون ، فبقيت قربها ، فاذا هى ترتمى على وتحضننى بذراعيها .

ـــ سنسافر ؟ غدا نسافر ؟

لقد وافتها هذه الفكرة على حين فجأة ، وأضافت تقول شاردة اللب ساهمة الفكر :

ـــ وسندرك الجدة ، ما رأيك ؟ أغلب ظنى أننا نستطيع أن ندركها ببرلين . ما عساها قائلة ، فى رأيك ، حين نلحق بها فترانا ؟ ومستر آستلى ؟ .. ان مستر آستلى هذا لن يرمى نفســه من أعلى جبــل

شلانجنبرج ، أليس كذلك ؟ (قالت هذا وانفجرت تفهقه) . اسمع : هل تعلم الى أين يريد أن يذهب فى الصيف المقبل ؟ انه يريد أن يذهب الى القطب الشمالى ليقوم بدراسات علمية ، وقد دعانى الى مشاركته فى هذه الرحلة .. ها ! ها ! ها ! يقول اننا معشر الروس ما كنا لنتعلم شيئا لولا الأوربيون ، واننا لا نصلح لشيء . لكنه رجل طيب هو أيضا . هل تعلم ؟ انه يعذر الجنرال : يقول ان بلانش .. ان الهوى.. لا أدرى لا أدرى ماذا يقول .. (رددت ذلك مشوشة كأنما أعوزها التعبير) . مساكين ! لشد ما أرثى لحالهم ؛ ولشد ما أرثى لحال الجدة أيضا ! اسمع ، اسمع ، كيف يكون فى امكانك أن تقتل دى جريو ؟ ولكنك لن تستطيع أن تقتل حتى البارون (أضافت ذلك وقد أخذت تضحك) . لشد ما كنتَ مضحكا فى ذلك اليوم ، مع البارون ! كنت أنظر اليكما كليكما من على مقعدى .. ولشد ما ضايقك أن تذهب اليه حين أرسلتك ! لكم ضحكت يومئذ ، لكم ضحكت ! (قالت ذلك وهى تضحك محاولة أن تحبس قهقهتها) .

وفجأة عادت تقبلنى ، وتضمنى الى صدرها ، وتشد وجهى الى وجهها بحنان قوى وعاطفة مشبوبة . أصبحت لا أفكر فى شيء ، ولا أسمع شيئا . لقد أخذ رأسى يدور ..

أظن أن الساعة كانت بلغت السابعة من الصباح حين ثبت الى رشدى . كانت الشمس تضيء الغرفة . وكانت پاولين جالسة الى جانبى تجيل بصرها على ما حولها غريبة النظرة ، كأنها تخرج من الظلمة وتجمع شتات ذكرياتها . كانت قد استيقظت هى أيضا منذ قليل ،

وأخذت تنظر محدقة الى المنضدة والمال . ان رأسى ثقيل موجع . وأردت أن أتناول يد پاولين ، فصدتنى ، ونهضت عن الديوان فجأة . كان النهار الذى بدأ يطلع قاتما . لقد أمطرت السماء قبيل الفجر اقتربت پاولين من النافذة ففتحتها ، ثم مالت عليها بنصف جسمها متكئة على مسندها ، ولبثت على هذه الحال بضع دقائق لا تلتفت نحوى ولا تصغى الى ما أقول لها . وراودتنى فكرة مرعبة : ما عسى يحدث الآن ، وكيف عسى ينتهى الأمر ؟ وفجأة تركت پاولين النافذة وجاءت الى المنضدة ، وقالت لى وقد فاض وجهها بكره لا حد له ، وارتعشت شفتاها من شدة الحنق :

ــ هات الآن الخمسين ألف فرنك التى لى !

قلت :

ــ ماذا دهاك يا پاولين ؟ أتستأنفين القصة ؟

ــ اللهم الا أن تكون قد غيرت رأيك ! ها ها ها . لعلك ندمت .

كانت الخمسة والعشرون ألف فلورين التى عددتها فى الليلة البارحة ما تزال على المنضدة : فتناولتها ومددتها اليها .

سألتنى وهى تمسك المال وتلقى علىّ نظرة ساخطة :

ــ هى الآن لى ، أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟

قلت :

ــ لقد كانت لك منذ البدء .

ــ طيب .. اذن خذها الآن ، ألوفك الخمسين !

قالت ذلك ورفعت يدها فرمت الحزمة فى وجهى ، فلطمته لطما ، وتبعثرت الأوراق على الأرض ، ثم خرجت پاولين من الغرفة راكضة .

كنت أعرف أنها لم تكن فى تلك اللحظة مالكة عقلها ، رغم أننى لم أفهم هذا الجنون العابر . صحيح أنها ما تزال مريضة ، وأنها مريضة منذ شهر . ولكن ما سبب هذه الحالة ، وما سبب هـــذا الانفجار خاصة ؟ هل أهينت كبرياؤها ؟ أهو الحزن الشديد من أنها جاءت الىّ ؟ ترى هل ظهر علىّ أننى مُـدِل" بسعادتى ، وأننى أريد ، مثل دى جريو ، أن أتخلص منها باعطائها خمسين ألف فرنك ؟ ولكن ليس ثمة شيء من هذا .. وما أظن الا أن الذنب ذنب غرورها . ان غرورها هو الذى دفعها الى أن تمنع عنى ثقتها وأن تهيننى ، وان لم يكن ذلك كله واضحا فى ذهنها بل مبهما كل الابهام فى أغلب الظن . فاذا كان الأمر كذلك ، فقد عاقبتنى بما كان يجب أن يعاقب به دى جريو ، ولعلها عدتنى مذنبا دون أن يكون لى فى الأمر كبير ذنب . صحيح أن هذا كله لم يكن الا هذيانا . وصحيح أيضا أننى كنت أعرف أنها تهذى .. وأننى لم أول هذا الظرف انتباها . أتراها لا تستطيع أن تغفر لى ذلك الآن ؟ ولكن اذا صح هذا بالنسبة الىّ الآن ، فماذا بالنسبة الىّ أمس ، ماذا بالنسبة الى أمس ؟ ان هذيانها ومرضها لم يكونا من القوة بحيث ينسيانها ماذا كانت تفعل حين جاءت الىّ حاملة رسالة دى جريو ! كانت تعلم اذن ما تفعل .

وأسرعت أدس جميع نقودى وذهبى فى السرير كيفما اتفق ، وأسدل عليها الغطاء ، وأخرج من الغرفة بعد خروج پاولين بعشر دقائق تقريبا . كنت واثقا أنها هربت الى مسكنها ، فأردت أن أتسلل الى شقتهم دون

ضوضاء ، أسأل الخادمة في المدخل عن صحة سيدتها . فما كان أشد دهشتي حين لقيتني الخادمة على السلم فقالت لي ان پاولين لم تعد حتى الآن ، وانها ـــ أي الخادمة ـــ كانت آتية اليّ تبحث عنها .

قلت للخادمة :

ـــ لقد خرجت من عندي منذ هنيهة قصيرة ، منذ عشر دقائق تقريبا . الى أين تراها ذهبت ؟

فألقت عليّ الخادمة نظرة عتاب

وفي أثناء ذلك كانت القصة تطوف في أرجاء الفندق . فالنزلاء يهمس بعضهم لبعض ، عند حجرة البواب وعند مدير الخدم ، أن « الآنسة » قد خرجت راكضة في الساعة السادسة من الصباح ، تحت وابل المطر ، متجهة نحو فندق انجلترة . فهمت من أحاديثهم وتلميحاتهم أنهم كانوا يعرفون أنها قضت الليلة كلها في غرفتي . ثم انهم كانوا قد أخذوا يقصون حكايات عن أسرة الجنرال . انهم يعلمون أنه قد فقد صوابه في الليلة البارحة فأخذ يبكي منتحبا حتى سمع نحيبه كل من في الفندق . وقالوا في هذه المناسبة ان الجدة هي أمه ، وانها قد جاءت من روسيا خصيصا لتمنع ابنها من الزواج بمدموازيل دي كومنج ، فاذا لم يطعها حرمته من ميراثها . أما وأنه رفض الامتثال لأوامرها ، فقد ذهبت تبدد ثروتها في الروليت أمام عينيه عامدة متعمدة ، حتى لا تترك له شيئا . فكان مدير الخدم يكرر قوله مستاء مستنكرا وهو يهز رأسه : « يا لهؤلاء الروس ! * » ، وكان الآخرون يضحكون ، ان مدير الخدم يهيىء الفاتورة . وكان قد علم أنني ربحت في الليلة البارحة:

ان كارل خادم الطابق الذى أسكن فيه ، هو أول من هنأنى . ولكن عقلى مشغولا بشىء آخر . فهرعت الى فندق انجلترة .

ما نزال فى ساعة مبكرة من الصباح ، ومستر آستلى لا يستقبل . ولكنه حين عرف أن القادم هو أنا خرج يلقانى فى الدهليز ، وظل متسمرا أمامى يحدق الىّ بنظرته الكابية ، منتظرا ما سأقوله . وسرعان ما سألته عن أنباء پاولين ، فأجاب وهو ما يزال يسدد بصره الى عينى :

ــ انها مريضة .

ــ أهى اذن عندك ؟

ــ نعم هى هنا .

ــ وهل .. هل تنوى أن تبقيها عندك ؟

ــ نعم .

ــ يا مستر آستلى ، سيكون هذا فضيحة . ذلك أمر مستحيل . ثم انها مريضة تماما .. ألعلك لم تلاحظ ذلك ؟ .

ــ بلى ! وقد سبق أن قلت لك انها مريضة . ولو لم تكن مريضة لما قضت ليلتها عندك .

ــ أأنت تعرف هذا أيضا ؟

ــ نعم ، كان يجب أن تأتى الىّ ، ولو قد أتت اذن لنقلتها الى منزل احدى قريباتى ، ولكنها كانت مريضة ، فلذلك ضلت سبيلها فذهبت اليك .

ـــ أهنئك اذن يا مستر آستلى ! بالمناسبة ، لقد ذكرتنى الآن بشيء . ألم تمكث طوال الليلة البارحة تحت نافذتى ؟ كانت مس پاولين تطلب منى فى كل لحظة أن أفتح النافذة لأرى ألست تنظر تحتها : وكان ذلك يضحكها كثيرا .

ـــ أهذا ممكن ؟ لا لم أكن تحت النافذة ، غير أننى انتظرت فى الدهليز ، وطفقت أذهب وأجيء على مقربة .

ـــ يجب معالجتها يا مستر آستلى .

ـــ نعم ، وقد أرسلت أستدعى طبيبا ، فاذا ماتت فلسوف أعرف كيف أقتص منك .

ذهلت .

ـــ هلا تكرمت يا مستر آستلى فقلت لى ماذا تعنى ؟

ـــ هل صحيح أنك ربحت البارحة مائتى ألف تالير ؟

ـــ بل مائة ألف فلورين فقط .

ـــ هكذا .. وستسافر بعد قليل الى باريس .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأن جميع الروس يذهبون الى باريس متى كان معهم مال ..

كذلك قال مستر آستلى متدفقا فى الكلام كأنه يقرأ فى كتاب .

ـــ وما عساى أصنع بباريس الآن ، فى الصيف ؟ اننى أحبها يا مستر آستلى ! أنت تعرف ذلك .

ـــ حقا ؟ أما أنا فأعتقد بعكس ذلك . ثم انك اذا بقيت هنا ستخسر

حتما كل ما تملكه ، ولن يبقى معك ما قد يوصلك الى باريس . هيا ، وداعا ، اننى على يقين مطلق من أنك مسافر فى هذا اليوم نفسه .

ـــ طيب . وداعا . ولكننى لن أسافر . فكر يا مستر آستلى فيما سيحدث ! .. ان الجنرال .. ثم ان قصة پاولين هذه ستنتشر فى المدينة كلها .

ـــ نعم فى المدينة كلها . وأعتقد أن الجنرال لا يكاد يفطن الى هذا الموضوع أصلا ، فان هناك أشياء أخرى تشغل باله وتستأثر بتفكيره. ثم ان من حق مس پاولين أن تقيم حيث تحلو لها الاقامة . أما أسرتها فلا نعدو الواقع اذا قلنا انها لم يبق لها وجود .

كنت بعد أن انصرفت من عند مستر آستلى أضحك عجبا من هذه الثقة الغريبة التى تبدو فى كلامه حين أكد أننى مسافر الى باريس . قلت فى نفسى : وهو مع ذلك يريد أن يقتلنى فى مبارزة اذا ماتت پاولين .. شيء لطيف ! .. يمينا لقد كنت أشفق على پاولين .. غير أن هناك شيئا غريبا هو أننى منذ اللحظة التى دنوت فيها من مائدة القمار وأخذت ألم الأوراق النقدية أكداسا أكداسا ، أصبح حبى فى المنزلة الثانية ان صح التعبير . وأنا أقول ذلك الآن . أما وقتئذ فلم يكن شعورى به واضحا كل الوضوح . أأنا اذن مقامر ؟ أكان حبى پاولين .. غريبا اذن هذه الغرابة ؟ لا .. اننى ما أزال أحبها ، شهد الله .. وحين خرجت من عند مستر آستلى كنت أتألم ألما صادقا مخلصا ، وكنت ألوم نفسى لوما شديدا حين كنت عائدا الى غرفتى .. غير أن .. مغامرة من أعجب المغامرات وأشدها حماقة وبلاهة قد وقعت لى عندئذ .

كنت ذاهبا الى الجنرال مستعجل الخطى ، فاذا بباب يفتح على حين غرة ، غير بعيد عن مسكنهم ، واذا بصوت ينادينى : انها السيدة أرملة دى كومنج تنادينى بأمر من مدموازيل بلانش . دخلت شقة المرأة الشابة .

انهما يقيمان فى شقة صغيرة من غرفتين . وكان ضحك مدموازيل بلانش وانطلاق صوتها يسمعان صادرين من حجـرة نومها . كانت مدموازيل بلانش بسبيل النهوض من فراشها :

ـــ ها .. أهذا هو ؟ تعال تعال يا أبله ! أصحيح أنك ربحت جبلا من ذهب وفضة ؟ اننى أوثر الذهب على كل حال .

فقلت ضاحكا :

ـــ نعم ربحت .

ـــ كم ؟

ـــ مائة ألف فلورين .

ـــ ما أبلهك ! أدخل أدخل ! اننى لا أسمع شيئا . لسوف نطلق لأنفسنا العنان ، أليس كذلك ؟

ودخلت . كانت مضطجعة تحت غطاء من حرير وردى يكشف عن كتفيها السمراوين المدورين الرائعين : كتفين لا يرى المرء مثلهما فى المنام ، قد غطاهما ، على اهمال ، قميص من نسيج قطنى خفيف يزينه شريط مخرم مطرز ناصع البياض يبرز جمال جلدها البرونزى كما يبرز الضد ضده .

صاحت تقول وهى ترانى :

ـــ ألك قلب يا بنى ؟ * .

وكانت لا تزال تضحك ضحكا مرحا جدا ، بل ضحكا صريحا فى بعض الأحيان .

قلت موسعا جملة كورنى :

ـــ شىء آخر ..

فأخذت تثرثر قائلة :

ـــ أرأيت ، أرأيت ؟ هات لى أولا جوربى فألبسنيهما ؛ ثم ، اذا لم تكن أبله جدا ، أخذتك معى الى باريس . أنت تعلم أننى مسافرة توا .

ـــ توا ؟

ـــ بعد نصف ساعة .

وكان كل شىء قد حزم فعلا . وكانت الحقائب مهيأة . وقد شربت القهوة منذ زمن .

ـــ فاذا شئت ، رأيت باريس ! قل لى : ما معنى كلمة « مربى » ؟ لشد ما كنت أبله ، حين كنت مربيا ! أين جورباى ؟ مالك لا تلبسنى جوربى ؟

قالت ذلك وأظهرت قدما صغيرة أخاذة الجمال حقا : قدما سمراء دقيقة ، ليس فيها شىء من ذلك التشوه الذى تراه تقريبا فى جميع تلك الأقدام الصغيرة التى تبدو جميلة ذلك الجمال كله وهى فى أحذيتها . أخذت أضحك ومددت الجورب الحريرى على ساقها . فكانت أثناء ذلك ما تنفك تثرثر قاعدة على سريرها .

ــ هيه ! ما عساك فاعلا اذا أخذتك معى ؟ أولا أريد خمسين ألف فرنك . ستعطيننى هذا المبلغ فى فرنكفورت . ثم نذهب الى باريس. وهناك سنعيش معا ، وسأريك النجوم فى وضح النهار . لسوف ترى هنالك نساء ما رأيت مثلهن فى حياتك . اسمع ..

ــ انتظرى ! اذا أعطيتك خمسين ألف فرنك فماذا يبقى لى ؟

ــ هل نسيت المائة والخمسين ألف فرنك ؟ ثم اننى أرضى أن أعيش معك شهرا ، أو شهرين ، هل أدرى ؟ وطبعا سننفق فى شهرين هذه المائة والخمسين ألف فرنك . أرأيت ؟ اننى طفلة طيبة ، أنبئك بما سيقع منذ الآن . ولكنك سترى نجوما !

ــ كيف هذا ؟ أننفق كل شىء فى شهرين ؟

ــ أيفزعك هذا ؟ يا لك من عبد سيىء ! ألا تعلم أن شهرا واحدا تعيشه على هذا النحو خير من حياتك كلها ؟ شهر واحد .. وبعده الطوفان ! ولكنك لا تستطيع أن تفهم ! هيا امض فى سبيلك . هيا هيا.. انك لا تستحق هذا وما أنت جدير به . آى ، ماذا تفعل ؟

كنت بسبيل الباسها جوربها الثانى ، ولكننى لم أطق أن أقاوم ، فاذا أنا أقبل قدمها ، فسحبته وأخذت تلطم وجهى بطرف القدم ، ثم طردتنى ..

ــ هيه .. أيها المربى .. سأنتظرك اذا شئت ..

أنا مسافرة بعد ربع ساعة .

كذلك صاحت تخاطبنى .

فلما عدت الى غرفتى كنت كمن اعتراه دوار ..

قلت لنفسى : ليس ذنبى أن مدموازيل پاولين رمت كدسة الأموال فى وجهى ، وآثرت علىّ مستر آستلى منذ ذلك المساء ! وكان ما يزال على الأرض بعض الأوراق النقدية ، فلمحتها . وفى تلك اللحظة فتح الباب ، ودخل مدير خدم الفندق (الذى كان قبل ذلك لا يحب حتى أن ينظر الىّ) ، ودعانى أن أسكن تحت ، فى الشقة الرائعة التى شغلها الكونت لـ .. منذ فترة قصيرة .

فلبثت لحظة أفكر ، ثم هتفت أقول له :

ــ هات لى فاتورة الحساب . أنا مسافر الى باريس بعد عشر دقائق .

ذلك أننى قلت لنفسى : اذهبْ الى باريس يا هذا .

لا شك أن ذلك كان مقدرا علىّ مكتوبا لى .

وما انقضى ربع ساعة حتى كنا جالسين فعلا فى حجرة عائلية بالقطار : أنا ومدموازيل بلانش ، والسيدة أرملة دى كومنج . كانت مدموازيل بلانش تضحك ، وهى تنظر الىّ ، ضحكا شديدا تتساقط له من عينيها الدموع . وكانت السيدة أرملة دى كومنج تجاريها فى الضحك . لن أقول اننى كنت مرحا حينذاك . لقد كانت حياتى تنشطر شطرين . غير أننى ألفت منذ الليلة البارحة أن أقامر على ورقة . قد يكون صحيحا أننى كنت لا أحتمل المال ، وأننى قد فقدت رشدى . قد يكون هذا صحيحا ، ولكننى كنت لا أنشد أحسن من ذلك ! وكان يتراءى لى خلال لحظة ، خلال لحظة واحدة ، فحسب ، أن الاطار قد تغير « ولكننى سأعود بعد شهر .. وستقع الواقعة يومئذ بيننا ..

أنا ومستر آستلى » .. نعم ، اذا صدقت ذاكرتى ، فلقد كنت أشعر بحزن رهيب وأنا أضحك ملء حنجرتى مع الغبية بلانش ..

صاحت بلانش تقول لى مقرعة مؤنبة وقد توقفت عن الضحك :

ــ ولكن ماذا تريد ؟ ألا انك لأحمق .. ألا ما أشد حماقتك ! نعم نعم ، سننفق المائتى ألف فرنك ، ولكنك ستكون سعيدا كملك صغير . سأعقد لك بنفسى ربطات عنقك ، وسأقدمك الى هورتنس . حتى اذا بددنا كل ما معنا من مال ، عدت أنت الى هنا فدمرت الخزنة من جديد . ماذا قال لك اليهوديان ؟ الجرأة والتهور هما الأصل ، وأنت امرؤ جرىء متهور ، وستأتينى الى باريس مرارا تحمل الىّ مالا . أما أنا فأريد دخلا مقداره خمسون ألف فرنك ، وعندئذ ..

سألتها مقاطعا :

ــ والجنرال ؟

ــ الجنرال ؟ أنت تعلم أنه يذهب فى مثل هذه الساعة من كل صباح يشترى لى باقة من الأزهار . وقد طلبت منه فى هذه المرة ، عامدة ، أن يجيئنى بأزهار يندر العثور عليها . فمتى عاد ، المسكين ، يكون الطير قد طار . ولسوف يجرى وراءنا . سترى . ها ها ها .. سيسرنى هذا كثيرا . سينفعنى كثيرا هنالك . وسيدفع مستر آستلى عنه هنا ..

هكذا سافرت الى باريس .

الفصل السادس عشر

باريس

ماذا أقول عن باريس ؟

كان ذلك كله هذيانا وشذوذا ، ما فى ذلك ريب . لم أمكث فى باريس الا ثلاثة أسابيع ، وفى نهاية هذه الأسابيع الثلاثة ، كنت محملا بمائة ألف فرنك . أقول مائة ألف فرنك فقط . أما المائة ألف الأخرى فقد أعطيتها مدموازيل بلانش عدا ونقدا : خمسين ألفا فى فرنكفورت، وخمسين ألفا فى باريس ، بعد ثلاثة أيام ، سندات لأمرها ما لبثت أن أبدلتها بعد أسبوع .

ــ والمائة ألف الباقية لنا ، ستأكلها معى يا عزيزى « المربى » . (كذلك كانت تسمينى دائما « المربى ») .

يصعب على المرء أن يتخيل وجود انسان يبلغ من الشك والحذر، ويبلغ من البخل والشح ، ما يبلغه هذا النوع من البشر الذى تنتمى اليه مدموازيل بلانش فيما يتصل بالمال الذى لهم . أما المائة ألف فرنك التى بقيت لى فقد صرحت لى بعد ذلك ، بكل بساطة ، أنها فى حاجة اليها لتستقر بباريز . وأضافت تقول :

ــــ هأنذا وقفت أخيرا على قدمى فى موضع لائق ، ولن ينزلنى أحد من هذا الموضع ، الى أمد طويل . لقد اتخــذت الاجــراءات الضرورية ، على الأقل .

ثم اننى لم أكد أرى بعينى لون تلك الآلاف المائة من الفرنكات : فلقد كانت مدموازيل بلانش هى التى تتولى الانفاق ، ولم تضــم محفظة نقودها التى كانت تنفقدها كل يوم ، لم تضم أكثر من مائة فرنك فى لحظة من اللحظات ، بل لم تضم الا أقل من ذلك فى أكثر الأحيــان .

كانت تقول لى أحيــانا وقد ظهرت فى وجهها ســلامة النيــة وحسن الطوية :

ــــ ما حاجتك أنت الى المال ؟

فكنت لا أجادلها ولا أناقشها .

وفى مقابل ذلك ، أعدّت بهذا المال ، منزلاً جميلا جــدا ، فلما أخذتنى الى منزلها الجديد ، قالت لى وهى تطوف بى فى أرجائه :

ــــ انظر ماذا يستطيع التوفير والذوق أن يعملا بأيسر الأثمان ، وأضعف الموارد .

ومع ذلك فان هذه الأثــان قد كلفت خمسين ألف فرنك . أما الخمسون ألف فرنك الأخرى فقد اشترت بها عربة وخيلا . ثم أقامت حفلتين راقصتين ، أعنى سهرتين ، حضرتهما « هورتنس » و « ليزيت » و « كليوباتره » ، وهن نساء متميزات من عدة وجوه ، وهن فوق ذلك بغايا طيبات . وقد اضطررت أثناء هاتين السهرتين أن أمثل دور رب

المنزل ، فاستقبل وأحدث زوجات تجار حدثنى العهد بالغنى ، نساء على جانب عظيم من قلة العقل وضحالة الفكر ، كما أستقبل وأحدث ضباطا صغارا لا يطاقون ولا يحتملون من شدة جهلهم وغلظتهم وفظاظتهم ، وأناسا من أدعياء الكتابة المخربشين ، وصحفيين تافهين يجيئون مرتدين أحدث زى ، مدلين بأنفسهم مزهوين ، على غرور وصلف وغطرسة لا نستطيع تصورها نحن فى بطرسبرج ، وليس هذا بالقليل .. حتى لقد بدا لهم أن يسخروا منى وأن يستهزئوا بى ، ولكننى كنت أقبل على الشمبانيا فما أزال أشرب الى أن أسكر ، فأمضى أنام فى الغرفة المجـــاورة .

وكانت مدموازيل بلانش تقول :

ـــ انه « مرب » . وقد ربح مائتى ألف فرنك ، فلولاى ما عرف كيف ينفقها . وسيعود بعد ذلك الى مهنته . ألم يسمع أحد منكم عن وظيفة يعين لها ؟ ان علينا أن نعمل شيئا من أجله .

وكنت ألجأ الى الشمبانيا فى أغلب الأحيان ، لأننى حزين دائما ، ضجر ضجرا رهيبا . كنت أعيش فى بيئة هى أكثر البيئات بورجوازية وتجارية ، بيئة يُحسب فيها كل قرش ويعد . وقد ظلت بلانش لا تطيقنى خلال الأيام الخمسة عشر الأولى : لاحظت ذلك . صحيح أنها كانت تعنى بأناقة هندامى ، وكانت تتولى بنفسها عقد ربطة عنقى كل يوم ، ولكنها كانت فى حقيقة الأمر تحتقرنى احتقارا وديا . ولم أكن أولى ذلك أى انتباه . وبدأت أخرج من المنزل من فرط ما كنت أشعر به من حزن وكآبة ، فكنت فى أكثر الأحيان أمضى الى « قصر الأزهار » ، فأظل أسكر كل مساء بغير انقطاع ، وأتعلم رقصة الكانكان (التى

يرقصونها هنالك على نحو خال من أى احتشام على الاطلاق) ، حتى لقد صرت مشهورا بهذا النوع من الرقص . وفهمت بلانش أخيرا طبيعة هذا الرجل الذى تعامله : كانت قد تخيلت أول الأمر أننى ، طول مدة العلاقة التى بيننا ، سأتبعها ممسكا بقلم وورقه ، أحصى ما تنفقه ، وأعد ما تسرقه ، وما قد تنفقه وما قد تسرقه أيضا ، وكانت مقتنعة بأن عليها أن تنتزع منى بصراع مرير كل قطعة من قطع النقود ذات العشرة فرنكات . فكانت تعد جوابا حاضرا لكل هجوم تفترض أننى قد أتناولها به ، فلما لاحظت أننى لا أبادر الى الهجوم ، أرادت أن تسبقنى اليه لتمنعنى منه . فكانت تشرع فى ذلك أحيانا ، فتطلق للسانها العنان ، ولكنها وقد رأت أننى أصمت لا أنبس بكلمة ، بل أظل مستلقيا على الكرسى الطويل محدقا الى السقف ، أخذت تستغرب وتدهش ، فاعتقدت أول الأمر أننى امرؤ مغفل لا أكثر من ذلك ولا أقل ، أننى « مرب » وكفى ، فتكف عن الكلام قائلة لنفسها من غير شك « انسان مغفل ، فلا فائدة من استشارته ان لم يفهم من تلقاء نفسه » . وكانت فى بعض الأحيان تخرج من المنزل ثم تعود بعد عشر دقائق (كان هذا يحدث حين تنفق مبالغ ضخمة جنونيــة ، مبالغ لا تسمح لنا وسائلنا بانفاقها ، مثلما فعلت يوم أبدلت فرسيها بفرسين أخريين دفعت ثمنهما ستة عشر ألف فرنك) .

قالت لى يومئذ وهى تدنو منى :

ــــ ألست غاضبا يا عزيزى ؟

فقلت وأنا أبعدها عنى بيدى :

ـــ لا .. وانما أنت تـ .. ـضـ .. جريننى !

ولكن هذا الجواب بدا لها غريبا كل الغرابة فجلست الى جانبى وقالت :

ـــ اسمع . لقد قررت أن أدفع ثمن الفرسين باهظا الى هذا الحد ، لأنها فرصة .. فان فى وسعى أن أعود فأبيعهما بعشرين ألف فرنك .

ـــ أصدقك ، أصدقك ، فهما فرسان جميلتان ، وقد أصبح لك الآن مركبة فخمة رائعة ، وهذا سيعود عليك بفائدة ، فلا تتكلمن فى هذا الموضوع بعد الآن .

ـــ اذن لست غاضبا ؟

ـــ ولماذا أغضب ؟ لقد كنت على حق اذ اشتريت ما لابد من شرائه . فهذا كله سيعود عليك بنفع فى المستقبل .اننى لأدرك أنك فى حاجة حقا الى أن تقفى على قدم راسخة وطيدة ، والا لم تحصلى على المليون . ان المائة ألف فرنك التى نملكها ليست هنا الا بداية ، ليست الا قطرة من بحر محيط .

قلت ذلك فاذا بيلانش التى كانت تتوقع كل شيء ، وتنتظر صياحا ولوما وعتابا لا أفكارا من هذا النوع ، اذا بها تبدو كمن يهبط من السحاب . قالت :

ـــ اذن أنت كذلك ؟ ان لك فكرا يفهم والحالة هذه ! هل تعلم يا بنى ؟ انك على كونك « مربيا » قد خلقت أميرا ولا شك . أأنت اذن غير آسف على أن مالنا يهرب بهذه السرعة ؟

ـــ لا .. لست آسفا .. فليذهب المال الى الشيطان .. ليهرب بأقصى سرعة !

ـــ ولكن .. هل تعلم .. ولكن قل لى : أيمكن أن تصبح غنيا ؟ ولكن .. ولكنك تحتقر المال وتسرف فى احتقاره . ما عساك فاعلا بعد ؟ قل لى ..

ـــ أذهب الى هومبورج* ، فأربح هنالك مائة ألف فرنك أخرى .

ـــ نعم نعم .. هذا ما يجب أن تفعله ! رائع ! وأنا واثقة من أنك ستربح ؛ وستجيئنى بالمال الى هنا . قل لى : لسوف تبلغ من حسن التصرف على هذا النحو ، أننى سأحبك آخر الأمر . سأحبك طول هذا الوقت ، ولن أخونك مرة واحدة . هل ترى ؟ لقد كنت فى هـــذه الآونة الأخيرة لا أحبك ، لأننى كنت أعتقد أنك « مرب » وكفى (أى خادم تقريبا ، أليس كذلك ؟) . ومع ذلك أخلصت لك ولم أخنك ، لأننى فتاة طيبة الخلق .

ـــ دعيك من هذا الكلام ! ألم تخونينى مع ألبير ، الضابط الصغير الأسمر ؟ أتظنين أننى لم ألاحظ فى المرة الأخيرة ؟

ـــ أوه .. أوه .. ولكنك ..

ـــ أنت تكذبين ، أنت تكذبين ، ولكن لا تتخيلى أن هذا يغضبنى. انك لن تطرديه على كل حال ، فانه أقدم منى ، وأنت تحبينه ؛ ولكن اياك أن تعطيه مالا ، هل تسمعين ؟

ـــ أنت اذن غير غاضب حتى من هذا ؟ ألا انك لفيلسوف حقا ، هل تعلم ؟ فيلسوف حقا ..

كذلك صاحت تقول متحمسة ، ثم أضافت :

ــ لسوف أحبك ، لسوف أحبك . سترى . ستكون راضيا !

ومنذ ذلك اليوم تعلقت بى بعض التعلق فعلا ، بل أظهرت لى شيئا من الصداقة . فكذلك انقضت أيامنا العشرة الأخيرة . ولئن لم أر النجوم التى وعدتنى بها ، فلقد برت بوعدها من بعض الوجوه . ثم انها عرفتنى بهورتنس ، وهى امرأة فذة فى نوعها ، كانوا يطلقون عليها فى حلقتنا اسم تبريز الفيلسوفة * .

على أنه لا مجال للافاضة فى هذا الآن ؛ فهو يصلح أن يكون موضوع قصة على حدة ، قصة ذات لون خاص لا أريد أن أصبغ به روايتى هذه . والحق أنى كنت أتمنى بكل ما أوتيت من قوة أن ينتهى هذا كله بأقصى سرعة . ولكن المائة ألف فرنك التى كنا نملكها قد دامت قرابة شهر ، فأدهشنى ذلك حقا . ان بلانش قد اشترت أشياء مختلفة بثمانين ألف فرنك على الأقل ؛ فلم ننفق اذن الا عشرين ألف فرنك .. وكان هذا كافيا . وقد اعترفت لى بلانش ، التى أصبحت صريحة معى فى آخر الأمر (أو قل على الأقل انها أصبحت لا تكذب علىّ فى كل شىء) اعترفت لى بأننى لست مسئولا ، على كل حال ، عن الديون التى اضطرت اليها . قالت لى :

ــ هناك فواتير وسندات لم أحملك على مهرها بتوقيعك ، لأننى أشفقت عليك . ان امرأة غيرى كانت ستفعل ذلك حتما ، فترسلك الى السجن . فهأنت ذا ترى كم أحببتك وكم كنت طيبة القلب ! ان هذا الزواج التعيس وحده سيكلفنى مبالغ طائلة جنونية .

ذلك أن هناك زواجا قد تم فعلا ؛ وذلك فى آخر الشهر الذى قضيناه معا ، ويجب أن نفترض أن الفتاتات الأخيرة من المائة ألف فرنك قد أنفقت فيه ؛ وبهذا الزواج انتهت القصة ، أعنى انتهى الشهر الذى عشنا فيه حياة مشتركة . وبعد ذلك « أحلت الى المعاش » رسميا .

واليك كيف حدثت الأمور : بعد اقامتنا بباريس ثمانية أيام وصل الجنرال فجاء الى بلانش رأسا ، وكاد يبقى معنا منذ أول زيارة ..

الحق أنه كان له شقة صغيرة فى مكان ما . وقد استقبلته بلانش فرحة ، وتلقته بصيحات دهشة وقهقهات ضحك ، حتى لقد ارتمت على عنقه ؛ ودارت الأمور على نحو نستطيع أن نقول معه انها هى التى تشبثت به . كان عليه أن يصحبها الى كل مكان : فصحبها متجولةً فى الشوارع الكبرى ، وصحبها فى نزهاتها ، وصحبها الى المسرح ، وصحبها فى زياراتها لأصدقائها . ان الجنرال ما يزال فى مستوى هذه المهمة . انه رجل مهيب المظهر ، رفيع المنزلة ، فارع القامة ، زاهى الشاربين واللحية (كان الجنرال قد خدم فى سلاح الفرسان) ، وسيم المحيا ، وان يكن وجهه قد ذبل بعض الذبول ؛ وهو يحسن التصرف ، ويجيد الآداب الاجتماعية اجادة فذة ، ويعرف كيف يرتدى الملابس الرسمية فى يسر وسهولة . وقد أخرج فى باريس ما كان يملكه من أوسمة ونياشين . حتى ليمكن القول ان التنزه فى الشوارع الكبرى فى صحبة رجل مثله ليس ممكنا فحسب ، بل هو مستحسن مرغوب فيه أيضا .

كان الجنرال الشهم الغبى مفتتنا منتشيا بالغا أوج السعادة . فانه

لم يكن يتوقع هذا كله حين جاء الى بيتنا عند وصوله باريس . كان يرتجف من الخوف ، ظانا أن بلانش سوف تستقبله بصراخ وزعيق ، وسوف تأمر بطرده على الفور ، فاذا الأحداث تجرى مجرى آخر ، فسحره ذلك ، وقضى الشهر كله وهو فى حالة من النشوة والوجد لا توصف . وقد كان على هذه الحال نفسها حين تركته . وهنا انما عرفت أنه بعد سفرنا المباغت من رولتنبرج ، قد وافته فى صباح ذلك اليوم نفسه نوبة مخيفة ، فقد أغمى اليه ، وظل أسبوعا بكامله شبه مجنون ، يقول كلاما لا يربطه رابط ، كلاما لا معنى له ولا انسجام فيه . وقد أخذوا يعالجونه ، ولكنه لم يلبث أن ترك كل شيء هنالك ، فركب القطار موليا وجهه شطر باريس . ومن نافل القول أن نذكر أن لقيا بلانش كانت له خير علاج . ولكن أعراض مرضه لبثت تلازمه زمنا طويلا ، رغم كل ما شعر به من غبطة ورضى وابتهاج . أصبح منذ ذلك الحين عاجزا عن التفكير ، بل حتى عن متابعة حديث يتصف بشيء من الجد ، فهو فى مثل هذه الحالة لا يزيد على أن يتبع كل كلمة بقوله « هِمْ » ، أو يهز رأسه موافقا . فبذلك كان يدبر الأمر ويحل المشكلة. وكان يضحك فى كثير من الأحيان ، ولكن ضحكه مضطرب عصبى مريض . وكان فى بعض الأحيان يبقى ساعات برمتها قاتما مظلما كالليل، عابسا مقطبا حاجبيه الكثيفين . هنالك أمور كثيرة كان قد نسيها نسيانا تاما ، وأصبح شديد الذهول وتعود أن يكلم نفسه وحيدا . كانت بلانش تستطيع أن ترده الى الحياة . وما كانت نوبات الحزن والكآبة التى توافيه حين ينطو فى ركن من الأركان الا دليلا على أنه لم ير بلانش منذ زمن طويل ، أو على أن بلانش قد خرجت دون أن تصطحبه،

أو أنها نسيت أن تلاطفه قبل أن تخرج . فلو سألته فى مثل هذه الأحوال ما الذى يريده ، لما استطاع أن يجيبك بشىء ، فلقد كان يجهل هو نفسه أنه مكتئب المزاج حزين النفس . حتى اذا ظل ساكنا على هذه الحال ساعة أو ساعتين (لاحظت ذلك مرارا حين تكون بلانش قد غابت عن المنزل طول النهار ، ساعيةً الى ألبير فى أغلب الظن) ، أخذ ينظر حواليه على حين فجأة ، وأخذ يتململ ويتحرك ويضطرب ، ينظر تارة الى هذه الجهة وتارة الى تلك ، كأنه يريد أن يتذكر شيئا أو أن يرى أحدا . ولكنه ، اذ لا يرى أحدا ولا يتذكر ما كان يريد أن يتذكره، يرتد الى خدره ، ويظل على هذه الحال من الخدر الى أن تعود بلانش فرحة مرحة فى أبهى حلة وأجمل زينة ، ضاحكة مقهقهة ، فتخف اليه تصفعه بل وتقبله ، وتلك نعمة قلما كانت تجود بها عليه . وفى ذات مرة بلغ الجنرال من شدة الشعور بالسعادة والفرح أن أغرورقت عيناه دموعا . فأدهشنى ذلك .

ومنذ وصول الجنرال أخذت بلانش تدافع عن نفسها أمامى حتى لقد استرسلت فى كلام كثير وخطب طويلة ، فذكرتنى بأنها انما خدعته بسببى ، وأنها كانت خطيبته تقريبا ، وأنها قطعت له على نفسها عهد الشرف ، وأنه فى سبيلها انما ترك أسرته ، وأننى فى خدمته ، فعلىَّ أن أفهم .. اذا كنت على شىء من ضمير . فكنت لا أجيبها بكلمة واحدة أثناء تدفقها فى الكلام . ولكننى انفجرت ضاحكا مقهقها فى النهاية ، ووقفت الأمور عند هذا الحد ، ومعنى ذلك كله أنها كانت تعدنى فى أول الأمر امرءاً أبله ، ثم استقر فى ذهنها ورسخ فى عقلها أننى فتى شهم أوتيت طبعا رضيا وخلقا رفيعا . والخلاصة أننى قد سعدت فى

النهاية بأن أستحق رضى هذه الفتاة المحترمة (حقا لقد كانت بلانش فتاة ممتازة .. فى نوعها طبعا ! ولم أكن قد وفيتها حقها من التقـــدير فى أول الأمر !) .

قالت لى قبيل النهاية :

ـــ أنت امرؤ ذكى طيب .. وانها لخسارة حقا أن تكون بهيمة الى هذه الدرجة ! لن تجنى شيئا ما حييت ، لا لن تجنى شيئا ! ألا انك لروسى حقا !

وقد أوفدتنى مرارا أنزه الجنرال ، كما كان يمكن أن توفد خادما ينزه كلبها فى الهواء الطلق . فأخذته الى المسرح ، ومضيت به الى « مرقص مابيل » ، وقصدت معه عددا من المطاعم . وكانت بلانش تنقدنى بعض المال لأنفق منه فى هذه النزهات ، رغمأن الجنرال كان معه مال ، ورغم أنه كان يحب أن يخرج محفظة نقوده من جيبه على مرأى من الناس . ولقد كدت ألجأ الى القوة فى ذات مرة لأصده عن شراء حلية سعرها سبعمائة فرنك كانت بلانش قد أظهرت اعجابها بها فى شارع بورويال ، فكان الجنرال مصرا أشد الاصرار على شرائها من أجل أن يهديها الى بلانش . ما قيمة حلية سعرها سبعمائة فرنك فى نظر بلانش ؟ ولقد كان كل ما يملكه الجنرال ألف فرنك ، لم أستطع أن أعرف يوما من أين جاء بها ، وأغلب الظن عندى أنه أخذها من مستر آستلى ، لا سيما وأن مستر آستلى قد دفع عنهم نفقات الفندق.

أما عن اهتمام الجنرال بى طول هذه المدة ، والتفاته الىّ ، فأغلب الظن أنه لم يخطر بباله أن يكون بينى وبين بلانش ما كان بينى وبينها

فعلا من علاقات . كان قد سمع أننى ربحت فى القمار ثروة ، ولكنه كان يفترض أننى كنت عند بلانش بمثابة سكرتير خاص ، بل ربما بمثابة خادم أيضا . وقد استمر يخاطبنى من عل على كل حال ، ويكلمنى بلهجة الآمر ، حتى لقد كان يأذن لنفسه بأن يوبخنى أحيانا . وفى ذات صباح ، بينما كنا نحتسى القهوة سلك سلوكا أضحكنا كثيرا أنا وبلانش . انه لم يكن سريع التأذى فى العادة . ولكن لا أدرى لم ساءه وجودى فجأة فى ذلك الصباح ، (وما زلت أجهل هذا الى الآن ، ومن المحقق أنه كان هو نفسه لا يدرى ذلك) ، فاذا هو يشرع فى خطاب لا ذيل له ولا رأس ، لا أول له ولا آخر ، خطاب يخبط خبط عشواء ؛ قال اننى صبى غر ، وانه سيعلمنى كيف أعيش ، وكيف أفهم.. الخ الخ.. ولكن ما من أحد استطاع أن يفهم عنه شيئا . وكانت بلانش تكاد يغشى عليها من شدة الضحك . واستطعنا أخيرا أن نهدىء روعه على نحو من الأنحاء ، وصحبناه فى جولة قمنا بها معا . لاحظت عدة مرات أن نوبات من الحزن كانت تعتريه من حين الى حين ، فهو يأسف على شىء ما ، أو على أحد ما ، هو يشعر أن أحدا ما يعوزه ، رغم وجود بلانش . وقد كنت نجيا له مرتين أو ثلاثا ، فأراد أن يفضى الىّ بمكنون نفسه ، ولكننى لم أستطع أن أستخرج من كلامه أى شىء واضح : كان يتكلم عن خدمته العسكرية ، وعن المرحومة زوجه ، وعن أراضيه ، وعن ثروته . فاذا وقع على كلمة تحلو له ، أخذ يرددها مائة مرة فى اليوم الواحد ، رغم أنها لا تفصح لا عن عواطفه ولا عن خواطره . وحاولت أن أدير الحديث على الأولاد ، ولكنه أخذ يتدفق فى الكلام كما كان يفعل آنفا ، وينتقل الى موضوع آخر .

مرة واحدة رق قلبه وظهر حنانه فيما كنا ذاهبين الى المسرح ، فقـــال :

ـــ نعم ، نعم ، الأولاد .. أنت على حق .. الأولاد ..

ثم انطلق فجأة يضيف :

ـــ انهم أولاد تعساء ، نعم نعم يا عزيزى ، انهم أولاد تعساء .

وردد هذه العبارة مرارا فى تلك السهرة : « انهم أولاد تعساء » .

ولما أردت أن أكلمه فى أمر پاولين ثار حنقه وصاح يقول :

ـــ انها بنت عقوق ! بنت شريرة وعقوق ! لقد لطخت شرف الأسرة! ولو كان هنالك قوانين اذن لروضتها وأدبتها . نعم نعم ! ..

أما دى جريو فقد كان الجنرال لا يطيق أن يذكر له اســـمه ؛ فكان يقول :

ـــ لقد دمرنى .. جردنى من كل شىء .. ذبحنى ذبحا .. كان كابوسى الرهيب سنتين كاملتين ، كان يجثم على صدرى فى أحلامى أشهرا برمتها .. انه .. انه .. دعنا منه ! .. ولا تكلمنى عنـــه بعـــد الآن قط !

ولاحظت أن ثمة اتفاقا كان يتم بينهما ، ولكننى صمت على عادتى لا أقول شيئا . ثم أطلعتنى بلانش على ما تم اتفاقهما عليه ، وكان ذلك قبل رحيلى بثمانية أيام على وجه التحديد . قالت تفضى اليّ بسرها :

ـــ ان للجنرال أملا فى ميراث الجدة ، فهى الآن مريضة حقا تنتظر منيتها من لحظة الى أخرى . لقد أرسل الينا مستر آستلى برقية بهذا

المعنى . والجنرال هو وريثها طبعا . وهبه لم يرثها ، فانه لن يزعجنى فى شىء . فهو أولا يملك معاشه التقاعدى ، وهو ثانيا سيقيم فى الحجرة التى تقع فى آخر المنزل سعيدا بذلك كل السعادة ، وسيكون اسمى أنا « مدام الجنرال » ، فأدخل المجتمع الراقى (كان ذلك حلم بلانش)، وسأصبح عدا ذلك من الروس أصحاب الأطيـان ، لى قصر ، ولى فلاحون (موجيك) ، ثم يكون لى مليونى الذى أريده !

قلت :

ــ فماذا عساك تفعلين اذا أصبح غيورا ، فأصبح يقتضيك .. الله أعلم ماذا ؟ هل تفهمين ما أعنى ؟

ــ أوه .. لا .. لا .. هذا لن يكون .. انه لن يجرؤ ! وقد اتخذت احتياطاتى ، فلا تقلق من هذه الناحية ! لقد حملته على أن يمهر بتوقيعه عدة سندات باسم ألبير .. فما ان يخطر له أى خاطر من هذا القبيل .. حتى يعاقب فورا .. لا .. لا .. لن يجرؤ !

ــ اذن تزوجيه .

وتمّ الزواج فعلا بلا أبهة خاصة ، تمّ بسيطا فى جو عائلى ، لم يدع الى الاحتفال به الا ألبير وعدد من الأصدقاء الحميمين . واستبعدت هورتنس وكليوباتره والآخرون استبعادا مقصودا حاسما . واتخذ الخطيب وضع الجد . وتولت بلانش عقد ربطة عنقه بنفسها ، ودهنته بالعطر ، وظهر بردائه الرسمى وصدرته البيضاء رجلا لائقا مهيبا .

قالت لى بلانش وهى تخرج من غرفة الجنرال ، وكأن هذه الفكرة قد فاجأتهما :

ـــ انه لائق جدا مع ذلك .

واذ أنني لم أدخل فى التفاصيل ولم أشارك فى هذا كله الا مشاهداً غير مكترث ولا مبال ، فقد نسيت الآن شطرا كبيرا مما حدث حينذاك. ولكنني أتذكر أنه قد اكتشف أن بلانش لم يكن اسمها دوكومنج (لا ولا كان اسم أمها مدام أرملة دوكومنج) ، بل كان اسمها دوپلاسيه . أما لماذا اختارتا كلتاهما هذا الاسم حتى ذلك اليوم .. فهذا أمر أجهله . غير أن الجنرال قد سحره ذلك سحرا ، حتى أن اسم دوپلاسيه راقه أكثر مما راقه اسم دوكومنج . وفى صبيحة يوم الزواج كان قد ارتدى ملابسه كاملة ؛ وأخذ يذرع الصالون جيئة وذهابا ويردد بغير توقف قائلا وقد لاح فى وجهه الجد كل الجد : « مدموازيل بلانش دوپلاسيه ! مدموزيلا بلانكا ديو پلاسيتا ! .. » ؛ كان يردد ذلك وقد التمعت فى محياه معانى الرضا والاكتفاء والارتياح . أما فى الكنيسة ، وفى مقر المحافظة ، وفى البيت أثناء تناول طعام العشاء ، فلم يكن وجهه يفصح عن السعادة فحسب ، بل كان يعبر عن العجب والزهو أيضا ولقد حصل لهما كليهما شيء ما ، فان مدموازيل بلانش قد أصبحت تصطنع هيئة الوقار والرصانة .

قالت لى وقد لاحت فى وجهها كل معانى الجد :

ـــ يجب أن أتصرف بعد اليوم تصرفا آخر .. ولكن هل ترى ؟ هنالك أمر مزعج جدا لم يخطر لى على بال . تصور أننى لا أتوصل الى تذكر اسمى العائلى ! زاجوريانسكى ؛ زاجوريانسكى ؛ مدام الجنرال دى ساجو .. ساجو .. تبا لهذه الأسماء الروسية ! على كل حال .. سيكون اسمى مدام الجنرال .. أربعة عشر حرفا ! شيء لذيذ ، أليس كذلك ؟

وافترقنا أخيرا ، فاذا ببلانش ، هذه الحمقاء بلانش ، تذرف بعض الدموع حين تودعنى . قالت لى متباكية :

ـــ لقد كنت ولدا طيبا .. ظننتك بهيمة ، وكان يبدو عليك ذلك ، على أن هذا يناسبك .

وبعد أن صافحتنى مرة أخيرة ، صاحت فجأة تقول : « انتظر ! » وأسرعت الى مخدعها ثم عادت بعد لحظة تحمل ورقتين ماليتين من ذات الألف فرنك . ما كان لى أن أظن أنها ستفعل ذلك !

قالت :

ـــ خذ هذا ، فسيفيدك . قد تكون مثقفا جـدا من حيث أنت « مرب » ، ولكنك بليد من حيث أنت رجل . ولن أعطيك أكثر من هذا ، لأنك ستخسر كل شىء ، كيف دار الحال . هيا ! وداعا ! سنظل دائما صديقين . فاذا ربحت مرة أخرى ، فلا يفوتنك أن تأتى الىّ ، وستكون سعيدا !

كان لا يزال معى خمسمائة فرنك . ثم اننى أملك ساعة جميـلة يساوى ثمنها ألف فرنك ، وأملك أزرار أكمام من الماس . فأستطيع اذن أن أعيش بهذا زمنا طويلا دون هموم . لقد أقمت فى هذه المدينة الصغيرة المضجرة ، لأستجمع أفكارى ؛ وأنا أنتظر مستر آستلى خاصة . فلقد سمعت من مصدر يوثق به أنه لابد أن يمر بهذه المدينة ، وأن يمكث فيها أربعا وعشرين ساعة لقضاء بعض الأعمال . لسوف أعلم اذن كل شىء .. وبعدئذ .. بعدئذ .. أذهب رأسا الى هومبورج . ولن أعود الى رولتنبرج ، قبل السنة القادمة على الأقل . يقال انه ليس من الخير أن يجرب المرء حظه مرتين على مائدة قمار واحدة . ثم ان اللعب قائم فى هومبورج أيضا .

الفصل السابع عشر

منذ عشرين شهرا لم أنظر فى هـذه المذكرات ؛ ولم يخطر ببالى أن أعيد قراءتها الا فى هـذا اليـوم ، عسى أن تنسينى قلقى وتخفف من حزنى وشجنى . لقد وصلت من حديثى السابق الى اليوم الذى قصدت فيه هومبورج . رباه ! ما كان أشد طيشى وأخف عقلى حين كتبت تلك الأسطر الأخيرة ؛ فان لم يكن الأمر أمر طيش شديد وعقل خفيف ، فلا أقل من أن يوصف بأنه ثقة بالنفس ، وأمل لا يتزعزع ! هل كنت أشك فى نفسى أى شك ؟ وها قد انقضى على ذلك الآن ثمانية عشر شهرا ، فاذا أنا أعيش فى وضع خير منه وضع أى شحاذ متسول فى رأيى ! بل أين أنا من أى شحاذ متسول ؟ أنا امرؤ ضاع وكفى ! ان وضعى لا يمكن أن يشبه بأى وضع البتة. ولن أتحدث الآن حديث الواعظ الناصح ، فلا شىء أسخف من النصح والوعظ فى لحظة كاللحظة التى أعيشها الآن ! آه من أولئك الراضين عن أنفسهم ! آه من ذلك الزهو المغرور الذى يصاحب كلام أولئك الثرثارين حين يأخذون يطلقون نصائحهم ومواعظهم وعباراتهم المأثورة!

لو علموا مدى شعورى بما تتصف به حالتى الراهنة من ترد وسوء ، لأصبحوا عاجزين عن العثور على كلمات يستعملونها فى اسداء النصح وازجاء الموعظة والقاء الدرس . وهل فى وسعهم أن يقولوا لى أى شيء جديد لا أعرفه من قبل ؟ نعم ، ان الأمر لكذلك . والشيء المحقق الذى لا ريب فيه .. هو أن دوران العجلة دورة واحدة يمكن أن يبدل كل شيء ، فاذا بهؤلاء الواعظين أنفسهم يأتون الىّ أول الآتين (أنا متأكد من ذلك) ليهنئونى ممازحين كما يمازح الصديق صـديقه ؛ واذا هم لا يتحولون عنى مشيحين كما يفعلون الآن . ولكننى أبصق فى وجوه هؤلاء الناس ! ما أنا الآن ؟ صفر ! ماذا أستطيع أن أكون غدا ؟ أستطيع أن أحيي موتى فأستأنف الحياة . أستطيع أن أكتشف فى نفسى الانسان قبل أن يضيع .

سافرت فعلا الى هومبورج . ولكننى .. ذهبت بعد ذلك الى رولتنبرج ، والى سبا ، والى بادن أيضا ، أرافق مرافقة الخادم سيده ، المستشار هنزى ، الوغد الذى صار هنا سيدى ومولاى . نعم ، لقـد لبثت خادما خلال خمسة أشهر . وقد حدث ذلك بعد خروجى من السجن توا (ذلك أننى أودعت السجن بسبب ديون لم أردها ، ثم سددها عنى شخص مجهول ، لا أدرى أهو مستر آستلى ، أم هو پاولين ، أم هو انسان آخر ؛ ولكن الديون قد سددت ، وكان مجموعها مائتى تالير ، فأفرج عنى وأطلق سراحى) . الى أين كان يمكننى أن أذهب ؟ وفى ذلك الوقت انما دخلت فى خدمة ذلك الرجل الذى اسمه هنزى . هو شاب طائش مولع بالكسل ، وأنا أجيد الكلام والكتابة بثلاث لغات ؛ فاتخذنى فى أول الأمر سكرتيرا أو ما يشبه السـكرتير ،

بأجر شهرى مقداره ثلاثون فلورين ؛ ولكننى أصبحت آخر الأمر خادمه حقا : ذلك أن موارده قد قلت ، فأصبح لا يستطيع أن يكون له سكرتير ، فأنقص أجرى ، وكنت لا أعرف مكانا أقصد اليه ، فبقيت عنده ، وبذلك أحلت نفسى بنفسى الى خادم . وكنت لا أنال فى خدمته حظا كافيا من الطعام والشراب ، ولكننى استطعت أن أدخر سبعين فلورين فى مدى خمسة أشهر . وفى ذات مساء ، وكنا أيامئذ فى بادن ، أعلنت له أننى أريد أن أتركه ، وذهبت فى ذلك المساء نفســه الى الروليت ! لشد ما كان قلبى يخفق ! وما كان المال هو ما أحرص عليه ! لا .. وانما كنت أريد أن أرى جميع هؤلاء الذين يسمون هنزى ، وجميع مديرى الخدمة فى الفندق ، وجميع هاتيك السيدات الحسناوات فى بادن ، كنت أريد أن أرى جميع هؤلاء ، منذ الغداة ، يتحدثون عنى ويروون قصتى ، ويعجبون بى ، ويزحفون الىّ المديح والاطـراء ، وينحنون أمامى اجلالا لما أصبت من حظ جديد فى اللعب . ولقد كان ذلك كله أحلاما ومشاغل من أحلام الأطفال ومشاغلهم .. ولكن .. من يدرى ؟ فلعلنى ألقى أيضا پاولين ، فأقص عليها مغامراتى ، وأبرهن لها على أننى فوق جميع ضربات الحظ السخيفة تلك ! نعم لم يكن المال هو ما أحرص عليه ! وانى لعلى يقين من أننى لو قد جنيت ربحا كبيرا لأعطيته مرة أخرى لامرأة ما مثل بلانش ، ولظهرت أعرض نفسى مرة أخرى ثلاثة أسابيع بباريس ، يجر عربتى فرسان ثمنهما ستة عشر ألف فرنك . أنا أعرف أننى لست بالبخيل .. بل اننى لأعتقد أننى مبذر متلاف . ومع ذلك فما كان أشد انفعالى ، وما كان أشد انقباض صدرى ، حين كنت أسمع القيِّم يعلن : واحد وثلاثون ، أحمر ، وتر،

پاس ؛ أو : أربعة ، أسود ، شفع ، مانك ! وما كان أشـــد شراهتى ونهمى حين كنت أنظـر الى مائدة القمـار فأرى الدنانير الذهبية والفردريكات والتاليرات مبعثرة هنا وهناك ، وأرى كدسات الذهب تدحرجها مجرفة القيِّم أكواما متقلبة الألوان كالجمر ، أو أرى نقود الفضة ملفوفة اسطوانات تحيط بالدائرة من كل جانب . كنت حتى قبل أن أصل الى قاعة اللعب أوشك أن أنهار حين أسمع رنين النقود ذهبا وفضـة .

كانت تلك الأمسية التى حملت فيها الى مائدة القمار فلوريناتى السبعين أمسية رائعة . لقد بدأت بعشر فلورينات حططتها على الپاس . كان قد استقر فى وهمى شىء من الايثار للپاس . فخسرت . فبقى معى ستون فلورينا ، نقودا من فضة . ففكرت .. ثم وقع اختيارى على الصـفر . فحططت خمسة فلورينات دفعة واحدة على الصفر . فاذا بالصفر يظهر فى الدورة الثالثة . تصورت أننى سأموت فرحا وأنا أتلقى مائة وخمسة وسبعين فلوريناً . لم أشعر بمثل هذه السعادة يوم ربحت مائة ألف فلورين . وما لبثت أن حططت مائة فلورين على الأحمر .. فربحت ؛ ثم حططت مائتين على الأحمر .. فربحت .. ثم حططت أربعمائة على الأسود .. فربحت .. ثم حططت ثمانمائة على الپاس فربحت أيضا . بلغ ما أملكه ألفا وسبعمائة ألف فلورين .. وقد تم ذلك كله فى أقل من خمس دقائق ! ان المرء ينسى فى مثل هذه الأحوال جميع الاخفاقات الماضية ! لقـد حصلت على ذلك مجازفا بأكثر من حيـاتى .. لقـد تجرأت أن أجازف .. فاذا أنا أجد نفسى فى عـداد الرجال من جديد !

استأجرت غرفة فى فندق ، فحبست نفسى فيها مغلقا بابها بالمفتاح ، ولبثت ثلاث ساعات أعد ما آل الىّ من مال . حتى اذا استيقظت ، كنت قد أصبحت رجلا حرا لا خادما ذليلا . وقررت أن أسافر فى ذلك اليوم نفسه الى هومبورج . فاننى لم أكن هنالك خادما ، ولا أودعت هنالك سجنا . ولكننى قبل موعد سفر القطار بنصف ساعة ذهبت الى الروليت لأقامر مرتين لا أكثر ، فخسرت ألفا وخمسمائة فلورين . ومع ذلك سافرت الى هومبورج التى انقضى على وجودى فيها شـــهران حتى الآن .

اننى أعيش الآن هنا فى قلق متصل . فاذا مضيت أقامر لم أقامر الا قليلا فى جلسة واحدة ، فأنا أنتظر مترثيا ، وأجرى حسابات طويلة ، وقد ألبث أياما برمتها قرب مائدة القمار أراقب مراقبة ، وأحلم باللعب حلما .. ومع ذلك فانه يبدو لى أننى قد تبلدت ، وأننى قد غطست فى الوحل . اننى أستنتج هذا من الشعور الذى شعرت به حين التقيت بمستر آستلى . لم نكن قد التقينا قبل ذلك ، ثم التقينا فى هذه المرة مصادفة . واليك كيف وقع ذلك : كنت سائرا فى الحديقة العامة أجرى حساباتى فأرى أننى أصبحت خالى الوفاض تقريبـــا ، لم يبق معى الا خمسون فلوريناً ، بعد أن دفعت أول أمس فاتورة الفندق الذى أشغل فيه غرفة صغيرة . لم يبق فى وسعى اذن أن أقامر على الروليت الا مرة واحدة ، فاذا ربحت ، ولو مبلغا ضئيلا ، استطعت أن أواصل اللعب ، أما اذا خسرت .. فسيكون علىّ أن أعمل خادما من جديد ، الا أن أجد على الفور أسرة روسية تحتاج الى « مرب » .. كانت هذه الفكرة هى التى تشغل بالى ، فمضيت أقوم بنزهتى اليومية فى الحديقة

العامة وفى الغابة التى تقع فى ضاحية مجاورة . كنت أظل أمشى على هذه الحال أربع ساعات أحيانا ثم أعود الى هومبورج متعبا جائعا . وانى لأدخل فى الحديقة ، اذا أنا ألمح مستر آستلى على حين فجأة ، جالسا على أحد المقاعد . انه هو الذى رآنى فنادانى . فجلست الى جانبه . واذ لاحظت فى وجهه الجد والرصانة ، سارعت أطامن فرحى وأهدىء انفعالى . فلقد سرنى حقا أن أراه .

قال مستر آستلى :

— أنت اذن هنا ؟ لقد توقعت أن ألتقى بك . لا تتعب نفسك فى أن تقص علىّ شيئا ، فاننى على علم بكل شىء ، بكل شىء . أعرف كل ما جرى لك خلال هذه الأشهر العشرين .

قلت أجيبه :

— ها .. اذن أنت ترصد أصدقاءك القدامى . ألا ان هذا ليشرفك. فلست بمن ينسى أصحابه . ولكن قل لى : لقد خطر ببالى الآن شىء : ألست أنت الذى أخرجتنى من سجن رولتنبورج الذى أودعته بسبب دين مقداره مائتا فلورين ؟ ان شخصا مجهولا قد سدد عنى هذا المبلغ.

— لا ، لا ، ما أنا .. ولكننى أعلم أنك سجنت بسبب ديون فى رولتنبورج .

— هل تعرف اذن من الذى سدد عنى الدين فأطلق سراحى ؟

— لا ، لا أستطيع أن أقول اننى أعرف .

— غريب ! .. اننى لا أعرف أحدا من الروس هنا ، وما كان لأحد منهم أن يسدد عنى دينا على كل حال . وانما هنالك ، فى بلادنا ،

فى روسيا ، يفتدى الأرثوذكس اخوتهم على هذا النحو . لذلك قدرت أن الذى سدد عنى الدين لابد أن يكون انجليزيا عجيبا ما ، فعل ذلك من قبيل التفرد والشذوذ .

كان مستر آستلى يصغى الىّ مندهشا بعض الاندهاش ، فلا شك أنه كان يتوقع أن يرانى حزينا منهارا .

قال وقد لاح فى وجهه شىء من العبوس :

ــ مهما يكن من أمر ، فانه لما يأخذ بلبى أن أراك على عهدى بك من استقلال فى الفكر ، بل ومن مرح فى المزاج .

فقلت له ضاحكا :

ــ أى أنك فى قرارة نفسك يحنقك أن لا ترانى منهك النفس مذل الكرامة .

فلم يدرك معنى ما قلته أول الأمر ، لكنه حين فهم أخذ يبتسم .

ــ تعجبنى ملاحظاتك . اننى أرى فى كلماتك هذه صديقى القديم، الشديد الحماسة ، المتوقد الذكاء ، الساخر الهازىء المستخف فى الوقت نفسه . الروس وحدهم قادرون على أن يجمعوا فى أنفسهم كل هذه الأضداد . صحيح أن الانسان يحب أن يرى خير صديق من أصدقائه مذلا أمامه : فعلى الاذلال انما تقوم الصداقة أكثر الأحيان . تلك حقيقة قديمة يعرفها جميع الأذكياء من الناس . ولكننى أؤكد لك أننى حين رأيتك على حالتك هذه متماسكا غير منهك ، قد سعدت صادقا مخلصا . قل لى : أليس فى نيتك أن تترك القمار ؟

ــ هه .. فليذهب القمار الى جهنم ! .. لسوف أتركه متى ..

— متى استرددت مالك ، أليس كذلك ؟ هذا ما كنت أتوقعه .. فلا تكمل .. أنا أعرف .. ولقد أفلت منك هذا الكلام دون تفكير .. اذن فقد قلت الحقيقة ، ولكن قل لى : هل تعمل الآن فى شيء ، عدا القمار ؟

— لا ..

فأخذ يمتحننى . كنت لا أعرف شيئا ، كنت لا أكاد ألقى نظرة على الصحف ، لا ولا أمسكت بكتاب طوال ذلك الوقت .

قال مستر آستلى :

— لقد تبلدت وتخدرت : لم تنصرف عن الحياة فحسب ، لم تدع اهتماماتك الشخصية ، واهتمامات المجتمع وواجباتك انسانا ومواطنا فحسب ، ولم تهجر أصدقاءك فحسب (ولقد كان لك أصدقاء) ؛ ولم تشح بوجهك عن كل هدف عدا الربح فحسب ، بل تحولت حتى عن ذكرياتك .. اننى أتذكر كيف كنت فى فترة جامحة عنيفة من حياتك ، ولكننى على يقين من أنك نسيت جميع ما عانيته أثناء تلك الفترة من أحسن المشاعر : نسيت أحلامك كلها ، وأصبحت رغباتك اليومية كلها لا تمضى الى أبعد من التفكير فى الشفع والوتر والأحمر والأسود ، والأرقام الاثنى عشر الوسطى ، الخ الخ . أنا على يقين من ذلك .

هتفت أقول متبرما بل غاضبا بعض الغضب :

— كفى ، كفى يا مستر آستلى ، أرجوك ، أرجوك أن لا تذكر لى الماضى . واعلم أننى لم أنس شيئا . ولكننى طردت ذلك كله من ذهنى الى حين ، حتى ذكرياتى .. بانتظار أن أسترد وضعى كاملا .. وعندئذ ، عندئذ .. لسوف ترى كيف أحيى موتى !

قال مستر آستلى :

ـــ لسوف تلبث هنا عشر سنين . أراهن على أننى سأذكرك بهذا الكلام ، فوق هذا المقعد نفسه ، اذا بقيت حيا .

قاطعته أقول نافد الصبر :

ـــ طيب طيب .. كفى ! ومن أجل أن أبرهن لك على أننى لست بمن ينسى ، فهلا أذنت لى أن أسألك أين هى مس پاولين الآن ؟ فلئن لم تكن أنت من سدد عنى ديونى ، فأطلق سراحى من السجن ، فلا بد أن تكون هى من فعل ذلك . لم أسمع شيئا عن أخبارها أبدا .

فقال بلهجة حازمة بل وغاضبة :

ـــ لا .. لا .. لا أظن أنها هى التى دفعت ديونك ! وهى الآن بسويسرا ، ولسوف تسرنى كثيرا اذا أنت لم تلق علىّ أسئلة عن مس پاولين .

قلت وأنا أضحك رغم ارادتى :

ـــ اذن فقد جرحتْك أنت أيضا جرحا عميقا بالغا ؟

ـــ ان مس پاولين خيرٌ من خير مخلوق يستحق الاحترام على وجه الأرض ، ولكننى أعود فأقول لك انك تسرنى كثيرا اذا كففت عن القاء أسئلة تتعلق بها . أنت لم تعرفها يوما ، وعندى أن تحرك فمك بذكر اسمها اساءة الى حسِّى الأخلاقى .

ـــ حقا ؟ ولكنك مخطىء على كل حال . فيم عساى أكلمك ان لم أكلمك عن مس پاولين ؟ هلا فكرت قليلا ؟ ان جميع ذكرياتنا متصلة بها. وما عليك أن تخشى شيئا ، فما بى حاجة قط الى معرفة حكاياتكما

الحميمة ! وانما يعنينى ، ان صح التعبير ، أن أعرف ما يحيط بمس پاولين الآن من ظروف خارجية . أريد أن أعرف شيئا عن وضـعها الخارجى لا أكثر من ذلك . وهذا يمكن أن يقال بكلمتين .

ـــ لك ما تريد . ولكن على شرط أن نبقى فى حدود هاتين الكلمتين لا تتعداهما . ظلت مس پاولين مريضة زمنا طويلا ، وما تزال مريضة الى الآن . سكنت بعض الوقت عند أمى وأختى فى شمال انجلترا . ومنذ ستة أشهر ماتت جدتها (تذكر تلك المرأة المجنونة تماما) ، تاركة لها ، لها شخصيا ، سبعة آلاف دينار . وهى ـــ أى مس پاولين ـــ تقوم الآن برحلة مع أسرة أختى التى تزوجت . وقد كفلت وصية الجدة أيضا مصير أخيها الصغير وأختها الصغيرة ، فهما يتعلمان الآن بلندن . أما الجنرال ، زوج أمها ، فقد مات منذ شهر فى باريس من نزيف فى الدماغ . وقد عنيت به مدموازيل بلانش ، ولكنها استطاعت أن تسجل على اسمها كل ما ورثه عن الجدة . هذا كل شىء فيما أظن .

ـــ ودى جريو ؟ ألا يقوم برحلة فى سويسرا هو أيضا ؟

ـــ لا .. ان دى جريو لا يقوم برحلة فى سويسرا ، ولا أعرف أين هو الآن . على أننى أنصحك مرة أخيرة أن تجتنب هـذا النوع من الغمز ، وأن تحاذر هذا النوع من التقريب بين الأمور تقريبا ليس فى محله ، والا كان لى معك شأن ! ..

ـــ ماذا ؟ أرغم صداقتنا القديمة ؟

ـــ نعم ..

ـــ أستغفرك ألف مرة يا مستر آستلى ، وأسألك الصفح ! ولكن

اسمح لى أن أقول لك ان الأمر ليس فيه شيء من اساءة ولا هو يضع أمورا فى غير موضعها . اننى لا أتهم مس پاولين بشيء البتة . وعدا ذلك .. فان التقارب بين رجل فرنسى وآنسة روسية هو ، على وجه العموم ، أمر لا نستطيع لا أنا ولا أنت أن نوضحه ايضاحا كاملا أو أن نفهمه فهما تاما .

— لو لم تقرن اسم دى جريو باسم آخر لطالبتك أن تشرح لى ما تعنيه بقولك « فرنسى صغير » و « آنسة روسية » ! فما هـذا « التقارب » الذى تعنيه ؟ ولماذا تخصص فتقول : فرنسى وآنسة روسـية ؟

— هل رأيت ؟ ان الأمر يعنيك . ولكنها حكاية طويلة يا مستر آستلى . ان هناك أشياء كثيرة يجب أن تعرف أولا . ثم انها مسألة هامة ، تبلغ من الهزل أن الأمر كله يبدو من أول نظرة . الفرنسى يا مستر آستلى شكل كامل رشيق أنيق . قد لا ترى أنت هذا الرأى من حيث أنك بريطانى ، ولست أرى أنا هـذا الرأى من حيث أننى روسى ، ولو من باب الغيرة على الأقل . ولكن لعل آنساتنا ينظرن نظرة أخرى. لقد تعد « راسين » متصنعاً ، متكلفا ، مزوّقا ، حتى لقد تأبى أن تقرأه حتما . وانى لأعده أنا أيضا متصنعاً متكلفا مزوقا بل باعثا على الضحك منه جديرا بالسخرية به من بعض النواحى . ولكنه فاتن يا مستر آستلى ، وهو شاعر كبير بخاصة ، شئنا أم أبينا . ان الشكل القومى للفرنسى ، أعنى للباريسى ، قد انصب فى قالب أنيق حين كنا ما نزال نحن دببة . لقد ورثت الثورة النبالة . فأنت ترى الآن أتفه الفرنسيين صاحب حركات رشيقة ، وأوضاع أنيقة ، وتعبيرات جميلة ، بل وأفكار

تلبس شكلا رشيقا كل الرشاقة ، دون أن يكون فى ذلك كله شيء من مبادهته أو روحه أو قلبه . لقد انتقل اليه هذا كله وراثة . فقد يكونون فى ذاتهم أكثر المخلوقات فراغا وسوءا . ذلك من جهة ، ومن جهة أخرى فانه ليس فى الدنيا كلها (أقول لك هذا الآن يا مستر آستلى) انسان أكبر ثقة وأكثر انفتاحا من فتاة روسية طيبة ذكية غير مسرفة فى التكلف والتصنع . لذلك يستطيع رجل مثل دى جريو ، أيا كان الدور الذى يمثله زورا وبهتانا ، وأيا كان القناع الذى يخفى به وجهه ، أن يغزو قلبها بسهولة لا يصدقها العقل . ذلك أن له شكلا رشيقا أنيقا يا مستر آستلى ، والفتاة تحسب أن شكله هذا هو روحه ، تحسب أن هذا الشكل هو الصورة الطبيعية لروحه وقلبه ، ولا تحسبه لباسا انتقل اليه وراثة . يجب أن أعترف لك يا مستر آستلى ، وهذا سيسوءك ، أن الانجليز فى أغلب الأحيان مسرفون فى النظام محرومون من الأناقة أو الرشاقة . والروس أناس مفطورون على تمييز الجمال ، مولعون له ، ظامئون اليه . ولكن تمييز جمال الروح وأصالة الشخصية يحتاج الى قدر من استقلال الرأى وحرية النفس فوق ما يملك منهما نساؤنا ، فما بالك بالفتيات ! ان مس پاولين (لا تؤاخذنى ، فقد نسيت اسم الأسرة) ، ستقضى وقتا طويلا قبل أن تعزم أمرها فتؤثرك على وغد مثل دى جريو . انها تقدرك وتحترمك . وستكون صديقة لك ، وستفتح لك قلبها كله . ولكن ذلك الوغد الكريه ، ذلك المرابى الحقير التافه الذى يسمى دى جريو سيكون هو سيد ذلك القلب . وسيستمر هذا الأمر ، ولو عنادا أو كبرياء ان صح التعبير ، لأن دى جريو نفسه قد ظهر لها ذات يوم تحت هالة مركيز رشيق

أنيق ، متحرر الفكر متخلص من الأوهام ، دمر نفسه لأنه أراد أن يساعد أسرتها وأن يساعد ذلك الجنرال الطائش . صحيح أن ألاعيبه كلها قد افتضحت بعدئذ . ولكن ليس لهذا كبير شأن : ردوا اليها دى جريو القـديم : فذلكم ما تريده . وكلما ازداد الاحتقار الذى تشعر به نحو دى جريو الجديد ، ازداد أسفها وازدادت حسرتها على دى جريو القديم ، رغم أن القديم لم يوجد الا فى خيالها . أنت صاحب مصنع يا مستر آستلى ، أليس كذلك ؟

— بلى ! أنا شريك فى المصفاة الكبيرة ، لوول وشركاه .

— أرأيت اذن يا مستر مستلى ؟ هناك صاحب مصفاة فى جهة ، وهناك فى الجهة الأخرى آپولون بلڤيدير .. لا يستقيم الأمران معا . أما أنا فلست حتى صاحب مصفاة : ما أنا الا مقامر صغير فى الروليت . بل لقد كنت فى الخدمة ، وهذا ما تعرفه مس پاولين حتما ، لأن لها عيونا تحسن تزويدها بالأخبار .

قال مستر آستلى ببرود ، بعد أن فكر بضع لحظات :

— أنت حانق ، ولهذا انما تقول هذه السخافات والترهات . ثم ان أقوالك خالية من الأصالة .

— صحيح . والشىء الرهيب ، أيها الصديق النبيل ، هو أن جميع اتهاماتى ، بالغة ما بلغت من بلى وتفاهة وسخافة ، صادقة مع ذلك . ثم اننا لم نقل شيئا على كل حال ، لا أنت ولا أنا !

صاح مستر آستلى وقد ارتعش صوته والتمعت عيناه :

— هذا الكلام فحش وحمـاقة .. ألا فاعلم اذن أيهـا الانسان

العاق ، أيها الانسان القبيح التعيس الشـــقى ، أننى انما جئت الى هومبورج بأمر منها ، لأراك ، وأتحدث معك طويلا ، بقلب مفتوح وصراحة تامــة ، ثم أنقل اليهــا كل شيء .. عواطفك ، وأفكارك ، وآمالك و .. ذكرياتك !

هتفت أقول وقد انبجست من عينى دموع غزيرة :

ـــ أهذا ممكن ؟ أهذا ممكن ؟

لم أستطع أن أحبس دموعى عن الهطول ، وأظن أنها أول مرة فى حيــاتى .

قال مستر آستلى :

ـــ نعم أيها الشقى . لقد كانت تحبك . أستطيع أن أكشف لك عن ذلك ، لأنك انسان ضاع وانتهى أمره ؛ فلو قلت لك انهــا ما تزال تحبك .. لبقيت .. لبقيت هنا رغم ذلك ! نعم . لقد ضيعت نفسك . كان لك بعض المواهب ، وكان لك طبع يتدفق حياة ، ولم تكن خبيث القلب أو سيىء النفس ؛ حتى لقد كان فى وسعك أن تنفع بلادك التى هى فى مسيس الحاجة الى رجال .. ولكنك سوف تبقى هنا ، وقد انتهت حياتك . لست أتهمك . وفى رأيى أن الروس جميعا مثلك ، أو أنهم مهيأون لأن يكونوا مثلك . فان لم يقعوا فريسة الروليت وقعوا فريسة شيء يشبهها . وما أندر الذين يمكن استثناؤهم من ذلك ! لست أول من يتنكر للعمل ، فانما خلقت الروليت للروس . لقد كنت الى الآن رجلا شريفا ، فآثرت أن تكون خادما على أن تسرق .. ولكننى أرتعد حين أتصور ما قد يحدث لك فى المستقبل . حسبنا هذا الآن .

أنت فى حاجة الى بعض المال طبعا ؟ اليك عشرة ريالات ذهبيـــة . لن أعطيك أكثر من ذلك ، لأنك ستخسر كل ما قد أعطيك على كل حال . خذ هذا ، ووداعا . مالك لا تأخذ المال ؟

قلت :

ـــ لا يا مستر آستلى ، أبعد كل ما قلناه ..

فصرخ مستر آستلى :

ـــ خذ !.. اننى مقتنع بأنك ما تزال نبيلا ، واذا أعطيتك هذا المال ، فكما يعطى صديق صديقا حميما . ولو كنت على يقين من أن فى الامكان أن تهجر القمار رأسا وأن تترك هومبورج عائدا الى بلادك ، اذن لكنت مستعدا أن أعطيك ألف دينار فورا من أجــل أن تبدأ حياة جديدة . ولئن لم أعطك الا عشرة ريالات بدلا من ألف دينار ، فلأن المبلغين يستويان عندك : ستخسرهما لا محـــالة . خذ . ووداعا .

ـــ آخذها اذا رضيتَ أن أقبلك .

ـــ أرضى مسرورا .

تعانقنا عناقا وديا ، وانصرف مستر آستلى .

لا .. لا .. انه مخطىء ! لئن كنت أنا قاسيا وغبيا فى حكمى على مسألة پاولين ودى جريو ، فلقد كان هو قاسيا وغبيا فى حكمه على الروس . لست أدافع عن نفسى أنا . على كل حال .. على كل حال .. ليس هذا هو الأمر الهام الآن : فتلك كلها أقوال ، والحاجة الآن الى أفعال . الأمر الهام الآن هو السفر الى سويسرا ! سأسافر غدا آه .. ليتنى أستطيع أن أسافر على الفور : أن أبعث بعثا جديدا ، أن أحيا حياة جديدة . يجب أن أبرهن لهم على .. يجب أن تعلم پاولين

أنني مازلت أستطيع أن أكون رجلا . يكفى أن .. لقد فات أوان السفر اليوم على كل حال .. ولكن غدا .. آه .. انني أوجس شيئا .. ولابد أن يحدث ما أوجسه ! معى الآن خمسة عشر ريالا ذهبيا ، وقد بدأت بخمسة عشر فلورنيا ! فاذا تصرفت بتعقل وروية .. أيمكن أن أكون طفلا صغيرا الى هذه الدرجة ؟ ألم أفهم أننى انسان ضائع ؟ نعم ، يكفى أن أكون متعقلا صبورا ، مرة واحدة فى حياتى .. هـذا كل ما أنا فى حاجة اليه ! يكفى أن أكون قوى الارادة مرة واحـدة حتى أغير مصيرى فى ساعة . ان قوة الارادة هى الأمر الهـام . ليس علىّ الا أن أتذكر ما حدث لى منذ سبعة أشهر فى رولتنبرج قبل دمارى النهائى . كان ذلك مثلا رائعا على التصميم : كنت قد خسرت كل شىء .. كل شىء وخرجت من الكازينو ، ونظرت .. ان هناك فلورينا ما يزال يتجول فى جيب صـدرتى . قلت لنفسى : « معى ما يكفينى لتناول عشائى » . ولكننى بعد أن سرت مائة خطـوة عدلت عن رأيى ، وقفلت راجعـا . حططت الفلورين على المـانك (على المانك ، فى تلك المرة) . حقا ان المرء ليشعر باحساس غريب فريد حين يجازف ، وهو وحيد ، فى بلد أجنبى ، بعيد عن وطنـه وعن أصدقائه ، لا يدرى هل يأكل فى يومه ، أقول حين يجـازف ، وتلك حاله ، بآخـر فلورين يملكه ، بآخـر فلورين . وربحت ، وما هى الا عشرون دقيقة حتى كنت أخرج من الكازينو بمائة وسبعين فلورينا فى جيبى . هذا ما يمكن أن يكون لآخر فلورين من شأن ! فلو قد استسلمت للانهيار ، لو لم أملك الشجاعة اللازمة لاتخـاذ قـرار ..

غدا ، غدا ينتهى كل شىء !..

الزوج الأبدي

١٨٧٠

« الزوج الأبدى » (Vetchom mouje) ، نشرت هذه الرواية فى عددى كانون الثانى وشـــباط (يناير وفبراير) من مجلة « الفجر » سنة ١٨٧٠

١

فلتشانينوف

جاء الصيف ، وبقى فلتشانينوف ببطرسبرج ، على خلاف كل ما كان يتوقع . فالرحلة التى كان يزمع القيام بها الى جنوب روسيا لم تتحقق ، والدعوى التى يلاحقها لا ترى لها نهاية . ان هذه الدعوى ، وموضوعها خلاف على أرض ، قد تغير مجراها تغيرا سيئا . منذ ثلاثة أشهر كانت تبدو بسيطة ، وكان كسبها أمرا لا يجادل فيه . ولكن كل شيء فسد على حين فجأة . « الأمور تسير من سيىء الى أسوأ » . هذه هى العبارة التى أصبح فلتشانينوف يرددها فى كثير من الأحيان . كان له محام بارع ، باهظ الأجر ، ذائع الصيت ، وكان فلتشانينوف لا يبالى النفقات . الا أن نفاد صبره ، ونوعا من الشك القلق ، كانا يحدوانه الى التدخل فى القضية بنفسه : فكان يحرر مذكرات يلقيها المحامى كلها فى السلة ، وكان يسعى بين الادارات هنا وهناك ، ولا ينفك يستطلع الأنباء ،

ولعل هذا كله كان لا يزيد على أن يعرقل الأمور ويؤخرها ، وكان المحامى يتذمر من ذلك ، ويلح عليه أن يسافر الى الريف ، ولكن صاحبنا لا يستطيع أن يعزم أمره على السفر ، ولو الى ضـــواحى المدينة . الغبار ، الحر الخانق ، الليالى البيضاء التى تثير الأعصاب ، ذلك ما كان يستمتع به فى بطرسبرج . ولم يكن حظه من مسكنه الذى استأجره منذ قليل قرب « المسرح الكبير » بالحظ الحسن : « ما من شيء يوفق فيه » . فكان مزاجه السوداوى يتفاقم يوما بعد يوم ، والحق أنه كان يجنح الى هذا المزاج السوداوى منذ زمن طـــويل .

هذا رجل قد عاش حياة مليئة واسعة . وقد تجاوز الآن ريعان الشباب ، فهو فى الثامنة والثلاثين أو فى التاسعة والثلاثين من عمره ، وقد ظهرت « شيخوخته » هذه « فجأة » على حد تعبيره . ولكنه كان يدرك هو نفسه أن هرمه لا يرجع الى عدد السنين التى عاشها ، بل الى نوع هذه السنين ، وأن السبب فى جميع ما يعانى انما هو سبب نفسى . كان ما يزال يبدو رجلا قوى البنية : فهو شاب فارع القامة ، صلب العود ، ليس فى شعره الكثيف الأشقر ، ولا فى لحيته الطويلة التى تكاد تتدلى الى نصف صدره ، خيط أبيض واحـــد . اذا نظرت اليه نظرة أولى خيل اليك أنه أخرق ثقيل ، ولكنك ما ان تنعم النظـــر حتى ترى فيه السيد المهـــذب الذى يجيد التصرف والذى نشأ فى مجتمع راق . كانت حركات ڤلتشانينوف ما تزال سهلة هينة ، رصينة وقورة ، بل جميلة رشيقة أيضا ، رغم ما طرأ عليه من ميل الى التذمر والاهمال . وما زال الى الآن يتصف برزانة لا تتزعزع ،

وبثقة أرستقراطية تبلغ حد الوقاحة ، ولعله كان هو نفسه لا يقدر مدى هذه الثقة ، رغم أنه ليس رجلا ذكيا فحسب ، بل مرهفا فى بعض الأحيان ، وعلى حظ من الثقافة ، وعلى جانب من الموهبة ولا شك . وكان وجهه الصريح الزاهى الذى كان يتميز فى الماضى بنعومة ورقة ، يجذب اليه النساء ، حتى لقد يهتف المرء الى الآن حين يراه : « ما أجمل هذا الفتى القوى ! ألا انه من دمٍ ولبن ! * » . ومع ذلك فان هذا « الفتى القوى » مصاب بمزاج سوداوى قاس . ولقد كان فى عينيه أيضا ، منذ عشر سنين ، شيء يأسر النفس : عينان زرقاوان واسعتان ، صافيتان ، مرحتان ، فيهما ، فوق ذلك ، من الحركة ما يجذب كل من يقع عليهم بصره ، شاءوا أم أبوا . أما الآن ، وهو يشارف على الأربعين ، فان الوضوح والطيبة قد زالتا تماما من هاتين العينين اللتين أصبحت تحف بهما غضون خفيفة ، حتى لقد صارتا تعبران عن استهتار رجل متعب ليس على جانب كبير من الأخلاق ، وعن المكر ، وعن الهزء فى أكثر الأحيان ، وعن شيء جديد لم يكن فيهما من قبل هو لون خفيف من حزن ، حزن خفى لا موضوع له ان صح التعبير ، لكنه حزن عميق . وكان هذا الحزن يظهر خاصة حين يكون صاحبنا وحده . والغريب أن هذا الرجل الذى كان، منذ سنتين لا أكثر ، انسانا كثير الصخب ، شديد المرح ، يجيد رواية النكت المضحكة ، أصبح الآن لا يحب شيئا حبه للوحدة التامة . لقد هجر من تلقاء نفسه عددا من العلاقات التى كان يمكنه أن لا يهجرها رغم ما آلت اليه ثروته من حال سيئة . صحيح أن غروره قد ساعد على ذلك أيضا : ان ما يعانيه من حذر قلق ،

وما يتصف به من غرور ، قد جعل من المستحيل عليه أن يتردد الى أصدقائه القدامى . ولكن الغرور نفسه قد تبدل فى الوحدة شيئا فشيئا ان هذا الغرور لم يضعف ، ولكنه اتخذ صورة أخرى ، خاصة جدا : ان الأمور التى تجرحه الآن تختلف كل الاختلاف عن الأمور التى كانت تزعجه فى الماضى : انها الآن بواعث لا يتنبأ بها ، بواعث « أعلى » من تلك التى كان لها عليه سلطان الى الآن ، « اذا صح التعبير ، اذا صح أن ثمة بواعث عليا وبواعث دنيا » هذا كلام كان يضيفه هو نفسه ..

نعم ، لقد وصل به الأمر الى هنا : انه الآن يصارع أسبابا عليا لا يدرى أحد كنهها ، أسبابا ما كانت لتخطر بباله قبل ذلك . وكان ، فى ذهنه ، فى شعوره ، يسمى باسم « الأسباب العليا » جميع تلك التى كان (على دهشة منه) لا يستطيع أن يهزأ بها وأن يضحك منها فى ذات نفسه . أما بين الناس فالأمر يختلف عن هذا كل الاختلاف . كان يعلم حق العلم أنه يستطيع بين الناس ، فى أول مناسبة ، منذ الغد ، أن يعدل كل العدول عن جميع هذه « الأسباب العليا » رغم ما فى ضميره من أمور خفية تقية ، وأن يكون أول الهازئين بها الضاحكين منها ، مع الحرص على عدم الاعتراف بذلك طبعا . وكانت الأمور تجرى على هذا النحو فعلا ، رغم ما ظفر بالوصول اليه أخيرا من وضوح استقلال الرأى فى « الأسباب الدنيا » التى كانت تسيطر عليه قبل ذلك . وكم من مرة ، مع هذا ، نهض من فراشه عند الصباح ، وهو يشعر بالخجل من الأفكار والعواطف التى ساورته أثناء الأرق (يجب أن نذكر أنه يعانى من

الأرق دائما فى هذه الآونة الأخيرة) ، حتى لقد لاحظ منذ مدة طويلة أنه أصبح يزداد استسلاما للوساوس والشك ، سواء فى الشئون الخطيرة وفى الأمور التافهة ، فقرر أن لا يصدق نفسه كثيرا . ولكن كانت تقع له أحداث يستحيل حقا انكار أنها واقعة . ان أفكاره واحساساته العادية أصبحت ، فى هذه الأوقات الأخيرة ، تتبدل أثناء الليل تبدلا يشبه أن يكون تاما ، فما تشبه الأفكار والاحساسات التى تساوره أول النهار . وقد أذهله هذا ، حتى لقد مضى يستشير طبيبا مشهورا كان بينه وبينه معرفة شخصية ، فقص عليه الأمر مازحا بطبيعة الحال ، فعرف أن تبدل الأفكار والاحساسات ، بل وازدواجها ، أثناء الأرق ، وخلال الليل عامة ، ظاهرة كثيرة الشيوع بين أولئك الذين « يفكرون ويحسون بعنف »، وأن الاعتقادات التى رسخت فى المرء خلال حياته كلها يمكن أن تتبدل فجأة بما يحدثه الليل والأرق فى نفسه من هبوط وخور ، حتى لقد يتخذ الانسان فى مثل هذه الأحوال ، وعلى حين فجأة ، قرارات حاسمة فى حياته ، وأن لكل شىء حدا بطبيعة الحال ، فاذا شعر المريض بهذا الازدواج شعورا قويا حتى تألم منه ، كان ذلك دليلا قاطعا على وجود مرض حقيقى ، وينبغى للمريض فى هذه الحالة أن يبادر الى علاج نفسه ، وخير ما يعمله هو أن يغير طراز حياته تغييرا جذريا ، وأن يبدل نظام معيشته ، بل وأن يقوم برحلة . ومن المفيد حتما فى هذه الحالة أن يتناول أيضا « شربة » .

انقطع ڤلتشانينوف عن سماع مزيد من هذا الكلام : انه اذن مريض .

« كل هــذا اذن مرض ، كل تلك الأسباب « العليا » ليست اذن الا نتيجة المرض ، ليست اذن شيئا آخر ! » بهذا كان يهتف ساخرا . انه لم يذعن حقا للتسليم بذلك .

وما هو الا وقت قصــير ، اذا بالأشياء التى كان لا يحسهــا الا نادرا ، فى الليل ، أصبحت تقع له عند الصباح ، وأصبحت أحد حـــدة وأمر مرارة ، وأخذ عذاب الضمير يحل محل الغضب ، وأخذ التأثر يحل محل السخر . ان حوادث من حياته الماضية ، من حياته الماضية البعيدة فى بعض الأحيــان ، تنبثق الآن فى ذاكرته انبثاقا عجيبا ، تنبثق « على حين فجأة ، لا يعلم الا الله لماذا » . وازدادت هذه الظاهرة حدوثا . كان ڤلتشانينوف ، منذ مدة طويلة ، يشــكو من أن ذاكرته تضعف : كان ينسى وجوه أشخاص يعرفهم ، فيزعجهم ذلك منه حين يلقاهم . وكان فى بعض الأحيان ينسى كل ذكرى عن كتاب قرأه منذ ستة أشهر مثلا . ومع ذلك ، رغم هذا الضعف الواضح الذى يصيب ذاكرته يوما بعد يوم (وكان من هذا فى حالة هم وخوف) ، فان كل ما يتصل بماضيه البعيد من حوادث نسيها نسيانا تاما منذ عشر سنين أو منذ خمس عشرة سنة ، يستيقظ الآن فى ذاكرته على حين فجأة ، واضح التفاصيل ، قوى التأثير ، كأنه يعيشه مرة أخرى . وكان بعض هذه الحوادث قد بلغ من اغراقه فى غياهب النسيان أن مجــرد القدرة على تذكره كان يبدو له معجــزة من المعجزات . على أن هذا لم يكن كل شيء : ما من أحد عاش حياة مليئة واسعة الا وتبقى له ذكريات من هذا النوع . وانما الأمر الهام هو أن ذلك الماضى الذى يستيقظ الآن يظهر له بوجه جــديد غير

متوقع ، يظهر له بوجه ما كان يمكن أن يخطر له قبل ذلك ببال . لماذا تتخذ بعض ذكرياته فى نظره الآن مظهر جرائم حقيقية ؟ ثم ان هذه الذكريات لا تبدو له فى هذه الصورة برأى يراه عقله فحسب ، والا لما صدق عقله المظلم الوحيد المريض ، بل كان الرجل يصل من ذلك الى أن يلعن نفسه ، بل كان يوشك أن يبكى ، ان لم يكن بدموع ظاهرة ، فبنشيج داخلى . لو قال له أحد منذ سنتين انه سيبكى، لما صدقه بحال من الأحوال . ثم ان ذكرياته كانت فى أول الأمر ذكريات مرة أكثر مما كانت ذكريات عاطفية . كان يتذكر بعض ما ناله فى حياة المجتمع الراقى من اخفاق ، وبعض ما لحق به من مهانة أحيانا : تذكر مثلا « الوشايات » التى روجها عنه رجل دساس ، فأصبح أحد البيوت لا يستقبله وتذكر كيف أهين قبل ذلك اهانة واضحة على ملأ من الناس فلم يحاول أن يسترد شرفه بطلب النزال . وتذكر كيف وُخز مرة بكلمة لاذعة أمام جمع من جميلات النساء ، فلم يعرف كيف يرد الوخز بمثله . بل لقد تذكر كيف تخلف عن دفع بعض الديون التى كانت تافهة فى ذاتها ، ولكن التخلف عن دفعها اخلال بالشرف ، وهى لأناس أصبح الآن لا يراهم ، بل يقول فيهم هاجر القول . وكان يتذكر على ألم أيضا (ولكن فى أسوأ حالاته فحسب) الثروتين الضخمتين اللتين بددهما بغباوة . ولكن ذكرياته ما لبثت أن أصبحت تتناول أمورا « أرفع » من تلك .

من ذلك أنه تذكر فجأة ، بلا أى سبب ، بعد نسيان طويل ، أنه فى ذات يوم ، منذ مدة طويلة ، أهان على ملأ من الناس ، ظلما وعدوانا ، موظفا صغيرا عجوزا طيبا ، لا لشىء الا ليقول قولة جميلة

جاءت له ببعض الشهرة وصارت مضرب المثل . ان هذه الحادثة كانت قد دفنت فى ذاكرته دفنا عميقا ، حتى أنه كان لا يستطيع أن يتذكر اسم العجوز القصير ، رغم أن جميع ظروف القصة انبجست فى ذاكرته الآن ، على حين فجأة ، بوضوح ما بعده وضوح . تذكر أن العجوز أراد أن يدافع عن ابنته التى تقدمت فى السن ولم تتزوج بل ظلت تقيم مع أبيها ، فأخذوا يروجون عنها الشائعات ، فحاول العجوز أن يدافع عنها وأن يغضب ، ثم اذا به ، على حين فجأة ، ينفجر منتحبا أمام الناس ، فترق له قلوبهم قليلا ، ثم يسكرونه بالشمبانيا على سبيل المزاح ، ويضحكون ما شاء لهم أن يضحكوا . فلما تذكر ڤلتشانينوف العجوز الصغير ، بلا سبب ، فرآه وهو ينتحب ويخفى رأسه بيديه ، كطفل ، أحس فجأة أنه لم ينقطع يوما عن تذكر هذه الحادثة . والغريب أن ذلك كله كان يبدو له مضحكا، أما الآن فهو لا يبدو له كذلك ، وخاصة بعض التفاصيل ، ودفن الوجه باليدين خاصة .

وتذكر أيضا كيف أنه شهّر ، لا لشىء غير المزاح ، بتلك المرأة الجميلة ، زوجة معلم المدرسة ، حتى وصلت الاشاعات التى روجها الى الزوج . ان ڤلتشانينوف ، وقد ترك تلك المدينة الصغيرة بعد ذلك بمدة قصيرة ، لم يعرف أبدا العواقب التى نجمت عن عمله . ولكن ها هو ذا الآن ، فجأة ، يأخذ يتصورها ، ولا يعلم الا الله الى أين كان يمكن أن يؤدى به خياله ، لولا أن انبجست فيه ، فجأة ، ذكرى أقرب من تلك ، ذكرى فتاة بسيطة ، ما كانت تغريه ، ولا كانت تعجبه ، حتى لقد كان يحمر خجلا من علاقته بها ، ولكنه مع ذلك

أنجب منها طفلا ، دون أن يخطر له هذا ببال . فهجر الأم والطفل ، حتى أنه لم يودعهما (والحق أن وقته لم يتسع للوداع) حين سافر من بطرسبرج . وقد حاول بعد ذلك ، خلال سنة بكاملها ، أن يعثر على تلك الفتاة ، فلم يظفر بطائل . على أن ذاكرته كانت تمتلىء بمئات من الذكريات التى من هذا القبيل ، وكأن كل واحدة منها كانت تجر وراءها عشرات . وشيئا فشيئا أخذ غروره يصاب أيضا .

سبق أن قلنا ان غروره قد اتخذ شكلا خاصا جدا ، والواقع أن الرجل كانت تمر به لحظات (وان تكن نادرة) يبلغ فيها من قلة الاكتراث أنه لا يستحى أن لا تكون له عربة خاصة به ، وأن يتنقل من ادارة الى أخرى على قدميه ، وأن يهمل هندامه . ولو صادفه أحد من معارفه القدماء فى الشارع فنظر اليه نظرة ساخرة أو تظاهر بأنه لا يعرفه ، لكان له من كبريائه ما يكفى لأن لا يشعر من ذلك بأى حنق ، لا ظاهرا فحسب ، بل فى قرارة نفسه أيضا . بديهى أن هذه الحالة نادرة . وما كانت الا لحظات قصارا من نسيان النفس والاهتياج . ولكن غروره قد تحول شيئا فشيئا عن الأمور التى كانت قبل ذلك تؤثر فيه ، وأصبح منصبا على شىء واحد يشغل الآن فكره بغير انقطاع .

كان يقول لنفسه بلهجة ساخرة (يجب أن نذكر أنه كان اذا فكّر فى نفسه اصطنع لهجة السخر فى جميع الأحيان تقريبا) : اذن هناك من يهتم بحالتى النفسية فيرسل الىّ هذه الذكريات المنحوسة و « دموع الندامة » ، ولكن ذلك لن يفيد فى شىء ! انه تسديد الى فراغ .

ألست متأكدا من أننى ، على هذه الندامات الدامعة وعلى قسوتى فى الحكم على نفسى ، لا أملك شيئا من الحرية ، رغم السنين الأربعين الغبية ! انه ليكفى أن يتكرر الاغراء غدا ، وأن تعرض تلك الظروف ذاتها : « يكفى مثلا أن أجنى بعض الفائدة من التشهير بزوجة المعلم ومن الافتراء عليها بقولى انها تقبل هداياى ، حتى أشهر بها من غير تردد ، وسيكون عملى عندئذ شرا مما كان فى المرة الأولى لأنه الآن مرة ثانية . ويكفى أن يهيننى ذلك الأمير الصغير ، وحيد أمه ، الذى كسرت له ساقه برصاصة مسدس ، منذ أحد عشر عاما ، يكفى أن يهيننى مرة أخرى حتى أهدى اليه ساقا ثانية من خشب .. فما فائدة هذه الذكريات اذن ؟ أليست تسديدا الى فراغ ؟ ما جدواها؟ فيم هذه الذكريات ، ما دمت لا أصل الى التحرر من نفسى قليلا أو كثيرا ! » .

ورغم أن قصة زوجة معلم المدرسة لم تتكرر ، ورغم أنه لم يهد الى أحد ساقا من خشب مرة ثانية ، فان مجرد تفكيره فى أنه يفعل ذلك حتما اذا واتت الظروف .. كان يقتله تقريبا .. فى بعض الأحيان. الحق أن المرء يستحيل أن يظل فريسة ذكريات مؤلمة ، فيحسن أن يستريح وأن يتنزه من حين الى حين .

وذلك ما كان يفعله ڤلتشانينوف : كان مستعدا لأن يتنزه من حين الى حين ، ولكن حياته فى بطرسبرج كانت تثقل وطأتها عليه يوما بعد يوم . كان شهر تموز (يوليو) يقترب . وكان فى بعض الأحيان يقرر فجأة أن يترك كل شيء ، حتى الدعوى ، وأن يسافر فورا الى أي مكان ، الى القرم مثلا ، وأن ينقطع عن التفكير فى أى أمر من

الأمور . ولكنه ما يلبث ، بعد ساعة من الزمان ، أن يحتقر هذه الفكرة ، وأن يهزأ بها : « ما من رحلة يمكن أن تشفينى من هذه الأفكار المؤلمة بعد أن انبجست ، واذا كنت على شىء من الشرف ، فيجب أن لا أهرب من هذه الأفكار .. وفيم أهرب منها ؟ » .

« نعم ، فيم أهرب منها ؟ (هكذا كان يواصل تفلسفه بمرارة). ان الجو هنا كثير الغبار خانق ؛ وان البيت هنا قذر كل ما فيه ؛ وان الادارات التى أضيع فيها وقتى بين رجال الأعمال فيها كثير من الحركة التى لا طائل تحتها ، وكثير من الاحتمالات السخيفة ؛ وان الناس الذين بقوا هنا والذين نراهم من الصباح الى المساء هم على قدر عظيم من الأنانية الساذجة الصريحة ، والغفلة البسيطة ، يظهرون كل ما فى نفوسهم الصغيرة من نذالة ، وكل ما فى قلوبهم الوضيعة من جبانة .. فها هنا اذن الجنة الحقيقية لمن كان سوداوى المزاج . كل شىء هنا صريح واضح ، لا يفكر أحد فى اخفاء أى أمر من الأمور ، كما تفعل سيداتنا فى المصايف ، وفى مناطق المياه المعدنية، وفى الخارج . كل شىء هنا أدعى اذن الى التقدير والاحترام ، لا لسبب آخر غير هذه الصراحة وهذه البساطة . لن أسافر ! أموت هنا ، ولكننى لن أذهب الى أى مكان ! » .

٢

صاحب القبعة ذات الشريط الأسود

كان ذلك فى الثالث من شهر تموز (يوليو) . ان الحر خانق لا يطاق . وقد قاسى ڤلتشانينوف ألوانا من المتاعب فى ذلك اليوم . ظل النهار كله ، يسعى من مكان الى مكان ، تارة على قدميه ، وتارة فى عربة ، وكان عليه أن يذهب فى المساء الى شخص خطير الشأن يستطيع أن يفيده كثيرا : انه رجل من رجال الأعمال ، ومستشار دولة ، كان يريد ڤلتشانينوف أن يفاجئه فى منزله الذى يقع غير بعيد من « النهر الأسود * » . وفى الساعة السادسة دخل ڤلتشانينوف أخيرا الى مطعم من المطاعم (مطعم سيىء المظهر رغم أنه فرنسى) يقع على مقربة من جسر « البوليس » فى شارع نقسكى . فجلس فى ركن من أركان المطعم ، الى المائدة التى اعتاد الجلوس اليها ، وطلب الغداء الذى كان يكلفه روبلا واحدا ؛ ولما كان ثمن الخمر لا يدخل فى وجبة الطعام ، فان ڤلتشانينوف كان لا يشرب الخمر الا نادرا ،

وكان يعد امتناعه ذاك تضحية توجبها الحكمة ، لأن أعماله تسير سيرا سيئا . وكان يلتهم الطعام بشراهة حتى الفتات ، كأنه لم يأكل شيئا منذ ثلاثة أيام . وكان هو نفسه يستغرب كيف يمكن أن يأكل طعاما سيئا كهذا الطعام . « هــذا من المرض » ذلك ما كان يدمدم به حين يلاحظ شدة رغبته فى الأكل . ولكنه فى هذه المرة جلس الى مائدته معكر المزاج ، فرمى قبعته على ركن منها حانقا ، وتوكأ على كوعيه ، وراح يفكر .. كان يكفى أن يتحــدث جاره الجالس الى المائدة القريبة ضجة ما ، أو أن لا يفهمه الخادم الذى يحمل اليه الطعام ، من أول كلمة ، حتى يحدث عياطا وزياطا ، كضابط صغير ، وحتى يؤدى ذلك الى فضيحة صاخبة ، نعم .. كان يمكن أن يصدر هــذا عنه ، هو الذى كان يعرف كيف يكون لطيفا مهــذبا ، هو الذى كان يعرف كيف يحتفظ بهدوئه وتعاليه حين يجب ذلك .

وقدّم اليه الحساء ، فتناول الملعقة ، ولكنه ما لبث أن رماها فجأة على المائدة ، وكاد يثب عن كرسيه : ان فكرة غير متــوقعة قد أشرقت فى ذهنــه على حين غرة : لقد أدرك فى هــذه اللحظة (لا يدرى الا الله كيف !) سبب قلقه هذا القلق الغريب ، الفريد ، الذى يعذبه منذ بضعة أيام ، (لا يدرى الا الله من أين أتاه !) والذى ما انفك يخنقه (لا يدرى الا الله لماذا) . الآن ، فى هــذه اللحظة ، ينكشف له كل شىء واضــحا بسيطا ، كأصابع اليــد الخمس .

دمدم يقول كمن أشرقت الحقيقة فى نفسه اشراقا « انها القبعة .

لا شيء الا تلك القبعة اللعينة ذات الشريط الأسود الكريه . انها سبب كل شيء ! » .

وأخذ يفكر ، فكان كلما أغرق فى التفكير ، ازدادت نفسه حزنا ، وازداد « الحادث » فى نظره غرابة ..

وحاول أن يعترض ، لأنه لا يريد أن يصدق نفسه فتساءل : « ولكن هل هذا حادث حقا ؟ هل فى هذا ما يشبه أن يكون حادثا ؟ » ..

اليكم ما جرى : منذ اسبوعين تقريبا (انه لا يتذكر على وجه الدقة ، ولكنه يقدر أن المدة أسبوعان) ، صادف ، أول مرة ، فى الشارع ، عند ملتقى پودياتشسكايا ومستشانسكايا ، رجلا كان على قبعته شريط أسود . كان هذا الرجل كغيره من الناس ، لا يمتاز بأى شيء خاص . مرّ بسرعة ، ولكنه ألقى على ڤلتشانينوف نظرة متفرسة ، فلفت نظر ڤلتشانينوف فورا . ومهما يكن من أمر ، فقد تراءى لڤلتشانينوف أنه يعرف هذا الوجه ، فلا شك أنه التقى به قبل الآن فى مكان ما . « ولكن ألم ألق فى حياتى ألوف الوجوه ! ان المرء لا يستطيع أن يتذكر جميع الوجوه التى رآها » . وما ان مشى عشرين خطوة ، حتى كان كمن نسى هذا اللقاء ، رغم حدة الشعور الأول . ولكن هذا الشعور الأول ظل قائما فى نفسه طوال النهار هياجا لا موضوع له ، هياجا من نوع خاص . والآن ، بعد أسبوعين ، يتذكر ڤلتشانينوف كل ذلك واضحا جدا ، ويتذكر أيضا أنه لم يفهم يومئذ سبب ذلك الهياج ، حتى أنه لم يربط بين انزعاجه خلال تلك السهرة وبين لقائه ذلك الرجل فى الصباح .

ولكن الرجل أسرع فذكره بنفسه مرة أخرى ، ذلك أن ڤلتشانينوف التقى به فى غد عند شارع نيفسكى ، ونظر اليه الرجل نظرة غريبة مرة ثانية . فبصق ڤلتشانينوف حنقا ، ولكنه لم يلبث أن استغرب هذه الحركة التى بدرت منه . ان ثمة وجوها اذا رآها المرء أثارت فيه اشمئزازاً ليس له تعليل ، اشمئزازا ليس له موضوع . وبعد انقضاء نصف ساعة على هذا اللقاء الثانى ، كان ڤلتشانينوف يدمدم مطرقا حالما، بقوله : « لقد رأيته حقا فى مكان ما » . ومرة أخرى وجد ڤلتشانينوف نفسه معكر المزاج خلال المساء ، حتى لقد رأى فى الليل حلما مزعجا ، ولكن لم يدر فى خلده أن هذا الكدر الجديد الغريب ليس له من سبب الا هذا الرجل الذى يحيط بقبعته شريط أسود ، علامةَ الحداد ، رغم أنه فكر فيه كثيرا خلال تلك السهرة . حتى لقد أحنقه أن تحتل مثل هذه الأمور التافهة ذاكرته زمنا طويلا هذا الطول كله . أما أن يعد ذلك الرجل مسئولا عن كدر مزاجه ، فهذه فكرة لو خطرت بباله لشعر بمذلة كبيرة . وبعد يومين التقيا مرة ثالثة بين الجمهور الذى كان ينزل من باخرة تطوف فى نهر نيڤا . وأحس ڤلتشانينوف فى هذه المرة الثالثة أن هذا الرجل الذى يلبس الحداد كان كأنه يعرفه ، وكأنه اندفع نحوه ، محاولا التملص من الجمهور الذى يزحمه . حتى لقد خيل اليه أن الرجل « تجرأ » فمد اليه يده ، ولعله أيضا هتف به ، وناداه باسمه .. ان ڤلتشانينوف لم يميز هذا كله بوضوح ، ولكنه قال لنفسه حانقا ، وهو يركب عربة للذهاب الى دير سمولنى : « من عسى يكون هذا الوغد ، ولماذا لا يأتى الىّ اذا كان يعرفنى حقا ، واذا كان يريد

أن يقترب منى ؟ » . وبعــد نصف ساعة قامت بينه وبين محاميه مناقشة عاصفة . أما فى المساء وفى الليل فقد أحس بقلق مر رهيب يخنقــه خنقا . فتساءل متحيرا وهو ينظــر الى نفسه فى المرآة : « أيكون هذا من فرط افراز الصفراء ؟ » .

كان ذلك هو اللقاء الثالث . وانقضت أيام خمسة لم ير خلالها « أحدا » ، ولا ظهر « للوغد » أثر . ومع ذلك كانت ذكرى صاحب القبعة ذات الشريط الأسود تراوده من حين الى حين ، فكان يستغرب ذلك ويتساءل : « أأكون اذن راغبا فى رؤيته ؟ هم° .. لعل له ، هو أيضا ، أعمالا كثيرة فى بطرسبرج .. ترى لمن يلبس السواد .. حزنا على من ؟ واضح أنه عرفنى ، ولكننى ، أنا ، لم أعرفه .. لماذا يضع هؤلاء الناس شريطا أسود ؟ انه لا يناسبهم .. يخيل الىّ أننى سأعرفه اذا رأيته من قرب .. » .

وكأن شيئا كان يريد أن يتفتح فى ذاكرته .. كما يقع للمرء حين يحاول أن يتذكر اسما يعرفه ، ولكن نسيه فجأة : ان المرء يعرف الاسم تماما ، ويعرف أنه يعرفه ، ويعرف معناه ، ويحوم حــوله ، ولكن الاسم يأبى أن يسلس له ! ..

« كان ذلك .. منذ مدة طويلة .. فى .. كان هناك .. كان هناك .. أوه ! سحقا لهذا كله .. أيستحق ذلك كله أن ألطخ نفسى على هذا النحو ! أيستحق هذا الوغد أن أذل نفسى هذا الاذلال ! » .

غضب ڤلتشانينوف غضبا رهيبا . ولكنه حين تذكر فى المساء ، فجأة ، هذا الغضب « الرهيب » كله ، أزعجه ذلك : كان كمن ضبط متلبسا بالجريمة ، وشعر باضطراب وحيرة ، ودهش .

« لابد أن يكون لهذا الغضب الشديد سبب .. لماذا أثور هـذه الثورة كلها ، لمجرد تذكر .. » .

ولم يتم فلتشانينوف تفكيره ..

وثار فى صباح الغد ثورة أعنف ، وغضب غضبا أشد ، ولكن بدا له فى هذه المرة أن لحنقه ما يبرره ، وأنه على حق تماما . « هذه وقاحة لا مثيل لها » . لقد تم لقاء رابع . ان صاحب القبعة ذات الشريط الأسود قد ظهر له فجأة ، كأنما خرج من تحت الأرض. كان فلتشانينوف قد التقى منذ لحظة ، فى الشارع ، بمستشار الدولة الذى كان فى أشد الحاجة اليه ، وكان يحاول أن يعثر عليه منذ مدة طويلة ، ويلاحقه حتى فى منزله . وكان هذا الموظف الذى لا يعرفه فلتشانينوف الا قليلا ، يتحاشاه بكل الوسائل ، ولا يتيح له أن يفاجئه ، ويختبىء عنه صراحة. فلما صادفه فلتشانينوف أخيرا فى الشارع ، سعد بذلك كثيرا ، فأخذ يسير الى جانبه . وفيما هو يسرع الخطى معه ، وينظر فى عينيه ، محاولا بكل قواه أن يجره الى الموضوع الذى يعنيه عسى أن يبوح بما بنفسه، عسى أن تفلت منه بعض الكلمات الهامة التى ينتظرها منذ مدة طويلة (ولكن العجوز الماكر كانت له فكرته الخاصة ، فكان يبتسم صامتا) ، اذا ببصره ، فى هذه اللحظة الحرجة ، يقع فجأة على صاحب القبعـة ذات الشريط الأسود ، واقفا على الرصيف الآخر يحدق فى الرجلين كليهما . كان واضحا أنه يتبعهما ، بل يبدو أنه يسخر منهما .

« لعنة الله عليه .. أهو يتجسس علىّ ؟ واضح أنه يتبعنى ، فهل استأجره أحد لهذا الغرض ؟ و .. و .. وكان يضحك ساخرا ! يمينا لأضربنه ضربا مبرحا .. من المؤسف أن ليس معى عصا ! سأشترى

عصا ! لن أدع الأمور هكذا . من هو هذا الوغد ؟ أريد أن أعرف حتما من هو ! » .

وأخيرا ، بعد انقضاء ثلاثة أيام تماما على هذا اللقاء (الرابع) ، ها نحن أولاء نجد فلتشانينوف فى مطعمه ، على الحالة التى وصفناها ، مضطربا حقا ، بل طائش اللب بعض الشىء . انه بعد أن درس جميع الظروف ، اضطر الى التسليم بأن السبب الوحيد فى كدر مزاجه ، وفى هذا القلق الخاص الذى يعانيه ، وفى جميع هذه الانفعالات التى تضطرم فى نفسه منذ أسبوعين ليس الا ذلك الرجل المتشح باشارة الحداد ، « رغم تفاهته التامة » .

كان فلتشانينوف يفكر قائلا لنفسه : « صحيح أننى امرؤ سوداوى المزاج ، وأننى تبعا لذلك أجعل من الذبابة فيلا ، ومن الحبة قبة ، ولكن هل يعزينى أن أعلم أن كل ذلك ربما كان مجرد خيال ؟ اذا كان يجوز لأول وغد عابر أن يشوش انسانا كل هذا التشويش ، فـ .. فـ .. » .

والحق أن الفيل كان يشبه الذبابة فى هذا اليوم كل الشبه (اللقاء الخامس) : لقد مرّ الرجل بخطى سريعة على عادته ، ولكنه لم ينظر الى فلتشانينوف فى هذه المرة ، بل كان مطرقا الى الأرض ، كأنه يتحاشى أن يُعرف . فالتفت اليه فلتشانينوف ، وصاح به ملء صوته :

« أنت ! هناك ! يا صاحب الشريط الأسود ! لماذا تختبىء ؟ قف ! من أنت ؟ » .

كان كلا السؤال والصراخ سخيفا لا يليق . ولكن فلتشانينوف لم يدرك ذلك الا بعد أن صرخ .

التفت الرجل المنادى ، ووقف لحظة ، واضطرب وابتسم ، وحاول أن يقول شيئا ، حاول أن يقوم بحركة ، وتردد ترددا كبيرا ما فى ذلك شك ، ثم استدار فجأة ، وهرب لا يلوى على شيء ، ولا يلقى نظرة واحدة الى وراء .

دُهش فلتشانينوف أشد الدهشة ، وتابعه بنظره .. قال فى نفسه « ربما كنت ألاحقه ولا يلاحقنى .. ربما كان هذا كلّ ما فى الأمر .. » .

وبعد أن انتهى من تناول غدائه ، ركب عربة وذهب الى منزل الموظف . ولكنه لم يستطع أن يلقاه . قيل له « انه لم يعد الى البيت منذ الصباح ، ولا يُنتظر أن يعود قبل الساعة الثالثة أو الرابعة من الصباح ، لأنه سيبقى فى المدينة للاحتفال بعيد ميلاد صديق له » ، فشعر فلتشانينوف من ذلك « بمهانة » كبيرة ، حتى أنه قرر وهو فى ثورة الغضب ، أن يذهب الى صاحب العيد ، وأمر الحوذى بالاتجاه نحو بيته ، ولكنه أدرك فى منتصف الطريق أن فى ذلك شيئا من المبالغة ، فنقد السائق أجره ، ثم جرّ نفسه على قدميه الى بيته عند المسرح الكبير . كان يشعر بالحاجة الى المشى . انه من أجل أن يهدىء أعصابه المهتاجة يجب أن ينام هذه الليلة مهما كلف الأمر ، ومن أجل أن يحارب الأرق لابد أن يتعب نفسه على الأقل . ووصل الى بيته فى الساعة العاشرة والنصف ، لأن الطريق طويل ، وأخذ منه التعب كل مأخذ .

ان الشقة التى استأجرها فى شهر آذار (مارس) ، والتى كان ينتقدها ويشكو منها مرّ الشكوى ، معتذرا عن نفسه مرددا « أنها ليست أكثر من خيمة موقتة » وأن الذنب فى ذلك كله هو ذنب هذه الدعوى اللعينة التى تحجزه فى بطرسبرج « الى حين » ، ان هذه الشقة لم تكن مزعجة الى ذلك الحد ، ولا كان مظهرها سيئا الى الدرجة التى يدعيها . صحيح أن مدخل العمارة مظلم « وسخ » بعض الشىء ، ولكن الشقة نفسها ، وهى تقع فى الدور الثانى ، كانت تتألف من غرفتين واسعتين نيرتين عال سقفهما ، تفصل بينهما حجرة مظلمة قليلا . كانت احدى الغرفتين تطل على الشارع ، وكانت الحجرة الأخرى تطل على الفناء ، وتتصل بحجرة هيئت لتكون حجرة نوم ، ولكن فلتشانينوف بعثر فيها كتبه وأوراقه فوضى ، فكان ينام فى الغرفة التى تطل على الشارع من الغرفتين الكبيرتين ، متخذا من أحد « الدواوين » سريرا له . وكان أثاث البيت جميلا ، على أنه بلى قليلا .. وكان فى البيت أيضا أشياء ثمينة هى بقايا ترف قديم : أوان من الخزف والبرونز ، وسجاد من بخارى ، بل ولوحتان جيدتان . ولكن الغبار كان يغطى كل شىء ، وكانت الفوضى عامة ، فما تجد شيئا فى مكانه ، منذ سافرت پيلاجيا الشابة الى أهلها بنوفجورود وتركته وحده ، بعد أن كانت تتولى خدمة البيت . كان هذا الوضع الغريب ، أعنى وجود فتاة فى بيت رجل عازب من أبناء المجتمع الراقى، يريد أن يحافظ على قواعد اللياقة ، كان هذا الوضع يثير الخجل فى فلتشانينوف ، رغم أنه راض كل الرضى عن پيلاجيا هذه . لقد دخلت فى خدمته حين استأجر هذه الشقة فى الربيع ، لأن الأسرة التى

كانت تعمل عندها سافرت الى الخارج . وما لبثت پيلاجيا أن رتبت البيت بعض الترتيب . حتى اذا سافرت لم يشأ فلتشانينوف أن يكون خادمه امرأة . أما الخدم من الرجال فكان فلتشانينوف لا يحبهم . على كل حال ، لا تستحق هذه المدة القصيرة التى سيقضيها هنا أن يستأجر خادما . لذلك كانت مافرا ، أخت البوابة ، هى التى تتولى خدمة البيت فى الصباح ، فكان يعطيها مفتاحه حين يخرج ، ولكنها كانت لا تعمل شيئا على الاطلاق ، وكانت تتقاضى أجرها بغير تخلف، ولعلها كانت تسرقه أيضا . ولكنه كان لا يحفل بشىء ، وكان يسعده على كل حال أن يجد نفسه وحيـــدا فى البيت . على أن لكل شىء حدودا يقف عندها ، فكانت أعصابه ، حين ازدياد الصفراء ، تأبى فى بعض الأحيان أن تحتمل هذه « القذارة » أكثر مما احتملت ، فكان يشعر بنوع من التقزز اذ يعود الى بيته .

ولكنه ، فى هذه المرة ، ما كاد يخلع ثيابه حتى ارتمى على سريره ، مغضبا حانقا ، وحاول أن لا يفكر فى شىء ، وأن ينام فورا مهما كلف الأمر . والغريب أنه ما ان لامس رأسه الوسادة حتى نام . وذلك ما لم يقع له مرة منذ شهر .

نام ما يقرب من ثلاث ساعات ، ولكن نومه كان مضطربا . رأى أحلاما غريبة ، كتلك التى يراها النائم المحموم . رأى أنه كان قد اقترف جريمة وأخفاها ، فاذا الناس الآن يأتون اليه ويدخلون عليه ، من كل فج عميق ، ويأخذون يتهمونه جميعا بصوت واحد . وكثر عددهم ولكنهم ما زالوا يتوافدون ، والباب مفتوح على مصراعيه . الا أن الاهتمام كله كان ينصب على شخص غريب أمره ، شخص

سبق أن عرفه معرفة وثيقة ، وقد مات ، ثم اذا هو يدخل الآن على حين غرة . وقد شق على فلتشانينوف أكثر من أى شىء آخر أنه لم يعرف من هو هذا الشخص : لقد نسي اسمه ، وأصبح لا يستطيع أن يتذكره . ولكنه يعرف أنه قد أحبه فى الماضى كثيرا . وكان يبدو أن هذا الشخص هو الذى ينتظر منه الجمهور كله القولَ الفصل الذى يدين فلتشانينوف أو يبرئه . وكان نفاد الصبر عاماً شاملا . ولكن هذا الشخص ظل جالسا ساكنا ، يرفض أن يتكلم . وكانت الجلبة لا تنقطع ، وكان الهياج يزداد . وفجأة ، قام فلتشانينوف ، وقد فار غضبه ، فضرب هذا الرجل لأنه يصر على السكوت ، فلما ضربه شعر بلذة غريبة . ان فظاعة هذا العمل ، والألمَ الذى شعر به قد خنقا قلبه خنقا ، ولكن هذا نفسه كان هو قوام تلك اللذة الغريبة . وثارت ثائرته ، فضربه مرة ثانية ، فثالثة ، وسكر من الحنق والذعر وأصابه ما يشبه الجنون الممتلىء هو أيضا بلذة لا نهاية لها ، فأخذ يضرب ويضرب بغير توقف لا يعد الضربات . كان يريد أن يحطم هذا ، كان يريد أن يحطم كل هذا . غير أن شيئا جديدا قد حدث على حين بغتة : أخذ جميع الناس يصرخون ، ثم التفتوا نحو الباب كأنهم ينتظرون . وفى تلك اللحظة رن الجرس ثلاث مرات ، ولكن رنينه كان قويا جدا ، حتى لكأن الذى قرعه كان يريد أن يقتلعه اقتلاعا . فاستيقظ فلتشانينوف ، وأفاء فجأة الى نفسه ، وقفز من سريره وأسرع نحو الباب . كان على يقين من أن رنين الجرس لم يكن وهما ، وأن أحدا قد قرعه فعلا . « ليس طبيعيا أن يكون صوت واضح هذا الوضوح وهما لا أكثر » .

ولكنه وجد ، على دهشة منه ، أن رنين الجرس لم يكن الا استمرار لحلمه فقد شق الباب وخرج الى سطح الدرج ، ونظر فى السلم ، فلم ير أحدا . ورأى الجرس يتدلى ساكنا . فعاد الى غرفته ، دهشا ولكن على رضى . وفيما هو يشعل شمعة ، تذكر أنه قد ردّ الباب ردا ، ولم يقفله بالمفتاح ، ولا شد المغلاق . كان يتفق له فى كثير من الأحيان ، حين يعود الى بيته ، أن ينسى اقفال الباب بالمفتاح ، وكان لا يولى ذلك كبير اهتمام . وقد لامته پيلاجيا على هذا مرارا . فعاد الى حجرة المدخل ليقفل الباب ، ففتحه مرة أخرى ، ونظر الى الخارج ، ثم دفع المزلاج ، وأهمل مع ذلك أن يدير المفتاح . ودقت الساعة الثانية والنصف . لقد نام اذن ثلاث ساعات .

وقد هزّه الحلم الذى رآه هزا عنيفا فلم يشأ أن يعود الى النوم فورا ، وقرر أن يتجول فى الغرفة نصف ساعة ، « وهو الوقت الذى يستغرقه تدخين سيجار » . واقترب من النافذة بعد أن ارتدى بعض ملابسه ، فأزاح الستارة ، ثم أزاح الغلالة البيضاء . كان النهار قد طلع .

ان ليالى الصيف المضيئة ببطرسبرج كانت تثير أعصابه دائما ، وكانت أيضا تفاقم أرقه فى هذه الأوقات الأخيرة . لذلك كان قد وضع على نوافذه ستائر ثقيلة تمنع تسرب النور حين يحكم اسدالها . فلما أزاح الستائر ، نسى الشمعة التى أشعلها على المائدة ، وأخذ يمشى فى الغرفة ، وقد استبد به احساس ثقيل مؤلم . ان الشعور الذى أحدثه فيه الحلم لم يتبدد بعد . كان مجرد تفكيره فى أنه رفع يده على ذلك الرجل وضربه ، يؤلمه ألما شديدا .

« ولكن ذلك الرجل لا وجود له ، انه لم يوجد يوما . هذا حلم لا أكثر ، ففيم الألم والأنين ؟ » .

وطاش صوابه ، فقال فى نفسه ، وكأن همومها كلها تلتقى الآن فى هذه النقطة : « اننى مريض ، اننى انسان مريض ! » .

كان يشق عليه دائما أن يعترف لنفسه بأنه يضعف ويشيخ ، ولكنه كان فى لحظاته السيئة يبالغ فى تصور آلامه عن مكر عامدا ، لكى يعذب نفسه .

دمدم يقول وهو يمشى فى غرفته : « انها الشيخوخة . لقد هرمت تماما . اننى أفقد ذاكرتى ، وأرى أشباحا ، وأحلم أحلاما ، وترن الأجراس .. تبا للشيطان .. اننى أعرف بالتجربة أن مثل هذه الأحلام هى عندى دائما علامة الحمّى .. أنا موقن أن « قصة » الشريط الأسود قد لا تكون كلها الا حلما . ألم أر أمس أننى أنا الذى ألاحقه ، وانه ليس هو الذى يلاحقنى . اننى أتخيل بصدده أسطورة كاملة ، ثم يستبد بى الذعر فأركض أختبىء تحت المائدة . ولماذا أعده وغدا ؟ قد يكون رجلا طيبا كريما . صحيح أن وجهه منفر جدا ، ولكن ليس فيه شىء قبيح قبحا خاصا ، وملابسه كملابس سائر الناس .. غير أن فى نظرته شيئا .. هوه . هأنذا أعود فأفكر فيه . مالى ولنظرته ؟ ألا أستطيع أن أعيش دون أن أفكر فى « مقصوف الرقبة » هذا ؟

ومن بين الأفكار التى كانت تنبجس فى خياله ، كانت هناك فكرة بعينها جرحته جرحا مؤلما : لقد بدا له فجأة أنه على يقين من

أن هذا الرجل ذا الشريط الأسود قد عرفه فى الماضى معرفة وثيقة ، وأنه الآن يهزأ به حين يلقاه ، لأنه واقف على سر من أسرار ماضيه الهامة ، ثم هو يراه الآن قد سقط من منزلته وصار فى الحضيض . اقترب من النافذة على غير وعى ، ليفتحها ويستنشق هواء الليل .. و .. و .. فجأة ارتعش : بدا له أن شيئا عجيبا رهيبا يحدث .

لم يتسع الوقت لفتح النافذة ، ذلك أنه ما ان اقترب منها حتى عاد فاختبأ عند طرفها : لقد لمح فجأة صاحب القبعة ذات الشريط الأسود ، واقفا على الرصيف المقابل أمام البيت تماما . كان الرجل يصوب نظره الى نوافذ البيت . لا شك أنه لم يره ، كان واضحا أنه يفحص البيت مستطلعا وهو يفكر . وكان يبدو أنه متردد متحيِّر : لقد رفع يده ، ولمس جبينه باصبعه . وعزم أمره أخيرا ، فألقى نظرة سريعة على ما حوله ، ثم تقاصر واجتاز الشارع على رءوس أصابعه .. نعم .. انه فى الدهليز ، تحت الباب الصغير (الذى كان يترك مفتوحا حتى الساعة الثالثة من الصباح فى بعض الأحيان) . فقال فلتشانينوف لنفسه فورا « انه آت الىَّ » ، فهرع الى حجرة المدخل على رءوس أصابعه أيضا ، ووقف أمام الباب ينتظر متوترا واضعا يده المرتعشة على المزلاج الذى دفعه قبل ذلك ، مصيخا بسمعه الى خشخشة الخطوات على السلَّم .

كان قلبه يخفق خفوقا شديدا ، حتى لقد خشى أن لا يستطيع سماع خطوات الرجل المجهول الذى يسير على رءوس أصابعه . كان لا يعرف ما الذى يجرى ، ولكنه كان يحسّ كل شىء بقوة مضاعفة . كان فلتشانينوف شجاعا بطبيعته ، حتى لقد كان يمضى فى احتقار

الخطر الى حد التهور فى بعض الأحيان ، حتى حين لا يراه أحد ، وذلك للذته الخاصة وحدها . الا أن ثمة شيئا آخر الآن : ان الانسان الذى كان منذ لحظة سوداوى المزاج ، قلقا ، شاكيا ، باكيا ، قد تبدل فى هذه اللحظة تبدلا تاما . انه غير الانسان الذى كان منذ هنيهة . ان ضحكة عصبية صامتة تجلجل فى صدره . وكان يدرك ، من خلال الباب الموصد ، كل حركة من حركات القادم الغريب .

« ها .. ها هو ذا يصعد . انه وصل . انه ينحنى مصيخا بسمعه.. انه لا يكاد يتنفس . هو ذا يتسلل . ها .. لقد أمسك بقبضة الباب . هو ذا يشدها . انه يعالج الباب . كأنه يأمل أن لا يجده مغلقا . انه يعرف اذن أننى أنسى اغلاق الباب أحيانا . ها هو يشد قبضة الباب مرة أخرى . أيظن أن المزلاج سينكسر ؟ خسارة أن يرجع مخفقا أليس كذلك ؟ » .

نعم ، لا شك أن كل شيء جرى على نحو ما كان يتصور . ان أحدا قد وقف وراء الباب ، وعالج القفل ، برفق ، دون ضجة ، وشد القبضة . « بديهى أن له غاية يسعى اليها » . ولكن فلتشانينوف كان قد هيأ حل المسألة . انه ينتظر اللحظة المناسبة بنوع من الحماسة: كان يتهيأ ، ويجمع قواه : كانت به رغبة جامحة فى رفع المزلاج فجأة ، وفتح الباب على مصراعيه بغتة ، ومواجهة الرجل على حين غرة :

— « ماذا تعمل هنا أيها السيد العزيز ؟ » .

وذلك ما حدث فعلا : اختار فلتشانينوف اللحظة المناسبة ، فرفع المزلاج فجأة ، ودفع الباب ، فكاد يصدم الرجل صاحب القبعة ذات الشريط الأسود .

٣

باقل باقلوفتش تروسوتسكى

جمد الرجــل . ووقف كل منهما أمــام الآخــر ينظر فى عينيه . وانقضت على ذلك لحظــات ، فاذا فلتشانينوف يعرف زائره بغتة

وفى هــذه اللحظة نفسها أدرك الزائر أن فلتشانينوف عرفه ، لقد لمع هذا فى عينيه ، ثم اذا بوجهه كله يسترخى فى ابتسامة لطيفة متوددة . وقال بصوت عذب منغــم يتنافى تنافيا مضحكا مع ظروف اللحظة :

ــ أظن أننى أتشرف بمخاطبة الكسى ايفانوفتش ، أليس كذلك ؟

فأجابه فلتشانينوف ، مشدوها ، بعد فترة من صمت :

ــ أأنت باقل باقلوفتش تروسوتسكى ؟

ــ لقد تعارفنا منذ تسع سنوات فى ت .. واذا تفضلت فسمحت لى بأن أذكّرك ، قلت ان صلاتنا كانت صلات صداقة حميمة .

ـــ نعم .. هذا جائز .. ولكن .. الساعة الآن هى الثالثة من الصباح ، وقد ظللت عشر دقائق تحاول فتح بابى ..

فصاح الرجل وهو يخرج ساعته من جيبه ، وتلوح عليه علائم دهشة مؤلمة :

ـــ الساعة الآن الثالثة ؟ ها .. حقا انها الثالثة . عفوك يا الكسى ايفانوفتش . كان ينبغى أن أفكر فى هذا قبل أن أدخل . أنا آسف كل الأسف . سأجىء مرة أخرى لأبسط لك الأمر ، والآن ..

ـــ لا ، لا ، اذا كنت تريد أن تبسط أمرا ، فأنا أرجوك أن تفعل ذلك حالا .

هذا ما قاله له فلتشانينوف ، وقد أفاء الى نفسه ثم أضاف :

ـــ ادخل ، أرجوك . دع العتبة .. اليك الغرف . لا شك انك كنت تريد أن تدخل ، وما أظن أنك جئت هنا لتجرب الأقفال فحسب ..

كان مضطربا ، وكان فى الوقت نفسه متحيرا بعض التحير . كان يحسّ أنه لا يستطيع أن يجمع شتات أفكاره ، حتى لقد شعر من ذلك بالعار : ما من سر ، ولا من خطر . ولم يبق من جميع تلك التهاويل الا هذا الوجه الغبى ، وجه رجل اسمه بافل بافلوفتش . ومع ذلك لم يكن واثقا كل الوثوق أن الأمر بسيط هذه البساطة : كان يحسّ احساسا غامضا قلقا بشىء غريب .

وبعد أن أجلس ضيفه على أحد المقاعد ، جلس هو فوق سريره ، على مسافة متر من المقعد ، وانحنى الى الأمام ، ووضع راحتى يديه

على ركبتيه ، وانتظر على مثل حر الجمر أن يتحدث الرجل . كان يتفرس فيه ويجمع شتات ذكرياته . ولكن الشيء الغريب أن الرجل لبث صامتا كأنه لا يدرك أبدا أن عليه أن يتكلم « فورا » . حتى لقد كان ينظر الى صاحب البيت نظرة سائلة كأنه ينتظر شيئا . ربما كان سبب ذلك أنه خائف لا أكثر من ذلك ، فما يشعر بشيء من الارتياح فى أول لحظة ، مثله كمثل فأرة وقعت فى مصيدة . ولكن فلتشانينوف ثارت ثائرته ، فصاح قائلا :

ــ هيه .. أظن أنك لست حلما ولا شبحا . هل جئت تلعب هنا لعبة الموتى ؟ هيا ابسط أمرك يا عم !

فاضطرب الزائر ، وابتسم ، وابتدأ يقول فى كثير من الحكمة والحذر :

ــ ان الأمر الذى يدهشك خاصة هو أننى جئت فى مثل هذه الساعة ، و .. فى ظروف كهذه الظروف .. اننى اذ أتذكر ما قد جرى بيننا وكيف افترقنا ، أستغرب أن .. على أننى لم أكن أفكر فى الدخول ، واذا جرت الأمور هذا المجرى ، فقد حدث ذلك مصادفة ..

ــ مصادفة ؟ ولكننى رأيتك من النافذة تجتاز الشارع على رءوس الأصابع !

ــ ها .. رأيتنى ! اذن فى هذه الحالة ، قد تعرف من هذه الأمور أكثر مما أعرف .. ولكنى ألاحظ أننى أثير حنقك .. اليك الموضوع : اننى هنا منذ ثلاثة أسابيع لأمر يهمنى .. أنا بافل بافلوفتش تروسوتسكى. لقد عرفتنى . اننى أقوم بمساع لتغيير عملى ، والانتقال الى ادارة

أخرى ، الى وظيفة أعلى . على أن هذا ليس هو ما أريد أن أقوله .. المهم ، اذا شئت ، أننى أضيع وقتى هنا منذ ثلاثة أسابيع ، وأننى أؤخر بنفسى قضية تعيينى ، فيما يتراءى لى .. والحق أننى ، حتى ولو تم الأمر ، سأنسي ، فيما أظن ، أن الأمر تم ، ولن أستطيع أن أترك بطرسبرج وأنا فيما أنا فيه من حالة نفسية . اننى أذهب وأجىء هنا وهناك ، كأننى ضللت هدفى ، ويكاد يسعدنى أننى ضللت هدفى . ففى الحالة النفسية التى أنا فيها ..

فقاطعه فلتشانينوف يسأله وقد نفد صبره :

— أى حالة نفسية ؟

فرفع الرجل عينيه اليه ، وتناول قبعته ، وأشار الى الشريط الأسود ، بحركة وقورة هذه المرة .

— نعم هذه هى حالتى النفسية !

كان فلتشانينوف ينقل نظرته البلهاء بين الشريط الأسود ووجه ضيفه . ثم اصطبغ وجهه فجأة بحمرة شديدة ، واضطرب ، وقال :

— من ؟ ناتاليا فاسيليفنا ؟

— نعم . ناتاليا فاسيليفنا . فى شهر مارس (آذار) الماضى .. بالسل .. وبسرعة ... شهرين . ثلاثة أشهر . وهأنذا كما ترانى !.

قال الضيف ذلك مضطربا أشد الاضطراب ، وباعد ما بين ذراعيه اللتين تحمل يسراهما قبعته ذات الشريط الأسود ، وخفض رأسه الأصلع ، وظل على هذه الحال عشر ثوان فى أقل تقدير .

وكأن هذا المنظر وهذه الحركة أنعشتا فلتشانينوف فجأة ، فتسللت الى شفتيه ابتسامة ساخرة ، وربما متحـدية ، ولكن ذلك لم يدم الا لحظة : ان نبأ موت تلك المرأة (التى عرفها منذ مدة طويلة جدا ونسيها نسيانا تاما) قد هز نفسه الآن هزا مباغتا . ودمدم ينطق بأول كلام خطر بباله :

ـــ هل هذا ممكن ؟ ولكن لماذا لا تجىء الىّ ببساطة ، لتقص علىّ النبأ ؟

ـــ أشكر لك عاطفتك التى أراها وأحسها ، فرغم ..

ـــ رغم ماذا ؟

ـــ رغم أننا لم نلتق منذ عدد من السنين ، أظهرت لى من العاطفة الطيبة فى مشاركتنى مصابى ما أعجز عن شكره .. هذا كل ما كنت أريد أن أقوله . وليس معنى ذلك أننى أشك فى أصدقائى الآخرين ، اننى أستطيع أن أجد هنا أصدقاء مخلصين جدا (ستيفان ميخائيلوفتش باجاوتوف مثلا) ، غير أن علاقاتنا ، يا الكسى ايفانوفتش (وأستطيع أن أقول صداقتنا ، لأننى ما زلت أذكر هذه الصداقة شاكرا) قد انقطعت منذ تسع سنين . انك لم تعد الينا منذ ذلك الحين ، ولا نحن تبادلنا الرسائل ..

كان الزائر يتكلم كمن يلقى درسا حفظه ، ولكن بينما كانت كلماته تتدفق ، كان نظره مثبتا على الأرض ، رغم أنه يرى كل ما يجرى ، ما فى ذلك شك . وأثناء ذلك كان فلتشانينوف يفىء الى نفسه .

كان يصغى الى باقل بافلوفتش ويتفرس فيه ، وفى نفسه عاطفة

غريبة ما تنفك تشتد ، حتى اذا توقف صاحبه عن الكلام اجتاحت ذهنه ، فجأة ، أفكار مشتتة غير متوقعة .

وصاح يقول منتعشا :

ــ ولكن لماذا لم أعرف حتى الآن أنك أنت ؟ لقد التقينا خمس مرات وجها لوجه ، أنفا لأنف ..

ــ أتذكر ذلك . كنت توجد دائما فى طريقى ، مرتين ، وربما ثلاث مرات ..

ــ بل كنت أنت توجد دائما فى طريقى !

ونهض فلتشانينوف ، وانفجر فجأة يضحك ضحكة غير منتظرة . وظل باڤل بافلوفتش متحيرا مشوشا خلال لحظة ، ونظر الى صاحبه نظرة منتبهة ، ثم ما لبث أن استأنف يقول :

ــ أما أنك لم تعرفنى فذلك أمر طبيعى . انك قد نسيتنى . زد على ذلك هذا الجدر الخفيف الذى قرصنى بعد فراقنا ، وخلف فى وجهى بعض الآثار .

ــ جدر ؟ حقا ان فى وجهك آثار جدر ! ولكن كيف ؟

ــ كيف قرصنى ؟ ان هــذا يحــدث يا ألكسى ايفانوفتش ! لا يتوقعه المرء ، ثم يقرصه فجأة ..

ــ عجيب مع ذلك .. طيب ، أكمل كلامك ، أكمل كلامك أيها الصديق العزيز !

ــ رغم أننى صادفتك ..

ـــ قف ! لماذا قلت « قرصني ؟ » .. طيب ، أكمل ، أكمل ؟

وأخذ المرح يتسرب الى الزائر شيئا فشيئا ، لا يدرى الا الله لماذا ! ان الهياج الذى هز نفسه منذ لحظة قد حلت محله الآن عاطفة أخرى مختلفة عنه كل الاختلاف .

كان يقطع الغرفة طولا وعرضا بخطى سريعة .

ـــ رغم أننى صادفتك ، ورغم أننى كنت أعتقد أننى سألقاك حين أجىء الى بطرسبرج ، فاننى ، أعود فأقول لك ذلك ، أعانى حالة نفسية بلغت من .. نعم اننى بلغت من فرط التحطم النفسى ، منذ شهر مارس (آذار) أن ..

ـــ ها .. نعم . أنت محطم النفس منذ شهر مارس (آذار) . انتظر . ألا تدخن ؟

ـــ أثناء حياة ناتاليا فاسيليفنا ، أنت تعلم ..

ـــ نعم نعم ، أعلم ، ولكنك منذ شهر مارس (آذار) ..

ـــ ربما أدخن سيجارة صغيرة .

ـــ هذه سيجارة . أشعلها ، وأكمل كلامك . أكمل كلامك ، لقد أحدثت فى نفسى من ..

وأشعل فلتشانينوف سيجارا كبيرا ، ثم جلس فجأة على سريره . وتوقف باقل بافلوفتش .

ـــ ما أشد اضطرابك ؟ هل تشكو من شىء فى صحتك ؟

ـــ دع صحتى للشيطان .. أكمل كلامك .

ولـكن الضيف ، رغم اضطراب رب البيت ، كانت تزداد فى وجهه علائم الرضى وامارات الثقة بالنفس . قال :

ـــ وماذا أقول ؟ تخيل أولا يا ألـكسى ايفانوفتش ، رجلا مقتولا، مقتولا تماما ان صح التعبير . تخيل رجلا عاش مع زوجته عشرين عاما ، ثم تغيرت حياته تغيرا تاما ، فأصبح يتسكع فى الشوارع الغبراء ، كأنه يسير فى الصحراء ، ليس له من هدف واضح ، ولا يكاد يعى نفسه .. ثم يستمد من غياب الوعى هذا لذة .. من الطبيعى فى مثل هـــذه اللحظات ، اذا أنا التقيت مصادفة بشخص أعرفه أو بصـــديق ، أن أتحاشاه عامدا ، فما أقترب منه . ولـكن ، فى لحظات أخرى ، تبلغ قوة الذكريات ، ويبلغ الظمأ الى رؤية شاهد من شهود هذا الماضى القريب الذى ذهب ولن يعود ، وتبلغ شدة خفقان القلب لهذه الذكرى، أن المرء يركض فيرتمى على عنق صديقه ، سواء أكان ذلك فى الليل أم فى النهار ، ولو تعرض لايقاظه فى الساعة الثالثة من الصباح . لقد أخطأت فى تقدير الساعة فحسب ، ولـكنى لم أخطىء فى تقدير الصديق، لأننى كوفئت فى هذه اللحظة أحسن مكافأة . أما عن الساعة ، فقـــد كنت أظن حقا أنها منتصف الليل ، لأننى لم أشعر بحاجة الى النوم . ان المرء يشرب حـــزنه ، ويسكر به . وليس الحزن هو الذى يقضمنى الآن ، بل شىء آخر .

فقال له فلتشانينوف ، وقد اربد وجهه ، وظهرت عليه أقصى علائم الجـــد فجأة :

ـــ انك تعبر عن نفسك تعبيرا غريبا .

ـــ نعم ، أعبر عن نفسى تعبيرا غريبا .

ـــ ألست تمزح ؟

فصاح باڤل باڤلوفتش ، وقد استبدت به دهشة مؤلمة :

ـــ أمزح ؟ وفى اللحظة التى أخبر فيها ..

ـــ أسكت عن هذا ، أرجوك .

قال فلتشانينوف ذلك ، ونهض ، ثم أخذ يسير فى الغرفة .

وانقضت على هذا ثلاث دقائق . وقام الضيف بحركة لينهض أيضا، ولكن فلتشانينوف صرخ يقول له : « لا تقم ، لا تقم » .

ـــ ولكن ما أكثر ما تغيرت ! لقد تغيرت تغيرا رهيبا ! لكأنك انسان آخر .

هذا ما أضافه فلتشانينوف وهو يقف أمامه فجأة ، كأن هذه الفكرة قد شدهته على حين غرة .

ـــ لا غرابة فى هذا .. انقضت تسع سنين !

ـــ لا لا لا . لا شأن للسن بهذا . ليس مظهرك هو الذى تغير ، بل شىء آخر .

ـــ نعم ، هذا ممكن : تسع سنين !

ـــ أم منذ شهر مارس (آذار) ؟

فابتسم باڤل باڤلوفتش ابتسامة ماكرة ، وقال :

ـــ ها ها .. فكرة لطيفة . ولكن هل أجرؤ أن أسألك ما هو ذلك التغـير ؟

ـــ بصراحة .. كان باڤل بافلوفتش قبل ذلك رجــلا محترما ، لائقا ، بسيطا .. أما الآن فهو رجل تافه

لقد بلغ به الغضب والحنق تلك الدرجة التى تندّ فيها عن أحسن الناس كلمات زائدة .

ـــ تافه ؟ هذا رأيك ؟ ولم أعد « بسيطا » ؟ لم أعد « بسيطا » البتــة ؟

قال باڤل بافلوفتش ذلك ، وهو يطلق ضحكة رضى صغيرة .

ـــ لم تعد « عاقلا » البتة ! وربما كنت الآن مسرفا فى الذكاء .

وقال فلتشانينوف بينه وبين نفسه « انتى وقح ، وهذا الوغد أوقح منى . ولكن .. ما هى غايته ؟ » .

صاح الضيف وقد ثارت نفسه فجأة واضطرب فى مقعده :

ـــ أوه .. يا صديقى العزيز ، يا صديقى الحبيب الكسىايفانوفتش. ما لنا ولهذا ؟ لسنا الآن فى المجتمع الراقى ، لسنا فى المجتمع الراقى الأنيق ! انما نحن الآن صديقان قديمان ، اجتمعا على صدق واخلاص، وتذكرا تلك الرابطة الغالية جدا التى كانت المرحومة أجمل حلقة فيها .

وبلغت عواطفه من الغليان ، فيما بدا ، أنه خفض رأسه مرة أخرى كما فعل منذ قليل ، وأخفى وجهه فى قبعته . فكان فلتشانينوف يفحصه مشمئزا قلقا .

وقال لنفسه فجأة : « من يدرى ؟ قد لا يكون الا مهرجا .. ولكن لا لا ! لا أظن أنه سكران . قد يكون سكران مع ذلك : ان وجهه

أحمر . وهبه سكران .. لا فرق .. ماذا يدبر ؟ ماذا يبيت ؟ ماذا يريد هذا الوغد ؟ » .

صاح باڤل بافلوفتش وهو يزيح قبعته شيئا فشيئا ، ويبدو مسترسلا فى ذكرياته :

ــ هل تتذكر ؟ هل تتذكر ؟ هل تتذكر جولاتنا فى الحقول ، وسهراتنا ، واجتماعاتنا الراقصة ، وألعابنا الصغيرة فى منزل صاحب المعالى سيميون سيميونوفتش الجواد الكريم ؟ وهل تتذكر قراءاتنا نحن الثلاثة فى المساء ؟ ولقاءنا الأول حين جئتنى ذات صباح تسألنى معلومات تتصل بعمل من الأعمال ؟ لقد غضبتَ يومئذ فى أول الأمر ، ولكن ظهرت فجأة ناتاليا فاسيليفنا ، فما هى الا عشر دقائق حتى أصبحت الصديق الحميم للأسرة . ودام ذلك سنة بكاملها ، كما فى مسرحية تورجينيف « الريفية » * ؟

كان فلتشانينوف يتجول فى الغرفة ببطء مطرقا الى الأرض . كان يصغى الى ضيفه نافدَ الصبر ، مشمئزا ، ولكنه كان يصغى اليه باتنباه . فقاطعه يقول مرتبكا بعض الارتباك :

ــ لم تخطر « الريفية » ببالى يوما .. ولم تتحدث أنت يوما بصوت حاد كهذا ، وبهذه اللهجة التى ليست لهجتك . لماذا ذلك ؟

فاستأنف باڤل بافلوفتش يقول بحرارة :

ــ حقا .. كنت قبل الآن أصمت فى أكثر الأحيان .. أعنى أننى كنت أكثر صمتا . ذلك أننى كنت أفضل الاستماع حين كانت المرحومة تتكلم . ألا تتذكر كيف كانت تتكلم بذكاء ؟ أما عن « الريفية »

وعن ستوبنديف خاصة ، فأنت على حق أيضا .. اننا لم تقارن ، أنا والمرحومة الغالية ، بين لقائنا الأول وبين مسرحية تورجينيف ، الا فيما بعد ، أعنى بعد سفرك ، حين كنا تتذكرك .. وكانت المقارنة تتناول ستوبنديف ..

ـــ أى ستوبنديف ، سحقا لك !

هكذا صاح فلتشانينوف وهو يضرب الأرض برجله ، ويضطرب اضطرابا شديدا من هذا الاسم الذى يوقظ فيه ذكرى بعيدة .

فأجابه باڤل بافلوفتش ، بصوت عذب منغم :

ـــ ستوبنديف ؟ هو احدى شخصيات الملهاة . هو « الزوج » فى مسرحية « الريفية » . الا أن هذا يتصل بسلسلة أخرى من ذكرياتنا الجميلة الغالية ، تمت بعد سفرك ، حين شرفنا ستيفان ميخائيلوفتش باجاوتوف بصداقته ، مثلك تماما ، ولكن خلال خمس سنوات بكاملها.

فتسمر فلتشانينوف فى مكانه ، سائلا :

ـــ ماذا ؟ باجاوتوف ؟ أى باجاوتوف ؟

ـــ باجاوتوف ، ستيفان ميخائيلوفتش ، الذى شرفنا بصداقته ، بعد سفرك بسنة تماما ، ومثلك تماما ..

فهتف فلتشانينوف يقول وقد فهم الأمر :

ـــ ها .. نعم . باجاوتوف .. لقد كان موظفا فى مدينتنا ..

فصاح باڤل بافلوفتش بحماسة شديدة يقول :

ـــ نعم نعـــم ، كان ملحقا بالحاكم . شـــاب من المجتمع الراقى ببطرسبرج ، لم أر لأناقته مثيلا .

ـــ نعم ، نعم . فيم كنت أفكر ؟ نعم .. هو أيضا اذن ؟ ..

فأجاب باڤل باڤلوفتش بتلك الحماسة نفسها ، ملتقطا تلك الكلمة الطائشة التى ندت عن محدثه :

ـــ هو أيضا ، هو أيضا . وعندئذ انما مثلنا « الريفية » على مسرح هواة ، فى منزل صاحب المعالى سيميون سيميونوفتش ، الجواد الكريم . لقد مثل ستيفان ميخائيلوفتش دور الكونت ، ومثلت أنا دور الزوج ، ومثلت المرحومة دور « الريفية » ، ولكنهم سحبوا منى دور الزوج ، بالحاح من المرحومة . فلم أمثل اذن دور «الزوج». كانوا يقولون اننى لا أحسن تمثيل هذا الدور ..

ـــ ولكن أى شيطان يدعى أنك ستوبنديف ؟ انك باڤل باڤلوفتش تروسوتسكى ، ولست أبدا ستوبنديف ..

هكذا صرخ ڤلتشانينوف بفظاظة دون تحرج . انه يكاد يرتعش حنقا وغيظا . ثم أضاف يقول :

ـــ ثم اسمح لى .. ان باجاوتوف هذا هو الآن هنا ، ببطرسبرج ، رأيته بنفسى فى الربيع . فلماذا لا تذهب اليه أيضا ؟

ـــ اننى أذهب اليه كل يوم ، منذ ثلاثة أسابيع . ولكنهم يرفضون أن أدخل عليه . انه مريض ، لا يستطيع أن يستقبلنى . وتصور أننى علمت من مصدر موثوق أنه كان حقا مريضا مرضا خطيرا . صديق قديم . آه يا ألكسى ايفانوفتش ، لقد قلت لك وأكرر قولى اننى ، فى الحالة التى أنا فيها ، أشتهى أحيانا أن أغيب حقا تحت الأرض . وفى لحظات أخرى أحس أننى مستعد لأن أرتمى بين ذراعى واحد

من أولئك الذين شهدوا حياتى الماضية ، واحد من أولئك الذين شاركوا فى حياتى الذاهبة ، لا لشىء الا لنبكى معا .. نعم لا لشىء الا لأبكى .. أقول ذلك صادقا ..

قال فلتشانينوف بخشونة :

ـــ هيَّا .. يكفيك اليوم هذا ..

ـــ يكفى ويزيد ، يكفى ويزيد . ان الساعة الآن هى الرابعة ، وقد أزعجتك ازعاجا فيه كثير من الأنانية ..

قال باقل بافلوفتش ذلك ، ونهض فجأة :

ـــ اسمع . سأجىء اليك حتما . وآمل عندئذ .. قل لى بصراحة : ألست اليوم سكران ؟

ـــ سكران ؟ أبدا .

ـــ ألم تشرب قبل أن تجىء الى هنا ، أو قبل ذلك أيضا ؟

ـــ ان حرارتك مرتفعة حقا يا ألكسى ايفانوفتش .

ـــ سأجىء اليك غدا قبل الساعة الواحدة .

ـــ اننى ألاحظ منذ برهة أنك تبدو فى حالة هذيان تقريبا .

قال باقل بافلوفتش ذلك ملحا على هذا الموضوع ، وهو يشعر بنوع من الرضى . ثم أردف :

ـــ يؤسفنى حقا أن خرافتى .. أنا ذاهب ، أنا ذاهب . أما أنت فاستلق على فراشك وحاول أن تنام .

صاح به فلتشانينوف يقول وقد ثاب الى نفسه :

ـــ ولكنك لم تقل لى أين تسكن .

ـــ ألم أقل لك ذلك ؟ اننى أسكن فى فندق پوكروفسكى ؟

ـــ ما هذا الفندق أيضا ؟

ـــ قريب جدا من كنيسة بوكروف . فى شارع صغير ، نسيت اسم الشارع ، ونسيت الرقم . ولكن الفندق الى جانب الكنيسة ..

ـــ سأهتدى اليه .

ـــ أهلا وسهلا بالضيف العزيز .

قال باڤل بافلوفتش ذلك ، وكان قد أصبح على السلم . فصاح به فلتشانينوف مرة أخرى قائلا :

ـــ قف . ألن ترحل عن هذا الفندق ؟

كان بافل بافلوفتش قد هبط ثلاث درجات على السلم ، فالتفت محملقا ، على ابتسامة فى شفتيه ، وقال :

ـــ كيف « أرحل » ؟

فكان كل جواب فلتشانينوف على ذلك أن صفق الباب بقوة ، ثم أدار المفتاح برفق ، ودفع المزلاج . فلما عاد الى غرفته بصق مشمئزا كمن اتسخ .

وظل واقفا ، ساكنا ، فى وسط الغرفة ، خلال خمس دقائق ، ثم ارتمى على سريره دون أن يخلع ملابسه ، فما لبث أن نام . والشمعة التى نسى أن يطفئها ذابت على المنضدة حتى آخرها .

٤

الزوج والزوجة والعشيق

نام نوما عميقا ، واستيقظ فى الساعة التاسعة والنصف تماما ، فنهض فورا ، وجلس على سريره ، وأخذ يفكر فى موت « تلك المرأة» . ان «الهزة» التى شعر بها أمس حين علم بموت تلك المرأة قد تركت فيه نوعا من الاضطراب وشيئا من الألم ، خنقتهما ، الى حين ، فكرة" خاصة نشأت عن رؤية باقل بافلوفتش . أما اليوم ، حين استيقظ ، فان كل ما حدث قبل تسع سنين يطوف الآن فى ذهنه واضحا الى أقصى حدود الوضوح .

ان هذه المرأة ، المرحومة ناتاليا فاسيليفنا ، زوجة « تروسوتسكى هذا » ، قد أحبها فلتشانينوف ، وكان عشيقها ، أثناء اقامته فى ت .. سنة كاملة ، لعمل من الأعمال (كان هذا العمل دعوى خلاف على ارث أيضا) . وكان ذلك العمل لا يقتضى اقامة طويلة كل ذلك الطول ، فى واقع الأمر ، وانما كانت تلك العلاقة هى السبب الحقيقى لهذه

الاقامة الطويلة . وقد استبدت تلك العلاقة واستبد ذلك الحب بنفسه استبدادا قويا ، حتى أصبح عبدا لناتاليا فاسيليفنا ان صح التعبير . كان يمكن أن لا يتردد لحظة واحدة عن القيام بأشد الأعمال شذوذا وجنونا ، اذا شاءت له ذلك نزوة من نزوات تلك المرأة . ولم يقع شيء يشبه هذا ، لا قبل ذلك ولا بعده . وفى نهاية السنة ، حين أصبح الفراق أمرا لا بد منه ولا محيص عنه ، بلغ الحزن واليأس بفلتشانينوف أنه اقترح على ناتاليا فاسيليفنا ، عند اقتراب الموعد المتشوم ، رغم أن هذا الفراق فراق الى حين لن يطول ، اقترح عليها أن تهرب معه ، أن تترك زوجها ، أن تهجر كل شيء ، وأن يسافرا الى الخارج الى الأبد . ولم يصده عن هذا المشروع ، ولا أكرهه على السفر وحده الا سخريات هذه السيدة وصلابتها (يجب أن نذكر أنها كانت فى أول الأمر تحبذ الفكرة تحبيذا كاملا ، ربما على سبيل المزاح ، أو على سبيل التسلية). ولكن ما انقضى على ذلك الفراق شهران ، حتى كان يطرح على نفسه ببطرسبرج هذا السؤال : أحقا أحب تلك المرأة أم أن ذلك لم يكن الا نوعا من « السحر » ؟ ولم يطرح فلتشانينوف على نفسه ذلك السؤال عن خفة وطيش ، ولا بتأثير هوى جديد اشتعلت ناره فى نفسه : لقد كان خلال هذين الشهرين فى بطرسبرج ، خارجا عن طوره حقا ، ولعله كان لا يولى النساء أى التفات ، رغم أنه جدد علاقاته القديمة فورا وأتيح له أن يرى مئات النساء . ثم انه كان يعلم كل العلم ، رغم جميع الشكوك التى قامت فى نفسه ، أنه لو عاد الى ت .. لاستعبدته ، مرة أخرى ، فتنة تلك المرأة التى تستبد بالنفس . حتى لقد ظل مقتنعا بذلك بعد خمس سنين . غير أنه كان

عندئذ لا يعترف لنفسه بهذا الا ويغضب ، وكان لا يستطيع أن يتذكر « تلك المرأة » الا ويشعر نحوها بالكره والبغض . كان يخجل من هـــذه السنة التى قضاها فى ت .. ولا يستطيع أن يتصـــور كيف أمكن أن يستعبد فلتشانينوف هوى « غبى » كهذا الهوى . كان يعدّ جميع الذكريات التى تتصل بهـــذا الهوى مخلة بالكرامة موجبة للخجل ، فكان اذا تذكرها يحمر وجهه احمرارا شـــديدا ، حتى ليكاد يبكى ، وكان يغرق نفســه بألوان من اللوم الموجع والتقريع المؤلم . ولكنه شعر بعد بضع سنين بشىء من الهدوء ، فلقد حاول أن ينسى كل شىء ، وظفر بذلك تقريبا . وها هو كل شىء ينبعث الآن فجأة ، بعد تسع سنين ، انبعاثا غريبا ، حين علم بموت ناتاليا ڤاسيليفنا .

جلس على سريره ، وغزته أفكار مشوشة كانت تتسارع فى ذهنه مزدحمة ، فكان لا يحس احساسا واضـــحا ولا يفهم فهما واضحا الا شيئا واحدا ، هو أن موت هذه المرأة ، رغم ما أحدثه فيه النبأ من « اضطراب » ، لم يؤثر فيه ، ولا أحزنه فكان يتساءل : « أأنا لا أشعر اذن حتى بشىء من الأسف لموتها » . الحق أنه أصبح يستطيع الآن ، بعد أن مضى كرهه لها وحقده عليها ، أن يقضى فى أمرها برأى أقرب الى الحياد والانصاف . كان رأيه الذى قام فى ذهنه منذ مدة طويلة خلال هذه السنين التسع من الفراق ، هو أن ناتاليا ڤاسيليفنا واحدة من سيدات الريف العاديات جدا ، واحدة من سيدات المجتمع « الراقى » فى الريف : « من يدرى ، قد تكون كذلك حقا ، وقد أكون أنا الشخص الوحيد الذى صنع

لنفسه عنها أفكارا خيالية » . وكان يقدر دائما مع ذلك أن رأيه هذا قد يشتمل على بعض الخطأ . وهو يحس ذلك الآن . ثم ان الوقائع جاءت تكذب ذلك الرأى : لقد قامت بينها وبين باجاوتوف هذا علاقة أخرى دامت بضع سنين . لقد « فتن » باجاوتوف هذا أيضا بها . وباجاوتوف ينتمى فى الواقع الى أعلى طبقة بطرسبرجية . ولما كان « شخصا تافها تماما » (هكذا كان يقول عنه فلتشانينوف) فانه كان لا يستطيع أن يعيش حياة ناجحة الا فى بطرسبرج ، ومع ذلك ازدرى بطرسبرج هذه التى تعده بكثير من المزايا والمنافع ، وعاش فى ت .. خمس سنين من حياته ، فى سبيل هذه المرأة وحدها .. ولعله لم يعد الى بطرسبرج ، الا بعد أن رُمى ، كما « يرمى حذاء أصبح من البلى بحيث لا يصلح أن ينتعل » . فلابد اذن أن يكون فى هذه المرأة شىء خارق ، هو القدرة على الاجتذاب والاخضاع والسيطرة .

ومع ذلك كان يلوح أنها لا تملك ما به تجذب وتستعبد : انها لم تكن على حظ كبير من الجمال ، ولعلها لم تكن على أى حظ من الجمال . كانت فى الثانية والعشرين من عمرها حين رآها فلتشانينوف . كان فى وجهها حين ينتعش ويتحرك نوع من الفتنة . على أنه لا يمتاز بحسن كثير . الا أن عينيها كانتا منفرتين : كان فى نظرتها قسوة مفرطة . وكانت نحيلة جدا . وكان نموها العقلى ضعيفا . كان لها فكر نافذ ولا شك ، ولكنه فكر متعصب ضيق فىأكثر الأحيان . وكان سلوكها سلوك امرأة ريفية راقية ، ولكنها تمتاز ، الى ذلك ، بكثير من الرهافة ، واللباقة ، والحق يقال .

وكان لها ذوق لطيف . ولكن هذا الذوق اللطيف لا يظهر الا فى ملابسها ، فلقد كانت تعرف كيف تلبس .. وكان طبعها يتصف بالجزم والسيطرة : انك لا تستطيع أن تتفاهم معها فى أى أمر من الأمور نصف تفاهم : « اما كل شيء ، واما لا شيء » . وكانت كريمة كرما كبيرا . ولكنها كانت الى ذلك ظالمة ظلما شديدا : يستحيل عليك أن تتناقش مع هذه السيدة : ان ٢ × ٢ لا معنى لها عندها . لم يتفق لها يوما أن عدت نفسها على خطأ ، حتى لكأنها معصومة من الزلل . كانت خياناتها المستمرة الكثيرة لزوجها لا تثقل على ضميرها . كان فلتشانينوف يشبهها هو نفسه بتلك « العذراوات » ، عذراوات « الخلستسيس » * اللواتى يعتقدن مخلصات أنهن « أمهات الرب » . كانت وفية لعشاقها ، الى أن تشبع منهم . وكان يلذ لها أن تعذبهم ، ثم سرعان ما تكافئهم . ان طبيعتها جامحة قاسية شهوانية . كانت تكره الفجور ، وتستنكره استنكارا شديدا ، ولكنها كانت فاجرة . وما من شيء كان يمكن أن يحملها على التسليم بأنها فاجرة . « من المحقق أنها تجهل ذلك ، صادقة كل الصدق » . هذا ما كان يقوله فلتشانينوف لنفسه حين كان لا يزال فى ت .. (ويجب أن نذكر ، عابرين ، أنه كان يقول ذلك لنفسه حين يشارك فى فجورها) . وكان يقول لنفسه أيضا « هذه امرأة من أولئك النساء اللواتى كأنما خلقن ليخن أزواجهن . ان أولئك النساء لا تزل بهن القدم ما دمن بنات لم يتزوجن بعد . ان طبيعتهن تقضى بأن لا يقع لهن هذا الا حين يتزوجن . ان زوج احداهن هو أول من يعاشرها ، ولكن بعد الزواج ، لا قبله . وما من فتاة

تتزوج مثلما يتزوجن ببراعة وسـهولة . والزوج هو المسئول عن العشيق الأول . ويجرى كل شيء بصدق واخلاص ، فهن لا يرين انهن تنكبن طريق الواجب ، أو أن ما يعملنه ليس من حقهن .. وهن يعددن أنفسهن بريئات كل البراءة ، بطبيعة الحال .. » ..

كان فلتشانينوف مقتنعا بوجود هذا النموذج من النساء حقا ، ولكنه كان موقنا أيضا بوجود نموذج من الأزواج يقابل هذا النوع من النساء ، نموذج من الأزواج ليس لوجوده من مبرر غير الانطباق على هذا النموذج من النساء . وكان من رأيه أن الصفة الأساسية فى هؤلاء الرجال هى أن أحدهم « زوج أبدى » ان صح التعبير ، أو قل انه ليس فى الحياة الا زوجا . « ان رجلا من هذا النموذج لا يولد ولا ينمو الا ليتزوج وليصبح تتمة لزوجته ، ولو كان يملك طبعا خاصا لا مشاحة فيه . ان العلامة التى تميز زوجا مثله هى زينة" ما فى رأسـه . فيستحيل عليه أن لا يكون له قرنان ، كما يستحيل على الشمس أن لا تضيء . وهو لا يجهـل ذلك دائما فحسب ، بل لابد أن يجهله ، بحكم قوانين طبيعته » . كان فلتشانينوف يؤمن ايمـانا جازما بوجـود هذين النموذجين ، وبأن بافل بافلوفتش تروسوتسكى كان فى ت .. يمثل أحدهما . غير أن بافل بافلوفتش الذى جاءه أمس ، يختلف اختلافا واضحا عن بافل الذى عرفه فى ت .. لقد رأى فلتشانينوف أن الرجل تبدل تبدلا هائلا ، ولكنه يعرف أن هذا التبدل أمر كان لابد أن يقع ، وأنه طبيعى تماما : ان السيد تروسوتسكى لا يمكن أن يكون الآن ما كان أثناء حياة

زوجته . انه لا يمثل الآن الا جزءا من كل ، جزءا ترك فى العالم شيئا غريبا لا يشبهه شيء .

أما باقل بافلوفتش الذى كان فى ت .. فاليكم الصورة التى احتفظ بها فلتشانينوف عنه ، وأخذ يتذكرها الآن :

فى ت .. لم يكن باقل بافلوفتش الا زوجا ، ولا شيء غير ذلك ولئن كان عدا هذا موظفا ، مثلا ، فما ذلك الا لأن أعماله جزء من واجباته زوجا . لقد دخل الوظيفة لأنه نظر بعين الاعتبار الى مركز زوجته فى مجتمع ت .. رغم أنه كان ، بحد ذاته ، موظفا نشيطا شديد الحماسة لعمله . كان عمره حينذاك خمسة وثلاثين عاما ، وكان يملك بعض الثراء ، بل كانت ثروته ضخمة بعض الشيء . لم تكن له كفاءات بارزة ، ولكنه لم يكن عاجزا عجزا بارزا كذلك . وكانت له صلات بالمجتمع الراقى ، وكان يعيش حياة عريضة . وكان الناس فى ت .. يقدرون ناتاليا فاسيليفنا كثيرا ، ولكنها كانت لا تحفل بهذا كبير احتفال ، وتعد اعتبار الناس لها حقا من حقوقها . كانت تحسن الاستقبال ، وقد روضت باقل بافلوفتش حتى أكسبته كثيرا من اللباقة ، فصار يجيد استقبال أضخم قبعات ت .. اذا اقتضى الأمر ذلك . ولعله كان ذكيا أيضا (هكذا كان يقول فلتشانينوف لنفسه) ، ولكن ناتاليا فاسيليفنا كانت لا تحرص على أن يتكلم زوجها كثيرا ، فكان الناس لا يلاحظون ذكاءه . ولعله كان ينعم بعدد من المزايا الطبيعية ، كما كان يتصف ببعض العيوب ، أما المزايا فكانت مغطاة بدثار ان صح التعبير ، وأما الغرائز السيئة فقد خنقت خنقا كاملا على وجه التقريب . يتذكر فلتشانينوف ، مثلا أن

السيد تروسوتسكى كان يحاول فى بعض الأحيان أن يهزأ بجاره ، ولكن ذلك كان محظرا عليه بقسوة . وكان يحب فى بعض الأحيان أن يروى قصصا ، ولكن ذلك كان مراقبا أيضا : كان لا يُسمح له بأن يقص الا حكايات ليس لها دلالة . وكان يحب أن يجتمع ببعض الرفاق خارج البيت ، بل كان يميل الى الشرب مع هؤلاء الرفاق ، ولكن هذه الميول قد اجتثت من جذورها . ومع ذلك ، اذا نظر المرء الى المظاهر وحدها ، لم يدر فى خلده أن الرجل تحت حذاء زوجته . كانت ناتاليا فاسيليفنا تبدو زوجة مطيعة ، ولعلها كانت تعتقد هى بذلك اعتقادا صادقا . ولعل باقل بافلوفتش كان يحب زوجته حبا يبلغ حد الجنون ، ولكن لم يكن فى وسع أحد أن يلاحظ ذلك : كان يستحيل أن يعرف أحد شيئا عن هذا ، ربما بفضل الاجراءات التى تتخذها ناتاليا فاسيليفنا بهذا الصدد . لقد تساءل فلتشانينوف مرات كثيرة ، أثناء اقامته فى ت .. هل يشتبه الزوج بعض الاشتباه فى علاقاته بزوجته . حتى لقد طرح هذا السؤال غير مرة على ناتاليا فاسيليفنا بكثير من الجد ، فكانت تضيق ذرعا بالسؤال وتجيبه بأن زوجها لا يعرف شيئا ولا يمكن أن يعرف شيئا ، وأن هذا كله « لا يعنيه أبدا على أية حال من الأحوال » . وثمة شىء آخر طريف ، هو أنها كانت لا تسخر أبدا من باقل بافلوفتش ، ولا تجد فيه أى شىء يثير الضحك أو يبعث على النفور ، ولو تجرأ أحد فنال منه أو لم يتأدب معه لدافعت عنه دفاعا حارا . ولم يكن لها أولاد ، لذلك أصبحت سيدة من سيدات « الصالونات » فحسب . ولكنها كانت تحرص على حياتها المنزلية

أيضا . ان ملذات الصالونات لم تكن تستغرقها كل الاستغراق ، وكانت تحب أن تعنى بمنزلها وبأعمال السيدات . لقد ذكر بافل بافلوفتش أمس قراءاتهم العائلية عند المساء فى ت .. وهذا صحيح : لقد كان فلتشانينوف هو الذى يتولى القراءة فى بعض الأحيان ، وكان بافل بافلوفتش يتولاها فى أحيان أخرى : كان بافل بافلوفتش يقرأ فيجيد القراءة ، وكان فلتشانينوف يعجب من ذلك أشد العجب . أما ناتاليا فاسيليفنا فكانت تتابع القراءة بهدوء وانتباه مع استمرارها على التطريز فى أكثر الأحوال . كانوا يقرأون روايات لديكنز ، ومجلات روسية ، وكانوا يقرأون فى بعض الأحيان أشياء « جدية » . وكانت ناتاليا فاسيليفنا تقدر ثقافة فلتشانينوف كثيرا ، ولكنها لا تتحدث فى ذلك . كان ذلك أمرا مقررا ، مسلما به ، لا داعى الى الكلام فيه . كانت ناتاليا فاسيليفنا قليلة الاحتفال بكل ما هو علم وكتب ، كأن هذه الأمور لا تعنيها ، رغم ما قد يكون لها من فائدة . أما بافل بافلوفتش فقد كان يحبها حب هوى فى بعض الأحيان .

وقد انتهت هذه العلاقة فجأة ، حين بلغ حب فلتشانينوف أقصى درجاته ، حتى كاد يصير الى جنون . طُرد بغتة ، ببسالة ، رغم أن كل شىء قد رتب ترتيبا من شأنه أن يجعله يسافر دون أن يعرف انه « رُمى كما يرمى حذاء أصبح من البلى بحيث لا يصلح أن يستعمل » . لقد ظهر فى ت .. قبل سفره بشهر ونصف شهر ضابط من ضباط المدفعية أنهى دراساته فى مدرسة الفتيان منذ برهة وجيزة . وأخذ هذا الضابط يتردد الى بيت تروسوتسكى ، فأصبح

العدد الآن أربعة لا ثلاثة . وكانت ناتاليا فاسيليفنا تستقبل الفتى بترحيب وحفـاوة ، ولكنها كانت تعامله كما يعامل الأطفـال ، فلم يشك فلتشانينوف فى شيء . ثم ان ثمة شيئا آخر كان يشغل باله ، ذلك أنه أُبلغ فجأة أن الفراق أصبح أمرا لابد منه . وقد أوردت ناتاليا فاسيليفنا مئات من الحجج للتدليل على أن سفر فلتشانينوف يجب أن يتم بسرعة ، وكانت احدى تلك الحجج أنها حبلى : كانت تعتقد أنها حبلى ، فلابد اذن أن يغيب فورا ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر على الأقل ، وذلك حتى لا يراود الزوجَ بعد تسعة أشـهر أيُّ شك اذا حاول أحـد أن يشي بها . وكانت الحجـة ضعيفة . وقد اقترح فلتشانينوف عليها أن تهـرب معه الى باريز أو الى أمريكا ، بتأثير ما كان يتأجج فى نفسه من حب عنيف . ولكنه سافر بعد ذلك وحده الى بطرسبرج ، شريطة أن لا يغيب الا « مـدة قصيرة جـدا » أى ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر فى أكثر تقـدير ، والا لما سافر قط ، رغم جميع الحجج والأدلة التى يمكن ابداؤها . وبعد شهرين تماما تلقى فى بطرسبرج رسالة من ناتاليا فاسيليفنا ترجوه فيها أن لا يعود أبدا الى ت .. لأنها تحب الآن شخصا آخر. أما عن حملها ، فقد قالت فى الرسالة انها كانت على خطأ . ولم يكن فلتشانينوف فى حاجة الى هذا الشرح . ان كل شيء غدا واضحا : لقد تذكر الضابط الصـغير . انتهى الأمـر الى الأبد . وقد علم فلتشانينوف بعـد بضع سـنين أن باجاوتوف الذى كان فى ت .. قد مكث فيها خمس سنين . وعلل طول مدة هذه العلاقة بأن ناتاليا فاسيليفنا كانت بسبب تقدمها فى السن تزداد تعلقا بعشيقها حتما .

ظل فلتشانينوف جالسا على سريره قرابة ساعة . فلما ثاب الى نفسه ، قرع الجرس لماقرا ، فجاءته بقهوته ، فاحتساها بسرعة ، وارتدى ملابسه وخرج فى الساعة الحادية عشرة تماما ، ليمضى باحثا عن فندق بوكروفسكى . لقد راودته فى هذا الصباح فكرة جديدة حول هذا الموضوع . ثم انه كان خجلا بعض الخجل من طريقته فى استقبال بافل بافلوفتش ، الليلة البارحة . فيجب اخراج هذا كله الى النور .

كان يقول لنفسه الآن ان قصة القفل كلها ، هذه القصة العجيبة، لم تكن الا بنت الصدفة ، لم تكن الا ثمرة سكر بافل بافلوفتش ، وثمرة شيء آخر أيضا . ولكنه على وجه الاجمال لا يتصور تصورا واضحا الغاية التى يهدف اليها من مضيّه الى تجديد علاقاته بالزوج السابق ، رغم أن كل ما بينهما قد انتهى نهاية طبيعية جدا . كان ثمة شيء يجره الى ذلك جرا . لقد شعر شعورا خاصا ، وكان هذا الشعور بعينه علة ذلك الاندفاع .

٥

ليـــزا

يخطر ببال بافل بافلوفتش أن « يرحــل » عن الفندق . ولا يعلم الا الله لماذا طــرح عليه فلتشانينوف هذا السؤال أمس . حقا لقد كان مضطرب الفكر . وفى دكان صغير ، قرب ميدان بوكروف ، دلوه على فندق بوكروفسكى الذى يقع على بعد بضع خطــوات ، فى شــارع صغير . وقيل له فى الفنــدق ان الســيد تروسوتسكى ينزل فى غرفة مؤثثة عندامرأة يقال لها ماريا سيسويفنا، بملحق يقع فى آخر الفناء . فبينما هو يصعد الى الدور الثــانى الذى فيه الغرف المؤثثة ، على سلم حجرى ، ضيق ، قذر ، تغطيه الأوساخ ، ســمع فجأة صوت بكاء . انه بكاء طفلة فى السابعة أو الثامنة من عمرها . وكان البكاء أليما . كان نشيجا مخنــوقا ، ينفجر فجأة ، ويختلط به صراخ حانق ، حاد ، أجش ، ينطلق من رجل ، كما تختلط به دبدبات أقدام على الأرض . يلوح للمرء أن

الرجل يحاول أن يسكت الطفلة ، ولا يريد أن يسمع أحد" بكاءها ، ولكنه يحدث من الصخب أكثر مما تحدث ، مع محاولته ضبط نفسه . كانت الصرخات وحشية ، وكان يبدو أن الطفلة تتوسل الى الرجل أن يصفح عنها . فلما دخل فلتشانينوف فى رواق ضيق على جانبيه بابان مفتوحان ، صادف امرأة طويلة بدينة مكشوفة الصدر ، فسألها عن بافل بافلوفتش ، فأشارت باصبعها الى الباب الذى كان يسمع من ورائه البكاء . ان هذه المرأة تبلغ الأربعين من العمر ، كان وجهها الكثيف المحمر يعبر عن شيء من الاستياء والاستنكار . قالت بصوت خفيض وهى تهبط السلم

— أنظروا كيف يتسلى !

همّ فلتشانينوف أن يطرق الباب ، ولكنه عدل عن ذلك ، وفتحه على حين فجأة . فرأى بافل بافلوفتش واقفا فى وسط غرفة صغيرة ، مزدحمة بأثاث ملون بألوان فظة غليظة . لم يكن بافل بافلوفتش مرتديا ملابسه كاملة : كان بلا صدرة وبلا سترة . وكان وجهه أحمر يشيع فيه الغضب والحنق . كان يصرخ ويحرك يديه ، حتى لكأنه يشد قبضتيه ليضرب بهما ، (هذا ما بدا لفلتشانينوف) محاولا أن يسكت طفلة صغيرة فى نحو الثامنة من العمر . وكانت الطفلة ترتدى ثوبا فقيرا ، ولكنه ثوب آنسة مع ذلك ، ثوب قصير من الصوف الأسود . كان يبدو أنها فى نوبة عصبية ، كانت تمد يديها نحو بافل بافلوفتش ناشجة منتحبة ، كأنها تريد أن تشده اليها ، وأن تعانقه متضرعة . وما هى الا طرفة عين حتى تبدل هذا كله : فما ان رأت البنية شخصا غريبا حتى

صرخت ، ومرقت كالسهم الى غريفة مجاورة . أما بافل بافلوفتش فقد ذهل عن نفسه لحظة ، ثم ما لبث أن انبسط وجهه بابتسامة عذبة كأمس تماما ، حين فتح فلتشانينوف باب السلم فجأة عليه .

صاح دهشا :

ــ ألكسى ايفانوفتش . حقا لم أكن أتوقع أن تجىء الآن .. اجلس هنا . هنا على هذا « الديوان » أو على ذلك المقعد ، وأنا ..

قال ذلك وأسرع يرتدى سترته ، ناسيا أن يلبس الصدرة ..

ــ لا داعى الى الرسميات ! ابق كما أنت !

قال فلتشانينوف ذلك وجلس على كرسى .

ــ لا ، لا . اسمح لى ببعض الرسميات . هأنذا الآن على ما يقتضى الأدب . ولكن لماذا جلست بعيدا فى ذلك الركن ؟ اجلس على هذا المقعد قرب المائدة .. نعم .. حقا لم أكن أنتظر أن تجىء ..

ــ لماذا لم تكن تتوقع أن أجىء ؟ لقد قلت لك أمس اننى سأجىء اليوم ، فى هذه الساعة بعينها .

ــ قدرت أنك لن تجىء ، وحين أدركت عند يقظتى فى هذا الصباح كل ما جرى أمس ، فقدت كل أمل فى رؤيتك بعد ذلك أبدا ..

كان فلتشانينوف يلاحظ الغرفة أثناء ذلك . كانت الغرفة فى فوضى شاملة ، فالسرير لم يرتب ، وفى كل مكان ملابس ألقيت على غير هدى . والمائدة حافلة بكؤوس وثفالات قهوة ، وفتات خبز ،

وزجاجة شمبانيا مفتوحة ، فارغ نصفها ، والى جانبها قدح . وألقى فلتشانينوف نظرة على الغريفة المجاورة ، ولكن كل شيء كان فيها ساكنا ، فقد صمتت الطفلة .

— هل كنت تشرب ؟

قال فلتشانينوف ذلك وهو يشير الى زجاجة الشمبانيا فاضطرب بافل بافلوفتش ، وقال :

— هذه بقايا ..

— ما أكثر ما تغيرت !

— عادات سيئة .. اعتدتها فجأة . منذ ذلك . لا أكذب . يستحيل عليّ أن أمنع نفسى . لا تخف يا ألكسى ايفانوفتش . لا ، لست الآن سكران ، ولن أقول كلاما سخيفا كالذى قلته أمس فى بيتك . ولكننى أقول لك الحقيقة يا ألكسى ايفانوفتش : لقد بدأت هذه العادة منذ ذلك . ولو قد قال لى أحد ، قبل ستة أشهر فحسب ، أننى سأتزعزع هذا التزعزع كله ، لو أرانى أحد وجهى فى المرآة ، لما صدقته !..

— اذن كنت أمس سكران .

قال بافل بافلوفتش يعترف بصوت منخفض ، وهو يغض طرفه خجلا :

— نعم ! ولكننى لم أكن سكران تماما ، لأننى شربت قبل أن أجيء اليك ببضع ساعات . أقول لك ذلك ، لأن الحالة عندى تزداد سوءا بعد السكر : فمتى ذهب السكر أصبحت شريرا

قاسيا ، وصرت كالمجنون . وعندئذ يتفاقم حــزنى . ولعل هــذا الحــزن هو الذى يحملنى على الشرب . اننى أصــبح قادرا على ارتكاب أسوأ الحماقات ، وأسعى الى المشاجرات . ألم أبد لك غريبا أمس ؟

ــ ألا تتذكر ؟

ــ كيف لا ؟ اننى أتذكر كل شىء .

قال فلتشانينوف بلهجة لطيفة مصالحة :

ــ ها .. هذا ما قدرته ، وهذا ما فسرت به الأمور يا بافل بافلوفتش . ولقد كنت أنا أيضا مهتاجا بعض الاهتياج أمس وكنت نافد الصبر .. أسلم لك بذلك . اننى أشعر فى بعض الأحيان بانقباض شديد ، ثم ان زيارتك فى الليل ، على غير توقع ..

فهز بافل بافلوفتش رأســه كأنه يدهش من نفسه وكأنه يلوم نفســه :

ــ نعم ، فى الليــل ! وما الذى دفعنى الى هــذا ؟ على أننى ما كان يمكن أن أدخل عليك بحال من الأحوال ، لولا أنك أنت فتحت الباب .. كنت سأمضى ما فى ذلك شك . وقد سبق أن جئت قبل ذلك يا ألكسى ايفانوفتش ، منذ أسبوع تقريبا ، فما وجدتك . ولكن كان يمكن أن لا أعــود أبدا . ان لى كبريائى يا ألكسى ايفانوفتش ، رغــم أننى فى الحــالة التى أنا فيها . لقد التقينا فى الشارع ، ولكننى قلت لنفسى : « واذا لم يعرفنى .. اذا أشــاح بوجهه عنى .. ذلك أنها تسع سنين .. مدة ! » فلم أعزم أمرى على

التعرض لك . أما أمس فقد كنت راجعا من الضاحية ، وكنت قد فقدت احساسى بالزمن تماما . والمسئول عن ذلك هو هذه (أشار الى الزجاجة) وعواطفى . انها لغباوة ! انها لغباوة شديدة ! ولو فعلت ذلك مع غيرك ، لفقدت كل أمل فى تجديد التعارف أما أنت فقد تذكرت الماضى فجئت الى ، رغم كل ما حدث أمس .

كان فلتشانينوف يصغى الى كلامه باتنباه . وكان يبدو أن الرجل يعبر عن شعوره تعبيرا صادقا ، حتى لقد كان فى كلامه شىء من الرصانة والوقار . ولكن فلتشانينوف كان لا يصدق حرفا مما يقول ، منذ دخل عليه .

— قل لى يا بافل بافلوفتش ، ألست اذن وحدك هنا ؟ لمن هذه البنت التى رأيتها عندك منذ برهة ؟

فدهش بافل بافلوفتش كثيرا ، ورفع حاجبيه ، وألقى على فلتشانينوف نظرة صافية بشوشا :

— لمن هذه الطفلة ؟ انها ليزا .. ليزا ..

قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة لطيفة .

فدمدم فلتشانينوف يقول وقد شعر بشىء يهتز فى نفسه :

— أى ليزا ؟

كان شعورا مباغتا . انه حين دخل منذ لحظة ، فرأى ليزا ، دهش بعض الدهشة ، ولكن لم يساوره أى شعور خاص ، لم تراوده أية فكرة خاصة . فكرر بافل بافلوفتش يقول ، وهو لا يزال يبتسم :

ـــ ولكنها ليزا ، بنتنا ليزا !

ـــ بنتك ؟ ولكن هل .. هل أنجبت ناتاليا فاسيليفنا ؟

سأل فلتشانينوف هذا السؤال خجلا مترددا ، بصوت مختنق بعض الاختناق .

ـــ كيف ؟ ها .. نعم . الحق معك . وكيف كان يمكن أن تعرف ذلك ؟ نعم ، بعد سفرك انما منّ علينا الله بها .

وارتجف بافل بافلوفتش على كرسيه ، كأن انفعالا قويا هز نفسه ، ولكنه انفعال ممتع .

قال فلتشانينوف :

ـــ لم أكن أعرف ذلك .

وامتقع وجهه .

قال بافل بافلوفتش بصوت رقيق عذب :

ـــ صحيح ، صحيح . من ذا الذى كان يمكن أن ينبئك بذلك! أنت تذكر أننا ، أنا والمرحومة ، كنا قد فقدنا كل أمل ، ولكن الله أنعم علينا . آه .. لا يدرك الا الله ما شعرت به عندئذ من عواطف ! كان ذلك بعد سفرك بسنة تماما ، لا بل بعد سفرك بأقل من سنة . أظن ، اذا لم تخدعنى ذاكرتى ، أنك تركتنا فى شهر تشرين الأول (أكتوبر) .. أم فى شهر تشرين الثانى (نوفمبر) ؟

ـــ سافرت من ت .. فى أوائل ايلول ، فى ١٢ ايلول (سبتمبر). أتذكر ذلك جيدا ..

ـــ فى ايلول ؟ صحيح ؟ كنت أظن . .

قال ذلك بافل بافلوفتش دهشا كل الدهشة ، وأردف :

ـــ اذا صح ذلك .. اذن أنت سافرت فى ١٢ ايلول ، وليزا ولدت فى ٨ أيار (مايو) .. معنى ذلك : ايلول ، تشرين الأول ، تشرين الثانى ، كانون الأول ، كان الثانى ، شباط ، آذار ، نيسان .. ثمانية أشهر وبضعة أيام . نعم ، هذا هو . ليتك تعلم كم كانت المرحومة..

ـــ أرنيها . ائتنى بها .

قال فلتشانينوف ذلك بصوت متقطع .

فاضطرب بافلوفتش ، وقطع عبارته فجأة ، كأنها لا قيمة لها ، قائلا :

ـــ طبعا سآتيك بها حالا ، سأقدمها اليك فورا .

ثم مضى بخفة وحرارة الى غريفة ليزا .

وانقضت ثلاث دقائق أو أربع . كان فى الغرفة الصغيرة همس سريع خافت . وكان صوت ليزا لا يكاد يسمع . قال فلتشانينوف لنفسه : « انها تتوسل اليه أن لا يخرجها » . وظهرا أخيرا .

قال بافل بافلوفتش :

ـــ هى ذى ! انها لا تزال خجلى . ان بها حياء .. وهى صورة المرحومة تماما !

كانت ليزا قد انقطعت عن البكاء . كانت عيناها مطرقتين ، وكان أبوها يجرها من يدها . انها بنية فارعة الطول ، نحيلة القوام ،

بارعة الجمال . رفعت عينيها الواسعتين الزرقاوين نحو فلتشانينوف بسرعة ، ولكنها ما لبثت أن خفضتهما ، بعد أن نظرت اليه نظـرة مستطلعة قاتمة . كان فى نظرتها ما يلاحظ من جـدٍ فى الأطفـال الذين اذا بقوا وحدهم مع غريب لا يعرفونه جلسوا فى ركن من الأركان ، وأخذوا من هنالك يلاحظون ، برصانة وحذر ، الضيف الذى لم يروه من قبل . ولكن لعل نظرتها كانت تشتمل أيضا على شيء آخر ، على فكرة ليست من الطفولة فى شيء . فهذا ما بدا لفلتشانينوف الذى جاء بها أبوها اليه .

ـــ عمك هذا قد عرف أمك من قبل . كان صديقنا . فلا تخافى، مدّى يدك اليه .

فانحنت البنت انحناءة يسيرة ، ومدت يدها خجلى .

ـــ لم تشأ ناتاليا فاسيليفنا أن تعلمها كيف تثنى سـاقها الى الوراء عند التحية احتراما . كان ينبغى لها ، على الطريقة الانجليزية ، أن تحنى رأسها قليلا وأن تمد يدها .

ذلك ما قاله بافل بافلوفتش لفلتشانينوف وهو يلاحظه يقظا ..

كان فلتشانينوف يعرف أن صاحبه يلاحظه ويراقبه ، ولكن لم يخطر له ببال أن يخفى انفعاله . كان جامدا على كرسيه ، ممسكا يد ليزا بيده ، ينظر الى الطفلة باتنباه شديد . ولكن ليزا تبـدو مشغولة الفكر . لقد تركت يدها فى يد الرجل الغـريب ، ولكنها كانت لا ترفع نظرها عن أبيها ، وكانت تصغى الى كلامه خائفة وجلة. تعرف فلتشانينوف عينيها الواسعتين الزرقاوين على الفور ، ولكن

ما لفت نظره أكثر من أى شيء آخر هو البياض الناصع والنعومة العجيبة فى بشرتها ، وكذلك لون شعرها . ان هذه الصفات ذات دلالة . أما استدارة وجهها وشكل شفتيها فقد ذكراه بناتاليا فاسليفنا . كان بافل بافلوفتش لا يزال أثناء ذلك يتكلم منذ مدة طويلة ، ويظهر أنه كان يتكلم بحرارة وعاطفة . ولكن فلتشانينوف كان لا يسمع شيئا ، ولم يدرك الا العبارة الأخيرة :

ـــ .. لا تستطيع أن تتصور يا ألكسى ايفانوفتش الفرح العظيم الذى شعرنا بهحين أنعم الله علينا بهذه الابنة . لقد أصبحت ، منذ ولادتها ،كل شيء عندي . فكنت أقول لنفسي : اذا شاءت ارادة الله أن تذهب عنى سعادتى الهادئة ، فسوف تبقى لى ليزا . كنت واثقا من هذا على الأقل !

فسأله فلتشانينوف بقوله :

ـــ وناتاليا فاسيليفنا ؟

فانقبض وجه بافل بافلوفتش قليلا ، ثم أجاب :

ـــ ناتاليا فاسيليفنا ؟ أنت تعرفها حق المعرفة ، لا شك أنك تتذكر أنها كانت لا تحب أن تظهر عواطفها كثيرا . ولكن ما كان أروع وداعها لها ، وهى على فراش الموت !.. لقد عبرت عندئذ عن كل شيء .. قلت لك « على فراش الموت » .. ولكنها قبل موتها بيوم واحد ، أخذت تضطرب فجأة وتغضب .. قالت اننا نريد أن نقتلها بهذه الأدوية الكثيرة ، وان كل ما بها حمى بسيطة ، وان طبيبينا لا يفقهان شيئا ، وانها ستنهض من فراشها بعد أسبوعين ،

متى عاد كوخ (هل تتذكره ؟ طبيبنا العسكرى ، العجوز القصير ؟). وأكثر من ذلك أيضا أنها قبل أن تحتضر بخمس ساعات تذكرت أن عليها بعد ثلاثة أسابيع أن تزور حتما عمتها ، اشبينة ليزا ، بمناسبة عيـــد ميلادها ..

نهض فلتشانينوف فجأة دون أن يترك يد ليزا . لقد بدا له أن فى النظـرة المحمـومة التى تسددها الى أبيها شيئا من اللوم . قال بصوت موجز ، غريب :

ـــ أليست مريضة ؟

فأجاب بافل بافلوفتش ، وقد بدا فى وجهه الحزن والهم :

ـــ لا أظن . ولكن شئوننا تجرى مجرى .. انها طفلة غريبـة الأطـوار ، عصـبية منـذ الآن . لقد مرضت على أثر موت أمهـا اسبوعين .. انها ابنة هستيرية . ومنذ لحظة ، حين دخلت علينا ، كانت تبكى بكاء عجيبـا . هل تسمعين يا ليـزا ، هل تسمعين ؟ ولماذا كانت تبكى ؟ لأننى أخرج وأتركها وحدها ، ومعنى هـذا ، فيما تظن ، أننى لا أحبها كما كنت أحبها أثناء حياة أمها . هـذا ما تتهمنى به . أنظر الى هذه الأخيلة التى تنبثق فى ذهن بنية ينبغى أن لا تهتم الا بألعابها وعرائسها . ولكن ليس هنا أحـد يمكن أن تلعب معه .

ـــ ولكن كيف تعمل أنت ؟.. أأنتما وحيدان هنا تماما ؟

ـــ نعم ، وحيدان . ان الخـادمة لا تأتى الا لخـدمة البيت ، مرة فى اليوم .

— وحين تخرج أنت ، هل تتركها وحدها ؟

— وهل أستطيع أن أفعل غير ذلك ؟ حين خرجت أمس ، أقفلت عليها هذه الغريفة : ولهذا السبب انما بكينا اليوم . ولكن ما العمل ؟ أحكم فى الأمر بنفسك : منذ ثلاثة أيام ، نزلت الى الفناء وحدها من دونى ، فرماها صبى بحجر على رأسها . وفى مرة أخرى، أخذت تبكى ، وتتوسل الى جميع الناس أن يقولوا لها أين ذهبت. وهذا غير لائق طبعا . أما أنا فأنعم بى .. أخرج لساعة ، ثم لا أعود الا فى صباح غد ، كما فعلت أمس . ومن حسن الحظ أن صاحبة البيت استطاعت أن تخرجها أثناء غيابى . استقدمت قفالا فتح الباب. انه لعار ! اننى لأشعر أنا نفسى بأن هذه الأعمال أعمال شيطان لا انسان . وكل ذلك لأن رأسى مضطرب ، نعم ، لأن رأسى مضطرب .

قالت الصغيرة خائفة قلقة :

— بابا .

— عدنا ؟ عدنا ؟ ماذا قلت لك منذ لحظة ؟

قالت ليزا وقد تملكها الذعر ، ومدت يديها نحوه بسرعة :

— لن أفعل ذلك بعد الآن ، لن أفعل ذلك بعد الآن .

عندئذ تدخل فلتشانينوف فى الأمر ، وقد عيل صبره ، فقال بلهجة السيد :

— لا يمكن أن تستمر الحال على هذا المنوال . انك رجل

غنى ، فكيف تعيش هذه المعيشة ، فى هذا الجناح ، ضمن هـذه الظـروف ؟

ـــ فى هذا الجناح ؟ ولكننا قد نسافر بعد أسبوع ، وقد أنفقنا الى الآن مالا كثيرا ، وهبنى غنيا ..

ـــ كفى كفى !

هكذا قاطعه فلتشانينوف ، وقد ازداد نفاد صـبره ، وكأنما أراد أن يفهمه ما يلى : « لا حاجة الى هذا الكلام . اننى أعـرف كل ما تريد أن تقوله ، وأعرف الهدف الذى تقصد اليه من قوله » . وأردف :

ـــ اسمع ، سأقترح عليك هذا الاقتراح : لقد قلت الآن انك ستبقى هنا أسبوعا ، وربما أسبوعين . اننى أعرف هنا بيتا هـو بيت أسرة كأنها أسرتى ، أعرفها منذ عشرين عاما . رب الأسرة رجل يقـال له بوجورلتسيف ، هو مستشار سرى يمكن أن ينفعك فى قضيتك . والرجل وذووه هم الآن فى الريف ، حيث يملكون فيللا رائعة . ان كلافديا بتروفنا بوجورلتسيف هى لى بمثابة أم ، بمثابة أخت. وللأسرة ثمانية أطفال . فدعنى آخذ ليزا اليهم . ذلك حتى لا نضيع الوقت . سيستقبلونها فرحين ، وسيعاملونها كأنها ابنتهم ، خـلال هذه المدة كلها ، نعم كأنها ابنتهم .

قال بافل بافلوفتش متكلفا وهو ينظـر الى عينى فلتشانينوف نظرة ماكرة ، فيما خيل اليه :

ـــ هذا حقا مستحيل .

ـــ لماذا ؟ لماذا مستحيل ؟

ـــ كيف لماذا ؟ أن أترك الطفلة هكذا ، فجأة ، مع صـــديق مثلك ، فهذا ... أوافق عليـــه ... طبعـــا .. أما أن ادعهـــا لأسرة لا أعرفها ، أسرة من الطبقة الراقية .. فهذا ما أتساءل كيف يمكن أن يقبل ؟

صاح فلتشانينوف شبه حانق :

ـــ ولكنني ذكرت لك أنني كنت عند هؤلاء الناس كأنني فى أسرتى . سيسعد كلافديا بتروفنا أن تستقبلها فى بيتها ، بكلمة منى، كأنها ابنتها . تبا لك . انك لتعلم حق العلم أنك لا تقول هذا الكلام الا ثرثرة . هذا واضح ..

قال ذلك وضرب الأرض بقدمه .

ـــ بل قلت ذلك لأننى أخشى أن يبدو الأمر غريبا . سيكون علىّ أن أذهب لرؤيتها مـــرة أو مرتين . فما عساهم يقولون حين لا يرون الأب . .هأهأ .. وفى بيت ثرى هذا الثراء ..

صرخ فلتشانينوف يقول :

ـــ انها أسرة بسيطة ، وليست « ثرية » .. وقد قلت لك ان لهم ثمانية أولاد . ستنتعش البنية .. هذا هو السبب .. سأقدمك اليهم منذ غد اذا شئت . وسيكون من واجبك أن تذهب اليهـــم للشكر . وسنذهب اليهم كل يوم معا اذا أحببت ..

ـــ مع ذلك ..

ـــ كفى سخافة ! أنت تعرف أن هذا سخافة . اسمع : تعال

الىّ هذا المساء ، فنقضى الليلة عندى ، ثم نسافر فى ساعة مبكرة من الصباح حتى نصل اليهم ظهرا .

قال بافل بافلوفتش :

ـــ يا لك من رجل لطيف ! تقضى الليلة عنـدك ؟ هذا لطف حقـا ..

ثم سأل وهو يظهر كثيرا من الرقة والتأثر :

ـــ أين تقع الفيللا ؟

ـــ فى ليسنوى * .

ـــ وملابسها ؟ أعند أسرة غنية .. وفى المصيف أيضا ؟.. أنت تعرف .. قلب الأب !

ـــ وما حاجتها الى ملابس أخرى ؟ انها تلبس الآن السواد . هل تستطيع أن تلبس غير هـذه الملابس ؟ ان ثيابها مناسبة . كل ما تحتاجه بعض البياض ووشاح صغير (الحق أن بياضها ووشاحها فى غاية الوساخة) .

أسرع بافل بافلوكتش يقول :

ـــ حالا . ستغير ملابسها فورا . وسأهىء لها بياضا للتبديل . انه فى الغسيل ، عند ماريا سيسويفنا .

قاطعه فلتشانينوف يقول :

ـــ يجب اذن أن نســتدعى عربة . بأقصى سرعة ان أمكن ذلك .

الا أن عقبة ظهـرت . لقد اعترضت ليزا على الفكرة . كانت تتابع الحديث مذعورة . ولو اتيح لفلتشانينوف أن ينظر الى وجهها أثناء محاولته اقناع بافل بافلوفتش ، اذن لرأى الحزن الشـديد الذى كان يعبر عنه هذا الوجه الصغير .

قالت بصوت ضعيف ولكنه جازم :

ـــ لن أذهب .

ـــ هل ترى ؟ هل ترى ؟ انها صورة أمها .

ـــ لا ، لست صورة أمى ، لست صورة أمى !

هكذا صرخت ليزا ، وقد بلغت غاية الحزن والغم ، وهى تعض يديها الصغيرتين ، كأنها تحتج أمام أبيها احتجاجا قويا على هـذا الاتهام الفظيع بأنها تشبه أمها . ثم أضافت :

ـــ اذا تركتنى يا أبت ..

وهرعت فجأة نحو فلتشانينوف الذى أصيب بذعر شديد .

ـــ اذا أخذتنى ، فسوف ..

ولكنها لم تستطع أن تكمل كلامها ، فقد أمسك بافل بافلوفتش يدها ، وجرها الى الغريفة المجاورة دون أن يخفى حنقه وغيظه وهناك قام مرة أخرى همس وبكاء مخنوق . وهم فلتشانينوف أن يدخل عليهما ، فاذا ببافل بافلوفتش يخرج ، ويقـول له بابتساما مكشرة ان الصغيرة ستأتى حالا . فحاول فلتشانينوف أن لا ينظر اليه ، وحول بصره عنه .

دخلت ماريا سيسويفنا ، وهى تلك المرأة نفسها التى لقيهـا داخـلا الى الرواق . فوضعت فى حقيبـة صغيرة جميلة البياض الذى جاءت به الى ليزا . وسألت فلتشانينوف :

ــ أأنت الذى تأخذ الطفلة يا عم ؟ هل لك أسرة ؟ انك تحسن صنعا أيها العم . انها ابنة دمثة لطيفة . وانك لتنقذها من جحيم .

فتمتم بافل بافلوفتش يقول ملجلجا :

ــ ماذا تقولين يا ماريا سيسويفنا ؟

ــ نعم ، ماذا ؟ ماريا سيسويفنا ! كل الناس يعلمون أن هذا اسمى . أليس جحيما بيتك ؟ هل يليق أن تشهد طفلة تفهم كل شىء، هل يليق أن تشهد مثل هذه الفضائح ؟ لقد استدعينا لك عربة يا عم . هل السفر الى ليسنوى ؟

ــ نعم نعم .

ــ أتمنى لك سفرا سعيدا .

وظهرت ليزا شاحبة اللون ، خافضة الطرف . فتناولت حقيبتها الصـغيرة ، دون أن تنظـر الى فلتشانينوف . وكبحت نفسهـا ، فلم تسرع الى أبيها لتعانقه ، كما فعلت منذ قليل ، حتى وهى تودعه. كانت لا تريد أن تنظـر اليه . فقبلها بافل بافلوفتش على جبينهـا باحتشام ، ولاعب شعرها . فانمطت شفتا الطفلة لهذه الحـركة ، واختلجت ذقنها ، ولكنها مـع ذلك لم ترفع عينيهـا . كان بافل بافلوفتش شاحبا بعض الشىء ، وكانت يداه ترتعشان . ولاحظ فلتشانينوف ذلك رغم أنه بذل كل ما يملك من جهد حتى لا ينظر

اليه . كان لا يريد الا شيئا واحدا ، هو أن يسافر بأقصى سرعة . وكان يقول لنفسه « لست آثما ، لقد وقع ما كان لابد أن يقع ! » .

ونزلوا . تعانقت ماريا سيسويفنا وليزا ، ولم ترفع ليزا بصرها الى أبيها بعد أن ركبت العربة . وفجأة ، ضمت يديها ، وانطلقت منها صرخة . ولو لبثت الخيل ثانية واحدة ، لوثبت ليزا من العربة تسرع نحو أبيها ، ولكن الخيل سارت .

٦

النزوة الجديدة

سألها فلتشانينوف مذعورا :

ـــ أأنت مريضة ؟ أتريدين أن أستوقف العربة ، فأطلب لك ماء ؟

فرمته بنظرة عنيفة حارة تفيض لوما وتقريعا . ثم سألته بصوت لاذع متقطع :

ـــ الى أين تأخذنى ؟

ـــ الى أسرة لطيفة يا ليزا ، تسكن فى فيللا جميلة جدا . وهناك أطفال كثيرون ، سيحبونك أصدق الحب . انهم أناس طيبون جدا . لا تزعلى منى يا ليزا . اننى أريد لك الخير ..

ما أشد ما كان يمكن أن يبدو غريبا فى هذه اللحظة لأولئك الذين يعرفونه ، لو أتيح لهم أن يروه ! ..

ـــ أنت .. أنت .. آه كم أنت شرير !

هذا ما قالته ليزا وهى تخنق نشيجها وتحدق اليه بعينيها الجميلتين المتقدتين غضبا .

ـــ ليزا ، أنا ..

ـــ أنت رجل شرير ، شرير ، شرير .

طاش عقل فلتشانينوف .

ـــ ليزا ، حبيبتى ، لو علمت كيف تحزنيننى أشد الحزن .

ـــ هل صحيح أنه سيأتى غدا ؟ هل هذا صحيح ؟

قالت ذلك بلهجة جازمة ، فأجابها :

ـــ نعم صحيح ، صحيح . سآتى به أنا نفسى . سأذهب اليه لآتى به .

فتمتمت ليزا وهى تخفض بصرها :

ـــ سيخدعنا !

ـــ أهو لا يحبك يا ليزا ؟

ـــ لا يحبنى .

ـــ هل كان يسىء اليك ؟ هل كان يؤذيك ؟

فنظرت اليه ليزا نظرة قاتمة مظلمة ، وسكتت . وأشاحت بوجهها مرة أخرى ، وخفضت رأسها باصرار وعناد . وحاول فلتشانينوف أن يقنعها ، فكان يكلمها بحرارة ، وقد استبد به هو نفسه نوع من الحمى . كانت ليزا تصغى اليه اصغاء شك وحذر وعداوة . ولكنها كانت تصغى اليه . وقد سره انتباهها كثيرا . حتى لقد أخذ يشرح لها ما هو الرجل السكير . وقال لها انه يحبها ، وانه سيسهر على أبيها . رفعت ليزا

عينيها أخيرا ، ونظرت اليه باتنباه . قصّ عليها كيف عرف أمها ، فلاحظ انها تهتم كثيرا بما يقول . وشيئا فشيئا ، أخذت تجيب عن أسئلته ، ولكن اجاباتها كانت حذرة ، بكلمات قليلة ، وبنوع من العناد . أما الأسئلة الهامة فكانت لا تجيب عنها أبدا : كانت تصر على الصمت فى كل ما يتصل بعلاقاتها بأبيها . وقد تناول فلتشانينوف يدها بيده أثناء الحديث ، ثم لم يتركها ، فلم تسحبها ليزا . ثم ان الطفلة لم تبق صامتة طوال الوقت ، بل أسمعته أخيرا بعبارات غير واضحة أنها كانت فى أول الأمر تحب أباها أكثر مما تحب أمها ، لأن أباها كان فى أول الأمر يحبها أكثر مما تحبها أمها ، غير أن أمها ، أثناء موتها ، قد عانقتها عناقا قويا جدا وهى تبكى ، حين خرج كل من كان فى الغرفة فبقيتا وحدهما .. وأنها تحب الآن أمها أكثر مما تحب أى شىء فى العالم ، وانها تزداد حبا لها كل ليلة . غير أن الطفلة كانت فى الواقع ذات كبرياء : فلما لاحظت أنها تحدثت أكثر مما كان ينبغى أن تتحدث ، عادت تعتصم بالصمت . حتى لقد رشقت فلتشانينوف الذى حملها على الكلام ، بنظرة حاقدة . فلما أشرف السفر على نهايته ، كانت عصبيتها قد هدأت بعض الهدوء ، ولكنها أصبحت حالمة ذاهلة ، تنظر نظرات وحشية ، ويبدو فى وجهها الحزن والعناء . كان يبدو أن أخذها الى اناس لا تعرفهم ولا ذهبت اليهم يوما ، ليس هو الفكرة التى تشغل بالها الآن ، وان شيئا آخر كان يؤلمها ويعذبها . وقد فهم فلتشانينوف هذا الشىء . أدرك أنها تشعر بالخجل والعار . كان يخجلها أن أباها تركها بمثل هذه السهولة ، كأنه يريد أن يتخلص منها .

قال فلتشانينوف لنفسه : « انها مريضة ، وقد تكون مريضة جدا..

ويل لك أيها السكير الجبان ! اننى أفهمك الآن » . وحضّ الحوذى على الاسراع . كان يبنى آمالا كبارا على الفائدة التى ستجنيها من الهواء الطلق فى الريف ، ومن الحديقة ، والأولاد ، والحياة الجديدة.. ثم .. أما ما سيحدث بعد ذلك فما كان يشك فيه : ان مستقبلا مشرقا حافلا بالآمال يلوح الآن أمامه . وكان على كل حال ، واثقا من انه لم يشعر يوما بما يشعر به فى هذه اللحظة ، ومن أن الحياة كلها هى هذا فى نظره ! فكان يقول لنفسه بحماسة : « هذا هو الهدف ! هذه هى الحياة ! » .

كانت الأفكار تتراكض مزدحمة فى ذهنه ، ولكنه كان لا يتوقف عليها ، مصرا على تحاشى التفاصيل . كان كل شىء يبدو واضحا قويا ، بدون هذه التفاصيل . وارتسمت خطته العامة من تلقاء نفسها فكان يقول لنفسه : « يجب أن تؤثر فى ذلك الشقى بتوحيد قوانا . سيترك ليزا عند أسرة بوجورلتسيف ، لفترة معينة يحددها فى أول الأمر ، ثم يسافر وحده ، وتبقى لى ليزا . هذا كل شىء . وماذا يجب أكثر من ذلك ؟ ثم .. انه يرغب هو نفسه فى هذا .. والا فلماذا يعذبها ؟ .. » .

وصلت العربة أخيرا . كانت فيللا أسرة بوجورلتسيف تقع حقا فى مكان جميل . ظهر قطيع الأطفال الصاخب على الباب ، وهرّع اليهما يستقبلهما أحسن استقبال . ان فلتشانينوف لم يأت اليهم منذ مدة طويلة ، ففرح الأطفال بوصوله فرحا شديدا : لقد كانوا يحبونه هنالك . وصرخ كبارهم ، حتى قبل أن ينزل من العربة ، يسألونه :

ـــ الدعوى ؟ ما جرى للدعوى ؟

واستولى الصغار منهم على هذه الجملة ، فأخذوا يرددونها ضاحكين صارخين . كانوا يناكدونه فى موضوع دعواه . ولكنهم ما ان رأوا ليزا حتى أحاطوا بها ، وأخذوا يتأملونها ، باستطلاع صامت منتبه هو ذلك الاستطلاع الذى يتعرف به الأطفال . ثم جاءت كلافديا بتروفنا يتبعها زوجها ، فكانت أول كلمة قالاها هى سؤاله عن الدعوى أيضا .. مع الضحك .

ان كلافديا بتروفنا سيدة فى نحو السابعة والثلاثين من العمر ، سمراء ، ممتلئة ، ولا تزال جميلة . وجهها نضر متورد . أما زوجها فهو فى الخامسة والخمسين . رجل ذكى ، واسع الحيلة ، ماكر ، ولكنه طيب قبل كل شىء . كان فلتشانينوف يشعر عندهم أنه « فى منزله » حقا ، على حد تعبيره . وكان لهذا سبب خاص : ان كلافديا بتروفنا قد أوشكت ، منذ عشرين عاما ، أن تتزوج فلتشانينوف الذى لم يكن يومئذ الا صبيا ، طالبا . كان الحب الذى نشأ بينهما أول حب لهما كليهما . وكان حبا حارا ، مضحكا ، جميلا . ولكنها فى آخر الأمر تزوجت بورجورلتسيف . وبعد خمس سنين التقيا من جديد ، فقامت بينهما صداقة رائعة هادئة . وقد بقى لهما من ذلك الحب مودة كانت تضىء ما بينهما من صلات الصداقة . كان كل شىء نقيا لا غبار عليه ، فى ذكريات فلتشانينوف عن ذلك الماضى ، وكان فلتشانينوف يحرص على هذا أشد الحرص ، خاصة لأنه ربما كان الاستثناء الوحيد فى حياته .. هنا ، فى هذه الأسرة ، كان فلتشانينوف بسيطا ، ساذجا ، طيبا . كان يهتم بالأولاد ، وكان موقفه صادقا وصريحا ، دائما . وقد

أقسم لأسرة بوجورلتسيف يوما ليجيئن اليهم عاجلا أو آجلا ، فيسكن معهم ، ويقيم عندهم الى آخر الحياة . وكان يفكر فى هـذا الأمر تفكيرا جادا .

قصّ عليهم ، تفصيلا ، كل ما يجب أن يعرفوه عن ليزا . وكان حسبه ، على كل حال ، أن يبدى رغبة من الرغبات ، دون الدخول فى شروح طويلة . فقبّلت كلافديا بتروفنا « اليتيمة » ، ووعدت أن تعمل كل ما فى وسعها أن تعمله . واستولى الأطفال على ليزا ، وقادوها الى الحديقة تلعب معهم . وبعد حديث حار ، دام نصف ساعة ، نهض فلتشانينوف مستأذنا بالانصراف . كان شديد نفاد الصبر ، فلاحظوا جميعا ذلك . ودهشوا : لقد طال غيابه عنهم ثلاثة أسابيع ، وها هو ذا يتركهم بعد نصف ساعة من وصوله اليهم . كان يضحك ، ويحلف ليعودن غدا . فذكروا له أن فى وجهه علائم انفعال شديد . فأمسك يدى كلافديا بتروفنا فجأة ، وادعى أن ثمة أمرا هاما نسى أن يحدثها عنه ، وسار بها الى الغرفة المجاورة .

ــ هل تتذكرين ما أفضيت به اليك وحدك ، وما يجهله زوجك نفسه ، عن موضوع السنة التى قضيتها فى ت ..؟

ــ أتذكره تماما ، فلقد كنت تتحدث عنه أحيانا كثيرة .

ــ لم أكن أتحـدث اليك عنه ، وانما كنت أبوح لك به ، لك وحدك . انى لم أذكر لك اسم تلك المرأة . فاعلمى الآن أن زوجة هذا الرجل ، تروسوتسكى ، هى التى ماتت ، وأن ليزا ابنتها ، أى ابنتى !

ـــ أأنت واثق من ذلك ؟ ألست مخطئا ؟

هكذا سألته كلافديا بتروفنا ، منفعلة . فأجابها فلتشانينوف وهو يفيض حماسة :

ـــ لا ، لا ، لست مخطئا أبدا

ثم قص عليها كل شيء ، بالايجاز الذى قدر عليه ، وبسرعة مرتعشة . كانت كلافديا بتروفنا واقفة على كل شيء من قبل ، ولكنها كانت لا تعرف اسم السيد . كان فلتشانينوف يخشى أن يلتقى أحد من معارفه يوما بالسيدة تروسوتسكى ، فيتساءل كيف أمكنه ، هو فلتشانينوف ، أن يحب هذه المرأة ذلك الحب ، فلم يجرؤ أن يكشف عن اسم « هذه المرأة » حتى لصديقته الوحيدة كلافديا بتروفنا .

فلما انتهى من حديثه سألته :

ـــ والأب ، ألا يعرف شيئا ؟

فأجابها بحرارة :

ـــ يعرف .. والشيء الذى يعذبنى هو اننى لم أفهم بعد كل شيء . انه يعرف ، يعرف ، لاحظت ذلك أمس واليوم . ولكن يجب أن أفهم ما الذى يعرفه على وجه الدقة . ومن أجل هذا انما أترككم الآن بسرعة . سيجيء فى هذا المساء . على اننى لا أفهم كيف أمكنه أن يعرف ، أن يعرف كل شيء انه على علم بكل ما يتصل بباجاوتوف . لا شك فى هذا . أما عنى أنا فلا أدرى ! انك تعرفين كيف تستطيع النساء ، فى مثل هذه الأحوال ، أن يقنعن

أزواجهن . لو هبط مـلاك من السـماء ، فلن يصـدقه الزوج ، بل سيصدق زوجته . لا تهزى رأسك .. لا تدينينى .. لقد حكمت على نفسى بنفسى ، وأدنت نفسى بنفسى ، منذ مدة طويلة ، طـويلة جدا !.. اسمعى : لقد بلغت من قوة الاعتقاد بأنه يعرف كل شيء اننى اتهمت نفسى أمامه واعيا عامدا . صدقينى اذا قلت اننى أشعر بكثير من الخجل والعار ، أشعر بأننى ارتكبت وزرا كبيرا ، حين استقبلته أمس ذلك الاستقبال الفظ الغليظ (سأقص عليك هـذا فيما بعـد ، تفصيلا) ! لقـد جاء الىّ أمس ، تدفعه رغبة شريرة خبيثة ، لا تقاوم ، فى أن يفهمنى أنه يعرف الاهانة التى ألحقت به ، ويعرف الشخص الذى ألحقها به . ذلك هو السبب الوحيد لمجيئه الغبى ليلا ، نصف سكران . ولكن هذا شيء طبيعى منه ! لقد جاء الىّ ليربكنى ويخجلنى . فأجريت الأمور بحماسة مفرطة ، أمس واليوم . لقد كنت غبيا قليل التروى ! ففضحت نفسى بنفسى . لماذا ظهر فى لحظة كنت فيها شديد العصبية والنزق ؟ هل تعلمين أنه كان يسوم ليزا سوء العذاب ؟ كان يريد أن يذلها . كان يريد أن يصب غضبه ولو على طفلة ! نعم ، انه الآن هائج . ومهما يكن تافها ، فانه ممتلىء خبثا وشرا . انه مهرج ، ما فى ذلك شك ، مـع أنه كان يبدو فى الماضى ، أقسم لك ، انسانا شريفا ، على قدر ما كان يستطيع ذلك . ولكن من الطبيعى أن يرتمى الآن فى أحضـان الرذيلة . يجب يا صديقتى العزيزة ، أن ننظر الى هذه الأمور كلها نظرة مسيحية . هل تعلمين يا عزيزتى ؟ اننى أريد أن أغير موقفى منه تغييرا تاما : أريد أن أكون معه دمثا لطيفا ، وسيكون هذا « عملا طيبا » منى ،

فيما أعتقد . لأننى ، مهما يكن من أمر ، قد أسأت اليه ، قد أجرمت فى حقه . اسمعى . سأعترف لك بشىء آخر . ذات مرة ، فى ت .. أحتجت فجأة الى أربعة آلاف روبل : هل تعلمين أنه أقرضنى هذا المبلغ فورا ، دون أن أوقع له أية ورقة ، نعم ، ولقد أسعده كثيرا جدا أنه استطاع أن يخدمنى ! نعم ، لقد اقترضت منه مالا ، قبلت المال من يديه ، هل تصدقين ؟ لقد اقترضت منه مالا كما يقترض صديق من صديقه .

قالت كلافديا بتروفنا بشىء من القلق :

ـــ ولكن يجب عليك أن تتروى قليلا . انك الآن شديد الحماسة . وانى لأخاف عليك حقا . صحيح ان ليزا هى الآن ابنتى . ولكن ما يزال هناك أمور كثيرة تحتاج الى توضيح ! عليك بالتروى خاصة ! يجب أن تتصرف بكثير من الحيطة والحذر ، حين تكون سعيدا أو متحمسا ، كما أنت الآن . انك مسرف فى الكرم (أضافت ذلك مبتسمة) .

خرج جميع من فى البيت يشيع فلتشانينوف . وجاء الأولاد بليزا التى كانت تلعب معهم فى الحديقة . كان يبدو أنهم أصبحوا ينظرون اليها بمزيد من الحيرة والارتباك . فلما قبلها فلتشانينوف أمامهم جميعا ، وهو يودعها ويردد وعده حارا بأن يأتى مع أبيها فى الغد ، فقدت سيطرتها على نفسها . كانت حتى هذه اللحظة تنظر اليه دون أن تنطق بكلمة . ولكنها أمسكت الآن بكمه فجأة ، وشدته بعيدا ، وهى تتوسل اليه بعينيها . كانت تريد أن تقول له شيئا . فسارت به الى الغرفة المجاورة .

سألها بصوت رقيق مقنع :

ـــ ماذا هنالك ، يا ليزا ؟

فألقت حولها نظرات قلقة ، وجرت الى ركن بعيد . كان يبدو أنها تريد أن تختفى عن جميع الناس .

ـــ ماذا يا ليزا ؟ ماذا ؟

وظلت ليزا صامتة ، لم تعزم أمرها على الكلام . كانت تحدق اليه بعينيها الزرقاوين ، وكان وجهها الصغير لا يعبر الا عن ذعر مجنون .

ثم تمتمت كأنها تهذى ، قائلة :

ـــ سوف .. يشنق نفسه ..

ـــ من سوف يشنق نفسه ؟

ـــ هو .. هو .. لقد أراد أن يعقد حول عنقه حبلا هذه الليلة (قالت ذلك بصوت متعجل ، لاهث) . رأيته بعينى . كان يريد أن يشنق نفسه . قال لى ذلك ! قال لى ذلك ! انه يريد أن يفعل ذلك ، دائما .. رأيته فى الليل ..

فدمدم فلتشانينوف يقول مضطربا :

ـــ هذا لا يمكن ..

وفجأة أخذت تقبل يديه . كانت تبكى ، وكان النشيج يخنقها خنقا . وكانت تتوسل اليه ، تتضرع اليه . ولكنه لم يستطع أن يفهم كلماتها المنقطعة . لقد تذكر دائما ، فيما بعد ، النظرة المذعورة فى

وجه هذه الطفلة المعـــذبة . وكان عيناها المجنونتان من الخـــوف ، المحدقتان فيه على أمل عظيم ورجاء كبير ، تلاحقانه حتى فى أحلامه .

كان يتساءل بينه وبين نفسه أثناء عودته الى المدينة ، وقد تملكته الغيرة ، واستبد به الحسد ، ونفد صبره ، وضاق ذرعا : « هل يمكن أن تحبه كل هذا الحب ؟ لقد قالت هى نفسها منذ قليل انها تحب أمها أكثر مما تحبه .. أفيكون هذا اذن بغضا لا حبا ؟ ثم ما قصـــة الانتحار هذه ؟ يشنق نفسه ؟ ما هـــذا الكلام ؟ أهذا الأبله يشنق نفسه ؟ .. يجب توضيح كل هذه الأمور ، يجب توضيحها . يجب أن نجد حلا بأقصى سرعة .. حلا حاسما » .

٧

الزوج والعشيق يقبل أحدهما الآخر

كانت تضطرم فى نفسه رغبــة عنيفة لا تقاوم ، فى « معرفة » الأمر . قال فى نفسه وهو يتذكر لقاءه الأول مع ليزا : « كنت عندئذ قلقا ، لم يتسع وقتى لادراك الأمر ، أما الآن فيجب أن أعرف كل شيء » . وأراد أن يستعجل الأمور فقرر ، وقد نفد صبره ، أن يذهب الى تروسوتسكى رأسا ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذا الرأى ، قائلا فى نفسه : « بل الأفضل أن يجيء هو الىّ ، وبانتظار ذلك سأنهى تلك القضايا اللعينة الكريهة بأقصى سرعة » .

واندفع يعمل محموما ، ولكنه اضطر أن يعترف بأنه فى هــذه المرة ذاهل مسرف فى الذهول ، وأن من المستحيل عليه أن يعمــل فى هذا اليوم . وفى الساعة الخامسة ، بينما كان ذاهبا الى المطعــم للغـــداء ، تراءت له على حين غــرة ، لأول مــرة ، فكرة بدت له مضحكة : ترى أليس يعرقل مجرى الدعوى حقا بتدخله ، وكثرة

حركته ، وتنقله بين المحـاكم ، ومطاردته المحـامى الذى كان واضحا أنه يتحاشاه ؟

أضحكته هذه الفكرة اضحاكا مرحا . وقال فى نفسه ، وقد ازداد سرورا : « لو راودتنى هذه الفكرة أمس ، لأحزنتنى حقا » . ولكنه رغم فرحه ومرحه ، كان يزداد ذهولا ونفاد صبر ، حتى لقد صار أخيرا الى حالة من التشتت . كان فكره القلق يحاول أن ينصب على أشياء مختلفة ، ولا يثبت على ما كان يهمه .

قال لنفسه أخيرا : « اننى فى حاجة اليه ، اننى فى حاجة الى هذا الرجل . يجب أن أحل ألغازه ، وبعدئذ يكون ما يكون . انها لمبارزة حقيقيـــة » .

فلما عاد الى البيت فى الساعة السابعة لم يجد بافل بافلوفتش ، فأدهشه ذلك فى أول الأمر ثم أغضبه ، ثم ولد فيه شعورا مزعجا : لقد خاف . « لا يعلم الا الله كيف تنتهى هذه الأمور » . ذلك ما كان يردده فى نفسه ، وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا تارة ، ويستلقى على أريكته تارة أخرى ، دون أن يغيب بصره عن الساعة فى الحالين . وكانت الساعة قد شارفت على التاسعة حين وصل بافل بافلوفتش أخيرا . قال فلتشانينوف لنفسه : « اذا كان هذا الرجل يمكر ، فلن يجد خيرا من هذه الوسيلة لاخراجى عن طورى . اننى مشوش تماما » . ولكنه ما ان خطرت بباله هذه الفكرة حتى شعر فجأة براحة ومرح شديد .

فلما سأله بلهجة مرحة : « لماذا تأخرت كل هذا التأخر ؟ » ابتسم ابتسامة متصنعة ، وجلس بشىء من اليسر والسهولة ، على خـلاف

أمس ، ثم رمى على أحد الكراسى قبعته ذات الشريط الأسود ، رماها بحركة مهملة . لاحظ فلتشانينوف وضعه هذا فورا ، فاستعد .

تبدد الانفعال الذى كان يضطرم فى نفسه منذ قليل ، فأخذ يحدثه بهدوء ، دون زيادة فى الكلام ، عن سفرته مع ليزا ، فوصف له استقبالهم لها ، وأوضح له أن اقامتها هناك مفيدة لصحتها . وشيئا فشيئا صار لا يتحدث الا عن أسرة بورجورلتسيف ، كأنما هو نسى ليزا : تكلم عن شهامتهم ، عن روابط الصداقة القديمة التى كانت تجمعه بهم ، عن المركز الخطير الذى يحتله بوجورلتسيف ، عن نفوذه ، عن بشاشته ولطفه ، وعن أشياء أخرى من هذا القبيل . وكان بافل بافلوفتش يصغى اليه ذاهلا ، ويبتسم فى بعض الأحيـان ابتسامة ماكرة مستخفة ، ويرميه بين الفينة والفينة بنظرات متخفية .

قال أخيرا وهو يبتسم ابتسامة خبيثة سيئة :

ـــ أنت رجل متحمس .

فقال فلتشانينوف مداعبا :

ـــ وأنت اليوم رجل لا يطاق .

فانفجر بافل بافلوفتش فجأة ، كأنما حركه نابض ، فقال :

ـــ ولماذا لا أكون سيئا على غرار جميع الناس ؟

لكأنه كان لا ينتظر الا فرصة ليثب .

فقال فلتشانينوف وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

ـــ لك ما تشاء . وانما ظننت أن شيئا وقع لك .

فصاح بافل بافلوفتش كأنه يعتز :

ــ نعم ، وقع لى شيء .

ــ ما هو ؟

فتأخر بافل بافلوفتش عن الاجابة لحظة ، ثم قال :

ــ أيضا .. صاحبنا ستيفان ميخائيلوفتش .. باجاوتوف ، هذا الرجل الأنيق من رجال بطرسبرج ، هذا السيد المهذب من سادة المجتمع الراقى .

ــ مرة أخرى .. لم يستقبلوك ؟

ــ بل استقبلونى .. سمحوا لى بالدخول عليه لأول مرة . فاستطعت أن أنظر الى وجهه ، وأن أتأمل قسماته .. ولكن قسماته كانت قسمات متوفى ! ..

ــ كيف ؟ مات باجاوتوف ؟

سأل فلتشانينوف هذا السؤال دهشا ، رغم أنه ليس ثمة ما يحمل على الدهشة جملة .

ــ نعم ، صديقنا القديم المخلص ، صديق ست سنين ! لقد مات أمس فى الظهيرة .. لم أكن أعرف عن ذلك شيئا .. ولعلنى فى تلك اللحظة انما ذهبت أسأل عنه . الدفن غدا . هو الآن فى التابوت المزدان بالمخمل الأحمر الموشى بضفائر الذهب .. مات بالحمى الحارة . نعم ، لقد سمحوا لى بأن أدخل عليه ، وأن أتأمل ملامحه . قلت لهم انه يعدنى صديقا حميما ، فقبلوا أن أدخل . ولكن قل لى : ما هـذا

« المقلب » الذى دبره لى هذا الصديق العزيز القديم ؟ لعلنى لم أقم بهذه الرحلة الى بطرسبرج الا لأراه ، فكيف مات قبل أن أراه ؟

ـــ ليس لك أن تزعل . انه لم يفعل ذلك عمدا .

ـــ أقول هذا لأننى آسف حزين على الصديق الممتاز .. هل تعرف ماذا كان بالنسبة الىّ ؟

سأل بافل بافلوفتش هذا السؤال ، ثم رفع اصبعيه فجأة ، بحركة غير منتظرة ، فنصبهما على جبينه الأصلع ، كأنهما قرنان ، وضحك ضحكة صامتة طويلة . وظل على هذه الحال ، ضاحكا ، بقرنين ، نصف دقيقة ، وهو يسدد الى فلتشانينوف نظرة صامدة فيها نوع من الوقاحة المظفرة . فتجمد فلتشانينوف ، كأنه أمام شبح . ولكن انشداهه هذا لم يدم الا لحظة قصيرة ، ثم طافت فى شفتيه ابتسامة ساخرة هادئة تشبه أن تكون وقحة . وسأله دون مبالاة ، وهو يجر الكلام جرا :

ـــ ما معنى هذا ؟

فأجاب بافل بافلوفتش بخشونة ، وهو ينزل أخيرا اصبعيه :

ـــ هذان قرنان ؟

ـــ قرناك أنت ؟

ـــ نعم قرناى أنا ، حصلت عليهما عن جدارة !

قال بافل بافلوفتش ذلك ، ثم ابتسم مرة أخرى ابتسامة خبيثة . وصمت الرجلان .

قال فلتشانينوف :

ـــ انك لشجاع .

ـــ لماذا ؟ ألأننى أظهرتك على هذين القرنين ؟ اسمع يا ألكسى ايفانوفتش ، الأفضل أن تقدم لى شيئا ما .. لقد استقبلتك وأطعمتك فى ت .. خلال سنة برمتها . اطلب لنا زجاجة . لقد جف حلقى .

ـــ بسرور .. كان ينبغى لك أن تقول هذا منذ مدة . ماذا تريد أن تشرب ؟

ـــ بل قل ماذا نريد أن نشرب . سنشرب معا ، أليس كذلك ؟

قال بافل بافلوفتش هذا وهو ينظر اليه نظرة تحمل معنى التحدى، ولكنها تشتمل أيضا على قلق غريب .

ـــ شـــمبانيا ؟

ـــ وهل ثمة غيرها ؟ اننا لم نصل بعدُ الى الكحول .

فنهض فلتشانينوف بلا اسراع ، وقرع الجرس لمافرا ، وألقى اليها ببعض الأوامر .

قال بافل بافلوفتش يحاول أن يمزح دون أن يظفر بذلك :

ـــ سنشرب نخب لقائنا السعيد بعد فراق تسع سنين . أنت الآن ، أنت وحدك صـــديقى الحقيقى . لقـــد مات ســـتيفان ميخائيلوفتش باجاوتوف . وكما يقول الشاعر * :

نعم قد مات « باتروكلُ » العظيم

ولكن عاش « ترسيت » اللئيم

ذكر اسم « ترسيت » وهو يشير باصبعه الى نفسه .

قال فلتشانينوف يخاطبه بينه وبين نفسه « هيّا ، أيها الحيوان ، هيّا اكشف عما فى نفسك . اننى لا أحب التلميح » . كان الغضب يغلى فيه ، حتى لقد أصبح منذ مدة لا يستطيع كظم غيظه . قال :

ـــ ولكن قل لى ، اذا كنت تتهم ستيفان ميخائيلوفتش هذا الاتهام (أصبح لا يسميه الآن باجاوتوف ، بلا كلفة) ، فلا بد أن يسعدك أن يكون من ألحق بك الاهانة قد مات . فما الذى يسوءك اذن ؟

ـــ لماذا لابد أن يسعدنى موته ؟ أى سعادة هذه ؟

ـــ اننى أقضى فى الأمر وفقا لعواطفك .

ـــ هأ هأ .. انك اذن مخطىء فى معـــرفة عواطفى . قال أحـــد الحكماء : « موت عدوك نعمة ، وبقاؤه على قيد الحياة نعمة أكبر » . هأ هأ هأ ..

ـــ ولكنك رأيته حياً خمس سنين ، رأيته كل يوم ، فيما أظن ، فأتيح لك أن تتأمله مليا .

قال فلتشانينوف ذلك بخبث ووقاحة .

فانفجر بافل بافلوفتش فجأة ، كأنما حركه نابض مرة أخرى ، فقال بشىء من الفرح ، كأن السؤال الذى كان ينتظره مدة طويلة قد طرح عليه أخيرا :

ـــ ولكن هل كنت أيامئذ أعرف الأمر ؟ من تظننى اذن يا ألكسى ايفانوفتش ؟

والتمع فى نظره تعبير جديد ، غير متوقع ، وتبدل وجهه الذى كانت تعقفه الى ذلك الحين كشرة سيئة خبيثة ، تبدل تبدلا تاما .

فقال فلتشانينوف متحيرا وقد بلغ غاية الانشداه :

ـــ كيف ؟ هل يعقل أنك كنت لا تعرف شيئا ؟

ـــ أعرف شيئا ؟ أعرف هذا الأمر ؟ آه منكم أنتم يا سلالة جوبيتر! الانسان فى نظركم كلب لا أكثر . انكم تنظرون الى جميع الناس بمنظار طبيعتكم الصغيرة المسكينة ! هكذا أنتم ..

قال بافل بافلوفتش ذلك ، وضرب المائدة حانقا . ولكن حركته هذه ما لبثت أن أخافته ، فاذا هو يلقى نظرة وجلة .

وانتصب فلتشانينوف :

ـــ اسمع يا بافل بافلوفتش ، سيان عندى أن تكون واقفا على الأمر عندئذ أو غير واقف . وعلى كل حال ، فانه لشرف لك أن لا تكون عالما بالأمر ، رغم أن .. ولكننى لا أفهم لماذا اخترتنى أنا نجيا تفضى اليه بأسرارك .

تمتم بافل بافلوفتش ، وهو مطرق الى الأرض :

ـــ ما قصدتك أنت .. لا تزعل .. ما قصدتك أنت .

ودخلت مافرا تحمل الشمبانيا .

فهتف بافل بافلوفتش يقول وقد أسعده هذا التحول عن الموضوع.

ـــ هذه هى الشمبانيا ! هاتى كؤوسا ، يا عمة ، هاتى كؤوسا . عظيم . لسنا فى حاجة الى شىء آخر ، يا عزيزتى . ها ، والزجاجة مفتوحة أيضا ! عظيم ، عظيم ، أنت انسانة رائعة . والآن امضى الى سبيلك ! ..

فلما استرد رباطة جأشه ، عاد فنظر الى فلتشانينوف نظرة وقحة . ثم قال فجأة بلهجة متضاحكة :

— ولكن عليك أن تعترف بأن هذا كله يهمك كثيرا ، وبأنك لست تقف منه موقف من لا « يباليه » ولا يحفل به ، كما تفضلت فزعمت . وأنا على يقين أنك ستستاء اذا أنا نهضت فى هذه اللحظة ومضيت دون أن أشرح لك شيئا .

— حقا ، لن أستاء أبدا .

فابتسم بافل بافلوفتش ابتسامة تقول : « أنت تكذب ! » .

— فلنبـــدأ .

قال ذلك ، وملأ القدحين خمرا ، ثم رفع كأسه وأضاف :

— فلنشرب ، فلنشرب نخب ذلك الصـــديق المسكين ستيفان ميخائيلوفتش الذى توفاه الله الى رحمته .

وشرب .

فقال فلتشانينوف وهو يرجع كأسه الى المائدة :

— لا أقبل نخبا كهذا . لن أشرب .

— لماذا ؟ انه لنخب لطيف .

— قل لى ، ألكم تكن سكران حين دخلت الى هنا ؟

— كنت قد شربت قليلا فى الواقع . ولكن لماذا تسألنى هـــذا السـؤال ؟

— لا لشىء . ولكن خيل الى أمس ، وهذا الصباح خاصة ، أنك كنت حزينا حزنا صادقا على المرحومة ناتاليا فاسيليفنا .

ـــ ومن قال لك اننى لست حزينا عليها الآن ؟

قال بافل بافلوفتش ذلك وانتصب فجأة ، كما فى المرة السابقة .

ـــ لا أعنى هذا . ولكن يجب أن نسلم بأن من الممكن أن تكون مخطئا فى حق ستيفان ميخائيلوفتش ، وهذا أمر خطير كل الخطورة .

فابتسم بافل بافلوفتش ابتسامة ماكرة ، وطرفت عينه :

ـــ ها .. انك تريد أن تعرف كيف استطعت أن أقف على الحقيقة فيما يتصل بستيفان ميخائيلوفتش !

فاحمر وجه فلتشانينوف ، وقال :

ـــ أكرر أن هذا الأمر لا يعنينى .

ثم تساءل بينه وبين نفسه حانقا : « ماذا لو طردته هو وزجاجته ؟ » وازداد وجهه احمرارا .

قال بافل بافلوفتش ، كأنه يريد أن يشجعه :

ـــ لا بأس ، لا بأس .

ثم صب قدحا آخر ، وأردف يقول :

ـــ سأذكر لك كيف علمت بكل شىء ، فأرضى بذلك أعنف ما فى نفسك من رغبات حارة .. ذلك أنك رجل عنيف حار ، يا ألكسى ايفانوفيتش ، عنيف حار الى أقصى حدود العنف والحرارة .. هأ هأ .. ولكن اعطنى سيجارة ، لأننى منذ شهر مارس (آذار) ..

ـــ هذه سيجارة .

ـــ لقد انحدرت الى الفجور والانحلال منذ شهر مارس (آذار)

يا ألكسى ايفانوفتش . واليك كيف حدث ذلك . اصغ الىّ قليلا . ان السل ، كما تعلم ، أيها الصديق العزيز جدا (أخذ بافل بافلوفتش يرفع الكلفة شيئا فشيئا) مرض عجيب . انه ليتفق كثيرا للمسلول أن يموت دون أن يدور فى خلده ، دون أن يخطر بباله أنه لن يكون غدا على قيد الحياة . قلت لك ان ناتاليا كانت تستعد ، قبل موتها بخمس ساعات ، لزيارة عمتها بعد أسبوعين ، فى بلدة تبعد عنا أربعين كيلومترا . ولعلك تعرف من جهة أخرى ، تلك العادة أو ذلك الهوى لدى كثير من السيدات والسادة ، أعنى ذلك الحرص على الاحتفاظ بجميع الأشياء القديمة المتصلة بالمراسلات الغرامية . الأسلم من ذلك طبعا أن يرمى المرء هذه الأشياء فى النار ، ألست على حق ؟ ولكنهم لا يفعلون هذا ، بل يحتفظون بكل خرقة ورق فى علبهم ، فى صناديقهم ، ويعنون بذلك أشد العناية ، حتى لقد يرقمونها على حسب السنة ، والتاريخ ، ويصنفونها . قد يجدون فى ذلك شيئا من العزاء والسلوى ، لا أدرى . ولكننى أظن أنهم يفعلون ذلك لتجديد ذكريات ممتعة سعيدة . على كل حال ، حين كانت ناتاليا فاسيليفنا ، قبل موتها بخمس ساعات ، تستعد للسفر قريبا الى عمتها ، لم يكن يخطر لها على بال أن نهايتها قريبة ، وذلك حتى آخر لحظة ، بل كانت ما تزال تنتظر عودة الدكتور كوخ . حدث اذن أن ماتت ناتاليا فاسيليفنا ، فبقى صندوقها الصغير المصنوع من خشب أسود ، والمرصع بالفضة والصدف ، بقى فى مكتبها . انه صندوق صغير جميل يُقفل بمفتاح ، تملكه أسرتها منذ مدة طويلة ، وقد انحدر اليها من جدتها . نعم ، الى هذا الصندوق انما يرجع الفضل فى اكتشاف كل شيء ، كل شيء ، دون استثناء ،

يوما يوما ، سنة سنة ، منذ عشرين عاما . وبما أن ستيفان ميخائيلوفتش كان يهوى الأدب ، حتى أنه أرسل الى احدى المجلات ذات يوم قصة مؤثرة جدا ، فقد كان الصندوق يضم مائة رسالة من انتاجه ، فى أقل تقدير .. انتاج خمس سنين . وكان ثمة رسائل عليها تعليقات ناتاليا فاسيليفنا . هل هذا شيء يسرّ الزوج ؟ ما رأيك ؟

استجمع فلتشانينوف ذكرياته بسرعة ، فتذكر أنه لم يكتب الى ناتاليا فاسيليفنا فى حياته رسالة ، حتى ولا بطاقة . صحيح انه أرسل رسالتين من بطرسبرج ، ولكنه أرسلهما الى الزوج ، كما اتفق على ذلك . وهو لم يرد على الرسالة الأخيرة التى بعثت بها اليه تصرفه عنها الى الأبد .

لما ختم بافل بافلوفتش قصته ، سكت خلال دقيقة كاملة ، وهو يبتسم ابتسامة ملحاحة ، فكأنه ينتظر جوابا . فلما لم يجب فلتشانينوف سأله بألم ظاهر :

ـــ لماذا لم تجبنى على سؤالى الصغير ؟

ـــ أى سؤال ؟

ـــ سؤالى عن المشاعر التى يحسها الزوج حين يكتشف صندوقا من هذا النوع .

ـــ هوه .. مالى ولهذا ؟

قال فلتشانينوف ذلك ، وهو يحرك يده متبرما ، ثم نهض وأخذ يمشى فى الغرفة ذهابا وايابا .

ـــ أراهن على أنك تقول لنفسك الآن : « ما هذا الخنزير الذى

يقص عليّ ما لطخ شرفه من عار ؟ » هأ هأ هأ .. انك تظهر الاشمئزاز ، أنت ! ..

ــ لا يخطر ببالى شىء من هذا . بالعكس ، لقد أحنقك موت الرجل الذى أساء اليك ، ثم انك قد شربت فأسرفت . لست أرى فى هذا كله شيئا عجبا ، واننى لأفهم حق الفهم ما كنت تشعر به من حاجة الى أن يكون باجاوتوف على قيد الحياة . اننى أحترم حنقك ، ولكن..

ــ ولماذا كنت فى حاجة الى باجاوتوف ، فى رأيك ؟

ــ هذا شأنك .

ــ أراهن أن ذهنك قد انصرف الى أننى كنت سأدعوه الى مبارزة؟

هنا صرخ فلتشانينوف وقد ضاق ذرعا ، وأصبح أعجز عن كبح جماح نفسه :

ــ ما هذا السخف ! كنت أظن أن كل انسان شريف ، لا يسمح لنفسه ، فى مثل هذه الحالات ، بثرثرات مضحكة ، وتكشيرات غبية ، وتلميحات سيئة تزيده تلطخا ، وانما يتصرف تصرفا صريحا ، واضحا ، كما يليق ذلك برجل شريف !

ــ هأ هأ هأ .. ولكن قد لا أكون رجلا شريفا !

ــ أعود فأقول : هــذا شأنك . ولكن ما عسى أن تكون اذن حاجتك الى رؤية باجاوتوف ؟

ــ لم أقصد الى رؤية هذا الصديق العزيز ، الا للاعجاب به . كان يمكن أن نفتتح زجاجة فنستمتع بشربها معا !

ــ لم يكن ليقبل أن يشرب معك !

ـــ لماذا ؟ ألما تقتضيه النبالة ؟ . ألم تشرب معى أنت ؟ أهو خير منك ؟

ـــ لم أشرب .

ـــ من أين جاء هذا الصلف المباغت ؟

أخذ فلتشانينوف يضحك ضحكا عصبيا ، ثم قال :

ـــ تبا لك . انك حقا « انسان ضارٍ » . كنت أحسب أنك لست الا « زوجا أبديا » ، لا أكثر من ذلك .

قال بافل بافلوفتش وهو يصيخ بسمعه :

ـــ ماذا تعنى بقولك « زوج أبدى » ؟ من هو « الزوج الأبدى » ؟

ـــ نموذج من نماذج الأزواج . هذا أمر يطول شرحه . دعنا من هذه الأمور ، فذلك خير . ثم لقد آن الأوان ، اننى سئمت منك .

ـــ وماذا تعنى بقولك « ضارٍ » ؟

ـــ قلت انك « انسان ضارٍ » على سبيل المزاح والدعابة .

ـــ من هو « الانسان الضارى » ؟ اشرح لى ذلك يا ألكسى ايفانوفيتش ، أرجوك ، ناشدتك الله ، ناشدتك يسوع المسيح !

ـــ يكفى هذا ! آن لك أن تذهب . هيا اذهب .

قال فلتشانينوف ذلك بلهجة جازمة غاضبة .

فصاح بافل بافلوفتش ، وهو يثب :

ـــ .. هذا لا يكفى . هبنى أضايقك ، فاننى لم أكتف بعـــد .

ان علينا أولا أن نشرب معا وأن نتقارع الأقداح . فلنشرب ، ثم أذهب . أما الآن فهذا لا يكفينى .

— بافل بافلوفتش ، ستذهب ، ستذهب الى الشيطان ، هل فهمت؟

— يمكن أن أذهب الى الشيطان ، ولكن يجب أولا أن نشرب . لقد قلت لى صراحة انك لا تريد أن تشرب معى ، ولكننى أنا أريد أن تشرب معى .

أصبح لا يجعّد وجهه ، ولا يسخر . ان شيئا فيه قد تبدل فجأة . تغير وجهه ، وتغيرت لهجته ، تغيرا كبيرا أذهل فلتشانينوف .

— نعم ، يا ألكسى ايفانوفيتش ، يجب أن نشرب .

قال بافل بافلوفتش ذلك ، وهو يمسك بيد صاحبه ، وينظر الى وجهه نظرة غريبة . كان واضحا أن الشىء الذى يهمه ليس هو هذا القدح من الخمر ..

فنمتم فلتشانينوف متلجلجا يقول :

— نعم .. ممكن .. طيب .. سأشرب .. ولكن ليس هذا بالخمر ..

— لم يبق الا كأسان . صحيح أنه ليس بالخمر الجيد .. ولكننا سنشرب وسنتقارع الأقداح . خذ ، هذا كأسك !

دقا قدحيهما أحدهما بالآخر ، وشربا .

— نعم ، هكذا اذن ، هكذا اذن . آه !

قال بافل بافلوفتش ذلك ، ووضع يده على جبينه ، وظل على هذه الحال بضع لحظات . تراءى لفلتشانينوف أنه يهم أن يقول شيئا

حاسما . ولكن بافل بافلوفتش لم يقل شيئا ، بل نظر اليه ، وابتسم ابتسامة عريضة صامتة ، هى الابتسامة الماكرة الفائضة بالكنايات التى طافت فى وجهه قبل ذلك . فثارت ثائرة فلتشانينوف ، وضرب الأرض بقدمه ، وصرخ :

ـــ ماذا تريد منى أيها السكّير اللعين ؟ أتهزأ بى ؟ أتضحك علىّ ؟

فأسرع الآخر يهدئه بحركة من يده قائلا :

ـــ لا تصرخ ، لا تصرخ ! فيم الصراخ ؟ اننى لا أهــزأ بك ، ولا أضحك عليك . لا . هل تعلم ماذا أنت الآن بالنسبة الىّ ؟

قال ذلك ، ثم تناول يده فجأة ، وقبّلها . فجمد فلتشانينوف من الدهشة .

ـــ هذا أنت بالنسبة الىّ الآن ! والآن أذهب ، لا أذهب الى الشيطان ، بل الى جميع الشياطين !

هتف فلتشانينوف ، وقد أفاء الى نفسه :

ـــ انتظر ، انتظر . نسيت أن أقول لك ..

فالتفت بافل بافلوفتش ، وكان قد وصل الى الباب .

دمدم فلتشانينوف يقول بسرعة ، وقد احمر وجهه ، وحوّل بصره:

ـــ يجب أن تذهب فى غد حتما الى أسرة بورجورلتسيف .. تتعرف اليهم ، وتشكرهم . يجب أن تذهب اليهم حتما ..

ـــ نعم ، حتما . أفهم ذلك حق الفهم .

قال بافل بافلوفتش هذا بسرعة كبيرة ، وهو يحرك يده حــركة موجزة معناها أن ذلك أمر مفروغ منه ، ولا داعى الى تذكيره به .

ـــ زد على ذلك أن ليزا تنتظرك بصبر فارغ .. لقد وعدتَ ..

فعاد بافل بافلوفتش أدراجه وقال :

ـــ ليزا .

ثم هتف فجأة وكأنه خرج عن طوره :

ـــ هل تعرف ماذا كانت ليزا بالنسبة اليّ ؟ وماذا هى الآن بالنسبة اليّ ؟ نعم ، ماذا كانت وماذا هى الآن ؟ ولكن .. هه هه .. سأحدثك عن هذا فيما بعد . كل هذا سأحدثك عنه فيما بعد . والآن ، يا ألكسى ايفانوفيتش ، ليس يكفينى أننا شربنا معا ، وانما أريد أيضا لذة أخرى.

قال ذلك ، ثم وضع قبعته على المائدة ، وألقى على فلتشانينوف النظرة التى ألقاها عليه منذ قليل ، لاهثا بعض الشيء .

ـــ قبلنى يا ألكسى ايفانوفيتش .

ـــ أنت سكران .

ـــ نعم ، ولكن قبلنى مع ذلك يا ألكسى ايفانوفيتش . قبلنى . ألم أقبل يدك منذ هنيهة ؟

ظل ألكسى ايفانوفيتش صامتا بضع لحظات ، كأن أحدا ضربه على جمجمته بعصا . ثم انحنى فجأة على بافل بافلوفتش الذى كان لا يصل الا الى كتفه ، فقبله على فمه الذى تخرج منه روائح الخمر قوية . على أنه لم يتأكد كل التأكد من أنه قبّله .

فصاح بافل بافلوفتش مرة أخـــرى ، باندفاعة سكرى ، وعينين منقـــدتين :

ـــ نعم ، الآن ، الآن .. اليك ما أريد أن أقوله لك : لقد تساءلت منذ برهة بينى وبين نفسى : « كيف ؟ هو أيضا ! .. اذا كان هو أيضا ، فمن يجب اذن أن أصدق ؟ .. » .

قال بافل بافلوفتش ذلك ، وأخذ يبكى .

ـــ هل فهمت الآن أى صديق أنت بالنسبة الىّ ؟ قال ذلك ثم هرب ، وقبعته بيده .

ظل فلتشانينوف ساكنا بضع لحظات ، فى وسط الغرفة ، كما حدث عند الزيارة الأولى .

« انما هو مهرج سكران ، لا أكثر ! » .

قال فلتشانينوف هذا ، وحرك يده حركة احتقار .

وحين خلع ملابسه واستلقى على سريره ، ردد يقول مرة أخرى :

« نعم ، ليس أكثر من ذلك » .

٨

ليزا مريضة

في صباح الغد كان فلتشانينوف يسير فى غرفته جيئة وذهابا ، ويحتسى قهوته جرعات صغيرة ، ويدخن ، بانتظار وصول بافل بافلوفتش الذى وعد أن يأتى فى الموعد المضروب للذهاب الى أسرة بوجورلتسيف . كان فلتشانينوف يحس أثنـــاء ذلك احساسا واضحا بأنه أشبه بانسان يستيقظ فى الصباح فيتذكر أنه قد صُفع فى الليلة البارحة .

قال لنفسه مذعورا : « انه يفهم الوضع تماما ، وسينتقم منى متوسلا بليزا » .

وانبثقت فى ذهنه الصورة الحلوة الحزينة ، صورة الطفلة البائسة. فلما تصور أنه سيرى قريبا ، بعد ساعتين ، عزيزته ليزا ، أخذ قلبه يخفق خفوقا سريعا . قال فى نفسه متحمسا : « لا جدال فى هذا .. انها حياتى وهدف وجودى . ما قيمة تلك الصفعات ، ما قيمة تلك الذكريات؟

فيم أنفقت حياتى الى الآن ؟ لم تكن حياتى حتى اليوم الا فوضى وحزنا .. أما الآن فستجرى الأمور مجرى آخر ، مجرى مختلفا عن هذا المجرى كل الاختلاف ! » .

ولكنه ، رغم حماسته هذه ، كان يزداد هما .

« سيعذبنى ، متوسلا بليزا . ذلك واضح . وسيعذب ليزا أيضا . بهذا سينتقم لنفسه من كل شيء ! .. لا أستطيع طبعا أن أسمح له بعد الآن بتكرار ما فعله أمس .. » .

قال فلتشانينوف ذلك لنفسه ، واحمر وجهه :

« انه ، مع ذلك ، لم يأت حتى الآن ، وقد شارفنا على الظهر » .

انتظر مدة طويلة ، حتى الثانية عشرة والنصف ، وكان قلقه يشتد. ثم راودته مرة أخرى تلك الفكرة التى ساورته منذ برهة ، وهى أن صاحبه سيتعمد أن لا يجيء ، لاستئناف خطته التى استعملها أمس ، فخرج عن طوره : « انه يعرف أننى رهن به . ما الذى سيحدث الآن لليزا ؟ وكيف أقابلها دون أن يكون معى ؟ » .

وأخيرا ، لم يستطع أن يحتمل أكثر مما احتمـل ، فأسرع الى بوكروف * . فقيل له فى الفندق ان بافل بافلوفتش لم يقض ليلته فى بيته ، وانه لم يرجع الا فى الصباح ، وانه عاد فخرج بعد ربع ساعة . كان فلتشانينوف واقفا قرب الباب يستمع الى شروح الخادمة ، ويدير قبضة الباب آليا يحاول فتحه . فلما ثاب الى نفسه ، ابتعد عن الباب ، وطلب أن يقاد الى ماريا سيسويفنا . ولكن ماريا سيسويفنا جاءت من تلقاء نفسها حين علمت بوجوده . انها امرأة طيبة ممتازة ، ذات «عواطف

نبيلة » ، على حد تعبير فلتشانينوف فى وصفها حين نقل حديثها الى كلافديا بتروفنا بعد ذلك .

سألته ماريا سيسويفنا عن اقامة « الصغيرة » أولا ، ثم أخذت تقص عليه ما تعرفه عن بافل بافلوفتش . قالت : « لولا هذه الطفلة لطردته من البيت منذ مدة طويلة . وقد سبق أن طرد من الفندق بسبب فضائحه . أليس عارا أن يأتى ببغايا الى بيته ليلاً ، فى حين أن هنالك طفلة تفهم كل شيء ؟ كان يقول لها صارخا : ستكون هذه أمك اذا شئت أنا ذلك . نعم . وصدقنى اذا شئت : انها طفلة ، ولكنها بصقت فى وجهه . فصرخ : « لست ابنتى ، أنت بنت زنا » .

صاح فلتشانينوف مذعورا :

ـــ ماذا تقولين ؟

ـــ سمعته يقول لها ذلك بأذنى . صحيح أنه كان ثملا ، خارجا عن طوره ، ولكن أمورا كهذه لا يمكن أن تقال أمام طفلة . انها ما تزال صغيرة ، ولكن عقلها يعمل ، وهى تفهم . انها تبكى . انها تتألم . ومنذ بضعة أيام وقعت فى فناء البيت مصيبة : كان مفوض فى الشرطة قد استأجر غرفة فى المساء ، فاذا هو يشنق نفسه فى الصباح . يقال انه كان قد سرق الخزينة . وأسرع جميع الناس ، ولم يكن بافل بافلوفتش فى البيت ، وما كان أحد يراقب الطفلة . فماذا رأيت ؟ رأيت الطفلة واقفة فى الدهليز مع جمهور الناس ، وهى تنظر الى المشنوق نظرة غريبة . فأمسكت يدها ، وأرجعتها . فهل تعرف ما الذى وقع لها ؟ أخذت ترتعش ، واسود وجهها ، فما أن وصلت بها الى غرفتها حتى سقطت

على الأرض ، وأخذت تتشنج . ولم أستطع أن أعيـدها الى وعيها الا بعد عناء كبير . ومنذ ذلك الحين أصبحت مريضة دائما . ولما عاد ، هو ، وعلم بالأمر ، أخذ يقرصها فى كل جزء من أجزاء جسمها ، ذلك أنه لا يضربها فى العادة ، بل يقرصها قرصا . ثم سكر ، وأخذ يخيفها ، قال لها : « سأشنق نفسى أنا أيضا ، بسببك أنت ، هذا هو الحبل الذى سأشنق نفسى به ، حبل الستارة » . وأخذ يعقد الحبل أمامها . أصبحت الطفلة كالمجنونة ، فكانت تصرخ ، وتحيطه بذراعيها الصغيرتين قائلة : « لن أفعل ذلك بعد الآن ، لن أفعل ذلك بعد الآن ! » . كانت رؤيتها تثير الشفقة والرحمة !

كان فلتشانينوف يتوقع كل شىء ، ومع ذلك فقد بلغ من شدة الدهشة عند سماع هذه القصص أنه لم يشأ أن يصدقها . واستمرت ماريا سيسويفنا تتحدث . قالت : وفى ذات مرة أوشكت الطفلة أن ترمى بنفسها من النافذة ، لولا أننى كنت هناك .

خرج فلتشانينوف من الفندق ، يتمايل كأنه سكران ، ويردد قائلا : « سـأقتله كما يقتـل كلب ، سأقتله ضربا بالعصـا على رأسـه » .

وركب عربة ، وأمر السائق أن يذهب الى أسرة بوجورلتسيف . كانت العربة ما تزال فى المدينة ، حين اضطرت الى الوقوف عند أحد المنعطفات ، قرب الجسر ، على القناة ، بسبب جنازة تمر . كان قد توقف الناس وتوقفت العربات ، على جانبى الجسر . انه لمأتم غنى كل الغنى . ان العربات طابور طويل . وفجأة ، لمح فلتشانينوف ،

فى باب احدى العربات ، وجــه بافل بافلوفتش . وما كان له أن يصدق عينيه لولا أن بافل بافلوفتش الذى أخرج رأسه من باب العربة ، قد حياه مبتسما ، وكأنما أسعده كثيرا أن يلقى فلتشانينوف، حتى لقد حرك له يده باشارة صداقة ومودة . فقفز فلتشانينوف من عربته ، واستطاع رغم الازدحام ورغــم الشرطة ، ورغم أن عربة بافل بافلوفتش كانت قد دخلت الجسر ، اســتطاع أن يتسلل حتى وصل الى باب العربة . كان بافل بافلوفتش وحده .

هتف يسأله :

ــ ماذا حدث ؟ لماذا لم تجىء ؟ ما وجودك هنا ؟

ــ أقوم بآخر واجباتى ! لا تصرخ ! لا تصرخ ! لا تصرخ ! انني أقوم بآخر واجباتى ! أرافق صديقى الرائع ستيفان ميخائيلوفتش الى مثواه الأخــير !

قال بافل بافلوفتش ذلك وهو يضحك ضحكة خبيثــة ، ويغمز بعينــه .

فصرخ فلتشانينوف بصوت أعلى ، بعد أن بهت لحظة :

ــ هذا مستحيل .. كل هذا .. أيها السكير ، أيها المجنون ؛ انزل حالا ، تعال معى ، حالا .

ــ لا أريد .. ان الواجب ..

فزأر فلتشانينوف يقول :

ــ ان لم تنزل ، شددتك بالقوة ..

ــ وأنا سأستدعى ، سأستدعى ..

كان بافل بافلوفتش يقــول هذا الكلام ، وهو يزداد اغراقا فى الضحك ، كأن الأمر مزاح ، ولكنه كان مع ذلك يزداد اندساسا فى ركن العربة .

ـــ انتبه ! ستدهس ..

بهذا صاح الشرطى .

وفعلا ، مرت فى تلك اللحظة عربة ليست من الموكب ، فاخترقت الموكب ، وأحدثت فى الجمهور بعض الفوضى والاضطراب . فاضطر فلتشانينوف أن يتنحى ، فجاءت عربات أخرى فأبعدته أكثر من ذلك ، فبصق من شدة الغيظ وعاد الى عربته .

ثم قال لنفسه قلقا مبهوتا « على كل حال ، ما كان لى أن أصحبه وهو على هذه الحال » .

وحين نقل الى كلافديا بتروفنا ما قصته عليه ماريا سيسويفنا ، وحين أخبرها بلقائه باڤل بافلوفتش ، أطرقت تفكر ، ثم قالت له : « اننى خائفة عليك . يجب أن تقطع كل صلاتك به ، والسرعة فى هـــذا أولى » .

فهتف فلتشانينوف يقول بحماسة :

ـــ ما هو الا مهرج سكير .. لا أكثر من ذلك . أأنا أخاف منه ؟ وكيف أستطيع أن أقطع كل صلة به ، وهناك ليزا ؟ تذكرى ليزا !

كانت ليزا مريضة ، راقدة فى سريرها . لقد انتابتها فى مساء أمس حمى ، وهــم ينتظرون الآن طبيبا مشهورا أرسلوا يســتدعونه من المدينة فى ساعة مبكرة من الصباح . اضطرب فلتشانينوف اضطرابا

كبيرا . وذهبت به كلافديا بتروفنا الى المريضة . قالت وهى تقف أمام غرفة ليزا :

ـــ راقبتها أمس باهتمـــام . انها طفلة مغلقة على نفسها ذات كبرياء . انها تشعر بالخجل من وجودها عندنا ، ومن هجر أبيهـــا لها . وهذا هو سبب مرضها فيما يخيل الىّ .

ـــ لماذا تظنين أن أباها « هجرها » ؟

ـــ يكفى أنه تركها تذهب الى أناس لا يعرفهم ، مع شخص لا يكاد يعرفه أيضا ، أو كانت بينه وبينه صلات . .

ـــ ولكننى أتيت بها الى هنا بالقوة .. لست أرى أن ..

ـــ هوه .. ان ليزا ، الطفلة ، ترى ذلك . لن يأتى أبدا .. هـــذا هو الأمر ..

وحين رأت ليزا أن فلتشانينوف جاء وحده ، لم يدهشها ذلك . بل ابتسمت ابتسامة حزينة ، وحولت وجهها المحترق من الحمى الى ناحية الجدار . ولم تجب بشىء على ما أخـــذ يقوله لها مواسيا ، ولا على الوعود التى راح يبذلها قائلا انه سيأتيها بأبيها فى غـــد . فلما خرج من الغرفة أخذ يبكى على حين فجأة .

ولم يصـــل الطبيب الا فى المساء . فلما فحص المريضة ، أرعبهم جميعا بالكلمات الأولى التى نطق بها ، اذ لامهم على أنهم لم يستدعوه قبل ذلك . حتى اذا قالوا له ان المرض لم يبدأ الا مساء أمس لم يشأ أن يصدقهم فى أول الأمر ، وقال أخيرا : « كل شىء رهن بهذه الليلة كيف تقضيها » . وبعد أن أصـــدر اليهم وصاياه ، ذهب واعدا أن

يرجع فى غد أبكر ما يمكن . أراد فلتشانينوف أن يقضى هذه الليلة فى منزل بوجورلتسيف ، غير أن كلافديا بتروفنا نفسها أصرت عليه أن يحاول مرة أخرى أن « يجىء بذلك الشيطان » .

قال فلتشانينوف وقد ثارت ثائرته :

— مرة أخرى ؟ لسوف أربطه بالحبال وأجىء به الى هنا رغم أنفه ! واستبدت به هـذه الفكرة ، أن يوثق بافل بافلوفتش وأن يجره بالقوة ، فأصبح فى شوق شديد الى تنفيذها . قال وهو يودع كلافديا بتروفنا : « أصبحت لا أشعر بأننى آثم فى حقه » . وأضاف يقول حانقا : « اننى أتراجع عن جميع الكلمات العاطفية الخائرة التى قلتها هنا » .

كانت ليزا راقدة مغمضة العينين ، وكان يبدو أنها نائمة ، وأن صحتها تحسنت . فلما انحنى عليها فلتشانينوف محاذرا ، كى يقبل طرف ثوبها على الأقل ، فتحت عينيها فجأة ، كأنما كانت تنتظره ، وهمست تقول له : « خذنى معك » .

كانت كلمتها هذه رجاء رقيقا حزينا ، ليس فيه شىء من هيـاج الليلة البارحة . ولكنها كانت تعرف هى نفسها أن رجاءها هـذا لن يلبى ، فما ان أخذ فلتشانينوف يقنعها بأن هذا مستحيل (وقد بلغ به الحزن غايته) حتى أغمضت عينيها صامتة ، دون أن تنبس بكلمة، كأنها أصبحت لا تسمعه ولا تراه .

فلما وصل الى المدينة أمر السائق أن يقوده رأسا الى بوكروف . وكانت الساعة التاسعة . فلم يجد بافل بافلوفتش فى بيته ، فانتظره

نصف ساعة يذهب ويجيء فى الدهليز نافد الصبر متألما . فأقنعتـــه ماريا سيسويفنا أخـــيرا بأن بافل بافلوفتش لن يعـــود حتما الا فى الفجر ، فقال فلتشانينوف لنفسه : « اذن أرجع فى الفجــــر » . وعاد الى البيت ، خارجا عن طوره .

وما كان أشد انشداهه حين أخبرته مافرا ، وهو يصعد السلم ، أن الضيف الذى جاءه أمس ينتظره منذ الساعة العاشرة . وأضافت مافرا قولها :

ـــ قدمت له الشاى ، وأرسلنى أشترى خمرا ، كما فعل أمس أعطانى خمسة روبلات .

٩

الشبح

كان بافل بافلوفتش جالســـــا جلسة مريحة على الكرسى نفسه الذى جلس عليه أمس ، كان يدخن السجائر ، وقد صب القــدح الرابع والأخير من الشمبانيا . وكان الى جانبه على المائدة ابريق الشاى وقدح من الشاى فرغ نصفه . وكان وجهــه المحمر يشع رضى وراحة . حتى لقد خلع سترته مكتفيا بالصدرة .

فلما رأى فلتشانينوف أسرع يلبس سترته ، وهتف يقول :

ـــ عفوك أيها الصديق الوفى ، فقد خلعت ردائى لأزيد متعتى بهذه اللحظة السعيدة .

فاقترب فلتشانينوف منه بوجه مخيف وسأله :

ـــ ألم تسكر بعد سكرا تاما ؟ هل يمكن التحدث معك ؟

ففقد بافل بافلوفتش هدوءه قليلا ، وقال :

ـــ لا ، لم أسكر سكرا تاما .. لقد شربت احتفــالا بذكرى المرحوم .. لكننى لم أبلغ من السكر غايته .

ـــ هل تفهمنى اذا كلمتك ؟

ـــ ما جئت الى هنا الا لهذا ، لأفهمك .

فقال فلتشانينوف بصوت يختنق :

ـــ اذن أبدأ بأن أقول لك انك انسان شقى .

فقال بافل بافلوفتش محتجا وقد ظهر عليه الرعب :

ـــ اذا بدأت بهذا ، فبماذا تنتهى ؟

ولكن فلتشانينوف ظل يصيح دون أن يصغى اليه :

ـــ ابنتك تحتضر . انها مريضة . هل تتركها ؟

ـــ هل يمكن أن تكون فى حالة احتضار ؟

ـــ انها مريضة ، مريضة جدا ، انها من مرضها فى خطر .

ـــ ربما كانت هذه نوبات صغيرة بسيطة ..

ـــ دعك من هذه السخافات . انها فى خطر . يجب أن تذهب اليها ، ولو من أجل أن ..

ـــ أن أشكرهم على حسن استقبالهم لها . اننى أفهم حق الفهم، يا ألكسى ايفانوفتش ، أيها الصديق ، الكامل .

قال ذلك وأمسك فجأة يد فلتشانينوف بيديه ، ثم هتف يقول بلهجة عاطفية ، متباكية ، كأنه يتوسل اليه أن يعفو عنه :

ـــ ألكسى ايفانوفتش ، لا تصــرخ ، لا تصرخ . هبنى مت

الآن ، هبنى غبت فى أعماق نهر نيفا ثمــلا .. فما عسى أن يكون لهذا من قيمة فى الظروف الراهنة ؟ أما ذلك السيد بوجورلتسيف ، فسيتسع وقتنا دائما للذهاب اليه ..

ثاب فلتشانينوف الى نفسه ، وكظم غيظه قليلا ، وقال بلهجــة قاسية :

ــ أنت الآن سكران ، ولست أفهــم ماذا تريد أن تقــول . اننى مستعد للافضاء اليك بما تريد ، بل اننى ليسعدنى أن أفرغ من هذا الموضوع . حتى لقد ذهبت .. ولكن اعلم قبل كل شىء أننى سأنفذ ما أريد : ستنام الليلة عندى ، وغدا آخذك الى هناك . لن أتركك (هكذا زأر فلتشانينوف مرة أخرى) سأوثقك بالحبال ، وأحملك الى هناك ! .. هل يريحك النوم على هــذا « الديوان » ؟ (قال ذلك ، وأشار ، لاهثا ، الى الديوان الواسع المريح الذى يقابل ديوانه الذى ينام هو عليه ، قرب الجدار الآخر) .

ــ كيف لا ؟ سأنام فى أى مكان ..

ــ لا ، ليس فى أى مكان ، بل على هــذا الديوان . خــذ : هذا غطاء ، وهذا لحاف ، وهذه وسادة . (أخرج فلتشانينوف هذه الأشياء من الخزانة ، وقذفها بسرعة الى بافل بافلوفتش الذى كان مادا ذراعيه يتناولها خاضعا مطيعا) . افرش سريرك حالا . هيــا افرشــه !

ظل بافل بافلوفتش واقفا فى وسط الغرفة لحظة ، حاملا هــذه الأشــياء التى حمّــله اياها فلتشــانينوف . كان يبــدو مترددا

وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة سكرى طويلة . ولكن حين كرر فلتشانينوف أمره بصوت هائج ، أسرع ينفذ الأمر ، فدفع المائدة ، وأخذ يمد الغطاء ويشده لاهثا . واقترب منه فلتشانينوف يساعده. لقد شعر فلتشانينوف بشيء من الرضى حين رأى فى صاحبه الخضوع والذعر .

قال مرة أخرى بلهجة آمرة ، وهو يحس أن من المستحيل عليه أن يتكلم بلهجة أخرى :

— أفرغ كأسك ، وارقد فى فراشك . هل أنت أرسلت مافرا لتشترى لك خمرا ؟

— نعم .. أنا .. خمرا .. كنت أعلم يا ألكسى ايفانوفتش أنك لن ترسل أحدا ليشترى خمرا .

— يعجبنى أنك عرفت ذلك . ولكن يجب أن تعرف شيئا آخر أيضا . أقول لك مرة أخرى انى قد عزمت أمرى ، وسأنفذ تدابيرى . لن أقبل بعد الآن تهريجاتك ، لن أقبل بعد الآن قبلاتك السكرى !

— أنا أفهم من تلقاء نفسى ، يا ألكسى ايفانوفتش ، أن ذلك لا يمكن الا مرة واحدة ، مرة واحدة لا أكثر .

قال بافل بافلوفتش ذلك وابتسم ابتسامة ماكرة .

وكان فلتشانينوف يسير فى الغرفة جيئة وذهابا ، فلما سمع هذا الجواب توقف فجأة أمام بافل بافلوفتش ، وقال بلهجة فخمة :

— بافل بافلوفتش ، تكلم بصراحة . أنت رجل ذكى ، أسلم

لك بذلك مرة أخرى . ولكنني أؤكد لك أنك تسير فى طريق خطأ .. تكلم بصراحة ، واعمل بصراحة ، ولك عليّ عهد الشرفاء أن أجيب على جميع أسئلتك .

فابتسم بافل بافلوفتش ، مرة أخرى ، تلك الابتسامة الطويلة الماكرة الخبيثة التى تخرج فلتشانينوف عن طوره . فصاح فلتشانينوف مرة أخرى يقول :

— انتظر . اياك والمهزلة . اننى أقرأ فى ضميرك كما أقرأ فى كتاب . أعود فأقول لك : اننى على استعداد للاجابة على جميع الأسئلة ، أعاهدك على ذلك عهد الشرف ، بل اننى مستعد لأن أقدم لك ما يمكن وما لا يمكن أيضا من ألوان الارضاء . آه كم أتمنى لو تستطيع أن تفهمنى !

فاقترب بافل بافلوفتش من فلتشانينوف محاذرا وقال :

— ما دمت طيبا كل هذا الطيب ، فسأقول لك ان ما ذكرته أمس عن « الانسان الضارى » قد شاقنى كثيرا .

فحرك فلتشانينوف يده حركة تدل على التبرم وضيق الصدر ، وعاد يمشى فى الغرفة بخطى أسرع .

— لا يا ألكسى ايفانوفتش ، لا يجب أن تضيق ذرعا ، لا يجب أن ينفد صبرك ، ان كلامك يهمنى كثيرا ، حتى لقد جئت لأعرف هل .. ان لسانى يتعثر قليلا ، فاعذرنى .. لقد قرأت أنا نفسى شيئا ما فى مجلة من المجلات .. مقالا نقديا عن النموذج « الضارى » * والنموذج « المسالم » . وتذكرت المقال هذا الصباح .. ولكننى

نسيت ما قاله الكاتب ، أو قل اننى لم أفهمه يومئذ . وأريد الآن أن أعرف الى أى نمـوذج ينتمى المرحـوم سـتيفان ميخـائيلوفتش باجـاوتوف : أالى النمـوذج « الضـــارى » أم الى النمـوذج « المسالم » ؟

كان فلتشانينوف لا يزال يسير فى الغرفة صامتا ، فتوقف فجأة، وصرخ فى سورة من الغضب يقول :

ــ الانسان « الضارى » هو ذلك الذى كان يمكن أن يدس السم فى كأس باجاوتوف وهو يشرب معه الشمبانيا « احتفـالا بلقائهما السعيد » كما فعلت ذلك بى أنا أمس . ولكن ذلك الانسان « الضارى » ما كان له أن يشيع تابوت باجاوتوف الى المقبرة ، كما فعلت أمس ، مدفوعا بدوافع خفية لا أدرى ما عسى تكون ، ربما لمجرد التهريج!

ــ أما أنه ما كان له أن يشيعه الى المقبرة ، فهذا صحيح ، ولكنك تعاملنى بطريقة ..

لم يصغ فلتشانينوف اليه ، بل ظل يصـيح وقد خـرج عن طـوره :

ــ الانسان « الضارى » ليس ذلك الذى يلفق قصة خيالية ، وينفق وقته فى حساب ما له من حقوق ، ويجتر اهانته ، ويتباكى ، ويجعد وجهه تصنعا ، ويمثل المهزلة تلو المهزلة ، ويرتمى على أعناق الناس ، فاذا هو يضيع حياته فى سخافات وحماقات .. هل صحيح أنك أردت أن تشنق نفسك ؟ هل صحيح هذا ؟

ـــ هذا ممكن ، لأننى كنت ثملا . فكرة راودتنى .. لا أتذكرها الآن .. أما قضية صب السم فى القدح ، فهذا ، يا ألكسى ايفانوفتش ، أمر لا يليق بنا نحن . أنا موظف مرموق ، ثم اننى عدا ذلك أملك ثروة طيبة ، وقد أريد أخيرا أن أتزوج مرة ثانية .

ـــ ثم هناك الأشغال الشاقة .

ـــ طبعا .. قد يحدث هذا أيضا ، رغم أن المحاكم الآن تجد فى أكثر الأحيان أسبابا مخففة . أريد يا ألكسى ايفانوفتش أن أروى لك هذه الحكاية الصغيرة المضحكة التى تذكرتها منذ برهة فى العربة . لقد قلت أنت الآن : « يرتمى على أعناق الآخرين » . لعلك تتذكر سيمون بتروفتش ليفتزوف ، الذى جاء الى ت .. أثناء وجودك فيها . ان الأخ الأصغر لهذا الرجل ، وكان يعد شابا أنيقا من شباب المجتمع الراقى ببطرسبرج ، كان ملحقا بحاكم مدينة ف .. وكانت له مزايا رائعة . تناقش هذا الشاب ذات مساء مع جولوبنكو ، الكولونيل ، أمام عدد من السيدات كانت بينهن السيدة التى يخفق لها قلبه . فرأى أثناء المناقشة أنه قد أهين ، ولكنه بلع الاهانة ، وسكت . وبعد فترة من الوقت ، سرق منه جولوبنكو تلك السيدة ، وطلبها زوجة له . فانظر ما حدث : لقد استطاع ليفتزوف هذا أن يصبح الصديق الحميم لجولوبنكو ، لم يصالحه فحسب ، بل أصر أن يكون له فتى الشرف ، فحمل التاج فوق رأسه أثناء الاحتفال . حتى اذا انتهى كل شىء ، اقترب من جولوبنكو ليهنئه ويقبله ، فاذا به ، وهو فى رداء الاحتفال مصفف الشعر معطر ، أمام الحاكم ، وأمام المجتمع الأنيق كله ، يسدد الى بطنه طعنة قوية بالسكين ،

فيخر جولوبنكو على الأرض ! على أن هذا كله ليس شيئا ! الأنكى من ذلك أن ليفتزوف ما ان طعن الكولونيل تلك الطعنة حتى التفت الى من كانوا حوله يهتف قائلا : «آه .. ماذا صنعت ؟ ماذا صنعت ؟» وأخـذ يبكى ، وينتحب ، ويرتعش ، ويرتمى على أعناق الناس حتى السيدات .. « آه .. ماذا صنعت ؟ ماذا صنعت ؟ » هى ، هى ، هى .. كان المنظر يفطس من الضحك . ولم يكن ثمة الا جولوبنكو شخص يثير الشفقة .

قال فلتشانينوف بقسوة وهو يقطب ما بين حاجبيه :

ــ لست أفهم لماذا قصصت علىّ هذا .

فقال بافل بافلوفتش وهو يضحك ضحكا صامتا :

ــ من أجل تلك الطعنة . بديهى أن ذلك الرجل لم يكن ضاريا . بل كان قاذورة من القاذورات ، لأن ذعره أنساه جميع قواعد اللياقة ، فارتمى على أعناق السيدات والقاضى موجود . ومع ذلك فقد حقق هدفه ، اذ طعن صاحبه فى بطنه . هذا ما كان فى ذهنى ، حين قصصت عليك هذه الحكاية .

فزأر فلتشانينوف فجأة ، بصوت تبدل كل التبدل ، كأن شيئا فيه قد تحطم ، فقال :

ــ اذهب الى الشيطان ، اذهب الى جميع الشياطين ، أنت ونفسك المتخفية الدنيئة .. أنت وأفكارك القذرة الملتوية المتعرجة . أتظن أنك تخيفنى ؟.. أنت لا تقدر الا على تعذيب طفلة ، أيها الجبان ، أيها الجبان .

هكذا صرخ ، وقد خرج عن طوره تماما ، وأخذ يلهث لهاثا شديدا .

فانتفض بافل بافلوفتش من مكانه ، وتبدد سكره فجأة ، وأخذت شفتاه ترتعشان .

ــ أأنت تصفنى باننى « جبان » يا ألكسى ايفانوفتش ! أأنت تصفنى أنا بأننى جبان ؟

ولكن فلتشانينوف ثاب الى نفسه ، فأجابه بعد صمت ، وقد أظلم وجهه وشرد فكره :

ــ أنا مستعد للاعتذار اليك ، شريطة أن تقبل أن تكون صريحا .

ــ لو كنت مكانك يا ألكسى ايفانوفتش لاعتذرت ، بدون أى شرط .

فقال فلتشانينوف بعد صمت آخر :

ــ لك ما تشاء يا بافل بافلوفتش . اننى أعتذر اليك . ولكن يجب أن توافق أنت نفسك ، بعد الذى وقع ، على أننى لن أعد نفسى مدينا لك ، لا فيما يتصل بما قيل الآن ، بل فيما يتصل بكل شىء .

ــ الأمر بسيط . لا داعى الى هذه الحسابات .

قال بافل بافلوفتش ذلك ، وهو يبتسم ، ويطرق الى الأرض .

ــ عظيم ، عظيم . والآن أفرغ كأسك ، وارقد فى فراشك ، لأننى لن أتركك ..

— نعم .. الخمر ..

كان بافل بافلوفتش يبدو مضطربا حائرا بعض الشيء . واقترب مع ذلك من المائدة ، وفرض على نفسه واجب افراغ كأسه الذى صبه منذ مدة طويلة . لا شك أنه كان قد شرب كثيرا ، لأن يده كانت ترتعش فاندلق الخمر ، فلطخ الأرض وقميصه وصدرته . ومع ذلك شرب الكأس حتى آخر قطرة ، كأنه لا يستطيع أن يدع فيها شيئا ، ثم أعادها الى المائدة باحترام ، ومضى يخلع ثيابه قرب سريره خاضعا .

وفجأة قال يسأل فلتشانينوف وهو يمسك بيده أحد حذائيه بعد أن خلعه :

— أليس الأفضل أن لا أقضى هذه الليلة عندك ؟

فأجابه فلتشانينوف بلهجة حازمة ، دون أن ينظر اليه ، وهو ما يزال يسير فى الغرفة :

— بل الأفضل أن تقضى هذه الليلة عندى .

فأتم بافل بافلوفتش خلع ملابسه ، ورقد فى فراشه . وبعد ربع ساعة ، رقد فلتشانينوف هو الآخر ، وأطفأ الشمعة .

ولم يستطع أن يغفو . ان شيئا جديدا كان قد ظهر فزاد قضيته تعقيدا ، وكان هو من ذلك فى قلق ، وفى خجل من هذا القلق . وما ان بدأ يغفو قليلا حتى أيقظته ضجة خفيفة على حين فجأة . فألقى نظرة سريعة على سرير بافل بافلوفتش . كان الظلام شديدا (الستائر مسدلة تماما) ، ولكن خيل اليه أن بافل بافلوفتش لم يكن راقدا ، بل كان جالسا على سريره . فسأله :

— ماذا بك ؟

فأجابه بافل بافلوفتش بعد لحظة من انتظار ، بصوت لا يكاد يتسمع :

— شـبح .

— ماذا ؟ أى شبح ؟

— هنالك ، فى هذه الغرفة . رأيت ما يشبه الشبح يمر أمام الباب .

فسأله فلتشانينوف بعد بضع لحظات :

— شبح من ؟

— شبح ناتاليا فاسيليفنا .

فوضع فلتشانينوف قدميه على السجادة ، ونظر الى جهة الغرفة المجاورة التى كان بابها يظل مفتوحا دائما . ولم يكن لتلك الغرفة من ستائر الا غلالة بيضاء .. فكان الظلام فيها أقل كثافة .

— ليس ثمة شيء ، وانما أنت سكران . أرقد .

قال فلتشانينوف ذلك ، وعاد فرقد متلفعا باللحاف . ولم يقل بافل بافلوفتش شيئا ، وتمدد على فراشه هو الآخر .

وبعد عشر دقائق سأله فلتشانينوف :

— هل سبق أن رأيت هذا الشبح قبل الآن ؟

فأجابه بافل بافلوفتش ، بعد لحظات ، بصوت ضعيف :

— يخيل الىّ أننى رأيته مرة قبل ذلك .

ثم خيّم الصمت من جديد .

لا يعرف فلتشانينوف، على وجه اليقين ، هل نام أم لا . ولكنه ، بعد ساعة ، التفت مرة أخرى على حين فجأة . هل أيقظته ضجة ما ؟ ليس يدرى . ولكن تراءى له أن شيئا يقترب منه ، شيئا أبيض متميزا عن الظلام ، وصل الى وسط الغرفة . فنهض جالسا ، يحاول أن يشق ببصره الليل الذى يحيط به .

ـــ أهذا أنت يا بافل بافلوفتش ؟

قال ذلك بعد دقيقة ، بصوت ضعيف . ان هذا الصوت الضعيف الذى ترجع صداه فى قلب السكون والليل بدا له هو نفسه غريبا .

ولم يجئه جواب . ولكنه الآن لا يساوره أى شك : ان هناك شخصا يقف فى وسط الغرفة .

ـــ أهذا أنت يا بافل بافلوفتش ؟

قال ذلك بصوت عال ، بصوت يبلغ من العلو أن بافل بافلوفتش لو كان نائما لاستيقظ وأجاب .

ولم يجب أحد . ولكن تراءى له أن الشكل الأبيض الذى لا يكاد يُرى واضحا فى هذا الظلام الدامس كان يزداد اقترابا . فحدث فى نفسه تغير مفاجىء . ان شيئا فى نفسه ينفجر ، فصرخ أقوى صراخ يستطيعه ، بصوت لاهث يخنقه الحنق والغضب ، قائلا :

ـــ اذا كنت تظن أيها السكير أنك تستطيع أن تخيفنى ، فسألتفت نحو الجدار ، وسأغطى رأسى باللحاف ، وسأظل ساكنا لا أتحرك طوال الليل ، لأبرهن لك على مدى ما أشعر به نحوك من احتقار .. ولو

بقيت على هذه الحال من التهريج حتى الصـــباح .. وهأنذا أبصق فى وجهك ! ..

قال ذلك وبصق حانقا على ما كان يفترض أنه بافل بافلوفتش ، ثم استدار نحو الحائط ، وشد اللحاف فوق رأسه ، وسكن على هـــذا الوضع سكونا تاما . وساد صمت عميق كأنه سكون الموتى . ترى هل كان الشبح يقترب منه ، أم أنه ما يزال فى مكانه ؟ لم يعرف ذلك ، الا أن قلبه كان يخفق ، ويخفق ، ويخفق .. وانقضى على هذا خمس دقائق ، فاذا هو يسمع فجـــأة ، على بعـــد خطوتين منه ، صـــوت بافل بافلوفتش يترجع ضعيفا كأنه الأنين :

ـــ لقد نهضت يا ألكسى ايفانوفتش باحثا عن .. (سمَّى أداة لا يستغنى عنها من أدوات المنزل) فلم أجدها قرب سريرى ، فأردت أن أرى .. قرب سريرك .. دون أن أحدث ضجة .

ـــ لماذا لم تجبنى ، حين صرخت ؟

سأله فلتشانينوف هذا السؤال بصوت متقطع بعد نصف دقيقة من صمت .

ـــ خفت .. كان صراخك قويا جدا ، فخفت ..

ـــ هناك ، على الشمال ، عند الركن ، قرب الباب ، فى الخـــزانة الصغيرة . أشعل الشمعة .

قال بصوت ذليل وهو يتجه نحو الخزانة الصغيرة :

ـــ أستغنى عن الشمعة . عفوك يا ألكسى ايفانوفتنس ، فانتى أزعجتك . لقد شعرت فجأة أننى سكران تماما .

ولكن فلتشانينوف لم يجب . كان مستلقيا على فراشه ، ملتفتا الى ناحية الجدار ، وظل على هذه الحال الى آخر الليل لم يستدر نحو الجهة الأخرى مرة واحدة . هل كان يريد أن ينفذ ما قطع على نفسه من عهد ، اظهارا لاحتقاره ؟ لقد كان هو نفسه يجهل ما يشعر به . كانت أعصابه ثائرة حتى كاد يهذى ، وظل مدة طويلة لا يستطيع أن ينام . فلما استيقظ فى الساعة العاشرة من صباح غد وثب عن سريره فجأة كأن أحدا هزه ، فلم يجد بافل بافلوفتش فى الغرفة . كان سريره خاليا ، منفوشا .. لقد هرب عند طلوع النهار .. قال فلتشانينوف وهو يضرب جبينه بيده :

ــ « كنت أعرف ذلك » .

١٠

المقبرة

تحققت مخاوف الطبيب ، فقد ساءت صحة ليزا فجأة ، ساءت أكثر كثيرا مما كان يتوقع فلتشانينوف وتتوقع كلافديا بتروفنا ، أمس . وحين وصل فلتشانينوف فى الصباح كانت الحمى قد أضنتها ، ولكنها كانت لا تزال فى وعيها . وقد أكد فلتشانينوف ، فيما بعد ، أنها ابتسمت له حين رأته ، بل ومدت اليه يدها الصغيرة المحترقة . هل وقع هذا حقا ، أم أنه تخيله على غير ارادة منه تعزية لنفسه ؟ انه لم يستطع أن يتحقق من ذلك على كل حال . وما ان جاء المساء حتى فقدت المريضة وعيها ، ولم تفق من غيبوبتها بعد ذلك . وماتت فى اليوم العاشر من وصولها الى أسرة بوجورلتسيف . وقد عاش فلتشانينوف فى هذه الفترة حياة أليمة ، حتى أن أسرة بوجورلتسيف التى قضى بينها معظم هذه الأيام القاسية كانت تخشى على صحته من فرط ما عانى من عذاب . كان فى الأيام الأخيرة من مرض ليزا يظل

جالسا فى ركن من الأركان ساعات برمتها ، كأنه لا يفكر فى شيء . وكانت كلافديا بتروفنا تحاول أن تواسيه ، ولكنه لا يكاد يجيبها بشيء ، بل يبدو عليه فى بعض الأحيان أنه يضيق ذرعا بأحاديثها . كانت كلافديا بتروفنا لا تتوقع « أن يؤثر فيه هذا الأمر تأثيرا يبلغ هذه الدرجة من العنف والقوة » . وكان الأطفال يستطيعون أن يسلوه أكثر منها ، حتى لقد كان يضحك معهم فى بعض اللحظات ، غير أنه كان لا ينى يترك ركنه الذى هو فيه ، ويمضى على رؤوس الأصابع يلقى نظرة على المريضة . كان يخيل اليه فى بعض الأحيان أنها تعرفه . وكان ، كسائر من فى البيت ، قد فقد كل أمل فى شفائها ، غير أنه كان لا يبتعد عن الغرفة التى تحتضر فيها ليزا ، وكان يظل دائما فى الغرفة المجاورة .

ومع ذلك فقد أظهر خلال هذه الفترة نشاطا جبارا ، مرة أو مرتين. فكان يسرع الى بطرسبرج ، يبحث عن أشهر الأطباء ، ويجيء بهم الى المريضة يفحصونها . وآخر مرة جاء فيها بالطبيب كانت قبل موتها بيوم واحد . وقد أصرت عليه كلافديا بتروفنا ، قبل ذلك بثلاثة أيام ، أن يمضى باحثا عن تروسوتسكى ، وأن يجيء به ، قائلة « اذا وقع للطفلة مكروه قبل أن يأتى ، فلن تتمكن حتى من دفنها » . فقال لها فلتشانينوف بلهجة غامضة ذاهلة ، انه سيكتب اليه. فقالت بوجورلتسيفه عندئذ انها ستبعث اليه بالشرطة لتجيء به . وأخيرا عزم فلتشانينوف أمره على أن يكتب اليه بضع كلمات ، حملها بنفسه الى فندق بوكوروفسكى . لم يكن بافل بافلوفتش هناك ، على عادته ، فترك فلتشانينوف الرسالة عند ماريا سيسويفنا .

ماتت ليزا فى مساء من أماسى الصيف ، عند غروب الشمس . وفى تلك اللحظة انسا بدا أن فلتشانينوف يثوب الى نفسه . فلما مددوا جثمانها على المائدة فى الصالون ، وغطوها بثوب أبيض من ثياب احدى بنات كلافديا بتروفنا ، ووضعوا أزهارا بين يديها الصغيرتين المضمومتين احداهما الى الأخرى ، اقترب فلتشانينوف من كلافديا بتروفنا متقد العينين ، وقال انه ذاهب فورا لاقتياد « القاتل » ، ثم خرج رغم أنه نُصح بارجاء سفره الى غد .

كان يعرف أين يجد بافل بافلوفتش . انه لم يكن يذهب فى الآونة الأخيرة الى بطرسبرج بغية استدعاء الأطباء فحسب ، بل كان يخيل اليه فى بعض الأحيان أنه لو استطاع أن يقود بافل بافلوفتش الى ليزا ، فقد ترتد اليها الحياة حين تسمع صوت أبيها . فكان يركض باحثا عنه كالمجانين . كان بافل بافلوفتش لا يزال يسكن تلك الغرفة نفسها ، ولكن كان من العبث أن يبحث عنه فى غرفته . قالت ماريا سيسويفنا : « انه يتفق له أن يتغيب ثلاثة أيام متتالية ، لا يعود الى بيته لحظة واحدة . واذا عاد مصادفة ، فانه لا يمكث الا بضع دقائق ثم يخرج . لقد انحدر الى الدرك الأسفل » . وقال خادم الفندق لفلتشانينوف ، فيما قال له ، ان بافل بافلوفتش يتردد الى البنات الساقطات فى شارع فوزنيسيكى . فلما بحث عنهن فلتشانينوف ، عثر عليهن بلا عناء . ولما دفع لهن بعض المال تذكرن فورا زبونهن صاحب القبعة ذات الشريط الأسود ، وانتهزن هذه المناسبة لسبه وشتمه ، لأنه أصبح لا يجيء اليهن . قالت احداهن ، واسمها كاتيا ، انها تستطيع أن تجد بافل بافلوفتش فى كل ساعة « لأنه أصبح لا يترك ماشكا بروستاكوفا . ان المرء لا يرى لأمواله نهاية ..

أما ماشكا تلك فليس اسمها بروستاكوفا بل بروكفوستوفا * . لقد كانت مريضة فى المستشفى ، وتكفى وشاية صغيرة عليها ، تكفى كلمة واحدة عنها ، حتى ترسل الى سيبيريا » .

لم تظفر كاتيا ، ذلك اليوم ، بالعثور على بافل بافلوفتش ، ولكنها وعدت وعدا قاطعا بأن تعثر عليه فى المرة القادمة . فعلى كاتيا اذن كان يعتمد فلتشانينوف .

فلما وصل الى المدينة فى الساعة العاشرة ، استدعاها فورا ، وسار معها بعد أن دفع لصاحب المحل أجرة الوقت الذى سيستغرقه طوافها . كان لا يعرف ، بعد ، ما الذى سيعمله . أيقتل بافل بافلوفتش أم يكتفى بابلاغه نبأ موت ابنته قائلا ان دفنها مستحيل ما لم يتدخل هو فى الأمر؟ ولم توفق مساعيهما الأولى . وعلما أن معركة قامت منذ ثلاثة أيام بين ماشكا بروكفوستوفا وبين بافل بافلوفتش ، وأن شخصا مهنته «خازن» قد « ضربه بمنضدة فكاد يَغطس رأسه فى جسمه » . وطال البحث ، وطال ، فلما دقت الساعة الثامنة من الصباح ، كان فلتشانينوف خارجا من مكان دلّوه عليه ، فاذا هو أمام بافل بافلوفتش وجها لوجه .

كان بافل بافلوفتش فى حالة سكر تام : كانت تجره امرأتان الى ذلك المكان ، وكانت احداهما تسنده من ذراعه . وكان يتبعهم رجل ضخم قوى ، لا شك أنه منافس ، يحرك يديه حركات عريضة ، ويوجه الى بافل بافلوفتش أفحش أنواع التهديد والوعيد . كان يقول ، فيما يقول صارخا : « ان بافل بافلوفتش يستغله ويسمم حياته » . كان يبدو

أن الخلاف خلاف على مبلغ من المال . وكانت المرأتان تغذان خطاهما ، وقد ذعرتا ذعرا شديدا . فلما رأى بافل بافلوفتش صاحبه فلتشانينوف أسرع نحوه ، مادا اليه يديه ، وقال :

ـــ النجدة ، أيها الأخ .

فما ان رأى المنافس فلتشانينوف ولاحظ جسمه الرياضى القوى ، حتى اختفى فى مثل لمح البصر ، فأحس باقل بافلوفتش بأنه انتصر على خصمه ، فالتفت الى الوراء ، يلوح بيده ، وصرخ صرخة طويلة علامة الظفر . ولكن فلتشانينوف أمسكه من كتفيه (لا يدرى على وجه الدقة لماذا) ، وأخذ يهزه هزا عنيفا ، حتى صارت أسنانه تصطك من قوة ذلك الهز العنيف . فانقطع بافل بافلوفتش حالا عن الصراخ ، والتفت الى جلاده ينظر اليه نظرة سكير خائف مبهوت . ولعل فلتشانينوف كان لا يدرى ما يصنع به ، ولكنه أجلسه بحركة وحشية على حافة الرصيف ، وقال له :

ـــ ماتت ليزا .

ظل بافل بافلوفتش جالسا على حافة الرصيف تسنده احدى المرأتين ، وهو ما يزال معلقا بصره بفلتشانينوف . وأخيرا فهم ، فاذا بوجهه يسترخى فجأة .

ـــ ماتت ..

هكذا دمدم .

لم يعرف فلتشانينوف أبتسم صاحبه ابتسامة سكير خبيثة ، أم تشنج وجهه قليلا . ولكن بافل بافلوفتش ما لبث بعد برهة وجيزة أن

رفع يده اليمنى التي كانت ترتعش ، محاولا أن يرسم اشارة الصليب - غير أن الحركة لم تتم ، وسقطت يده . وبعد لحظة قصيرة ، نهض متثاقلا ، وأمسك بذراع المرأة ، وأخذ يسير متوكئا عليها ، كأنه لا يعى ما حوله ، وكأنه نسى فلتشانينوف نسيانا تاما ، ولكن فلتشانينوف قبض عليه مرة أخرى من كتفه ، وصرخ صراخا لاهثا يقول له :

ـــ هل تفهم ، يا سكير ، يا شيطان ، أن من المستحيل أن تدفن بدونك ؟

فتمتم بافل بافلوفتش يقول بصوت متلعثم :

ـــ هل تتذكر .. الملازم فى المدفعية ؟

فزأر فلتشانينوف يقول ، وهو يرتعش ارتعاشا مؤلما :

ـــ ماذا ؟

ـــ هو أبوها ، فابحث عنه ، من أجل الدفن ..

فصرخ فلتشانينوف ثائرا :

ـــ أنت كاذب .. انك تقول هذا الكلام عن خبث وشر .. كنت أعرف أنك ستلفق هذا التلفيق ..

قال ذلك ، وقد استبد به الحنق والغيظ ، ثم رفع قبضته القوية فوق رأس بافل بافلوفتش ، وهمّ أن يضربه ضربة تجهز عليه . فابتعدت المرأتان فجأة وهما تصرخان صرخات حادة ، ولكن بافل بافلوفتش لم يتزحزح ، وعبّر وجهه بانقباضه عن كره وحشى ، فظيع ..

قال بصوت مدوٍ قوى ، كأن سكره قد ذهب :

ـــ هل تعرف تعبيرنا الروسى ؟ (سأل هذا السؤال ونطق بشتيمة لا يمكن ذكرها) ، هل يعجبك هذا التعبير ؟ ابلعه اذن ! ..

ثم تملـّص بعنف من بين يدى فلتشانينوف ، وارتطم ، وكاد يقع . فأمسكته المرأتان من ابطه ، وهربتا به ، تجرانه جرا ، وهما تصرخان . فلم يتبعهم فلتشانينوف .

وفى الساعة الواحدة من الغد جاء الى منزل بورجورلتسيف موظف طاعن فى السن قليلا ، مهذب جدا ، يرتدى الزى الرسمى ، فتقدم من كلافديا بتروفنا وأسلمها ظرفا مختوما بعث به اليها بافل بافلوفتش . كان الظرف يحتوى ، عدا الوثائق اللازمة لدفن ليزا ، على رسالة وثلاثمائة روبل . وكانت الرسالة موجـزة تتضمن كثيرا من الأدب والاحترام ، يعبر بها بافل بافلوفتش لصاحبة السعادة كلافديا بتروفنا عن عظيم شكره على الرعاية النبيلة التى أحاطت بها اليتيمة ، والتى لا يستطيع الا الله أن يجزيها عليها ، ويقول بشىء من الغموض ان وعكة خطيرة ألمت به ، تمنعه من شهود دفن ابنته الشقية الحبيبة ، وانه يعتمد فى كل شىء على ما تتصف به صاحبه السعادة كلافديا بتروفنا من نبل كنبل الملائكة . أما عن الروبلات الثلاثمائة ، فيقول انها نفقات الدفن والنفقـات التى اقتضاها المرض . فاذا فاض من هذا المبلغ شىء فرجاؤه ، مع الخضوع وعظيم الاجلال ، أن ينفق فى اقامة قداس على روح ليزا . ولم يستطع الموظف أن يضيف شيئا على ما جاء فى الرسالة ، حتى لقد فـُهم من بعض كلامه أنه لم يقبل حمل هذا الظرف بنفسه الى صاحبة السعادة كلافديا بتروفنا الا بعد الحاح شـديد من بافل بافلوفتش . وقد شعر بوجورلتسيف من قول بافل بافلوفتش « النفقات التى اقتضاها المرض » بشىء من الاهانة ، فصرخ بأن من الواجب أن لا يحتفظ من المبلغ الا بخمسين روبلا للدفن (اذ يستحيل

أن يحرم أب من دفع نفقات دفن طفلته) ، وأن يرد الباقى فورا ، وهو مائتان وخمسون روبلا ، الى تروسوتسكى . ولكن كلافديا بتروفنا قررت أخيرا دفع هذا المبلغ الى كنيسة المقبرة ، على روح « العذراء اليزابث » ، وأخذت « ايصالا » بذلك ، أعطته لفلتشانينوف من أجل أن يرسله حالا الى بافل بافلوفتش ، فأودعه فلتشانينوف البريد على عنوان الفندق .

غاب فلتشانينوف عن الفيللا بعد دفن ليزا . وظل خلال أسبوعين كاملين ، يضرب فى المدينة على غير هدى ، على غير هدف ، وحيدا ، ذاهلا ، حتى ليصطدم بالناس فى الطرقات . وكان فى بعض الأحيان أيضا يبقى فى بيته أياما برمتها ، راقدا على سريره ، ناسيا حتى الأمور الأولية . وقد أرسلت أسرة بوجورلتسيف تستدعيه مرارا ، فكان يعد بأن يجىء ثم ما يلبث أن ينسى . وجاءت اليه كلافديا بتروفنا بنفسها ذات يوم ، ولكنها لم تجده . وهذا ما وقع أيضا لمحاميه الذى جاء يحمل اليه خبرا هاما ، وهو أنه استطاع ببراعته أن يرتب الأمور ، فحمل الخصم على أن يعقد مع فلتشانينوف اتفاقا يضمن له جزءا كبيرا جدا من الميراث موضوع الخلاف ، ولم يبق الا أن يوافق فلتشانينوف على ذلك . فلما استطاع المحامى أخيرا أن يجتمع به ، أدهشه أشد الدهشة أن زبونه هذا الذى كان متعجلا الأمر ، نافد الصبر ، قد استقبل النبأ بدون اكتراث .

كانت تلك الأيام أشد أيام تموز (يوليو) حرارة . ولكن فلتشانينوف كان قد فقد احساسه بالزمان . كان ألمه أشبه بقرحة

ناضجة ، فهو يسمم نفسه تسميما ، ويسيطر على فكره لا يبرحه لحظة . كان يعذبه خاصة أن ليزا لم تعرفه ، وأنها ماتت قبل أن تدرك مدى ما يكنه لها من حب أليم . ان الهدف الذى سطع أمامه ، قد انطفأ فجأة ، وغاب فى الظلام الأبدى . كان فلتشانينوف يفكر فى ذلك الهدف بلا انقطاع ، ويريد أن تشعر ليزا بما يضمره لها من حب لن يزول ما بقى هو على قيد الحياة . وكان يقول لنفسه أحيانا، وقد تملكته حماسة قاتمة مظلمة : « ليس لأحد ولا يمكن أن يكون لأحد هدف أعلى من ذلك الهدف . قد يكون ثمة أهداف أخرى ، ولكن ذلك الهدف أقدسها جميعا » .

كان يقول لنفسه : « ان حب ليزا كان يمكن أن يطهر نفسى ، وأن يفدى حياتى الماضية العقيمة السيئة .. كان يمكننى ، أنا الانسان العاطل ، الفاسد ، المتعب ، أن أسعد بتدليل مخلوق نقى جميل ، تغفر لى من أجله كل الخطايا ، وأغفر لنفسى من أجله كل الخطايا » .

جميع أفكاره ، الواعية كل الوعى ، كانت مرتبطة ارتباطا لا انفصام له بذكرى الطفلة الميتة ، هذه الذكرى الواضحة ، الماثلة فى ذهنه دائما ، المؤلمة لقلبه بغير انقطاع . كان يرى وجهها الصغير الشاحب ، ويتذكر كل تعبير لاح فى ذلك الوجه . كان يراها كما كانت فى تابوتها تحف بها الأزهار .. وكان يراها راقدة فى فراشها وقد أضنتها الحمى وغابت عن الدنيا وجمدت عيناها . وتذكر فجأة أن احدى أصابعها الصغيرة قد اسودت قبل الموت ، لا يدرى الا الله لماذا ؟ فأثر فيه ذلك تأثيرا شديدا ، وأشفق على هذه الأصبع

اشفاقا كبيرا ، وفى تلك اللحظة انما انبثقت فى ذهنه لأول مـرة ، فكرة البحث عن بافل بافلوفتش فورا ليقتله . أما قبل ذلك فقد كان « لا يحس شيئا » .

هل المذلة التى عاناها قلب هـذه الطفلة هى التى حطمته ، أم حطمته الآلام التى سببها لها أبوها خـلال ثلاثة أشهر ، ذلك الأب الذى حل الكره محل حبه على حين فجأة ، فأخذ يهينها ويشـتمها ويعبث بخوفها ، ثم تركها لغرباء ؟ لم ينقطع قلتشانينوف عن التفكير فى هذا كله ، وظل يجتر هذه الأفكار ويقلبها على ألف وجه ووجه . وتذكر بغتة ، صيحة تروسوتسكى : « هل تعرف ما هى ليزا بالنسبة الىّ » ، فأدرك أن هذه الصيحة لم تكن صيحة سكران ، بل كانت صيحة صادقة ، كانت حبا . « كيف استطاع هذا الوحش أن يقسو كل تلك القسوة على هذه الطفلة التى كان يحبها ذلك الحب كله ؟ هل هذا ممكن ؟ .. » . هكذا كان يتساءل أحيانا ، ولكنه كان فى كل مرة يطرد هذا السؤال من فكره ، ويرميه الى بعيد . كان فى ذلك شىء رهيب ، رهيب جدا ، لا يقين فيه .

وفى ذات يوم ، ذهب ، على غير وعى تقريبا ، الى المقبرة التى دفنت فيها ليزا ، واتجه نحو قبرها . لم يكن قد ذهب الى هناك مرة واحـدة بعـد الدفن . كان يبـدو له أنه سيعانى ألما لا قبل له باحتماله ، فلم يجرؤ أن يذهب . ولكن الشىء الغريب أنه حين انحنى على القبر ، وطبع عليه قبلة طويلة شعر فجأة بشىء من الراحة. كان المساء صافيا والشمس تغرب . وقد نبتت حول القبور أعشاب كثيفة غضة نضيرة . وكان ثمة نحلة تدندن فى دغل من أشجار الزعرور.

وكانت الأزهار والأكاليل التى وضعها أولاد كلافديا بتروفنا على القبـــر الصغير ما تزال هناك ، وقد تساقط بعض أوراقها . فشعر فلتشانينوف ، لأول مرة ، منذ مدة طويلة ، بشيء من الأمل يحيى قلبه . قال فى نفسه وقد تسلل الى روحه ما فى المقبرة من هــدوء ، وغاب بصره فى السماء الصافية : « ما أعذب هذا ! » . ان طمأنينة غريبة ، هــادئة ، صافية قد صعدت فيه ، وملأت نفســه . قال : « ليزا هى التى ترسل الىّ هذا ، ليزا هى التى تخاطبنى » .

وحين قفل راجعا ، كان الليل قد هبط . ومرّ ، فى الطريق ، غير بعيد عن المقبرة ، ببيت من خشب هو نوع من فُندق ريفى . وكانت النوافذ مفتوحة ، فرأى فى داخل البيت أناسا متحلقين حول مائدة . ثم بدا له فجأة أن واحدا منهم ، جالسا قرب النافذة ، يراه أيضا ، وينظــر اليه نظــرة مستطلعة : انه بافل بافلوفتش . فتابع سيره ، وما لبث أن سمع وقع خطوات وراءه . انه بافل بافلوفتش يركض محاولا اللحاق به . لعل ما كان يشيع فى وجه فلتشانينوف من هدوء وطمأنينة قد شجعه بل جــذبه . فلما وصــل اليه ، ابتسم ابتسامة خائفة ، ولكنها ليست ابتسامة السكير التى عهدها فيه . لم يكن الآن ثملا .

ــ مساء الخير .

ــ مساء الخير .

١١

بافل بافلوفتش يتزوج

ما كاد ينطق فلتشانينوف بهاتين الكلمتين حتى استغرب ذلك هو نفسه . لقد أدهشه كثيرا أن رؤية هذا الرجل لم تثر فيه الغضب ، بل أيقظت فيه عواطف أخرى مختلفة عن الغضب كل الاختلاف ، أو قل أيقظت فيه رغبة فى الشعور بهذه العواطف الأخرى . قال بافل بافلوفتش بلهجة لطيفة :

ــ ما أجمل هذا المساء !

ــ ألم تسافر بعد ؟

قال فلتشانينوف ذلك ، وهو يتابع سيره ، وكأنه لا يطرح سؤالا بل يفكر بصوت عال .

ــ نعم ، لقد تأخرت بعض التأخر ، ولكننى حصلت على تعيينى فى منصب أعلى ، وسأسافر بعد غد حتما .

فسأله فلتشانينوف هذه المرة :

ـــ حصلت على تعيينك ؟

فأجاب بافل بافلوفتش وهو يمط شفتيه قليلا :

ـــ لِمَ لا ؟

ـــ نعم ، نعم ، وانما قلت ذلك ..

وقطب فلتشانينوف ما بين حاجبيه ، وجعل يتفرس فى بافل بافلوفتش خلسة . فما كان أشد دهشته حين رأى ثياب السيد تروسوتسكى ، وقبعته ذات الشريط الأسود ، ومظهره كله ، قد أصبحت أليق كثيرا مما كانت منذ أسبوعين . فتساءل بينه وبين نفسه : « ترى ما وجوده فى هذا الفندق ؟ » .

وعاد بافل بافلوفتش يقول :

ـــ كنت أنوى يا ألكسى ايفانوفتش أن أنهى اليك فرحة أخرى .

ـــ فرحة ؟

ـــ اننى أتزوج .

ـــ كيف ؟

ـــ بعد العذاب يأتى السرور . هذه سنة الحياة . أود لو .. يا ألكسى ايفانوفتش .. ولكننى لا أدرى .. قد تكون مستعجلا . ان مظهرك ..

أنا مستعجل حقاً وأشعر بشىء من الاعياء .

لقد شعر فلتشانينوف فجأة برغبـة فى التخلص من رفيقـه . ان الاستعدادات الطيبة التى نبتت فى نفسه منذ قليل ، قد تبددت بغتـة .

ـــ كنت أتمنى لو ..

لم يقـل بافل بافلوفتش ما كان يتمناه ، ولا اهتم فلتشانينوف بكلامه .

ـــ اذن أرجىء ذلك الى مرة أخرى ، اذا نحن التقينا .

ـــ نعم نعم ، الى مرة أخرى .

قال فلتشانينوف ذلك بسرعة دون أن ينظر اليه ، وهو يتابع سيره.

وساد الصمت دقيقة من الزمن . وكان بافل بافلوفتش يسير الى جانبه . قال أخيرا :

ـــ الى اللقاء ، اذن .

ـــ الى اللقاء ، أتمنى لك ..

ورجع فلتشانينوف الى بيته وقد عاد اليه اضطراب شـديد . ان رؤية « هـذا الشخص » كانت حقـا فوق ما تطيقـه قواه . ولما استلقى فى سريره ، تساءل مرة أخـرى : « ما وجـوده قرب المقبـرة ؟ » .

وفى صباح غد ، قرر أخيرا أن يذهب الى منزل بوجورلتسيف ، قرر ذلك على مضض . كان يؤلمه كل مظهر من مظاهر العطف ، حتى عطف أسرة بوجورلتسيف . ولـكنهم كانوا فى قلق عليه ، فلابد أن

يذهب اليهم . وخيل اليه فجأة أنه سيشعر بشيء من العار حين يعود الى رؤيتهم لأول مرة . كان يتساءل وهو يسرع فى الانتهاء من التهام فطـوره « أأذهب أم لا أذهب ؟ » ، فاذا هو يرى بافل بافلوفتش يدخل فجأة عليه ، فدُهش من ذلك أشد الدهشة .

كان فلتشانينوف ، رغم لقاء الأمس ، لا يستطيع أن يتخيل أن هذا الرجل سيتخطى عتبة بيته يوما ، فبلغ من شدة ذهوله عند رؤيته أنه نظر اليه دون أن يستطيع مخاطبته بكلمة . ولكن بافل بافلوفتش حياه بدون تحرج ، وجلس على ذلك الكرسى نفســه الذى جلس عليه منذ ثلاثة أسابيع ، عند زيارته الأخيرة التى تذكرها فلتشانينوف فجأة بوضوح ما بعده وضوح . نظر فلتشانينوف الى الزائر نظـرة يمتزج فيها القلق بالاشمئزاز .

قال بافل بافلوفتش ، وقد أدرك معنى هذه النظرة :

ـــ أأنت مندهش ؟

انه الآن أقل تحرجا مما كان بالأمس ، ولكن المرء يشعر مـع ذلك أنه أكثر خجلا وخوفا . كان مظهره غريبا كل الغرابة . لم تكن ثيابه لائقة فحسب ، بل كانت أنيقة أيضا : كان يرتدى سترة صيفية خفيفة ، وسروالا ضيقا زاهرا ، وصدرة ناصعة ، وقفازين ، وقميصا أبيض جديدا ، وكان يضع على احدى عينيه نظارة ذهبية ، لا يدرى الا الله لماذا ! كان ذلك كله أنيقـا غاية الأناقة . حتى لقد تطيب بالعطر . كان فى مظهره هذا كله شيء مضحك يثير فى الوقت نفسه فكرة غريبة ، مزعجة .

تابع يقول بجهد ظاهر :

ـــ واضح ، يا ألكسى ايفانوفتش أن زيارتى تدهشك . انتى أحس بذلك ، ولكننى أقول ان هناك بين الناس دائما شيئا أسمى من جميع الاحتمالات ومن جميع الازعاجات التى يمكن أن تقع ، أليس كذلك ؟..

ـــ بافل بافلوفتش ، قل بسرعة كل ما تريد أن تقول ، قله بلا تكلف ولا تصنع .

قال فلتشانينوف ذلك ، وقطب ما بين حاجبيه .

فأسرع بافل بافلوفتش يقول :

ـــ اليك الأمر بكلمتين : سأتزوج ، وأنا ذاهب حالا الى خطيبتى . انها تسكن فى الريف أيضا . وأتمنى لو أشرف بتقديمك الى أسرتها ، لذلك أبيح لنفسى أن أرجوك بكثير من المذلة والخضوع (قال ذلك وأحنى رأسه) أن ترافقنى اليها .

ـــ أرافقك الى أين ؟

قال فلتشانينوف ذلك محملقا .

ـــ اليهم ، فى الفيللا التى يسكنونها . عفوك يا ألكسى ايفانوفتش ، اننى محموم قليلا ، وقد أكون على شىء من الارتباك ، ولكننى أخاف كل الخوف أن ترفض تلبية رجائى .

ونظر الى فلتشانينوف نظرة متوسلة دامعة .

قال فلتشانينوف ، وهو يلقى عليه نظرة سريعة ، ولا يكاد يصدق عينيه ولا أذنيه :

ـــ تريد منى أن أرافقك الآن الى بيت خطيبتك ؟

قال بافل بافلوفتش وقد تملكه رعب شديد :

ـــ نعم . لا تحنق عليّ يا ألكسى ايفانوفتش . ليس ذلك منى وقاحة ، بل رجاء ، رجاء ذليل . لقد تخيلت أنك قد لا ترفض تلبية هذا الرجاء .

ـــ أولا ، هذا مستحيل ..

قال فلتشانينوف ذلك وأخذ يتحرك على كرسيه . فتابع بافل بافلوفتش كلامه مصرا :

ـــ هـــذه رغبة قصـــوى من رغباتى ، وليست شيئا آخـــر . لا أكتمك أن ثمة دافعا آخر يدفعنى الى هذا ، ولكننى لا أريد أن أبوح لك بهذا الدافع الا فيما بعد ، أما الآن ، فأرجوك ، وألح فى الرجـــاء ..

حتى لقد نهض وقد امتلأ احتراما واجلالا . فنهض فلتشانينوف أيضا وهو يقول :

ـــ ولكن هـــذا مستحيل ، على كل حال . يجب أن توافقنى على ذلك .

ـــ بل هو غير مستحيل يا ألكسى ايفانوفتش . اننى أنوى أن أقدمك اليهم صديقا . ثم انهم يعرفونك هناك . انهم أسرة زاخليبينين، مستشار الدولة زاخليبينين .

فهتف فلتشانينوف متعجبا :

ـــ كيف ؟

انه زاخليبينين مستشار الدولة ذاك نفســه ، الذى حـــاول فلتشانينوف أن يلقاه فى بيته ، والذى كان يرى فى دعوى الميراث رأيا مخالفا لمصلحته .

قال بافل بافلوفتش ذلك وهو يبتسم ، كأن الاندهاش الشديد الذى ظهر على فلتشانينوف قد بث فى نفسه شيئا من الشجاعة :

ـــ نعم ، نعم . انه هو نفسه . هل تتذكره ؟ كنتما تسيران معا، وكنت أنا أنظر اليكما من الرصيف الثانى ، أنتظر أن تتركه لاقترب منه . لقد عملنا معا فى ادارة واحدة ، منذ عشرين سنة . ولكننى حين كنت أتهيأ للاقتراب منه ، لم يكن فى ذهنى أى مشروع ، وانما انبعثت هذه الفكرة فى نفسى منذ أسبوع .

قال فلتشانينوف بدهشة ساذجة :

ـــ ولكن قل لى . ان هذه الأسرة أسرة محترمة جدا ، فيما يخيل الى .

ـــ محترمة جدا جدا . وماذا ؟

قال بافل بافلوفتش ذلك ، وانقبضت أسارير وجهه قليلا .

ـــ أوه ! لا شيء .. ليس هذا ما كنت أريد أن أقوله ..

قاطعه بافل بافلوفتش يقول بسرعة فرحة :

ـــ انهم يتذكرون زيارتك ، يتذكرونها . ولكنك لم تستطع أن ترى الأسرة فى ذلك اليـــوم . أما الأب فانه يتذكرك ، ويقـــدرك . لقد حدثته عنك بأجمل عبارات الاحترام .

— ولكنك لم تترمل الا منذ ثلاثة أشهر . .

— لن يتم الزواج فورا . لن يتم الا بعد تسعة أشهر أو عشرة، وبذلك أكون قد لبست السواد سنة كاملة . صدقنى اذا قلت لك ان كل شيء حسن . أولا ، لقد عرفنى فيدوسى بتروفتش طفلا ، وعرف بعد ذلك زوجتى ، وعرف كيف عشنا ، وهو واقف على عملى . ثم ان لى بعض الثراء ، وقد عينت لمنصب أرفع .. هذا كله له قيمته ..

— هى اذن ابنته ؟

— سأقص عليك هذا تفصيلا .

قال بافل بافلوفتش ذلك وفرك يديه سرورا . ثم أردف يقول :

— ولكن اسمح لى بأن أشعل سيجارة . على أنك سترى بأم عينك اليوم ان رجال الأعمال من أمثال فيدوسى بتروفتش يقدّرون فى دوائرهم كثيرا ، هنا ببطرسبرج ، حين يتوصلون الى ابراز أنفسهم ، ولفت الأنظار اليهم . ولكن واحدهم ، فيما عدا مرتباته وغير ذلك من مبالغ اضافية ، ومكافآت فى الأعياد وتعويضات السكن والطعام ، لا يملك شيئا البتة . انه يعوزه رأس المال . صحيح انه يعيش حياة رخية ، ولكنه لا يدخر شيئا ، خاصة اذا كانت أسرته كبيرة . ان لفيدوسى بتروفتش مثلا ، ثمانى بنات ، وصبيا صغيرا . تصور أنه لو مات اليوم لما ترك لهم الا معاشا زهيدا . ثمانى صبايا ! تصور ! لا ، لا ، تصور ، تصور ! .. لو اشترى لكل منهن حذاء ، لدفع من أجل ذلك مبلغا

ضخما . ان خمسة منهن هن الآن فى سن الزواج كبراهن فى الرابعة والعشرين من عمرها (فتاة فاتنة ، سترى) . أما السادسة ، وعمرها خمسة عشر عاما ، فما تزال فى المدرسة الثانوية . يجب ايجاد أزواج للخمس الكبريات ، ويجب تدبير ذلك بسرعة : وعلى الأب اذن أن يمضى ببناته الى المجتمع الراقى . تصور كم يكلف هذا من نفقات ! هأنذا أتقــدم الى هذا البيت أول خاطب .. انهم يعرفوننى حق المعرفة . يعرفون أن لى ثروة . هذا كل شىء .

كان بافل بافلوفتش يتحدث بحرارة فرحة .

ــ هل الكبرى هى التى خطبتها ؟

ــ لا .. أنا .. ليست هى الكبرى . لقد خطبت السادسة التى ما تزال فى المدرسة الثانوية .

فقال فلتشانينوف وهو يبتسم على غير ارادة منه :

ــ كيف ؟ ألم تقل ان سنها خمسة عشر عاما ؟

سنها الآن خمسة عشر عاما ، ولكنها ستكون بعد تسعة أشهر ستة عشر عاما ، ستة عشر عاما وثلاثة أشهر . ثم ، لِمَ لا ؟ ولما كان ذلك لا يليق الآن ، فاننا لم نعلن شيئا . اتفقنا على ذلك مع الأهل . كل شىء حسن . صدقنى .

ــ اذن لم يتقرر الأمر بعد ؟

ــ بل تقرر . تقرر كل شىء . كل شىء حسن . صدقنى .

ــ وهى ؟ هل تعلم ؟

ــــ هى لا تتحدث فى ذلك مراعاة للمواضعات . ولكن كيف يمكن أن تجهل الأمر ؟

قال بافل بافلوفتش ذلك ، وغمز بعينيه ، ثم أضاف يختم كلامه خجلا :

ــــ فماذا ؟ هلا أفرحتنى هذه الفرحة ؟

ــــ ولكن ما عساى فاعلا هناك ؟

قال فلتشانينوف ذلك ، ثم أضاف بسرعة :

ــــ على كل حال ، ما دمت لن أذهب ، فلا داعى الى دكر الأسباب التى تحملك على اصطحابى .

ــــ ألكسى ايفانوفتش ..

ــــ ولكن كيف يمكننى أن أجلس الى جانبك فى عربة ؟ فكر فى هذا الأمر !

ان شعور النفور والاشمئزاز الذى بددته ثرثرة بافل بافلوفتش الى حين ، يستيقظ الآن فى فلتشانينوف أقوى وأعنف ، حتى لكأنه يهمّ أن يطرده من بيته . وكان فلتشانينوف يؤاخذ نفسه على ذلك ، لا يدرى لماذا !

ــــ ستجلس الى جانبى يا ألكسى ايفانوفتش ، ستجلس الى جانبى ، ولن تندم على ذلك .

قال هذا بصوت متأثر . فلما رأى فلتشانينوف يحرك يده حركة مفاجئة تدل على نفاد صبره ، أضاف :

ـــ لا ، لا ، لا ، يا ألكسى ايفانوفتش . ألكسى ايفانوفتش ، ألكسى ايفانوفتش ! انتظر قليلا قبل أن تتخذ قرارا . يخيل اليّ أنك ربما أسأت فهمي . انني أفهم أننا لا يمكن أن نكون رفيقين . لست من الغباء بحيث لا أستطيع أن أفهم ذلك . والخدمة التي أرجوك الآن أن تقدمها اليّ لا تربطك بشيء في المستقبل . ثم انني مسافر بعد غد حتما ، فكأن شيئا لم يحدث . هو هذا اليوم وكفى . حين جئت اليك ، كنت أبني كل أملي على نبل عواطفك ، يا ألكسى ايفانوفتش ، على هذه العواطف التي استطاعت في هذه الآونة الأخيرة ، أن تستيقظ في قلبك .. أظن أن كلامي واضح . أم تراه غير كاف بعد ؟

بلغ بافل بافلوفتش أقصى حدود الاضطراب ، وكان فلتشانينوف ينظر اليه مندهشا . قال وهو يفكر :

ـــ انك تطلب مني تقديم خدمة لك ، وتلح في ذلك الحاحا يدعوني الى الحذر والريبة . أريد مزيدا من المعرفة بالأمر .

ـــ الخدمة التي أطلب منك أن تقـــدمها لي هي أن تصحبني ، ولا شيء غير ذلك . وبعد أن نعـــود ، سأقص عليك كل شيء ، كمن يعترف لكاهن . ألكسى ايفانوفتش ، ثق بي .

ولكن فلتشانينوف أصر على رفضه ، خاصة وقد أحس بفكرة غامضة سيئة تبزغ في نفسه . كانت هذه الفكرة تضطرب فيه مبهمة منذ تحدث بافل بافلوفتش عن خطيبته . أهي حب الاطلاع وحده ، أم هي رغبة أخرى لم تتبلور بعد ؟ كان ثمة شيء يدفعه الى القبول ، ولكنه كان كلما ازداد الاغراء قوة يزداد هو مقاومة . كان جالسا على

كرسيه ، متكئا على ذراعه ، يفكر . وكان بافل بافلوفتش يدور حوله ويتوسل اليه .

وفجأة قال مضطربا ، قلقا بعض القلق :

— سأذهب .

فظهرت على بافل بافلوفتش امارات فرح عظيم . قال وهو يتواثب حول فلتشانينوف الذى أخذ يرتدى ملابسه :

— ولكنى أرجوك يا ألكسى ايفانوفتش أن تتأنق ، كما تجيد ذلك كل الاجادة .

« لماذا يورط هذا السخيف نفسه فى مثل هذا الأمر ! » . ذلك ما قاله فلتشانينوف لنفسه .

— أنتظر منك خدمة أخرى يا ألكسى ايفانوفتش . ما دمت قد وافقت على اصطحابى ، فكن الآن مستشارى .

— فى أى شيء مثلا ؟

— سؤال هام جدا : الشريط الأسود ، أأبقيه أم أرفعه ؟ أى الأمرين أليق ؟

— كما تريد .

— لا ، لا ، انتى أنتظر قرارك . ماذا كنت تفعل أنت ، لو كان على قبعتك شريط أسود ؟ كان من رأيى أن أبقيه ، لأن ذلك يدل على وفائى وعلى ثبات عواطفى ويزكينى .

— يجب أن ترفعه بداهة .

— هل ذلك بديهى الى هذه الدرجة ؟

قال بافل بافلوفتش ذلك ، وسكت يفكر لحظة ، ثم أضاف :

— لا بل أوثر أن أبقيه .

— كما تريد .

قال فلتشانينوف لنفسه : « انه مع ذلك لا يثق بى . حسن جدا ».
وخرجا . كان بافل بافلوفتش ينظر بكثير من الدهشة الى فلتشانينوف الأنيق كل الأناقة ، وكان وجهه يعبر عن مزيد من المهابة وخطورة الشأن . كان وضعه يثير دهشة فلتشانينوف الذى كان وضعه الخاص يدهشه أكثر من ذلك أيضا . وكانت عربة جميلة تنتظرهما عند الباب .

— هل استأجرت عربة قبل أن تصعد الىّ ؟ أكنت اذن واثقا كل هذه الثقة من أننى سأوافق ؟

— طلبت العربة لنفسى ، وكنت على شبه يقين من أنك ستجىء أيضا .

أجاب بافل بافلوفتش بذلك ، وقد لاحت فى وجهه كل أمارات السعادة .

قال فلتشانينوف حانقا بعض الحنق ، حين ركبا العربة ، وسارت بهما :

— هيه ، بافل بافلوفتش ! ألا تظن أنك مسرف فى الثقة بى ؟

فأجاب بافل بافلوفتش جادا بصوت قوى :

— ما أنت ، يا ألكسى ايفانوفتش ، ما أنت من يقول لى ان هذا حماقة منى .

تساءل فلتشانينوف بينه وبين نفسه قائلا : « وليزا ؟ » لكنه ما لبث أن دفع هذه الفكرة عن نفسه ، كأنه يخشى أن يدنس المقدسات. وفجأة ظهر لنفسه صغيرا تافها ، وظهرت له الفكرة التى كانت تغريه فكرة بائسة دنيئة ، فأحس مرة أخرى برغبة قوية فى أن يدع كل شيء ، وأن يقفز الى خارج العربة ، ولو اقتضى ذلك أن يستعمل القوة مع بافل بافلوفتش . ولكن بافل بافلوفتش عاد يتكلم ، فاستولى الاغراء مرة أخرى على نفس فلتشانينوف .

— ألكسى ايفانوفتش ، هل لك خبرة بالأحجار الكريمة ؟

— أى أحجار كريمة ؟

— الماس .

— نعم ، لى به خبرة .

— أريد أن أقدم هدية صغيرة . فقل لى : هل يجب أن أفعل ذلك؟

— فى رأيى ، لا .

— أما أنا فأريد أن أقدم هذه الهدية ، ولكن ماذا اشترى ؟ أأشترى الطقم كاملا : حلية الصدر ، وقرطى الأذنين ، والسوار ، أم أكتفى بشيء واحد ؟

— كم تريد أن تدفع فى ذلك ؟

— أربعمائة روبل ، أو خمسمائة .

ــ أوه .. أوه ..

ــ هل هذا كثير ؟

قال بافل بافلوفتش ذلك قلقا . فأجابه فلتشانينوف :

ــ لا تشترى الا سوارا بمائة روبل .

بدا الحزن والأسف على بافل بافلوفتش . انه يريد أن يدفع أكثر من ذلك ، يريد أن يشترى طقما كاملا . وأصر على ذلك . ووقفت بهما العربة أمام أحد المخازن . فلم يشتريا مع ذلك الا سوارا ، لا السوار الذى أحب بافل بافلوفتش أن يشتريه ، بل السوار الذى نصح به فلتشانينوف . وقد أراد بافل بافلوفتش أن يشترى السوارين كليهما ، وحين قبل الصائغ أن يبيع السوار بمائة وخمسين روبلا بعد أن طلب مائة وستين ، شعر بافل بافلوفتش من ذلك ببعض الاستياء - انه مستعد لدفع مائتين ، اذا طلب منه ذلك . هكذا كانت رغبته فى الانفاق قوية .

فلما استأنفت العربة المسير قال بافل بافلوفتش ، وقد ازداد فرحا :

ــ لا ضير فى أن أقدم بعض الهدايا منذ الآن . انهم ليسوا من الطبقة المتكلفة المتصنعة ، هؤلاء أناس بسطاء .

ثم قال وهو يبتسم ابتسامة مرحة متخابثة :

ــ البراءة تحب الهدايا الصغيرة . لقد ضحكت منذ هنيهة من الأعوام الخمسة عشرة ، يا ألكسى ايفانوفتش ، ولكن هذا نفسه هو ما ألهب خيالى .. أنها ما تزال تذهب الى المدرسة ، وبيدها كيس صغير مما تحمله التلميذات .. هىء هىء هىء ! ذلك الكيس هو الذى

استولى عليّ . اننى أحب البراءة يا ألكسى ايفانوفتش . وفى نظرى أن البراءة ، لا جمال الوجه ، هى الشيء الهام . ما أروع تلك الضحكات فى الزوايا مع صديقة ! وفى أى موضوع ؟ فى موضوع قطة قفزت من المنضدة الى السرير ، وتدحرجت عليه . يا للتفاح الغض النضير ! .. قد يكون من الأفضل أن أنزع الشريط الأسود ، أليس كذلك ؟

— كما تريد .

— أنزعـــه .

خلع قبعته ، فنزع منها الشريط الأسود ، ورماه الى الطريق . ورأى فلتشانينوف وجهه يشرق بالأمل حين أعاد قبعته الى رأســه الأصـــلع .

ولكن فلتشانينوف تساءل وقد تملكه غضب حقيقى : « أحقا هذا كل شيء ؟ ألا ينطوى الحاحه على أى فخ ؟ أهو يعتمد حقا على كرمى وسماحتى ؟ » ، حتى لقد بدا له هـــذا الافتراض الأخـــير مهينا . « ما هذا الانسان ؟ مهرج ، أبله ، زوج أبدى ؟ ولكن هذا مستحيل ، أخـــيرا ! .. » .

١٢

عند أسرة زاخليبينين

كانت أسرة زاخليبينين « أسرة محترمة » حقا ، كما قال فلتشانينوف منذ قليل : كان الأب يشغل منصبا عاليا ، وكان رجلا مرموقا . وما قاله بافل بافلوفتش عن مواردهم المالية صحيح أيضا : « انهم يعيشون حياة مترفة ، ولكن لو مات الأب لمـا بقى لهـم شيء » .

واستقبل زاخليبينين صاحبنا فلتشانينوف بحرارة عظيمة . أصبح الخصم صديقا . قال أول ما قال ، بلهجة لطيفة لكنها رصينة :

ـــ أهنئك . هذا أفضل . لقد ألححت أنا نفسى على اللجوء الى حل بالتراضى . أما بيوتر كارلوفتش (محامى فلتشانينوف) فانه رجل ممتاز من هذه الناحية . ستقبض ستين ألف روبل ، بلا مناقشات ، ولا تأجيلات .. بينما كان يمكن أن تطول القضية ثلاثة أعوام !

وقدّم فلتشانينوف رأسا الى السيدةزاخليبينين . انها سيدة متقدمة فى السن ، بدينة جدا ، ذات وجه متعب عادى . وجاءت البنات بعد ذلك ، بعضهن وراء بعض . انهن كثيرات : عشر أو اثنتا عشرة لم يستطع فلتشانينوف حتى أن يعدهن . بعضهن يدخل ، وبعضهن يخرج .. ولكن بينهن بنات من الجيران ، وصديقات للأسرة . كانت فيللا أسرة زاخليبينين بناء كبيرا من الخشب ، شيد على طراز مجهول غريب ، له ملحقات ترجع الى عهود مختلفة ، وحديقة واسعة تتصل بها ثلاث فيللات أخرى أو أربع ، فكانت الحديقة اذن مشتركة ، وكان هذا يسهل التقارب اذن بين الآنسات زاخليبينين وجاراتهن .

أدرك فلتشانينوف ، منذ الكلمات الأولى ، أنهم كانوا ينتظرونه ، وأنهم قد أبلغوا نبأ زيارته بشىء من الاحتفال ، على أنه صديق لبافل بافلوفتش يرغب فى أن يتعرف بالأسرة . وسرعان ما استطاعت نظرته الثاقبة الخبيرة فى هذه الشئون ، أن تكتشف النية الخاصة التى تثوى وراء هذه الحفاوة : فقد استنتج من هذا التودد الشديد الذى استقبله به الأبوان ، ومن ذلك التهيؤ وهذه الزينة فى الآنسات (وكن فى أجمل حلة حقا) أن بافل بافلوفتش قد عمد الى الحيلة فأيقظ فى النفوس بعض الآمال بكلمات مستترة طبعا ، فوصف فلتشانينوف أمام هذه الأسرة بأنه رجل من « الطبقة الراقية » ، ذو ثراء ، قد سئم حياة العزوبة ، ويمكن أن « ينهيها » ، وأن يستقر ، خاصة وأنه قد « ورث منذ قليل » . كان واضحا أن كبرى الآنسات زاخليبينين ،واسمها كاترينا فيدوسييفنا ، وهى التى فى الرابعة والعشرين من عمرها والتى تحدث عنها بافل بافلوفتش قائلا انها فتاة فاتنة ، قد اتخذت وضعا خاصا .

كانت تتميز عن أخواتها بمزيد من العناية بهندامها ، وبتلك الطريقة الطريفة فى تصفيف شعرها الجميل . وكان يبدو فى وجوه أخواتها وفى وجوه سائر الفتيات انهن على يقين من أن فلتشانينوف قد جاء « يتمعَّن كاتيا » . كانت نظراتهن وحتى بعض الكلمات التى أفلتت منهن أثناء النهار تؤيد هذا الافتراض الذى افترضه فلتشانينوف . ان كاترينا فيدوسويفنا شقراء فارعة القوام ، قوية البنية ، تكاد تكون مليئة ، ذات وجه محبب وطبع عذب ، ساكن ، لا يخلو من رخاوة . تساءل فلتشانينوف بينه وبين نفسه ، رغما عنه ، وهو ينظر اليها شاعرا بشيء من اللذة : « انه لغريب حقا انها لم تتزوج الى الآن . صحيح أنها لا تملك بائنة ، وأنها ستصبح مسرفة فى السمنةِ بعد قليل . ولكن لابد أن يوجد الآن هواة .. » ولم تكن الأخوات الأخريات غير جميلات أيضا . ولاحظ فلتشانينوف بين الجارات وجوها مليحة بل جميلة . وأخذ هذا الموضوع يسليه . ثم انه قد بيّت أمرا عند دخوله .

أما ناديجدا فيدوسويفنا ، الأخت السادسة ، التلميذة فى المدرسة الثانوية ، التى كان بافل بافلوفتش يعدها خطيبته ، فقد أخذ فلتشانينوف يشتهى أن يراها ، فكان ينتظرها بصبر فارغ ، حتى لقد أدهشه ذلك منه فى أعماق نفسه . ودخلت أخيرا ، تصحبها صديقة لها اسمها ماريا نيكيتشنا ، وهى فتاة سمراء يقظة الوجه حاذقة شرسة كان بافل بافلوفتش يخاف منها خوفا شديدا كما اتضح ذلك فيما بعد . ان ماريا نيكيتشنا هذه فتاة فى الثالثة والعشرين من عمرها ، ضحوك ذكية ، تعمل مربية عند أسرة صديقة من الجيران لها أطفال صغار . وكانت أسرة زاخليبينين منذ مدة طويلة تعدها منها ، وكانت الفتيات

تحبها حب عبادة . وكان واضحا أن ناديا خاصة لا تستطيع الاستغناء عنها في هذه اللحظة . لاحظ فلتشانينوف من النظرة الأولى أن الفتيات جميعا قد اعتصبن على بافل بافلوفتش ، حتى الجارات ، ولم يلبث أن لاحظ أيضا بعد دخول ناديا بدقيقة واحدة أنها تحتقره أيضا . ولاحظ كذلك أن بافل بافلوفتش لا يدرك ذلك ، أو لا يريد أن يصدقه . كانت ناديا أجمل أخواتها ، ما في ذلك جدال : فتاة صغيرة سمراء ، عنيفة الوجه قليلا ، جريئة جسورة ، شيطانة ذات عينين ملتمعتين براقتين ، وابتسامة عذبة على مكر وخبث في بعض الأحيان ، وشفتين جميلتين ، وأسنان رائعة ، وكانت ذات قوام أهيف ، ممشوق . وكان وجهها ، على أنه ما يزال وجه طفلة ، يعبر منذ الآن عن حرارة الروح، واتقاد الفكر . وكانت كل حركة من حركاتها وكل كلمة من كلماتها تنبىء عن سنيها الخمس عشرة . وقد اتضح فيما بعد أنها حقا كانت تحمل كيسا من القماش المشمع مما تحمله التلميذات ، حين رآها بافل بافلوفتش أول مرة ، ولكنها أصبحت الآن لا تحمل هذا الكيس.

لم يظفر السوار بالاعجاب ، حتى لقد أحدث شيئا من الانزعاج . ان بافل بافلوفتش ، ما ان لمح خطيبته ، حتى تقدم منها مبتسما ، وقدم لها هديته بحجة « السرور العظيم الذى شعر به في المرة السابقة حين غنّت ناديجدا فيدوسويفنا تلك الأغنية الجميلة على البيانو .. » قال ذلك ، وارتبك ، ولم يستطع أن ينهى كلامه ، بل ظل حائرا مضطربا يحاول أن يدس العلبة في يد ناديا التي كانت لا تريد أن تأخذها ، وكانت تحاول أن ترد ذراعيها الى وراء ، وقد احمر وجهها خجلا

وغضبا . ثم التفتت بوقاحة الى أمها التى كان يبدو عليها انزعاج شديد، فقالت بصوت عال :

ـــ لا أريد أن آخذها يا أمى !

قال الأب بصوت حازم قاس :

ـــ خذيها ، واشكريه .

ولكن الأب كان مستاء هو أيضا ، فقال لبافل بافلوفتش بصوت منخفض وهو ينظر اليه نظرة ذات معنى :

ـــ عبث ، عبث !

واضطرت ناديا الى الامتثال ، فتناولت العلبة ، غاضةً طرفها ، ثانية ساقها الى وراء علامة الاحترام ، كما تفعل البنات الصغيرات ، ولكنها فعلت ذلك بعنف وسرعة . واقتربت احدى أخواتها لترى السوار ، فأعطتها ناديا العلبة مغلقة ، لتدل بذلك على انها لا تريد حتى أن تنظر . ولكنهن نظرن فيه جميعا صامتات ، حتى أن بعضهن نظرن فيه وهنّ يبتسمن ابتسامة ساخرة . وقالت الأم وحدها ، بصوت رخو ، ان السوار جميل جدا . تمنى بافل بافلوفتش لو تنشق الأرض وتبلعه .

وسرعان ما أسعفه فلتشانينوف ، اذ أخذ يتدفق فى الحديث بصوت عال ، منتهزا أول فكرة خطرت بباله ، فما انقضت خمس دقائق ، الا واستولى على انتباه جميع الحضور . كان فلتشانينوف يجيد فن الحديث فى الصالونات اجادة رائعة ، وهو فن قوامه الظهور بمظهر البساطة التامة والصدق الكامل ، والظهور بمظهر من يعدّ مستمعيه

أناسا ينعمون بغاية البساطة ومنتهى الصدق أيضا . وكان يعرف كيف يمثل دور الانسان المرح السعيد اذا اقتضى الحال . وكان يعرف أيضا أن يرمى فى اللحظة المناسبة كلمة فكهة أو غمــزة مضحكة أو نكتة جميلة ، كأنها جاءت مصادفة دون أن يقصدها أو يهيئها ، رغم أن الكلمة الفكهة والغمزة المضحكة والنكتة الجميلة وحتى الحديث كله ، رغم أن ذلك جميعا يمكن أن يكون مهيئا منذ مدة طويلة ، وأن يكون محفوظا على ظهر القلب ، وأن يكون قد درج على اللسان مرارا . الا أن مزاجه اليوم كان يسعف فنه ويساعده . لقد كان يشعر بحماسة وكان ثمة شيء يدفعه الى الحديث دفعا . كان على يقين مطلق مظفَّر ، من أن هــذه الأعين كلها ستلتفت اليه بعــد بضع دقائق ، وأن هؤلاء الأشخاص جميعا لن يصغوا الى أحد غيره ، ولن يكلموا أحدا غيره ، ولن يضحكوا الا لما ســيقوله هو . وما هى الا فترة قصــيرة اذا بالضحكات تنطلق فعلا من هنا ومن هناك . وما لبث الحــديث أن أصبح عاما يشاركون فيه جميعا ، وصرتَ تسمع ثلاثة أصوات أو أربعة أصوات تتكلم معا فى آن واحد ، حتى أن وجه السيدة زاخليبينين الجهم المتعب انبسطت أساريره رضى بل وفرحا . وكذلك كاترينا فيدوسويفنا التى كانت تصغى وتنظر مفتــونة مأخــوذة . وكانت ناديا تراقب فلتشانينوف خلسة باتنباه شديد . كان واضحا أنها قد حُذِّرت منه ، فما زادها ذلك الا حماسة . أما ماريا نيكيتشنا « الخبيثة » فقــد استطاعت أن ترميه أثناء الحديث بغمزة لاذعة : قالت ان بافل بافلوفتش قد حدثهم أمس بأن فلتشانينوف صديق من أصدقاء طفولته ، وبذلك أضافت الى سنه سبع سنين طوال ، ملحةً على ذلك . ولكن فلتشانينوف

استطاع أن يحظى حتى باعجاب الخبيثـة ماريا نيكيتتشنا . وبهت بافل بافلوفتس . كان يعرف ، طبعا ، ما يملكه صديقه من وسائل ، وقد سره نجاحه كثيرا فى أول الأمر ، فضحك مع الضاحكين فى تواضع، وانضم اليهم فى الحديث ، ولكنه ما لبث أن أصبح حالما ذاهلا حزينا ، وفضح وجهه المهموم ما يضطرب فى نفسه من عواطف .

قال الأب زاخليبينين بلهجة مرحة ، وهو ينهض ذاهبا الى غرفته فى الطابق الثانى حيث تنتظره أوراق كثيرة يجب أن يوقعها رغم أن اليوم يوم عيـد :

ـــ أرى أنك ضيف لا حاجة بالمرء فى معاملته الى كلفة . تخيل أننى كنت أظنك من أشد الشباب كآبة . ما أكثر ما يخطىء الانسان !

وكان فى الصالون بيانو . فأراد فلتشانينوف أن يعرف من يعزف عليه ، فاتجه فجأة الى ناديا يسألها :

ـــ أظن أنك تغنين ؟

فأجابته بجفاف :

ـــ من قال لك ذلك ؟

ـــ قال لى ذلك بافل بافلوفتش منذ هنيهة .

ـــ غير صحيح . أنا لا أغنى الا لأضحك ، وليس لى صوت جميل .

ـــ وأنا أيضا صوتى غير جميل ، ومع ذلك أغنى .

ـــ هل تغنى اذن ؟ اذا غنيت أنت أغنى أنا .

قالت ناديا ذلك وقد التمعت عيناها . ولكنها أضافت :

ـــ غير أنني لن أغني الآن ، بل فيما بعد .. بعد الغداء . لقـد سئمت البيانو . جميع الناس فى بيتنا يغنون ، ويعزفون من الصباح الى المساء . لو لم تعزف الا كاتيا ، لكان ذلك فوق الكفاية ..

فأدرك فلتشانينوف الأمر فى مثل لمح البصر . ان كاترينا فيدوسويفنا هي الوحيدة التي تمارس الموسيقى جادة . فسألها فورا أن تعزف . وسُرت الفتيات جميعا من أنه اتجه الى كاتيا ، حتى أن ماما نفسها احمر وجهها سرورا . نهضت كاترينا فيدوسويفنا مبتسمة ، واتجهت الى البيانو . واحمر وجهها فجأة ، فاضطربت أشد الاضطراب من هذا الاحمرار الذى فاجأها كأنها طفلة صغيرة ، مع أنها كبيرة ، قوية ، فى الرابعة والعشرين من عمرها . ظهرت هذه المشاعر كلها فى وجهها حين أخذت تعزف .

عزفت لحناً لهايدن ، فكان عزفها واضحا ، ولكن ليس فيه تعبير كثير : لقد كانت خجلى . فلما انتهت من العزف أخذ فلتشانينوف يكيل المديح حارا لا لعزفها بل لهايدن ، ولهذا اللحن الذى عزفته خاصـة . فلاحت فى وجهها معاني السرور الكبير والشكر العميق على أن المدائح لم توجه اليها بل الى هايدن ، فما وسع فلتشانينوف الا أن ينظر اليها نظرة أحفل بالانتباه واللطف ، كأنه يقول لها : « انك حقا لفتاة طيبة » ، وبدا أن الحاضرين جميعا فهموا هذه النظرة ، وخاصة كاترينا فيدوسويفنا نفسـها .

قال فلتشانينوف فجأة ، دون أن يتجه بكلامه الى أحد بالذات ، وهو يلتفت الى باب الشرفة الزجاجي :

ـــ ما أجمل حديقتكم هذه . هيا بنا الى الحديقة !

ـــ نعم ، هيا بنا الى الحديقة .

بهذا صاحوا جميعا فرحين ، كأن فلتشانينوف قد أدرك أقوى رغبة تجيش فى أنفسهم كلهم .

وظلوا يتنزهون فى الحديقة حتى حان وقت الغداء . ان السيدة زاخليبينين التى كانت تريد منذ مدة طويلة أن تذهب لتستريح لم تستطع أن تمنع نفسها من الخروج معهم ولكنها آثرت أن تجلس على الرصيف من باب الحذر ، ثم ما لبثت أن غفت . انعقدت أواصر الصداقة بين فلتشانينوف والفتيات . وهرع من الفيلات المجاورة ثلاثة فتيان انضموا الى الموكب : أحدهم طالب فى الجامعة ، والثانى تلميذ فى مدرسة ثانوية . وقد أسرع هذان الشابان كل الى « آنسته » ، وكان واضحا أنهما لم يجيئا الا من أجلهما . أما الثالث فهو شاب فى نحو العشرين من العمر أشعث فظ ، مظلم الوجه ، على عينيه نظارتان زرقاوان ضخمتان . تحدث مع ماريا نيكيتشنا ومع ناديا حديثا سريعا بصوت منخفض ، ثم قطب ما بين حاجبيه ، وأخذ يرمى فلتشانينوف بنظرات قاسية ، كأنه يشعر أن من واجبه أن يحتقره احتقارا عميقا . واقترحت بعض الفتيات أن يبدأوا اللعب بلا ابطاء ، فسأل فلتشانينوف عن اللعب الذى يلعبونه عادة ، فقيل له انهم يلعبون أنواعا شتى من اللعب ، ولكنهم فى المساء يؤثرون لعب الأمثال : يجلس الجميع ، ويبتعد الشخص الذى عليه أن يحزر . فيختارون عندئذ مثلا من الأمثال ، كقولهم : « وصاحب البيت أدرى بالذى فيه » ، ثم ينادون الشخص الذى عليه أن يحزر ،

ويكون على كل واحد منهم أن يقول له جملة مهيأة من قبل ، فالأول يقول جملة تشتمل على كلمة « صاحب » ، والثانى يقول جملة تضم كلمة « أدرى » ، وهكذا دواليك ، ويكون على الحازر أن يلتقط هذه الكلمات فيركب منها المثل .

قال فلتشانينوف :

ـــ لابد أن هذا اللعب مسل جدا .

فأجابته عدة أصوات فى آن واحد :

ـــ بل هو ممل جدا .

فتدخلت ناديا تقول متجهة بالكلام اليه :

ـــ اننا نلعب أحيانا لعبة المسرح . هل ترى تلك الشجرة الكبيرة التى يحيط بها مقعد ؟ تلك هى الكواليس التى يقف فيها الممثلون : الملك ، الملكة ، الأميرة ، الفتى الأول . ثم يخرج كل واحد منهم متى شاء ، ويأخذ يقول ما يخطر بباله . ان هذه اللعبة تنجح فى بعض الأحيان .

فقال فلتشانينوف محبذا مرة أخرى :

ـــ لعبة جميلة جدا .

ـــ بل هى مملة الى أقصى الحدود . لا بأس بها فى البداية ، ولكن كل شىء يرتبك ويختلط فى النهاية ، لأن أحدا لا يعرف كيف يختتمها . قد تنجح أكثر من ذلك اذا اشتركت فيها أنت . ألا ما أجهلنا ! لقد تصورنا أنك صديق بافل بافلوفتش ! لقد أراد

التباهى ، هذا كل ما فى الأمر . اننى لسعيدة جـدا بأنك جئت .

قالت ذلك ، ونظرت الى فلتشانينوف نظرة ذات معنى ، نظرة جادة ، ثم مضت تلحق بماريا نيكيتشنا فورا .

همست فتاة كان فلتشانينوف قد لمحها لمحا ، ولم تكن قد اتجهت اليه بكلام بعد ، همست فى أذنه سرا تقول :

ـــ سنلعب لعبــة الأمثال فى المساء . نهيىء « المقالب » لبافل بافلوفتش وتشترك أنت فى ذلك .

وقالت فتاة لم يكن قد لاحظها أبدا ، وكأنها انبجست فجأة من مخبأ ، وهى فتاة قصيرة حمراء ، زاد الركض والحر حسرتها حتى أصبح وجهها مضحكا ، قالت :

ـــ ما أسعدنا بمجيئك ! ان الجو هنا يبعث على الضجر .

كان بافل بافلوفتش يزداد قلقه شيئا بعد شيء . وانتهى الأمر بأن انعقـدت أواصر الصـداقة بين فلتشانينوف وناديا . أصبحت لا تنظر اليه شزرا ، ولا تفكر فى التحدث اليه محدقة متفرسة . لقد أخذت تضحك ، وتقفز ، وتطلق صرخات صغيرة ، حتى انها أمسكت بيده مرتين . كانت سعيدة جدا ، واستمرت لا تلتفت الى بافل بافلوفتش ، ولا تحفل به ، كأنه لا وجود له . وأيقن فلتشانينوف أن ثمة مؤامرة حقيقية على بافل بافلوفتش : فبينما كانت ناديا وزمرة من البنـات يجـذبن اليهن فلتشانينوف كانت زمرة أخـرى تجذب اليها بافل بافلوفتش بحجج وأعذار شتى . الا أن بافل بافلوفتش كان يهرب

منهن ، ويسرع راكضا الى فلتشانينوف ونادیا يدس بينهما رأسه الأصلع القلق فجأة ليسمع ما يقولان . وأصبح أخيرا لا يتحفظ في ذلك أی تحفظ ، وأصبحت سذاجة موقفه تثير الدهشة فى بعض اللحظات . ولم يسع فلتشانينوف الا أن يظل يلاحظ كاترينا فيدوسوبفنا بكثير من الانتباه . كان واضحا أنها أدركت أن فلتشانينوف لم يجیء من أجلها ، وأنه يهتم بنادیا اهتماما كبيرا . غير أن وجهها ظل يعبر عن تلك العذوبة نفسها ، وعن ذلك الرضا نفسه الذی كان يعبر عنه قبل ذلك . كانت تبدو سعيدة بوجودها مع الآخرين ، واصغائها الى الزائر الجديد . وكانت المسكينة لا تعرف كيف تنخرط فى الحديث انخراطا سهلا لبقا .

قال فلتشانينوف لنادیا فجأة بصوت منخفض :

— ما ألطفها ، أختك كاترينا فيدوسويفنا .

فأجابته نادیا بحماسة :

— كاتيا ! هل يمكن أن يكون أحد ألطف منها ؟ انها ملاكنا جميعا . اننى آهواها !

وأخيرا ، فى الساعة الخامسة ، وضع الغداء . كان واضحا أنه ليس غداء عاديا ، وأن الأسرة قد تكلفت من أجل الضيف الجديد بعض النفقات . لقد أضيف الى قائمة الطعام المألوفة طبقان أو ثلاثة أطباق معقدة . وكان أحد هذه الأطباق غريبا جدا ، حتى أن أحدا لا يستطيع أن يقول ماهو ، فى أغلب الظن . واضافةً الى خمور المائدة العادية ، جیء بزجاجة من خمر توكى ، لا شك أنها اشتريت

لهذه المناسبة خصيصا ، حتى لقد جيء فى آخر الغداء بزجاجة من الشمبانيا . وأسرف الأب زاخليبينين قليلا فى الشراب ، فصفا مزاجه ، وأصبح يضحك لكل ما يقوله فلتشانينوف . ولم يستطع بافل بافلوفتش أخيرا أن يصمد أكثر مما صمد ، فحاول أن ينكّت هو أيضا ، تدفعه الى ذلك روح المنافسة ، فاذا بالفتيات يضحكن ضحكا صاخبا عند آخر المائدة ، حيث كان يجلس بافل بافلوفتش مع السيدة زاخليبينين . وصرخت اثنتان منهن فى آن واحد ، تقولان :

— بابا ، بابا ، لقد قال بافل بافلوفتش نكتة أيضا : قال انا فتيات جديرات بالاعجاب * .

— ها ! هو أيضا أخذ ينكت ! ماذا قال ؟

كذلك سأل زاخليبينين ، بلهجة وقورة كأنها تحمى بافل بافلوفتش، وبابتسامة تستبق النكتة التى سيسمعها .

— قال انا « فتيات جديرات بالاعجاب » .

— نعم ، ولكن ؟..

مرة أخرى لم يفهم الأب ، ومع ذلك ازدادت ابتسامته وداعة ولطفا .

— كيف لا تفهم يا بابا ؟

وشرحت له النكتة أخيرا ، فقال مرتبكا بعض الارتباك :

— ها . نعم . هِمْ .. لطيف .. فى مرة أخرى ، يقول نكتة ألطف من هذه أيضا .

قال ذلك وانفجر ضاحكا .

وصاحت ماريا نيكيشتنا تقول بلهجة ساخرة :

ـــ لا يمكن أن يملك المرء جميع المواهب فى آن واحد ، أليس كذلك يا بافل بافلوفتش ؟

ثم هتفت وهى تنهض فجأة :

ـــ ما بك ؟ انه يختنق .. لا شك أنها حسكة من السمك !

وعم الاضطراب ، وهذا بعينه ما كانت تريده ماريا نيكيتشنا ، مع أن كل ما فى الأمر أن بافل بافلوفتش قد غص بجرعة من الخمر شربها اخفاء لخجله واضطرابه . ولكن ماريا نيكيتشنا أخذت تحلف ايمانا مغلظة بأنها « حسكة سمك ، وبأنها رأت الحسكة بأم عينها ، وبأن ذلك يمكن أن يسبب الوفاة » .

صاح أحدهم يقول :

ـــ اضربيه على ظهره !

فقال زاخليبينين :

ـــ هذا خير ما يُعمل حقا !

وتطوع المتطوعون للنهوض بهذه المهمة . ان ماريا نيكيتشنا ، والفتاة القصيرة الحمراء (وقد دعيت أيضا الى تناول الغداء) ، والسيدة زاخليبينين نفسها ، (وقد ذعرت ذعرا شديدا) ، هؤلاء جميعا أردن أن يضربن بافل بافلوفتش الذى نهض عن المائدة ، وأخذ يحاول الافلات منهن ، مؤكدا لهن أن الأمر لا يعدو أن يكون غصة ،

وأن سعاله سيهدأ فورا . وأدرك الجميع أن ذلك كان « مقلبا » من ماريا نيكيتشنا .

— هذا يتجاوز الحدود ، انك تسرفين ..

ذلك ما حاولت السيدة زاخليبينين أن تقوله لها بلهجة قاسية ، ولكنها لم تستطع أن تكمل عبارتها ، بل انفجرت فى ضحكة مجنونة ليست من عادتها ، فأحدث ذلك أثره أيضا ..

وبعد الغداء ، احتسوا القهوة على الرصيف .

قال زاخليبينين بلهجة فخمة وهو يتأمل الحديقة راضيا مسرورا :

— ما أجمل هذه الأيام فى هذه السنة ! ولكن لعلنا أصبحنا فى حاجة الى مطر غزير .

ثم أضاف وهو ينهض :

— أنا ذاهب لارتاح قليلا . أتمنى لكم تسلية جميلة ! أتمنى لك أيضا تسلية جميلة .

قال جملته الأخيرة هذه وهو يربت على كتف بافل بافلوفتش ، ثم خرج .

فلما نزلوا جميعا الى الحديقة ، هرع بافل بافلوفتش فجأة نحو فلتشانينوف ، وأمسكه من كمه ، وهمس فى أذنه وقد فرغ صبره يقول :

— دقيقة ، من فضلك .

ودخلا فى ممر بالحديقة منعزل . فقال بافل بافلوفتش بصوت خافت يخنقه الغيظ وهو يشد على ذراع فلتشانينوف :

ـــ لا ، لا ، لن أسمح لك فى هذه المرة ، اعذرنى .. لن أسمح لك فى هذه المرة ..

فسأله فلتشانينوف محملقا :

ـــ ماذا ؟ ماذا هناك ؟

فنظر اليه بافل بافلوفتش دون أن يستطيع الكلام . كانت شفتاه ترتجفان ، وكان يبتسم ابتسامة الحنق والغضب .

ووصلت أصوات الفتيات من بعيد تنادى متعجلة :

ـــ أين ذهبتما ؟ أين أنتما ؟ لقد هيأنا كل شىء !

فهز فلتشانينوف كتفيه ، ومضى يلحق بهن ، فأسرع بافل بافلوفتش يتبعـــه .

قالت ماريا نيكيتشنا :

ـــ أراهن أنه طلب منك منـــديلا ! لقد نسى منـــديله فى المرة الماضية .

وأسرعت احدى بنات زاخليبينين تقول :

ـــ انه ينسى منديله دائما .

ـــ نسى منديله ! ـــ بافل بافلوفتش نسى منديله ! ـــ ماما ، بافل بافلوفتش نسى منديله هذه المرة أيضا ! ـــ ماما ، بافل بافلوفتش أصيب بزكام مرة أخرى !

هكذا كانت أصوات تصرخ من كل جانب .

فقالت السيدة زاخليبينين بصوت بطىء :

— ولكن لماذا لا يقول ؟ لماذا هذه الكلفة ؟ الزكام لا مزاح معه . سآتيك بمنديل . ولكن كيف يمكن أن يكون مصابا بزكام دائمـا ؟

أضافت سؤالها الأخير هذا وهى تبتعد ، وقد أسعدها كثيرا أن تجد حجة للعودة الى البيت .

فصرخ بافل بافلوفتش يقول لها :

— معى منديلان ، وليس بى أى زكام .

ولكنها لم تسـمعه . وما هى الا لحظـات ، بينما كان بافل بافلوفتش يتبع الآخـرين ويحـاول أن يكون أقرب ما يكون من ناديا وفلتشانينوف ، اذا بخادمة تصل لاهثة ، حاملة اليه منديلا .

وتعالت أصوات من كل جانب تقول :

— هيا بنا نلعب لعبة الأمثال .

كأنهم قد بيتوا أمرا ، فهم يتوقعون أن يجنوا من هذه اللعبة لذة خاصة لا يعلم الا الله ما عسى تكون .

واختاروا مكاناً ، وجلسوا على المقاعد . وكان على ماريا نيكيتشنا أن تكون أول الحـازرين . فطلب اليها أن تبتعـد أكثر ما يمكن الابتعاد ، وأن لا تحاول التسمع على ما يقولونه . حتى اذا اختاروا المثل ، توزعوا الكلمات فيما بينهم فلما نادوا ماريا نيكيتشنا حزرت المثل فورا . كان المثل هو : الخطر عظيم ولكن الله رحيم .

ثم جاء دور الشاب الأشعث ذى النظارتين الزرقاوين . فاتخذت معه احتياطات أكبر : قيل له أن يبتعد حتى يصل الى حيطان البيت

وأن يدير وجهه الى الجدار . قام هذا الشاب بواجبه متعاليا محتقرا، كأنه يشعر أن هذا اللعب يذله ، فلما نودى لم يستطع أن يحزر : طاف على الحلقة مرتين ، وجعل كلا من أفرادها يكرر الجملة التى قالها ، وفكر مدة طويلة ، قاتم الوجه مظلم الأسارير ، على غير طائل . فأخذوا يعيرونه ، على العادة فى هذه اللعبة . وكان المثل الذى يجب أن يحزره هو : « ما صلاة لله ولا خدمة للقيصر بذاهبة سدى » .

قال الشاب متذمرا ، وهو يعود فيجلس فى مكانه مهانا :

ــ المثل سخيف أصلا !

وارتفعت أصوات تقول متململة :

ــ ما هذه اللعبة المملة !

وجاء بعد ذلك دور فلتشانينوف . فاضطروه أن يبتعد أكثر من ذلك أيضا . ولم يستطع أن يحزر هو الآخر ، فزاد عدد الأصوات المتململة قائلة :

ــ ما هذه اللعبة المملة ! ما هذه اللعبة المملة !

قالت ناديا :

ــ الآن دورى أنا .

ــ بل دور بافل بافلوفتش ، دور بافل بافلوفتش .

ثم اقتيد بافل بافلوفتش الى جدار السور ، فأوقف هنالك واضعا أنفه فى زاوية ، وجعلت الفتاة الحمراء القصيرة رقيبة عليه ..

استرد بافل بافلوفتش بعض هدوئه ، وعاد اليه شيء من صفاء المزاج ، فكان يستعد للقيام بواجبه على أدق وجه . فوقف ساكنا كأنه حطبة ، لا يجرؤ أن يلتفت الى الوراء ، ولا يزيح عينيه عن الجدار . وكانت الصغيرة الحمراء تراقبه مضطربة على بعد عشرين خطوة منه ، وتلوح للفتيات سرا . كان واضحا أن ثمة حادثا ينتظرنه بصبر فارغ . وفجأة حركت الصغيرة الحمراء يديها ، فاذا هن يهربن جميعا بخطى راكضة سريعة .

ــ أركض ، أركض ، مالك لا تركض ؟

هكذا قالت لفلتشانينوف أصوات عشر بنات فى آن واحد ، وقد أقلقهن أنه لا يزال فى مكانه .

فسألهن وهو يتبع الآخرين :

ــ ماذا هنالك ؟ ما الذى حدث ؟

ــ أسكت . لا تصرخ . سيبقى واقفا هناك ، ملصقاً أنفه بالجدار . أما نحن فنهرب . أنظر ! ها هى ذى ناستيا تهرب أيضا .

كانت ناستيا (الفتاة القصيرة الحمراء) تركض كمن طاش صوابه ، وهى تحرك ذراعيها . لكأن أمرا لا يعلمه الا الله قد وقع . ووصلوا أخيرا الى الطرف الثانى من الحديقة ، وراء غدير . فلما أدركهم فلتشانينوف رأى كاترينا فيدوسويفنا تناقش الفتيات الأخريات ، وخاصة ناديا وماريا نيكيتشنا ، نقاشا حارا . قالت لها ناديا وهى تقبلها :

— كاتيا ، حبيبتى ، لا تزعلى .

— طيب . لن أقول ذلك لماما . ولكننى ذاهبة . ان هذا عيب . ما عساه يقول هذا المسكين ، قرب الجدار ؟

قالت ذلك ، ثم تركتهن .. الا أن الأخريات لم تأخذهن به رحمة ولا شفقة . وطلبن الى فلتشانينوف أن لا يلتفت الى بافل بافلوفتش أى التفات حين يلحق بهن بعد قليل ، كأن شيئا لم يقع . وصاحت الفتاة القصيرة الحمراء تقول فرحة أشد الفرح :

— والآن فلنلعب لعبة السباق .

لم يلحق بهم بافل بافلوفتش الا بعد ربع ساعة فى أقل تقدير ، ولا شك أنه قضى ثلثى هذا الوقت ساكنا جامدا قرب الجدار . كانوا يلعبون فى حماسة ، وكانت الفتيات جميعا تصرخ وتضحك ، فهرع بافل بافلوفتش الى فلتشانينوف رأسا ، وقد جن جنونه من الحنق ، فأمسك بكمه مرة أخرى ، وقال له :

— لحظة قصيرة ، من فضلك .

— هوه ! ما أكثر لحظاته القصار المزعجة !

وقالت عدة أصوات فى آن واحد :

— انه فى حاجة الى منديل أيضا .

قال بافل بافلوفتش وهو يقرع أسنانه :

— أنت السبب ، فى هذه المرة ، أنت السبب !

فقاطعه فلتشانينوف ، ونصحه ، هادئا كل الهدوء ، بأن يكون

مرحا . قال له : « هذا هو السبب فى أنهن يسخرن منك . أنت مزعج، بينما جميع الناس يلهون ويضحكون ويعبثون » . وما كان أشد دهشة فلتشانينوف حين رأى أن كلماته أثرت فى بافل بافلوفتش تأثيرا قويا ، فاذا هو يصمت فجأة ، بل يطأطىء رأسه ذلا وانكسارا، ويلحق بالموكب ثم يشارك فى الألعاب . وقد عاملته الفتيات خلال فترة من الوقت معاملة لطيفة ، فكن يلعبن معه كما يلعبن مع غيره ، وما هى الا نصف ساعة حتى عاد اليه مرحه تاما كاملا . وكان ، اذا اختار كل واحد من الرجال سيدة له ، يختار هو الفتاة القصيرة الحمراء « الخائنة » ، أو يختار احدى أخوات ناديا . ودهش فلتشانينوف كثيرا حين لاحظ أن بافل بافلوفتش لم يتجه الى ناديا مرة واحدة بالكلام ، رغم أنه كان يحوم حولها دائما . كان يبدو على كل حال أنه ارتضى عدم احتفالهن به ، كأن ذلك أمر طبيعى لا غرابة فيه . ولكنهن دبرن له ، فى النهاية ، « مقلبا » جديدا .

كانوا يلعبون لعبة « الاختباء » ، وكان يسمح للشخص أن ينتقل أثناء اختبائه ، من مكان الى مكان . وقد خطر فجأة على بال بافل بافلوفتش الذى اختبأ تحت دغل كثيف ، أن يختبىء فى البيت. فلما رأينه يركض ، دوت صرخاتهن . فصعد السلم بسرعة ، وهرع الى القبو . كان يعرف هنالك ركنا صغيرا وراء صندوق ، فأراد أن يندس فى ذلك الركن . غير أن الفتاة القصيرة الحمراء ركضت وراءه على رءوس أصابعها ، فلما وصلت الى الباب ، أغلقته وأدارت مفتاحه . فانقطعت البنات عندئذ جميعا عن اللعب ، كما فعلن فى المرة الماضية ، وهربن لا يلوين على شىء . ولاحظ بافل بافلوفتش

بعد عشر دقائق أن أحدا لا يبحث عنه ، فنهض من مكانه ، ومد رأسه من النافذة ، فلم ير أحدا . لم يستطع أن ينادى ، مخافة أن يوقظ الأبوين . وقد أوعزت البنات الى الخادم والى الطباخة ايعازا شديد اللهجة أن تختفيا ، وأن لا تردا على بافل بافلوفتش اذا هو صرخ ينادى أحـدا . فما كان يمكن أن ينقذه أحـد غير كاترينا فيدوسويفنا . ولكن كاترينا كانت قد غفت حين عادت الى غرفتها ناعسة . وهكذا ظل بافل بافلوفتش سجينا قرابة ساعة ، ظهرت بعدها الفتيات واحدة بعد الأخرى :

ـــ بافل بافلوفتش ! لماذا لا تجىء الينا ؟ ان جونا مرح جدا . اننا نلعب لعبة المسرح . ألكسى ايفانوفتش يمثل دور الفتى الأول .

ـــ بافل بافلوفتش ! ماذا تصنع هناك ! انك لتدهشنا حقا ! ..

ـــ ماذا هنالك ؟

هكذا دوى فجأة ، صوت السيدة زاخلبينين . لقد استيقظت ، فقررت أن تنزل الى الحديقة ، وأن تشاهد ألعاب « الأولاد » بانتظار موعد الشاى .

ـــ انظرى الى بافل بافلوفتش !

قلن لها ذلك ، وأشرن بالأصابع الى النافذة التى يرى فى اطارها وجه بافل بافلوفتش الشاحب من الحنق ، المتشنج بابتسامة .

قالت السيدة العجوز وهى تهز رأسها :

ـــ أية لذة يجد فى البقاء هناك وحده ، بينما الآخرون يلهون وينسلون ؟

فى أثناء ذلك الوقت ، كان فلتشانينوف قد شرف بالحظوة بثقة ناديا ، فشرحت له السبب فى أنها « سعدت بزيارته أشد السعادة » . وقد تم الحديث بينهما فى ممر بالحديقة منعزل . لقد اقتربت منه ماريا نيكيتشنا ، وأشارت اليه بيدها ، بينما كان يشارك فى اللعب ، وبشعر بحزن عميق ألمّ به فجأة ، ثم قادته الى قرب ناديا ، وتركته وحيدا معها.

بدأت ناديا تقول ، جريئة ، بصوت سريع متعجل :

ـــ أيقنت الآن أنك لست صديقا حميما لبافل بافلوفتش ، كما كان يتباهى هو بذلك . وأعتقد أنك الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يقدم لى هذه الخدمة الهامة . خذ سواره هـذا الكريه (قالت ذلك وسحبت العلبة من جيبها الصغير) ، ورجائى اليك أن ترده اليه حالا ، لأننى لن أخاطبه ما حييت . وتستطيع أن تقول له اننى أنا الذى كلفتك بذلك ، وتستطيع أن تطلب منه ، عدا هذا ، أن لا يتجرأ بعد الآن على أن يقدم لى أية هدية . أما ما عدا ذلك ، فسأكلف به آخرين . هل لك أن تخدمنى هذه الخدمة ، فتنفذ ما طلبته منك ؟

صاح فلتشانينوف وهو يرد اليها العلبة :

ـــ اعفينى من هذه المهمة ، أرجوك ..

ـــ كيف ؟ أعفيك ؟

دهشت ناديا من رفضه أشد الدهشة ، فحملقت . ثم فقدت سيطرتها على نفسها فجأة ، وأوشكت أن تجهش باكية . فانفجر فلتشانينوف ضاحكا :

— ليس معنى هذا أننى .. كان يسعدنى جدا أن .. ولكنّ بيننا حسابا يجب أن يُصفى ..

فقاطعته تقول بسرعة :

— أعرف أنه ليس صديقك ، وأنه كذب . لن أتزوجه أبدا . اعرف هذا . لن أتزوجه أبدا . بل اننى لا أفهم كيف تجرأ أن .. ولكن يجب عليك مع ذلك أن ترد اليه سواره القذر ، والا فهل لى من سبيل آخر ؟ أريد حتما ، حتما ، أن يُرد اليه فى هذا اليوم نفسه ، أن يتلقى هذه الاهانة . واذا تجرأ أن يشكونى الى بابا ، فسيعرف ما سيحدث له ..

وفى هذه اللحظة ، انبجس الشاب الأشعث ذو النظارتين الزرقاوين ، انبجس فجأة من أحد الأدغال . وقال لفلتشانينوف بلهجة حانقة غاضبة :

— يجب عليك أن ترد اليه السوار .. على الأقل باسم حقوق المرأة .. هذا اذا كنت قادرا على الارتفاع الى مستوى ..

ولكنه لم يستطع أن يكمل جملته . ذلك أن ناديا أمسكت ذراعه بقوة ، ودفعته ، وهى تصيح به :

— ما أحمقك يا بردبوسيلوف ! هيا اذهب . هيا اذهب . ولا تسمح لنفسك بعد الآن أن تتجسس علينا . لقد أمرتك بأن تظل بعيدا ..

كانت ناديا تضرب الأرض برجليها . وغار الشاب الأشعث فى الأدغال . ولكنها ظلت تذرع الممر جيئة وذهابا ، وقد خرجت عن طورها ، واتقدت عيناها ، وضمت ذراعيها الى صدرها . ثم وقفت فجأة أمام فلتشانينوف وقالت له :

— انك لا تستطيع أن تتصور حماقتهم . أنت تضحك .. ولكن فكر فيما يمكن أن أشعر به أنا .

فسألها فلتشانينوف ضاحكا :

— ليس هذا هو ، أليس كذلك ؟

— طبعا ليس هو . وكيف يمكن أن تظن أنه هو ؟

قالت ناديا ذلك مبتسمة ، واصطبغ وجهها بالحمرة . ثم أضافت :

— هذا صديقه . ولكننى أتساءل كيف يختار لنفسه مثل هذا الصديق ! أنا لا أفهم ذلك . انهم يجمعون على أن لهذا الشاب مستقبلا عظيما .. أما أنا فلا أفهم شيئا من هذا .. ألكسى ايفانوفتش ، ليس ثمة شخص آخر التجىء اليه . كلمة أخيرة : هل ترد السوار ؟

— هاتيه ..

— ما ألطفك ، ما أطيبك .

قالت ذلك وهى تناوله العلبة فرحة كل الفرح . وأضافت :

— وفى مقابل ذلك ، سأغنى لك طوال السهرة ، لأننى أغنى غناء جيدا جدا ، فاعلم ذلك .. لقد كذبت حين زعمت لك أننى لا أحب الموسيقى . ليتك تعود ، ولو مرة واحدة أخرى .. لشد ما يسرنى أن تعود . سأقص عليك كل شىء ، كل شىء ، وسأروى لك أشياء أخرى كثيرة ، لأنك طيب ، طيب جدا ، مثل كاتيا تماما .

فلما عادوا لتناول الشاى غنت له ناديا فعلا لحنين غراميين بصوت لم يصقل بعد ، لكنه صوت جميل ما فى ذلك شك . كان بافل بافلوفتش جالساً قرب الأبوين حول مائدة الشاى التى كان عليها

سماور كبير يغلى ، وأقداح من خزف سيفر . كان لعله يحدثهما فى أمور هامة جدا ، لأنه سيسافر بعد غد ، وسيغيب تسعة أشهر . بدا بافل بافلوفتش كأنه لا يهتم بالشبيبة العائدة من الحديقة ، ولا يحفل بفلتشانينوف خاصة . وكان واضحا أنه لم يشكُ أمره بعد . كان كل شيء الى ذلك الحين هادئا . حتى اذا تهيأت ناديا للغناء ، ظهر فجأة . فتعمدت ناديا أن لا ترد على سؤال وجهه اليها . ولكنه لم يضطرب من ذلك ولم يرتبك بل جلس وراء كرسيها ، كأنما ليعلن بذلك أن هذا هو مكانه وأنه لن يتخلى عنه لأحد .

— ألكسى ايفانوفتش هو الذى سيغنى الآن . ماما ، ان ألكسى ايفانوفتش يريد أن يغنى .

هكذا صاحت الفتيات وهن يسرعن الى البيانو ، ويتحلقن حول فلتشانينوف الذى جلس اليه جلسة الواثق من نفسه ، واستعد لأن يعزف لنفسه أثناء غنائه . فانتقل الأبوان من قاعة الطعام الى الصالون ، وكذلك فعلت كاترين فيدوسويفنا التى هيأت الشاى .

اختار فلتشانينوف أغنية غرامية من تأليف جلنكا ، أصبحت اليوم منسيَّة * :

حين تنفرج شفتاك
فى اللحظة الفرحة
فتخاطبيننى بكلام أرق من سجع حمامة ..

فغناها متجها الى ناديا الواقفة قربه . لقد فقد فلتشانينوف صفاء صوته منذ مدة طويلة ، ولكن المرء يدرك حين يسمعه أن صوته كان

جميلا من غير شك . لقد سمع فلتشانينوف هذه الأغنية ، أول مرة ، منذ عشرين عاما ، حين كان طالبا ؛ سمعها من جلنكا نفسه ، فى سهرة فنية أقيمت فى بيت أحد أصدقاء المؤلف . ففى ذلك اليوم غنى جلنكا الأغنيات التى كان يؤثرها على غيرها من أغنياته ، وكانت هذه الأغنية من بينها .. وكان جلنكا يومئذ يغنى ويعزف بحماسة وحرارة ، رغم أنه كان قد فقد جمال صوته . ولكن فلتشانينوف ما يزال يتذكر الأثر العميق الذى أحدثته هذه الأغنية نفسها فى قلوب المستمعين . ما كان لأى فنان حاذق ، ولا لأى مغن من مغنى الصالونات أن يبلغ فى غنائه ما بلغه جلنكا يومئذ من عنف التعبير . ان الهوى ليشتد ويتفتح فى هذه الأغنية عند كل جملة جديدة من اللحن . ومن أجل هذا التوتر الذى ما ينفك يزداد ، فان أيسر مبالغة يقع فيها المغنى ، وأبسط خطيئة يقترفها ، مما قد يفوت المرء ادراكه فى أوبرا ، يمكن أن يهدم هنا معنى اللحن ، وأن يضعف دلالته . ان هذه الأغنية البسيطة كل البساطة ، ولكن الرائعة كل الروعة ، تتطلب ممن يريد أن يغنيها غناء تاما ، أن يكون صادق الالهام ، صادق الهوى ، أو أن يعيد خلق ما فيها من شعر ، فى أقل تقدير ، والا بدت الأغنية عامية مبتذلة : ان من المستحيل أن يعبر المرء بهذه الأغنية عن هوى عنيف هذا العنف تعبيرا قويا هذه القوة ، بدون أن يثير شيئا من الاشمئزاز ، ما لم يبث فيها ما يجب لها من صدق وبساطة وشيء من سذاجة . ان فلتشانينوف يتذكر أنه استطاع فى الماضى أن ينجح فى غنائها نجاحا تاما . لقد تمثل طريقة جلنكا فى غنائها أكمل تمثل . فلما بدأ فى غنائها هذه المرة ، أسكر الالهام روحه وأرعش صوته ، منذ أول نغمة من اللحن،

منذ أول بيت من القصيدة . فاذا العاطفة تزداد تدفقا وتزداد جرأة فى التعرى ، عند كل كلمة جديدة ، واذا الأبيات الأخيرة أشبه بصيحات من صياح الهوى الجامح ، والعشق الهائم ، حتى اذا غنى هـذه الأبيات ، وهو يشخص بعينيه المتقدتين الى ناديا :

الآن أنظر فى عينيك نظرة جريئة .

وأقرب شفتى من شفتيك .

بعد أن فقدت القدرة على الاصغاء الى كلامك ،

أريد أن أقبلك ، أن أقبلك ، أن أقبلك .

أريد أن أقبلك ، أن أقبلك ، أن أقبلك ،

ارتعشت ناديا بما يشبه الخوف ، حتى لقد تراجعت بحـركة صغيرة الى الوراء ، واصطبغ خداها بحمرة الدم ، ولاحظ فلتشانينوف فى وجهها الخجل الوجل تعبيرا سريعا عن الرضى والقبول . وبدا على جميع المستمعين أنهم مفتونون ، ولكنهم مضطربون ، كأنهم يعتقدون جميعا أن من المستحيل ، أن من المخجل أن يغنى المرء هكذا . ومع ذلك كانت وجوههم تحمر ، وعيونهم تتقد ، وكأنهم ينتظرون أن يستمر المغنى فى الغناء . ولاحظ فلتشانينوف خاصة وجـه كاترينا فيدوسويفنا الذى أوشك أن يصبح جميلا .

ودمدم العجوز زاخليبينين يقول مضطربا :

— ها .. هذه أغنية .. ولكن أليست عنيفة مسرفة فى العنف ؟ انها جميلة جدا ، ولكنها عنيفة ..

وتدخلت امرأته تقول :

— نعم هى عنيفة ..

ولكن بافل بافلوفتش لم يتح لها أن تتم كلامها ، فقد نهض مسرعا ، وكما يفعل مجنون فقد كل سيطرة على نفسه ، مضى نحو البيانو ، فأمسك بذراع ناديا وأبعدها عن فلتشانينوف بعنف ، وقد أصبحت عيناه كعيني وحش كاسر ، وأخذت شفتاه ترتجفان ، فقال لفلتشانينوف بصوت متقطع :

ــ أريد أن أكلمك .

أدرك فلتشانينوف أن بافل بافلوفتش قادر في الحالة التي هو فيها ، على ارتكاب أفظع الأعمال الجنونية ، فأمسك يده ، وخرج به دون أن يلتفت الى ما أصاب الحاضرين من دهشة ، خرج به الى الرصيف ، وسار به بضع خطوات في الحديقة التي أوشكت أن يعمها الظلام .

قال بافل بافلوفتش :

ــ هل تعرف أن عليك أن تذهب معي ، حالا ، في هذه اللحظة ؟

ــ لا ، لا أعرف .

فاستأنف بافل بافلوفتش يقول بصوت حار ، ولكنه مختنق :

ــ هل تتذكر انك أردتني ذات يوم على أن أقول لك كل شيء ، كل شيء ، صراحة ؟ أن أقول لك « الكلمة الأخيرة » ؟ هل تتذكر ؟ اذن فاعلم أن الوقت قد حان الآن .. وأنني سأقول لك هذه الكلمة.. فلنذهب !

فكّر فلتشانينوف ، ورمى بافل بافلوفتش بنظرة أخيرة ، ووافق على الذهاب .

فلما أعلنا أنهما ذاهبان دُهش الأبوان واستاءت البنات جميعا .

قالت السيدة زاخليبينين بصوت شاكٍ :

ـــ فنجان من الشاى ، على الأقل ..

وقال العجوز زاخليبينين بلهجة مستاءة قاسية ، متجها بكلامه الى بافل بافلوفتش الذى كان صامتا يحاول أن يبتسم :

ـــ فيم اضطرابك هذا ؟

وأتت البنات تقلن لبافل بافلوفتش متنهدات ، وهن ينظرن اليه نظرات غاضبة :

ـــ لماذا تأخذ ألكسى ايفانوفتش ، يا بافل بافلوفتش ؟

أما ناديا فقد رمته بنظرة فيها من السوء ما جعله يرتبك ويشعر بكثير من الحرج ، ولكنه لم يخضع .

قال فلتشانينوف وهو يصافح رب البيت ويودع السيدة زاخليبينين ويودع الفتيات ، وينحنى أمام كاترينا فيدوسويفنا انحناءة خاصة لوحظت :

ـــ انى لأشكر بافل بافلوفتش على أنه ذكّرنى بأمر خطير كل الخطورة كنت قد نسيته .

قال زاخليبينين بلهجة عميقة نافذة :

ـــ نشكر لك زيارتك هذه ، وسيسعدنا دائما أن نراك .

وأضافت زوجته تلح بحرارة :

ـــ نعم ، سيسعدنا أن نراك .

ـــ عد الينا ، يا ألكسى ايفانوفتش ، عد الينا .

هكذا صاحت به الفتيات من أعلى الشرفة ، بينما كان يركب العربة الى جانب بافل بافلوفتش ، حتى لقد خيل اليه أنه سمع صوتا صغيرا يهتف هتافا دون هتاف الأخريات علوا : « عد الينا أيها العزيز، أيها العزيز ايفانوفتش » .

فقال فى نفسه « انها الحمراء القصيرة » .

١٣

إلى أي جهة يميل الميزان

كان ما يزال قادرا على أن يفكر فى الفتاة القصيرة الحمراء ، ولكنه كان مستاء من نفسه ، وكان الندم يقلق روحه . ثم انه طوال ذلك اليوم الذى انقضى مرحا كل ذلك المرح فى الظاهر ، لم يتركه حزنه لحظة واحدة ، حتى أنه قبل أن يأخذ بالغناء أصبح لا يعرف كيف يتخلص من هذا الحزن . ولعل هذا هو السبب فى أنه استطاع أن يغنى الأغنية الغرامية بعاطفة مشبوبة .

قال لنفسه بمرارة : « كيف أمكننى أن أنحدر الى هذا الدرك.. وأن أنسى كل شيء ؟ » ولكنه أسرع يدفع أفكاره فى مجرى آخر . لقد تراءى له أن من الذل والهوان أن يئن ويتفجع . ان من الأفضل أن يصب غضبه على شخص ما ، بأسرع ما يمكن .

فدمدم يقول حانقا ، وهو يلقى نظرة مواربة على بافل بافلوفتش الذى كان يجلس الى جانبه صامتا :

ــ أحمق .

ولكن بافل بافلوفتش أصر على صمته . لعله كان يهيىء نفسه ، ويستجمع أفكاره . كان من حين الى حين يرفع قبعته بحركة نافدة الصبر ، ويمرّ على جبينه بمنديله .

قال فلتشانينوف لنفسه مهتاجا : « انه يعرق » .

ولم يفتتح بافل بافلوفتش فمه بكلام الا مرة واحـــدة ، ليسأل الحوذى هل ينذر الجو بعاصفة ؟ فأجابه الحوذى :

ــ آ .. طبعا .. كيف لا ؟ لقد كان النهار ثقيـــلا جـــدا .. وأربدت السماء فعلا . ولمعت بروق بعيدة تخدّد الأفق . وصلت العربة الى المدينة فى الساعة الحادية عشرة .

فلما أمست غير بعيدة عن منزل فلتشانينوف ، قال بافل بافلوفتش منبهــــا :

ــ سأذهب الى بيتك .

ــ أعرف ذلك ، ولكننى أنبهك منذ الآن الى أننى مريض حقا .

ــ لن أمكث مدة طويلة .

فلما دخلا باب العمارة ، مضى بافل بافلوفتش لحظة الى مافرا فى حجرة البواب . حتى اذا لحق بفلتشانينوف سأله هذا بلهجـــة قاســـية :

ــ ماذا ذهبت تصنع هناك ؟

ودخلا البيت .

فأجابه بافل بافلوفتش بقوله :

ــ لا شيء .. من أجل العربة .

ــ لن أسمح لك أن تشرب .

لم يجب بافل بافلوفتش . وأشعل فلتشانينوف الشمعة . فما لبث بافل بافلوفتش أن جلس على المقعد . ووقف فلتشانينوف أمامه عابسا مظلم الوجه ، ثم قال له بغيظ ما يزال مكبوحا :

ــ أنا أيضا وعدتك بأن أقول لك الكلمة « الأخيرة » ! اسمع : انني أرى ، وأنا أملك وعيي كاملا ، أن جميع المسائل قد صفيت بيننا تصفية حاسمة ، فلم يبق اذن ما يقوله أحدنا للآخر . أفليس من الأفضل ، والحالة هذه ، أن تذهب فورا ، وأن أغلق الباب وراءك؟

فقال بافل بافلوفتش أخيرا ، وهو ينظر فى عينى صاحبه نظرة وديعة رقيقة :

ــ لنصفِّ حساباتنا يا ألكسى ايفانوفتش .

قال فلتشانينوف ، وقد دهش أشد الدهشة :

ــ نصفى حساباتنا ؟ يا له من تعبير غريب هذا الذى تستعمله ! أية حسابات ؟ أهذه هى الكلمة « الأخيرة » التى ذكرت منذ قليل أنك ستقولها لى ؟

ــ هذه هى .

ــ لم يبق بيننا حسابات نصفيها . لقد تمت التصفية منذ مدة طويلة .

قال فلتشانينوف ذلك بزهو وصلف .

فأجابه بافل بافلوفتش بلهجة مؤثرة وهو يضم يديه على صدره ضما وثيقا بحركة غريبة :

ـــ هل تعتقد بذلك حقا ؟

فلم يجبه فلتشانينوف ، بل أخذ يسير فى الغرفة جيئة وذهابا . وكان قلبه يئن قائلا : « ليزا ؟ » . وقال بعد صمت طويل :

ـــ كيف تريد أن أسدد ما علىَّ ؟

كان بافل بافلوفتش ما ينفك يتابعه بعينيه ، ويداه ما تزالان مضمومتين على صدره ، فدمدم بصوت متوجع يقول وهو ينهض فجأة عن مقعده :

ـــ لا تذهب بعد الآن الى هناك !

ـــ كيف ؟ أهذا كل شيء ؟

قال فلتشانينوف ذلك ، وضحك ضحكة خبيثـــة ، ثم أضاف يقول باحتقار :

ـــ أستطيع أن أقول انك أدهشتنى اليوم .

ولكن تعبير وجهه ما لبث أن تبدل فجأة ، فقال بصوت حزين ، وعاطفة عميقة :

ـــ اسمعنى يا بافل بافلوفتش . أعتقد أننى ما هبطت يوما ، فى أى ظرف من الظروف ، الى مثل هذا الدرك الأسفل الذى هبطت اليه اليوم : أولا بقبولى مرافقتك الى هناك ، وثانيا بسلوكى الذى سلكته هناك .. هذه ضعة ، هذه حقارة .. لقد دنست نفسى .. لقد حقرت شرفى ، حين ارتضيت .. نسيت .. نعم .. ثم ماذا ؟

ولم يتم فلتشانينوف كلامه ، فقد ثاب الى رشده . ثم أردف يقـول :

ـــ اسمع ! لقد غافلتنى اليوم مغافلة .. كنتُ مهتاجا ، مريضا .. ولكن علام أبرر نفسى ؟ اننى لن أذهب الى هناك ، وأؤكد لك أنه لا شىء يغرينى بالذهاب .

ـــ حقا ؟ حقـــا ؟

هكذا صاح بافل بافلوفتش دون أن يخفى فرحه . فنظر اليه فلتشانينوف من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، باحتقار ، ثم استأنف سيره فى الغرفة . ولم يستطع أخيرا أن يمنع نفســه عن أن يقول لصــاحبه :

ـــ يظهر أنك مصر كل الاصرار على أن تكون سعيدا .

فأجابه بافل بافلوفتش بصوت عذب يقول :

ـــ نعــم .

قال فلتشانينوف لنفسه : « هل يهمنى أن لا يكون الا مهرجا ، وأن لا يكون خبثه الا حماقة وغباء ؟ اننى لا أستطيع الا أن أكرهه ، حتى لو كان لا يستحق الكره » .

قال بافل بافلوفتش وهو يبتسم ابتسامة ذليلة مذعنة :

ـــ لست الا « زوجا أبديا » . لقد تعلمت منك هذا التعبير ، يا ألكسى ايفانوفتش ، حين كنت لا تزال تقيم قربنا . لقد حفظت ، فى تلك السنة ، كثيرا من تعابيرك . فلما قلت فى المرة الماضية ، هنا ، « الزوج الأبدى » ، فهمت .

دخلت مافرا تحمل زجاجة شمبانيا ، وقدحين .

ـــ اعذرنى يا ألكسى ايفانوفتش ، فأنت تعرف حق المعرفة أننى لا أستطيع أن أستغنى عن هذا . لا تعد ذلك وقاحة منى ، ولا تنظر الىّ نظرتك الى غريب ، نظرتك الى شخص غير جدير بك أبدا .

فقال فلتشانينوف يأذن له مشمئزا :

ـــ اشرب . ولكننى أؤكد لك أننى مريض .

فأسرع بافل بافلوفتش يقول :

ـــ نعم ، حالا ، حالا . كأس واحد لا أكثر ، ان حلقى ..

قال ذلك وأفرغ كأسه فى جوفه بسرعة ، دفعة واحدة ، وجلس وهو يلقى على فلتشانينوف نظرات توشك أن تكون عاطفية .

وخرجت مافرا .

دمدم فلتشانينوف يقول :

ـــ عار ، عار .

ـــ الذنب ذنبهن ، هاته الصديقات الصغيرات . ثم انهن فى ميعة الصبا ، وتمام الغنج .. يعبثن ويلعبن .. بل ان هذا لفاتن ساحر . وهناك ، سأكون خادمها .. أنت تفهم ذلك . ستجد نفسها محاطة بألوان الرعاية والاحترام .. المجتمع الراقى .. لسوف تتبدل كل التبدل .

قال فلتشانينوف لنفسه مسرورا وهو يتلمس العلبة فى جيبه : « يجب مع ذلك أن أرد له السوار » .

وتابع بافل بافلوفتش كلامه يقول بلهجة النجوى والمسارة ، بلهجة رقيقة :

ـــ كنت تقول منذ لحظة اننى مصر على أن أكون سعيدا . وهذا صحيح ، والا ما عسى أن أصير اليه من مصير ؟ انظر ! (قال ذلك وأشار الى الزجاجة) . وهذه أيسر عيوبى وآفاتى . لا أستطيع أن أعيش اذا لم أتزوج ، اذا لم أسترد ثقتى القديمة بنفسى . ان الايمان يبعثنى بعثا جديدا .

ـــ ولكن لماذا تقص على هذه الأمور كلها ؟

قال فلتشانينوف ذلك وأوشك أن ينفجر ضاحكا . لقد بدا له ذلك مضحكا . ثم أردف :

ـــ قل أخيرا لماذا جررتنى الى هناك ؟ ماذا كانت حاجتك الىّ ؟

ـــ لأعرف ..

بدأ بافل بافلوفتش يقول ذلك ثم اذا به يرتبك فجأة أشد الارتباك .

ـــ لتعرف ماذا ؟

ـــ لأعرف ما يكون لك من تأثير .. اسمع يا ألكسى ايفانوفتش.. اننى لم أبدأ محاولتى هناك الا منذ أسبوع (كان يزداد ارتباكه) ، وقد لقيتك أمس ، فقلت فى نفسى : « اننى لم أره بعد فى مجتمع من الغرباء ، مع أناس غيرى » . فكرة حمقاء ، أشعر بذلك الآن . فكرة حمقاء لا محل لها . ولكن الاغراء كان أقوى من أن أستطيع دفعه . ذلك هو طبعى السيىء .

قال ذلك ورفع رأسه فجأة ، وقد احمر وجهه .

تساءل فلتشانينوف مذهولا : « ترى هل يقول كل الحقيقة ؟ ».

ثم سأله :

ــ ثم ماذا بعد ذلك ؟

فابتسم بافل بافلوفتش ابتسامة الرضى الماكر ، وقال :

ــ لم يكن ذلك كله الا لعبا طفوليا جميــلا ! والذنب ذنب الصديقات على كل حال . اغفر لى سلوكى الأحمق اليوم معك . ألكسى ايفانوفتش لن أفعل ذلك مرة أخرى أبدا ، لن يقع هذا مرة أخرى أبدا .

قال فلتشانينوف وهو يبتسم :

ــ ولكننى لن أذهب الى هناك بعد الآن .

ــ اعتمد على ما تقول .

فاغتاظ فلتشانينوف لحظة ، ثم قال :

ــ ولكننى لست الانسان الوحيد فى الدنيا .

فاحمر وجه بافل بافلوفتش من جديد وقال :

ــ يؤلمنى أن أسمعك تقول هذا الكلام يا ألكسى ايفانوفتش : اننى أحترم ناديجدا فيدوسويفنا كثيرا . صدقنى .

ــ عفوك ، ما قصدت شيئا . ولكننى أستغرب مع ذلك أنك وثقت بى هذه الثقة الكاملة كلها ، رغم ما تظنه فىّ من قدرة عظيمة على الاغراء .

ــ ما وثقت كل هذه الثقة ، الا لأن الأمر يجرى الآن ، بعد كل ما جرى فى الماضى .

ـــ أأنت اذن ما تزال تعدنى رجلا شريفا كل الشرف .

قال فلتشانينوف ذلك وتوقف عن الكلام فجأة . ان سذاجة هذا السؤال كان يمكن أن تدهشه هو نفسه فى غير هذه اللحظة .

قال بافل بافلوفتش وهو يغض طرفه :

ـــ لقد عددتك دائما كذلك .

ـــ نعم نعم ، طبعا ، ما الى هذا قصدت ، ما أردت هذا المعنى .. وانما أردت أن أقول : رغم كل التقديرات ..

ـــ نعم رغم كل التقديرات ..

ـــ وحين سافرت الى بطرسبرج ؟

لم يستطع فلتشانينوف أن يمنع نفسه عن طرح هذا السؤال ، على علمه بأن استطلاعه هذا شيء خبيث شيطانى .

ـــ حين سافرت الى بطرسبرج ، كنت أعدك أيضا رجلا شريفا كل الشرف . كنت أقدرك وأحترمك دائما يا ألكسى ايفانوفتش .

رفع بافل بافلوفتش عينيه ، وأخذ ينظر الى خصمه صراحة ، دون أى اضطراب . فشعر فلتشانينوف بشيء من الخوف فجأة ، فلم يحاول أن يحدث بعد ذلك أى انفجار ، وأراد أن لا تتجاوز الأمور حدا ما ، ولا سيما بخطيئة منه .

ـــ كنت أحبك كثيرا يا ألكسى ايفانوفتش .. كنت طوال تلك السنة التى قضيتها فى ت .. أشعر نحوك بالحب .. كنت أنت لاتلاحظ ذلك (قال هذا بصوت مرتجف أخاف فلتشانينوف) . كنت أنا أهون

عندك من أن أجعلك تلاحظ ذلك . على كل حال ، ربما كان ذلك أفضل . وخلال هذه السنين التسع الطويلة كنت أتذكرك دائما ، لأنني لا أتذكر سنة تشبه تلك السنة (التمعت عينا بافل بافلوفتش التماعا غريبا) . وقد حفظت عددا كبيرا من تعابيرك ، ومن آرائك . كنت أتذكرك دائما ، كرجل حار القلب ، نبيل العواطف ، مثقف ، مثقف جدا ، صاحب أفكار : « الأفكار الكبيرة ثمرة القلب الكبير لا العقل الكبير » . هذا ما قلته أنت ، ولعلك لا تتذكره ، أما أنا فقد حفظته . كنت أرى فيك دائما انسانا ذا قلب . فكنت أعتمد عليك ، وكنت أثق بك رغم كل شيء ..

أخذت ذقنه ترتجف فجأة . وذعر فلتشانينوف . كان لابد من قطع هذه اللهجة غير المتوقعة قطعا سريعا . فجمجم فلتشانينوف يقول ، وقد احمر وجهه ، وانزعج وذهب صبره :

ـــ كفى ، أرجوك .

ثم صاح فجأة يقول :

ـــ ولكن لماذا ، لماذا تلاحق رجلا مريضا ، مهدم الأعصاب ، يكاد يهذي ؟ لماذا تجره الى ظلمات كثيفة .. مع أن هذا كله ليس الا أشباحا، وسرابا ، وكذبا شائنا ، واسرافا .. الاسراف هو الشيء الأساسي ، هو ما يثير الحنق أكثر من أي شيء آخـــر : الاسراف . كل ذلك سخيف مضحك . نحن كلانا فاسدان ، خبيثان ، نحن كلانا كاذبان . هل تريد ، هل تريد أن أبرهن لك فورا على أنك لا تحبني ، على أنك تكرهني من أعماق نفسك ، وعلى أنك تكذب دون أن تعرف

ذلك أنت نفسك ؟ لقد أخذتنى الى هناك ، لقد جررتنى الى هناك ، لغرض سخيف مضحك ، ليس هو أن تمتحن خطيبتك (وهذه فكرة غبية) ، ولكنك حين رأيتنى أمس عاد اليك الغضب ، فأخذتنى الى هناك ، لتريني خطيبتك ، ولتقول لي : « حاول ان استطعت ! » لقد أردت أن تتحدانى . لعلك كنت لا تعى ذلك ، ولكن هذا هو الواقع.. هذا ما كنت تحسه . والمرء لا يتحدى هذا التحدى الا اذا كره ، وأنت اذن تكرهنى .

كان فلتشانينوف يذرع الأرض جيئة وذهابا ، وهو يقذف هذا الكلام بصوت لاهث ذليل ، يعذبه الشعور بالانحدار الى مستوى بافل بافلوفتش .

قال بافل بافلوفتش فجأة ، بصوت منخفض ، متعجل ، وقد أخذت ذقنه ترتجف من جديد :

ــ أردت أن أعقد بيننا صلحا ..

فما أن سمع فلتشانينوف هذا الكلام حتى اسـتبد به غضب مجنون ، كأنه لم يسمع فى حياته اهانة كهذه الاهانة ، فزأر يقول :

ــ أعود فأقول لك انك تلاحق انسانا مريضا مهدم الأعصاب.. تلاحقه لتنتزع منه الكلمة التى تنتظرها فى غير طائل ! ولكننا .. نعم.. ولكننا ننتمى الى عالمين مختلفين .. افهم هذا أخيرا .. ثم .. ثم ان بيننا قبرا ..

قال ذلك بصوت مختنق ، ثم ما لبث أن ثاب الى نفسه .

قال بافل بافلوفتش وقد اصفر وجهه فجأة وتشنج :

ــ ولكن كيف تستطيع أن تفهم ماذا يعنى هذا القبر بالنسبة الىّ .. هنا ؟

قال ذلك وهو يسير نحو فلتشانينوف ، ويضرب صدره ضربة مضحكة ولكنها قوية .

ــ أنا أعرف ما هو هذا القبر الصغير . انه بيننا نحن الاثنين ، وأنت وأنا واقفان على طرفيه .. ولكن الطرف الذى أقف عليه أنا فيه أكثر .. أكثر .. أكثر .. أكثر ..

ردد كلماته الأخيرة هذه متمتما كأنه يهذى ، وهو ما زال يضرب صدره بيده .

وفجأة قرع الجرس قرعا قويا ذكّرهما بنفسيهما . ان الطارق يقرع الجرس قرعا عنيفا كأنه يريد أن يقطع الحبل .

قال فلتشانينوف مضطربا :

ــ ما من أحد يقرع الجرس فى بيتى هذا القرع العنيف .

فتمتم بافل بافلوفتش يقول خجلا ، وقد ثاب الى نفسه وعاد كما كان بافل بافلوفتش منذ برهة :

ــ ليس هذا بيتى مع ذلك .

ومضى فلتشانينوف يفتح الباب مستاء .

قال فى حجرة المدخل صوت شاب قوى ملىء بالثقة :

ــ أظنك السيد فلتشانينوف ؟

ــ ماذا تريد ؟

تابع الصوت القوى الرنان كلامه يقول :

ـــ أعرف أن عندك فى هذه اللحظة رجلا اسمه تروسوتسكى . أحب أن أراه .

لا شك أن فلتشانينوف كان يسره كثيرا أن يركل هذا الشاب الواثق من نفسه ركلة واحدة بقدمه فاذا هو يتدحرج على السلم . ولكنه فكر فى الأمر لحظة ، ثم تنحى قليلا ، وسمح للطارق أن يدخل:

ـــ ادخل .. هذا هو السيد تروسوتسكى .

١٤

ساشنكا ونادنكا

فتى في ريعان الصبا ما تجاوز التاسعة عشرة من عمره ، ولعله دون ذلك سنا .. ان وجهه الجميل ، المتكبر ، الواثق ، يبدو كأنه وجه طفل . أنيق المظهر ، أو متناسب الملابس على كل حال ، أميل الى الطول ، فاحم الشعر غزيره ، يتبعثر شعره خصلات جامحة ، أسود العينين جرىء النظرات ، وذلك كله يضفى على وجهه تعبيرا خاصا . لو لم يكن له من الجمال الا هذا الأنف لكان فتى جميلا.

دخل وقد بدا فى وجهه الجد والرصانة :

ـــ أظن أننى أحدث السيد تروسوتسكى .

قال ذلك وهو يفصص الكلمات ، ويحرص على أن تخلو عبارته من أى معنى من معانى الاحترام ، ليدل على أن حديثه مع هذا الرجل الملقب باسم تروسوتسكى لا يشرفه ولا يمتعه .

أخذ فلتشانينوف يفهم الأمر ، وبدا على بافل بافلوفتش أيضا أنه

أحس بشيء ما . فقد لاح فى وجهه قلق ، ولكنه حاول أن يسيطر على نفسه . فأجاب بلهجة وقورة :

ـــ لم أشرف بمعرفتك قبل الآن ، وافترض أنه ليس بيننا شيء مشترك .

ـــ اصغ الىّ أولا ، ثم تقول رأيك بعد ذلك .

قال ذلك بلهجة رصينة متفخمة . ثم وضع نظارته المربوطة بخيط من الحرير ، وضعها على احدى عينيه وتفرس فى زجاجة الشمبانيا الموضوعة على المائدة . حتى اذا انتهى من تفرسه ، طوى نظارته بهدوء، وقال يتجه بالكلام مرة أخرى الى بافل بافلوفتش :

ـــ ألكسندر لوبوف .

ـــ ماذا يعنى ، الكسندر لوبوف ؟

ـــ الكسندر لوبوف هو أنا . ألا تعرفنى ؟

ـــ لا .

ـــ ليس لك أن تعرفنى على كل حال . لقد جئت لشأن هام يتعلق بك . ولكن اسمح لى أن أجلس فأنا متعب ..

قال فلتشانينوف :

ـــ اجلس .

ولكن الفتى كان قد جلس قبل أن ينتظر السماح له بالجلوس .

شعر فلتشانينوف رغم الألم الشديد الذى كان يحسه فى صدره ، والذى كان يتزايد لحظة بعد لحظة ، شعر رغم ذلك باهتمام كبير بهذا

الفتى الوقح . وخيل اليه أن ثمة شبها بين هذا الوجه الجميل الوردى وبين ناديا .

قال الفتى لبافل بافلوفتش وهو يشير الى كرسى أمامه ، بحركة مهملة من رأسه :

— اجلس أنت أيضا .

— بل سأبقى واقفا .

— ستتعب من الوقوف . أما أنت ، يا سيد فلتشانينوف ، فأظن أنك تستطيع البقاء .

— ليس ما يدعونى الى الخروج . أنا فى بيتى .

— كما تريد . ويجب أن أعترف لك بأننى أؤثر أن تحضر حديثى مع هذا السيد . لقد كلمتنى عنك ناديجنا فيدوسوفينا بكثير من الاطـراء .

— صحيح ؟ متى اتسع وقتها لهذا ؟

— بعد ذهابكما مباشرة . أنا آت الآن من عندهم .

قال ذلك ثم التفت الى بافل الذى كان ما يزال واقفا ، وأضاف يقول ببطء :

— اليك الموضوع يا سيد تروسوتسكى . اننا أنا وناديجـدا فيدوسويفنا يحب كل منا الآخر منذ مدة طويلة ، وقد تعاهدنا على الزواج . وأنت تقف الآن حائلا بيننا . وانما جئت اليك لأطلب منك أن تنسحب . فهل أنت مستعد لأن تطيع ؟

أوشك بافل بافلوفتش أن يقع ، واصفر وجهه ، ولكن ابتسامة خبيثة شوهت شفتيه . فقال بوضوح :

ـــ لا ، أبدا .

فتبختر الفتى على مقعده ، ووضع ساقا على ساق ، وقال :

ـــ هكذا ؟

فأضاف بافل بافلوفتش يقول :

ـــ انني لا أعرف الشخص الذى أكلمه . وأظن أنه لم يبق ما يقوله أحدنا للآخر .

فلما فرغ من النطق بهذه الكلمات رأى من المستحسن أن يجلس هو أيضا ، فجلس . فقال له الفتى فى اهمال :

ـــ ألم أقل لك انك ستتعب ؟ أما عن الشخص الذى تكلمه فقد سبق أن قلت لك ان اسمى لوبوف ، وأننا أنا وناتاليا فيدوسويفنا قد خطب أحدنا الآخر . فلا تستطيع اذن أن تقول انك لا تعرف الشخص الذى تكلمه ، لا ولا تستطيع أن تظن أنه لم يبق ثمة ما يقوله كل منا للآخر . ان الأمر لا يتعلق بى وحدى ، بل يتعلق أيضا بناديجدا فيدوسويفنا التى تلاحقها هذه الملاحقة الوقحة . هذا وحده سبب كاف للحديث بيننا .

أخرج هذا الكلام كله من بين أسنانه ، بلهجة متغطرسة ، وهو لا يكاد يتنازل الى حيث ينطق بالألفاظ نطقا واضحا ، حتى لقد وضع نظارته مرة أخرى ، وتظاهر بأنه يفحص شيئا من الأشياء أثناء الكلام.

حاول بافل بافلوفتش أن يقاطعه ، وقد غضب غضبا شديدا ، فقـــال :

ـــ اسمح لى أيها الشاب ..

ولكن « الفتى » أوقفه فورا عن اكمال جملته ، قائلا :

ـــ ما كان لى فى أية لحظة أخرى أن أسمح لك بمخاطبتى « أيها الشاب » . ولكن يجب أن تعترف الآن بأن هذا الشباب هو بعينه التفوق الأكبر الذى أمتاز به عليك . واليوم مثلا حين قدمت لها سوارك حاولت أن تبدو أقرب الى الشباب قليلا .

تمتم فلتشانينوف يقول : « يا له من أفعى » .

وأجاب بافل بافلوفتش يقول فى وقار :

ـــ على كل حال ، أيها الســـيد ، أنا لا أرى أن الحجج التى أوردتها ، وهى حجج مشكوك فيها وغير لائقة ، كافية لحملنا على متابعة حديثنا . انى أرى أن هذا كله عبث أطفال لا قيمة له البتة . سأسأل منذ الغد السيد المحترم جدا فيدوسوئى سيمنوفتش عن هذا الأمر ، وأرجوك الآن أن لا تعكر علىّ هدوئى .

فهتف المراهق يقول وهو يتجه بالكلام الى فلتشانينوف ويعجز عن الاحتفاظ بلهجته السابقة :

ـــ هل ترى الى هذا الانسان ؟ ليس يكفيه أن يُطرد من هناك ، وأن تمد له الألسن سخرا ، بل يريد أن يقص كل شيء على الأب . لا تبرهن بذلك أيها الرجل العنيد على أنك تريد الحصول على الفتاة عنوة ، وأنك تشتريها شراء من أبويها اللذين صارا الى الطفولة ،

ولكن الوحشية الاجتماعية تحفظ لهما سلطتهما عليها . ألم تظهر لك احتقارها اظهارا كافيا ؟ ألم ترد اليك هديتك غير اللائقة ؟ ألم ترد اليك سوارك ؟ ماذا تريد أكثر من ذلك ؟

فارتجف بافل بافلوفتش ، وقال :

ـــ لم يرد اليّ أحد سواري ، وهذا من جهة أخرى مستحيل .

ـــ مستحيل ؟ تقول ان هذا مستحيل ؟ ألم يرد لك السيد فلتشانينوف سوارك ؟

قال فلتشانينوف لنفسه « سحقا له » ، ثم التفت الى بافل بافلوفتش قائلا :

ـــ حقا لقد كلفتني ناديجدا فيدوسويفنا بأن أرد لك هذه العلبة يا بافل بافلوفتش . لم أشأ أن آخذها . ولكنها أصرت . وقد ساءني ذلك كثيرا .

قال ذلك وأخرج العلبة من جيبه فوضعها ، خجلا ، أمام بافل بافلوفتش المشدوه .

قال الفتى لفلتشانينوف بلهجة قاسية :

ـــ لماذا لم تردها اليه ؟

فأجاب فلتشانينوف وقد انزعج انزعاجا شديدا :

ـــ لم يتسع الوقت لهذا .

ـــ غريب جدا !

ـــ ماذا ؟

ـــ يجب أن تعترف بأن ذلك شيء غريب فى أقل تقدير . على أننى مستعد للتسليم بأن ثمة سوء تفاهم .

عصفت بفلتشانينوف رغبة قوية فى أن ينهض فيشد أذنى هذا الصبى ، ولكنه لم يستطع أن يحتفظ بجده ، فاذا هو ينفجر ضاحكا منه أمام أنفه . فأخذ الفتى يضحك أيضا . ولكن بافل بافلوفتش لم يضحك . ولو قد لمح فلتشانينوف النظرة الرهيبة التى رمى بها بافل بافلوفتش صاحبه الفتى لأدرك أنه قد بلغ فى هذه اللحظة حدا خطرا .. ولكنه ، رغم أنه لم يلاحظ تلك النظرة ، أحس أن عليه أن يساعد بافل بافلوفتش .

فقال بلهجة ودية صداقية :

ـــ اسمع يا سيد لوبوف . أحب أن ألفت نظرك ، دون الدخول فى بحث البواعث الأخرى التى أريد استبعادها ، الى أن بافل بافلوفتش يمتاز عليك ، اذ يخطب ناديجدا فيدوسويفنا ، بأنه معروف جدا عند هذه الأسرة الكريمة . ويجب عدا هـــذا أن يُحسب حساب المركز الممتاز الذى يحتله ، ويجب كذلك أن يحسب حساب الثروة الطائلة التى يملكها . فمن الطبيعى جـــدا ، والحالة هـــذه ، أن يشـــعر بافل بافلوفتش بكثير من الاستغراب حين يرى منافسا مثلك : قد تكون لك مزايا كبيرة ، ولكنك أصغر سنا من أن يعدك منافسا ذا شأن .. ومن حقه ما دام الأمر كذلك أن يرجوك انهاء هذا الحديث.

ـــ ماذا تعنى بقولك « صغير السن » . لقد بلغت التاسعة عشرة منذ شهر . ويحق لى من ناحية القانون أن أتزوج منذ مدة طويلة . هذا كل شيء .

ــــ ولكن أى أب يرضى أن يزوجك ابنته الآن ، حتى ولو سلمنا بأنك ستصبح فى المستقبل من أصـــحاب الملايين أو من مشـــاهير الانسانية . ان فتى فى التاسعة عشرة من عمره لا يمكن أن يُسأل عن أفعاله الخاصة ، فكيف تطمع فى تأمين مستقبل انسان آخر صغير السن مثلك ؟ ألا تجد أن هذا ليس على جانب عظيم من النبـــل والشرف ؟ ولئن أبحت لنفسى أن أكلمك صراحة فلأنك أنت نفسك قد عددتنى وسيطاً بينك وبين بافل بافلوفتش منذ لحظة .

ــــ ها .. نعم . اسمه بافل بافلوفتش . ولكن لماذا كنت أتصور أن اسمه فاسيلى بتروفتش ؟

قال ذلك ثم أردف وهو يتجه الى فلتشانينوف :

ــــ نعم ! ان كلامك لم يدهشنى أبدا : فلقد كنت أعرف أنكم جميعا سواء . على أننى أستغرب بعض الاستغراب . فقد حدثونى عنك حديثهم عن رجل يحمل فكر العصر الحديث . على كل حال ، ليس لهذا كله من قيمة . وانما المهم أننى ، على خلاف ما سمحت لنفسك بأن تقوله منذ هنيهة ، لا أرتكب أى عمل مناف للنبـــل والشرف ، بل الحقيقة هى عكس هذا ، كما سأحاول أن أبرهن لك على ذلك . أقول أولا : اننا قد تعاهدنا ، وأقول ثانيا اننى قد وعدتها وعدا قاطعا أمام شاهدين بأننى ، اذا هى أحبت يوما شخصا آخر أو هى ندمت على زواجها بى وأرادت أن تفصم عرى هذا الزواج ، سأعترف كتابة بأننى قارفت اثم الخيانه الزوجية ، وبذلك أهيىء لها الأسباب اللازمة للحصول على الطلاق . وليس هذا كل شىء . بل سأعطيها ، يوم الزواج نفسه ، سندا قيمته مائة ألف روبل ، فاذا

تراجعت فى المستقبل عن تعهدى ، وأبيت أن أكتب لها تلك الوثيقة ، ورفضت الموافقة على الطلاق ، استطاعت أن تستعمل ذلك السند وأن تضعنى فى السجن . معنى ذلك كله أننا احتطنا لكل مفاجأة ، وأننى لا أعرض مستقبل أحد للخطر .

ـــ أراهن أن الشخص الآخر .. ما اسمه ؟ بردبوسيلوف ! نعم أراهن أن بردبوسيلوف هو الذى تخيل هذه الخطة الجميلة ؟

ـــ هئ هئ هئ ..

هكذا ضحك بافل بافلوفتش ضحكا خبيثا .

ـــ ما الذى يضحك هذا السيد ؟ نعم لقد حزرت الحقيقة : ان بردبوسيلوف هو صاحب هذه الفكرة . ولابد لك من الاعتراف بأنه أحسن تخيل هذا كله . وبذلك نعطل التشريع السخيف تعطيلا كاملا. لقد قررت أن أحبها الى الأبد ، طبعا ، وهذه الاحتياطات كلها تضحكها كثيرا . ولكنها احتياطات بارعة على كل حال . ولابد من الاعتراف بأنها عمل نبيل ، لا يقدم عليه أى انسان .

ـــ فى رأيى أن هذا العمل لا يعوزه النبل فحسب ، بل هو عمل سيئ مرذول .

قال فلتشانينوف ذلك ، فهز الفتى كتفيه ، ثم قال بعد لحظة من صمت :

ـــ ليس يدهشنى كلامك ، أكرر ذلك . ان هذه الأمور أصبحت منذ مدة طويلة لا تدهشنى . ولعل بردبوسيلوف قد ذكر لك بوضوح أن عجزكم عن فهم الأمور ، مهما تكن طبيعية ، يرجع الى أن عواطفكم

وأفكاركم قد أفسدتها أولا هذه الحياة السخيفة التى تعيشونها منذ مدة طويلة ، وأفسدها ثانيا فراغكم الطويل .. وعلى كل حال ، لعلنا لم نتفاهم بعد : لقد حدثونى عنك بثناء واطراء .. هل أنت فى نحو الخمسين من العمر ؟

ـــ لنعد الى موضوعنا ، من فضلك !

ـــ أعتذر عن فضولى ، وأرجو أن لا تشعر من ذلك بضير ، فما قصدت الى أى سوء . وها أنذا أعود الى الموضوع : لن أكون فى المستقبل من أصحاب الملايين كما تخيلت منــذ برهة (والفكرة مضحكة !) . أنا كما ترانى . ولكننى مطمئن الى مستقبلى كل الاطمئنان . لن أكون لا بطلا ولا مشهورا من مشاهير الانسانية . غير أننى سأكفل حياة زوجتى وحياتى . صحيح أننى لا أملك الآن شيئا ، حتى لقد نشأت فى أسرتهم منذ طفولتى ..

ـــ كيف ؟

ـــ نعم نشأت فى أسرتهم ! كان أبى يمت الى زوجة هذا السيد زاخليبينين بقربى بعيدة . فلما مات هو وأمى ، كنت فى الثامنة من عمرى ، فضمنى العجوز اليه ، ثم أرسلنى بعد ذلك الى المدرسة الثانوية . انه رجل شهم طيب ، اذا أردت أن تعرف ذلك .

ـــ أعــرفه .

ـــ نعم ، ولكن رأسه محشو بأفكار عتيقة . هو طيب جدا على كل حال . وقد تحررت من وصايته منذ مدة طويلة ، لأننى أريد أن أسعى الى رزقى بنفسى ، وأن لا أكون مدينا لأحد بشىء .

سأله فلتشانينوف وقد ثار فيه حب الاطلاع :

ـــ منذ متى ؟

ـــ منذ أربعة أشهر تقريبا .

ـــ اذن لقد اتضح كل شيء : أنتما اذن صديقا طفولة . وهل حصلت على عمل ؟

ـــ نعم ، عند كاتب بالعدل : خمسة وعشرون روبلا فى الشهر . وهذا شيء موقت . ولكننى حين تقدمت خاطبا لم أكن أملك حتى هذا . كنت أعمل عندئذ فى ادارة السكك الحديدية بعشر روبلات فى الشهر . ولكن هذا كله شيء موقت .

ـــ هل تقدمت بالخطبة الى الأبوين اذن ؟

ـــ تقدمت بالخطبة رسميا منذ مدة : منذ ثلاثة أسابيع .

ـــ فماذا قالا ؟

ـــ ضحك الأب فى أول الأمر ، ثم غضب غضبا هائلا ، وحبس ابنته . ولكن ناديا كانت بطلة . واذا كنا لم نظفر ، فلأن الأب كان حاقدا عليّ منذ مدة : فلقد تركت الادارة التى أدخلنى فيها قبل ذلك بأربعة أشهر . كان ذلك قبل السكك الحديدية أيضا . انه شيخ شهم ممتاز ، كما قلت لك ، وهو فى بيته بسيط جدا مرح جدا . ولكن ليتك تراه فى مكتبه ! انه يتبدل هنالك تبدلا تاما : انه هنالك جوبيتر حقيقى . ولقد أفهمته طبعا أن طرائقه هذه لا تعجبنى . ولكن المذنب الحقيقى فى الموضوع كان هو نائب الرئيس ، فقد ارتأى هذا السيد أن يشكو « فظاظتى » ، مع أننى لم أزد على أن قلت له ان ثقافته ناقصة . ثم تركتهما كليهما ، وها أنذا الآن عند الكاتب بالعدل .

ـــ هل كان أجرك حسنا فى تلك الادارة ؟

ـــ كنت زائدا عن العدد المحدد للوظائف ، فكان العجوز زاخليبينين هو الذى يدفع أجرى . انه رجل طيب جدا ، كما قلت لك . ولكننا لن نذعن ! ان خمسة وعشرين روبلا لا تكفى . لذلك آمل أن أشارك قريبا فى ادارة أملاك الكونت زافيليسكى الذى اضطربت شؤونه اضطرابا كبيرا ، وسأبدأ عندئذ بثلاثة آلاف روبل . والا فسأصبح محاميا . ان الحاجة الى رجال فعالين نشيطين حاجة ماسة الآن ! .. أوه ! ما هذا الرعد ! ستهب العاصفة عما قليل . من حسن حظى أننى وصلت قبل هبوبها . لقد جئت من هنالك سيرا على الأقدام ، وكنت أركض ركضا طوال الوقت تقريبا .

ـــ ولكن قل لى ، كيف اتسع وقتك ، ما دام الأمر كذلك ، لأن تتحدث مع ناديجدا فيدوسويفنا ، خاصة وأنك لا تستقبل فى بيتهم ؟

ـــ يمكن التحدث من وراء السياج .

ثم قال وهو يضحك :

ـــ ألم تلاحظ الفتاة القصيرة الحمراء ؟ انها تسعى بيننا ، وكذلك ماريا نيكيتشنا . ولكن ما بك ؟ أأنت خائف من العاصفة ؟

ـــ لا ، ولكننى أشعر بألم شديد .

والحق أن الألم الذى أحسه فلتشانينوف فجأة فى صدره ، أصبح يوجعه أشد الوجع ، فنهض عن مقعده ، وحاول أن يسير فى الغرفة بضع خطوات .

ـــ اذن أنا أزعجك .. لا تتحرج منى .. أنا ذاهب حالا .

قال الفتى ذلك ، ونهض فجأة .

فقال له فلتشانينوف بأدب ورقة :

ـــ لا لا ، لست تزعجني . الأمر بسيط .

ـــ كيف يكون بسيطا ؟ « حين يشعر كوبلنيكوف بألم فى بطنه .. » * هل تتذكر هذا الكلام عند شيدرين ؟ هل تحب شيدرين ؟

ـــ نعم .

ـــ وأنا أيضا .. والآن يافاسيلى .. ها .. عفوا .. يا بافل بافلوفتش! يجب أن ننهى هذا الأمر (قال ذلك وهو يلتفت الى بافل بافلوفتش ويكاد يضحك) . ها أنذا أصوغ لك السؤال مرة أخرى حتى تفهم حق الفهم : هل توافق على أن تصرح للأبوين ، غدا ، تصريحا رسميا ، أمامى ، بأنك تعدل عن جميع ما طمعت فيه بشأن ناديجدا فيدوسويفنا؟

ـــ لا ، لا أوافق .

قال بافل بافلوفتش ذلك وهو ينهض نافد الصبر مهتاجا . ثم أردف يقول :

ـــ وأرجوك أن تتركنى هادئا وأن لا تعكر صفوى .. لأن هذا كله ليس الا عبث أطفال ، وحماقة ! ..

قال الفتى وهو يبتسم ابتسامة متعجرفة ، ويلوح باصبعه مهدّدا :

ـــ حذار ! انك تخطىء الحساب ! وهل تعرف الى أين يمكن أن يؤدى بك هذا الخطأ فى الحساب ؟ أما أنا فأنبئك منذ الآن بأنك حين ستعود بعد عشرة أشهر ، وتكون قد أنفقت ما أنفقت من مال

كثير ، وعانيت ما عانيت من صداع عسير ، ستضطر الى العدول عن ناديجدا فيدوسويفنا ، فاذا لم تعدل ، عاد عليك ذلك بمتاعب كثيرة ! هذا ما سيقع ! ويجب أن أقول لك (واغفر لى هذا التشبيه) ان مثلك الآن كمثل كلب راقد على علف : لا هو يأكل ، ولا هو يدع لأحد أن يأكل . وأعود فأقول لك من قبيل العطف عليك والاحسان اليك : فكر فى الأمر ، حاول أن تفكر فى الأمر تفكيرا جادا ، ولو مرة واحدة فى حياتك على الأقل .

قال بافل بافلوفتش وقد جُن حنقا :

— أرجوك أن تعفينى من هذه المواعظ . أما عن تلميحاتك السافلة .. فسأتخذ اجراءاتى منذ غد أيها السيد ، سأتخذ اجراءات جديدة !

— تلميحاتى السافلة ؟ ما الذى تعنيه ؟ لأنت السافل اذن ، ما دامت تراودك أفكار كهذه ! على كل حال ، أنا أوافق على الانتظار الى غد . أما اذا .. ما هذا ؟ رعد أيضا ؟ الى اللقاء ! لقد سعدت جدا بمعرفتك .

قال جملته الأخيرة لفلتشانينوف وهو يحييه ، ثم مضى بسرعة ، ليسبق العاصفة ، ويتحاشى المطر .

١٥

سدد الحساب

ما إن خرج الشاب حتى أسرع بافل بافلوفتش نحو فلتشانينوف صائحا :

— هل رأيت ؟ هل رأيت ؟

— حظك سيىء .

قال فلتشانينوف ذلك دون أن يفكر . وأغلب الظن أنه لولا ذلك الهياج الذى يسببه له ألمه المتزايد فى صدره ، لما أفلت منه هذا الكلام .

فانتفض بافل بافلوفتش كأن حرقا أصابه . وقال :

— وأنت ؟ أغلب الظن أن شفقتك علىّ هى التى منعتك من رد السوار الىّ ، أليس كذلك ؟

— بل لم يتسع الوقت .

— لا شك أنك رثيت لحالى ، لأنك صديق صادق ؟

ــ نعم ، رثيت لحالك !

قال فلتشانينوف هذا وقد تملكه الغضب .

ومع ذلك قص عليه ، بايجاز ، كيف ُرد اليه السوار ، وكيف أن ناديجدا فيدوسويفنا قد أكرهته اكراها على تولى هذا الأمر .. وقال :

ــ لم أشأ أن آخذه ، فان لى من متاعبى الخاصة ما يكفينى ..

فقال بافل بافلوفتش ضاحكا :

ــ استسلمت للاغراء ، فرضيت أن تأخذه .

ــ مضحك هذا الذى تقول . ويجب عليك أن تعتذر عنه . ألم تقنع منذ قليل بأننى لا ألعب الدور الأساسى فى هذا الأمر ، وأن هنالك آخرين .

ــ لقد استسلمت للاغراء ، مع ذلك .

قال بافل بافلوفتش هذا وجلس يصب لنفسه خمرا ، ثم أردف :

ــ هل تتصور أننى سأذعن أمام هذا الصبى ؟ لسوف أحطمه كما يحطم الزجاج . هذا ما سأصنعه به . سأذهب الى هناك منذ غد ، وأدبر أمر هذا العبث ، عبث الأطفال .. كله ..

ثم أفرغ كأسه فى جوفه ، وصب كأسا أخرى . فعل ذلك بدون تحرج .

ــ نادنكا وساشنكا ! ألا ما أجمل الأطفال ! .. هأ هأ هأ ..

أصبح لا يستطيع كظم غيظه .

والتمع برق باهر ، ما لبث أن أعقبه رعد رهيب ، وأخذ المطر ينهمر سيولا . فنهض بافل بافلوفتش الى النافذة فأغلقها .

ـــ أرى أنك تستقر هنا . سأرقد أنا ، فافعل ما يحلو لك .

قال فلتشانينوف ذلك وهو لا يكاد يقوى على الكلام من فرط ما يشعر به من ألم .

فأجاب بافل بافلوفتش وقد لاح عليه أنه يشعر بأنه أهين ، ولكن يكاد يسعده أن يشعر بذلك ، أجاب قائلا :

ـــ فى مثل هذا الجو ، لا يطرد كلب الى خارج .

فقال فلتشانينوف بصوت متعب :

ـــ اذن فابق ، واشرب .. واقض الليلة هنا اذا شئت .

ثم تمدد على ديوانه ، وأنّ أنينا خافتا .

ـــ أقضى الليلة هنا ؟ ولا تخاف منى ؟

ـــ مم أخاف ؟

قال فلتشانينوف ذلك وهو ينهض رأسه فجأة .

ـــ أوه ! لاشيء .. قلت ذلك هكذا .. ولكن كان يبدو عليك فى المرة الماضية أنك تخشى شيئا ما .. أو هذا ما تراءى لى ..

ـــ أنت غبى !

كذلك قال فلتشانينوف عاجزا عن كبح جماحه ، ثم أدار رأسه نحو الحائط .

قال بافل بافلوفتش :

ـــ أوه ! لا ، لاشيء ..

وما هى الا لحظات حتى نام المريض . ان التوتر الذى اصطنعه طوال النهار قد هبط الآن فجأة ، وكانت صحته مضعضعة كثيرا ، فاذا هو يشعر أنه ضعيف كطفل .

ولكن الألم انتصر على التعب وعلى النوم ، فما هى الا ساعة حتى استيقظ ، واضطره الوجع الى النهوض . كانت العاصفة قد هدأت . والغرفة ملأى بدخان التبغ . وزجاجة الخمر قد فرغت . وبافل بافلوفتش نائم على الديوان الآخر . انه مستلق على ظهره ، ورأسه منقلب الى جانب . لم يخلع ملابسه ، لا ولا حذاءه . وقد انزلقت نظارته من جيبه ، وتدلت من طرف سلكها الحريرى حتى كادت تلامس الأرض ، وتدحرجت قبعته . نظر اليه فلتشانينوف نظرة قاتمة ، ولكنه لم يوقظه . وراح يسير فى الغرفة وقد انطوى نصفين من شدة الألم . أصبح لا يقوى على البقاء راقدا ، وكان يئن ، ويفكر فى وجعه .

انه خائف من هذا الوجع . ومن حقه أن يخاف . انه يُصاب بمثل هذه النوبات منذ مدة طويلة ، ولكنها لا تقع له الا من حين الى حين ، مرة فى السنة أو فى السنتين . وكان يعرف أن منشأها الكبد : فالألم ، عند حفرة المعدة أو فوقها قليلا فى نقطة من الصدر ، يبدأ ضغطا أصم ، مزعجا ، مثيرا ، رغم أنه ما يزال ضعيفا ، ثم ما ينفك يشتد ويشتد طوال عشر ساعات فى بعض الأحيان ، ثم يبلغ الألم من القوة ويبلغ الضغط من العنف أن المريض يرى الموت يهم به .

وفى المرة الأخيرة ، منذ سنة ، بعد عشر ساعات من آلام هدأت أخيرا، بلغ فلتشانينوف من فرط الارهاق أنه أصبح لا يقوى على تحريك يده وهو راقد فى سريره . ولم يسمح له الطبيب بأن يتناول ، طوال ذلك اليوم ، الا بضع جرعات من شاى خفيف جدا ، مع قليل من الخبز المغموس بالمرق ، كأنه طفل . كانت الآلام تنبثق فجأة دون سبب ظاهر ، ولكنها لا تكاد توافيه الا على أثر هياج عصبى شـــديد . وكانت تزول أيضا بطريقة غريبة جدا : كان يمكن فى بعض الأحيان وقف النوبة منذ بدايتها ، منذ نصف الساعة الأولى ، بواسطة كمادات ساخنة لا أكثر ، وفى أحيان أخرى لا يجدى فيها شىء ، كما وقع ذلك فى آخر نوبة ، ولا تزول الآلام عندئذ الا باستعمال المقيئات مرة بعد مرة . وقد اعترف الطبيب فيما بعد أن الظن قد ذهب به الى أن سماً قد وضع له فى طعامه .

والآن ، ما يزال الصباح بعيدا . وفلتشانينوف يكره أن يستدعى طبيبا فى الليل . بل انه لا يحب الأطباء أصلا . ولكنه لم يستطع أخيرا أن يحتمل أكثر مما احتمل ، فأخذ يئن أنينا عاليا ، فأيقظ تأوهه بافل بافلوفتش ، فنهض هذا واقفا على ديوانه ، وظل على هذه الحال برهة يستمع الى أنين فلتشانينوف مذعورا ، وينظر اليه راكضا من غرفة الى غرفة ، وقد استبد به رعب شديد . كان واضحا أن زجاجة الخمر التى أفرغها فى جوفه قد أثرت فيه أكثر مما تؤثر فيه عادة ، فلم يستطع أن يثوب الى رشده الا ببطء ، حتى اذا فهم أخيرا ، هرع الى فلتشانينوف الذى كان لا يكاد يقوى على الكلام ، وهتف يقول له مضطربا أشد الاضطراب :

ـــ هذا من الكبد . أعرف ذلك . ان بيوتر كوزتش الذى تعرفه قد أصيب بهذا الشيء نفسه ، وكان ذلك ناشئا عن الكبد . يجب أن نضع كمادات ساخنة . كان بيوتر كوزتش يضع دائما كمادات ساخنة، فى مثل هذه الحالة .. ذلك أن هذه النوبة خطرة يمكن أن تؤدى الى الموت . سأنادى مافرا ، هه ؟

فدفعه فلتشانينوف عن نفسه منزعجا ، وهو يقول :

ـــ لاداعى الى ذلك ، لا داعى الى ذلك . لست فى حاجة الى شيء .

ولكن باقل باقلوفتش كان مضطربا أشد الاضطراب ، لا يدرى الا الله لماذا ! كأن الأمر أمرحياة ابن له . لم يشأ أن يسمع شيئا ، وأصر على أن يقبل فلتشانينوف الكمادات ، وعلى أن يبتلع قدحين أو ثلاثة أقداح من الشاى دفعة واحدة ، « يجب أن لا يكون الشاى ساخنا بل غاليا » ، فأسرع يوقظ مافرا ، دون أن يأذن له فلتشانينوف بذلك ، وساعد مافرا على اشعال النار فى المطبخ المهجور منذ مدة طويلة ، وأغلى الماء فى الســماور . وأرقد المريض أثناء ذلك على فراشه ، وخلع له ملابسه ، وغطاه . وما هى الا عشرون دقيقة حتى كان الشاى قد أعد ، وكذلك الكمادة الأولى .

قال باقل باقلوفتش فى حماسة ، وهو يضع على صدر فلتشانينوف صحنا مسخنا ملفوفا بمنشفة :

ـــ هذه صحون ساخنة . ليس عندنا شيء آخر . وهى على كل حال أحسن أنواع الكمادات . أقسم لك . لقد جربتها بنفسى على

كوزتش . ذلك أن حالتك خطيرة ، قد تؤدى الى الموت . اشرب الشاى . ابلعه بسرعة ، ولو حرقت حلقك . ان انقاذ حياتك يستحق أن تقبل من أجله بعض الحروق .

كان بافل بافلوفتش يصطدم من فرط السرعة بمافرا التى كانت لا تزال شبه نائمة ، وكانا يتبادلان صحنا بصحن كل دقيقتين أو كل ثلاث دقائق . وشعر فلتشانينوف بعد الصحن الثالث وقدح الشاى الثانى ، شعر فجأة بشىء من التحسن .

ـــ اذا استطعنا أن نكسر شدة الألم ، وأن نسيطر عليه ، كان ذلك وحده علامة حسنة يجب أن نحمد الله عليها !

بهذا هتف بافل بافلوفتش ، وأسرع يهيىء قدحا آخر من الشاى ، وصحنا آخر ، وهو يشعر بفرح شديد .

ـــ المهم هو كسر شرة الألم .. هو وقف سيره ..

هذا ما كان يردده بافل بافلوفتش فى كل لحظة .

وما هى الا نصف ساعة ، حتى كان الألم قد هدأ كل الهدوء تقريبا ، ولكن المريض كان قد بلغ من الاعياء أنه رفض « وضع صحن واحد آخر » رفضا قاطعا ، رغم كل ضراعات بافل بافلوفتش . كانت عيناه تغمضان من فرط الضعف .

قال بصوت ضعيف :

ـــ أنام .. أنام ..

فأجابه بافل بافلوفتش :

ـــ ذلك خير شىء تفعله .

— اقض الليلة هنا .. كم الساعة الآن ؟

— تبلغ الثانية الا ربعا بعد قليل .

— ارقد .

— نعم سأرقد .

وبعد دقيقة واحدة ، نادى المريض بافل بافلوفتش ، فجاءه وانحنى عليه ، فدمدم يقول له :

— أنت .. أنت .. أنت خير منى . فهمت كل شيء ، كل شيء .. شكرا .

فقال له بافل بافلوفتش بصوت خافت :

— يجب أن تنام الآن ، يجب أن تنام ..

ثم عاد الى ديوانه يمشى على رؤوس الأصابع .

حين نام فلتشانينوف كان لا يزال يسمع صاحبه وهو يرتب سريره بسرعة ، ويخلع ملابسه ، ويطفىء الشمعة ، ويرقد فى فراشه حابسا أنفاسه مخافة أن يوقظه .

لا شك أن فلتشانينوف قد نام بعد اطفاء الشمعة حالا . فقد تذكر ذلك تذكرا واضحا فيما بعد . ولكنه ظل طوال مدة النوم وحتى اللحظة التى استيقظ فيها ، ظل يحلم بأنه لا ينام وبأنه لا يستطيع أن ينام رغم ما هو فيه من اعياء وضعف . وحلم بأنه يهذى وهو يقظان ، وبأنه لا يستطيع أن يبدد الرؤى التى تزدحم حوله ، رغم شعوره التام بأنها ليست الا رؤى . ثم انه كان يتعرفها جميعا : غرفته ملأى

بالناس ، والباب مفتوح . الناس يدخلون جماعات جماعات ، ويزدحمون على السلم ، وأمام المائدة . فى وسط الغرفة يجلس رجل ، تماما كما فى الحلم الذى رآه منذ شهر . والرجل كما فى المرة السابقة، متكىء على المائدة صامت . ولكن على رأسه فى هذه المرة قبعة مدورة ذات شريط أسود . قال فلتشانينوف لنفسه : « ماذا ؟ كان هو اذن بافل بافلوفتش أيضا فى المرة الماضية ! » . ولكنه تفرس فى هذا الرجل الصامت ، فرأى أنه ليس بافل بافلوفتش ، بل شخص آخر . « لماذا يضع على قبعته شريطا أسود ؟ » والناس الذين يزدحمون حول المائدة يتكلمون ويصرخون ، وتصبح الجلبة فظيعة . والجمهور حانق على فلتشانينوف ، كما فى الحلم الأول أيضا . فهم يهددونه بقبضة اليد ، ويصرخون فى وجهه ، ولكنه لا يفهم ماذا يريدون منه . قال فى نفسه « اننى أهذى . أعرف ذلك . أعرف أننى لم أستطع أن أنام ، وأننى نهضت عن فراشى ، من شدة الألم ! » . ومع ذلك فان هؤلاء الناس ، وصراخهم ، وحركاتهم ، كل ذلك يبلغ من الوضوح والواقعية أن الشكوك تساوره من حين الى حين « أهذه كلها هواجس حقا ؟ ماذا يريد منى كل هؤلاء الناس ؟ رباه ! ولكن .. اذا لم يكن هذا هواجس ، فهل يمكن أن لا يوقظ هذا الصراخ بافل بافلوفتش ؟ ذلك أنه نائم هنا على ديوانه ! » ووقع أخيرا شىء ، كما فى الحلم السابق تماما : أسرع جميع الناس نحو السلم ، وازدحموا أمام الباب . ذلك أن جمهورا جديدا يصعد السلم ليدخل الى الغرفة . ان هؤلاء الناس يحملون شيئا : شيئا كبيرا ثقيلا . ان خطواتهم الثقيلة وأصواتهم اللاهثة المتداخلة تدوى على السلم . وترجعت فى الغرفة

صرخات : « أتوا به .. أتوا به » . فالتمعت جميع الأعين ، وحدقت فى فلتشانينوف ، وأخذت تدله على السلم متوعدة منتصرة . فلم يشك فى أن هذا كله واقع ، فارتفع على رؤوس الأصابع ، ليرى من فوق هامات الناس ، بسرعة ، الشيء الذى يحمله الحاملون . ان قلبه يخفق ، ويخفق ويخفق . وفجأة ، كما فى الحلم الماضى ، قرع الجرس ثلاث قرعات قوية ، هى فى هذه المرة أيضا تبلغ من الوضوح أنها لا يمكن أن تكون حلما . صرخ فلتشانينوف واستيقظ من نومه.

ولكنه لم يثب الى الباب كما فعل فى المرة الماضية . ترى ما هى الفكرة التى ولدت حركته الأولى ، بل هل كان فى ذهنه فى تلك اللحظة فكرة ما ؟ .. لكأن شخصا ، مع ذلك ، قد همس فى أذنه بما يجب أن يعمله ، فانتصب على سريره ، ووثب نحو الجهة التى ينام فيها بافل بافلوفتش ، وثب مادأ ذراعيه الى الأمام كأنما ليدافع عن نفسه ، ليذب عن نفسه هجوما . فاذا يداه تصطدمان بيدين أخريين مسدودتين عليه ، فقبض عليهما قبضا قويا : كان هناك اذن شخص واقف قرب سريره ، مائل عليه . كانت الستائر مسدلة ، ولكن الظلام لم يكن كاملا ، لأن شعاعا ضيئلا من النور كان يأتى من الغرفة المجاورة التى ليس لها ستائر . وأحس فجأة بألم هائل فى راحة يده اليسرى وفى أصابعها ، فأدرك أنه قبض على نصل سكين أو موسى حلاقة وأنه شد على النصل شدا قويا .. وفى تلك اللحظة نفسها سقط شيء على الأرض ، فأحدث قرقعة ثقيلة .

ان قوة فلتشانينوف تساوى ثلاثة أضعاف قوة بافل بافلوفتش على الأقل . ومع ذلك دام صراعهما مدة طويلة لا تقل عن ثلاث دقائق،

قلبه فلتشانينوف بعدها على الأرض ، شادا ذراعيه الى الوراء . ولكنه أصر على أن يوثق هذين الذراعين ، فأمسك يديه بيسراه المجروحة ، وأخذ يتلمس باليمنى حبل الستارة ، ودام ذلك مدة طويلة ، ثم عثر على الحبل فشده فانتزعه . لقد دهش فلتشانينوف نفسه ، فيما بعد ، من الجهد الجبار الذى أنفقه فى هذا . لم ينبس أحد من الرجلين خلال ذلك بكلمة ، فكان لا يُسمع الا تنفسهما اللاهث والا صوت الصراع الأصم . فلما فرغ فلتشانينوف من تكبيل يدى بافل بافلوفتش مشدودتين وراء ظهره ، رماه على الأرض ، ووقف ، فأزاح الستارة ثم فتح النافذة ، وظل واقفا بضع لحظات يتنشق الهواء الطرى تنشقا عميقا . كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة . فلما أغلق النافذة اتجه نحو الخزانة بلا اسراع ، فتناول منها منشفة نظيفة لف بها يده اليسرى، وشدها شدا قويا ليقطع جريان الدم الذى كان ينزف غزيرا . واصطدمت قدماه بموسى مسلولة ، فتناولها من الأرض وطواها ، وأعادها الى العلبة التى كانت موضوعة منذ الصباح على منضدة صغيرة الى جانب الديوان الذى نام عليه بافل بافلوفتش . ثم خبأ العلبة فى درج مكتبه . ولم يعد الا فى تلك اللحظة الى بافل بافلوفتش، فأخذ ينظر فيه متفرسا .

كان بافل بافلوفتش قد استطاع أثناء ذلك بكثير من الجهد أن ينهض فيجلس على المقعد . لم يكن مرتديا ملابسه ، ولا منتعلا حذاءه . وكان قميصه مضرجا بالدم فى ظهره والكمَّين ، ولكن هذا الدم هو الدم الذى نزف من يد فلتشانينوف المجروحة .

انه بافل بافلوفتش نفسه ، ولكن كان يمكن جدا أن لا يُعرف

من النظرة الأولى ، لو رئى فجأة . لقد تبدل تبدلا كبيرا . كان وجهه مخضرا ، متشنجا ، مخربا . وكانت يداه الموثقتان وراء ظهره تجعلان جلوسه على المقعد متجمدا متصلبا . وكان يرتعش من حين الى حين . أدار نحو فلتشانينوف نظرة ثابتة ، ولكنها منطفئة ، كأنه لا يميز كل شيء بعد . وفجأة ابتسم ابتسامة تائهة . ثم تمتم يقول وهو يشير بحركة من رأسه الى ابريق الماء الموجود على المائدة :

ــ مـاء ..

فصب له فلتشانينوف كأسا من الماء ، وسقاه . مد بافل بافلوفتش شفتيه بشراهة . حتى اذا تجرع ثلاث جرعات ، رفع رأسه ، وتفرس فى فلتشانينوف الذى كان واقفا أمامه ممسكا بالكأس ، ولكنه لم يقل شيئا ، بل عاد يشرب . فلما انتهى من الشرب تنفس تنفسا عميقا.

حمل فلتشانينوف وسادته ، وجمع ملابسه ، ومضى الى الغرفة الثانية ، مغلقا الباب على بافل بافلوفتش بالمفتاح .

لقد اختفت الأوجاع التى كان يحسها اختفاء تاما . ولكنه يحس الآن بضعف شديد ، بعد الجهد الكبير الذى أنفقه لا يدرى الا الله كيف ! حاول أن يدرك ما وقع ، ولكن أفكاره كانت ما تزال مضطربة غير متسقة . لقد كانت الهزة قوية مسرفة فى القوة . أغمض عينيه مدة عشر دقائق ، ثم ارتعش فجأة ، وصحا ، وتذكر كل شيء . فرفع يده الجريحة الملفوفة بمنشفة يبللها الدم ، كانت تؤلمه ، وأخذ يفكر فى الأمر بنوع من الشراهة المحمومة . ثمة نقطة واحدة بدت له واضحة : لقد أراد بافل بافلوفتش حقا أن يذبحه ، ولكن لعله

كان قبل ذلك بربع ساعة لا يعرف هو نفسه أنه سيفعل هذا . لعله قد وقع بصره على علبة الموسى فى مساء أمس ، دون أن توقظ هذه العلبة فى نفسه أية فكرة ، ولكن صورتها بقيت فى ذاكرته (من عادة فلتشانينوف أنه يضع أمواس الحلاقة فى درج المكتب ويقفل عليها بالمفتاح ، ولكنه أخرجها أمس لنزع شعرات زائدة حول شاربيه والوجنتين) .

قال فلتشانينوف لنفسه ، فيما قال : « لو كان قد قرر قتلى منذ مدة طويلة لأعد سكينا أو مسدسا ، ولما اعتمد على أمواسى التى لم يرها قط قبل أمس مساء » .

ودقت الساعة السادسة أخيرا . وثاب فلتشانينوف الى نفسه ، فارتدى ملابسه ، ودخل على بافل بافلوفتش . لقد تساءل وهو يفتح الباب ، دون أن يستطيع تعليل هذا التساؤل لنفسه : « ترى لماذا أقفل الباب على بافل بافلوفتش ، بدلا من أن يطرده فورا » .

فما كان أشد دهشته حين رأى السجين مرتديا ملابسه . لقد استطاع بافل بافلوفتش أن يحل وثاقه ، وجلس على المقعد . فلما رأى فلتشانينوف داخلا ، نهض . وكان يحمل قبعته استعدادا للخروج . ورمى فلتشانينوف بنظرة قلقة كأنها تقول : « لا تبدأ ، فما يجب أن تتكلم » .

قال له فلتشانينوف :

— أخرج !

ثم أضاف :

— وخذ علبتك .

فعاد بافل بافلوفتش أدراجه ، فتناول علبته ، فوضعها فى جيبه ، وخرج . ومضى فلتشانينوف وراءه حتى الباب ، ليغلقه . والتقت نظراتهما لآخر مرة . فتوقف بافل بافلوفتش فجأة ونظر كل منهما فى الآخر كأنه يتردد . ودام ذلك خمس ثوان . وأخـيرا أشار له فلتشانينوف بحركة يسيرة من يده أن يخرج ، قائلا بصوت خافت:

— أخـرج .

وأقفل الباب بالمفتاح .

١٦

تحليل

أغرقه فرح كبير عظيم : ان شيئا قد انتهى ، ان عقدة قد انحلت . ان القلق الحاد الذى كان يحاصره ، قد ابتعد الآن وتبدد . هذا ما تراءى له . لقد دام ذلك القلق خمسة أسابيع . رفع يده ، ونظر الى المنشفة المبللة بالدم ، وتمتم يقول : « فى هذه المرة ، انتهى كل شىء » . وظل طوال ذلك الصباح ، لأول مرة منذ ثلاثة أسابيع ، لا يكاد يفكر فى ليزا ، كأن هذا الدم الذى جرى من أصابعه يسدد ذلك الحساب أيضا .

كان يدرك ادراكا واضحا أنه نجا من خطر رهيب . قال فى نفسه: « ان أمثال هؤلاء الناس الذين لا يعرفون ، قبل دقيقة واحدة ، أيقتلون أم لا يقتلون ؛ متى أمسكوا بيديهم سكينا ، وشعروا بأول دفعة من دفعات الدم الحار تجرى فى أصابعهم ، لم يكتفوا بالقتل ، بل لابد لهم من أن يذبحوا ضحيتهم ذبحا . نعم انهم كذلك » .

لم يستطع أن يبقى فى بيته ، فخرج ، وهو على يقين من أنه سيعمل شيئا ما ، أو أن شيئا ما سيقع له . كان يسير فى الشوارع ، ينتظر . ان به رغبة قوية فى أن يلقى أحدا ، فى أن يتحدث الى أى انسان ، ولو كان لا يعرفه . وفى هذه اللحظة انما بدا له أن يذهب الى طبيب، يضمد جرحه تضميدا مناسبا . فذهب الى طبيب يعرفه منذ مدة طويلة . فلما فحص الطبيب الجرح شاء له حب الاستطلاع أن يعرف كيف « أمكن أن يقع هذا الأمر » ، فبدأ فلتشانينوف يجيبه مازحا ، وهو ينفجر فى ضحك قوى ، وهمّ أن يقصّ عليه كل شىء ، ولكنه ما لبث أن لجم لسانه . وجس الطبيب نبضه . ولما علم بالنوبة التى أصابته الليلة البارحة ، أقنعه بتناول شراب مهدىء كان بين يديه . وطمأنه على عواقب الجرح قائلا : « لا ، لن تنشأ عنه نتائج سيئة » ، فأخذ فلتشانينوف يضحك ، وأكد للطبيب أن النتائج كانت ممتازة جدا .. واستبدت به فى ذلك الصباح نفسه رغبة قوية عارمة فى أن يقص كل شىء ، استبدت به تلك الرغبة مرتين ، حتى أنه فى احدى هاتين المرتين هم أن يقص الأمر على سيد لا يعرفه أية معرفة ، ولكنه اقيه فى أحد محال بيع الحلوى ، فاتجه اليه بالكلام أول من اتجه اليه ، رغم أنه يكره كل الكره أن يدخل فى حديث مع أناس لا يعرفهم، فى مكان عام .

دخل مخازن كثيرة ، واشترى جريدة وذهب الى خيّاطه يوصيه ببدلة . وكان لا يزال يكره أن يمضى الى زيارة أسرة بوجورلتسيف، وكان يحاول أن لا يفكر فيهم . ثم انه كان لا يستطيع أن يذهب الى الضواحى ، لأنه ينتظر شيئا لابد أن يحدث هنا فى المدينة . وأقبل

على تناول غدائه بشهوة عظيمة ، وتحدث مع خادم المطعم ، وتحدث الى جاره فى المائدة ، وشرب نصف زجاجة من الخمر . لم يخطر له ببال أن نوبة الليلة البارحة يمكن أن تعود ، وكان مقتنعا بأن مرضه قد زال زوالا تاما فى اللحظة التى وثب فيها عن سريره ، فصرع القاتل ، بعد أن نام ساعة ونصف الساعة ، مهدود القوى تماما . ومع ذلك أصيب عند المساء بدوار وحاصرته فى بعض اللحظات أفكار شبيهة بالأفكار التى وافته فى حلم الليلة البارحة . عاد الى بيته عند هبوط الظلام ، فلما دخل الى غرفته شعر من منظرها ببعض الخوف . بدا له منزله حزينا ، كالحا جهما . طاف فى البيت عدة مرات ، حتى لقد زار المطبخ ، وكان لا يدخله أبدا . « هنا كانا يسخنان الصحون » . كذلك قال لنفسه . أغلق الباب بعناية واحكام ، وأشعل الشموع قبل أوان اشعالها فى العادة . وحين أغلق الباب تذكر أنه لما مر منذ برهة أمام حجرة البواب ، نادى مافرا وسألها هل جاء بافل بافلوفتش أثناء غيابه ، كأنه كان يمكن أن يجىء .

فلما أحكم اقفال الباب ، ذهب الى مكتبه ، ففتح الدرج ، وأخرج علبة الأمواس ، وأنعم النظر فى موسى « الليلة البارحة » . كان على الساعد العاجى من الموسى قليل من آثار دم . ثم أعاد الموسى الى العلبة ، ووضع العلبة فى الدرج . كان يريد أن ينام ، ويشعر أن عليه أن يرقد فورا ، والا « لم يصلح لشىء فى غد » . ذلك أنه يتصور أن غدا سيكون يوما « حاسما » ، لا يدرى لماذا ! ان تلك الأفكار نفسها التى لم تبرحه ، فى الشارع ، طوال النهار ، لحظة واحدة ، تزدحم الآن فى رأسه ، وتغزو دماغه المريض ، لا تدع له لحظة من

هدنة . كان يفكر ، ويفكر ، فظل مـدة طويلة لا يستطيع الى النوم سبيلا .

« اذا كان من الثابت أنه حاول أن يقتلنى دون سابق تصور وتصميم ، فهل سبق أن راودته هـذه الفكرة ، ولو مرة واحدة على الأقل ؟ » .

هكذا تساءل ثم حسم هذا السؤال حسما غريبا ، قائلا لنفسه :

« نعم ، لقد أراد بافل بافلوفتش أن يقتلنى ، ولكن فكرة القتل لم تراوده فى أية لحظة من اللحظات ، أى أن بافل بافلوفتش أراد أن يقتلنى ، ولكنه كان لا يعرف أنه يريد أن يقتل . هذا كلام ليس له معنى ، ولكن الأمر كذلك . انه لم يجىء الى بطرسبرج من أجل باجاوتوف ، ولا جاء اليها من أجل ترقيته فى الوظيفة ، رغم أنه طاف على الوزارات ، وذهب الى باجاوتوف يحاول أن يراه . لقد أحنقه موت باجاوتوف . ولكنه كان يحتقر باجاوتوف كقشة . من أجلى اذن انما جاء الى بطرسبرج ، وأتى بليزا ..

« وأنا هل كنت أتوقع أن .. يحاول قتلى ؟ نعم كنت أتوقع أن يقتلنى ، وذلك منذ رأيته فى العربة يشيع جنازة باجاوتوف . منذ تلك الدقيقة ، أصبحت أتوقع شيئا ما ، ولكن هذا الشىء ليس هو القتل . لم أتوقع أن يذبحنى .

« وهل يمكن (بهذا هتف فلتشانينوف وهو ينهض رأسه عن المخدة فجأة ويفتح عينيه) هل يمكن أن يكون هذا .. المجنون .. صادقا حين أكد لى حبه أمس ، وحين أخذت ذقنه ترتعش ، وحين راح يضرب صدره بيديه ؟

« نعم ، لقد كان صادقا (هكذا قال فلتشانينوف لنفسه وهو يوغل فى التفكير والتحليل) . ان كازيمودو ت .. هذا ، لهو من الكرم والغباء بحيث يمكن أن يحب عشيق امرأته التى بدا له سلوكها خلال عشرين عاما سليما لا غبار عليه . لقد ظل خلال تسع سنين يحترمنى ويقدس ذكراى ، وبحفظ « تعابيرى » ! ألا ما أغبانى حين لم يخطر لى ذلك على بال . انه ما كان يكذب أمس . ولكن هل كان يحبنى أمس حين صرح لى بحبه وقال لى : « لنصفّ حساباتنا ؟ »، نعم ، كان يحبنى وهو يكرهنى ، وذلك هو أقوى حب ..

« لا شك أننى حين كنت فى ت .. قد تركت فى نفسه أثرا هائلا « مفيدا » . هذا ما لابد أن يقع لشخص يجتمع فيه شيللر وكازيمودو. لقد ضخمنى مائة مرة .. لأننى أحدثت تشويشا عميقا فى وحدته الفلسفية .. انه لمن الشائق أن يعرف المرء ما الذى شوشه على وجه الدقة ! ربما قفازاى النضيران ، وطريقتى فى لبسهما . ان أمثال كازيمودو يحبون الاستيتيك كثيرا .. بعض الناس ممن يملكون نفوسا كريمة سمحة ، و « الأزواج الأبديون » خاصة ، يكفيهم قفازان ... حتى يضخموا ما عداهما ألف مرة ... وانهم لمستعدون أن يقاتلوا من أجلك ، اذا شئت . وما أكثر ما يقدر وسائلى فى الاغراء ! بل لعل هذه الوسائل نفسها هى التى أسرته أكثر من أى شيء آخر . وصرخته تلك التى صرخها فى ذلك اليوم : « اذا كان هو أيضا .. فمن أصدق ؟ » ان المرء ليصبح بعد صرخة كهذه ، حيوانا كاسرا ..

« هم .. لقد جاء الى هنا « ليقبلنى ويبكى .. » كما عبر هو نفسه عن ذلك هذا التعبيرالخبيث . معنى ذلك أنه جاء الى بطرسبرج

ليدق عنقى .. ولكنه كان يتخيل أنه جاء « ليقبلنى ويبكى » . وقد أتى بليزا .. لو أننى أخذت أبكى معه ، اذن لكان يمكن أن يغفر لى . لقد كان فى شوق عنيف الى الغفران ! .. ولكن هذا كله انقلب منذ اللقاء الأول الى تكشيرات سكران ، الى حركات فظة غليظة ، الى تأوهات جبانة كتأوهات امرأة مهانة (والقرنان ، القرنان اللذان تباهى بهما ! ..) من أجل هذا انما جاء ثملا . لقد سكر حتى يستطيع أن يسكب ما يعتلج فى نفسه ، ولو بعربدات . ذلك أنه ما كان ليستطيع أن يتكلم بدون سكر . هل كان يحبها ، هذه العربدات وتلك التهريجات ؟ آه كم كان يحبها ! وما كان أشد فرحه حين استطاع أن يحملنى على تقبيله ! ولكنه كان لا يعرف كيف سينتهى الأمر : أينتهى بقبل أم ينتهى بطعنات سكين ؟ وأخيرا ، كان أفضل شيء أن يقبل ويقتل . كان هذا هو الحل الطبيعى . نعم ان الحياة لا تحب الأشخاص الشاذين ، وهى تتخلص منهم « بحلول طبيعية » . وأشذ الشاذين شاذ يحمل عواطف نبيلة . أعرف ذلك من تجربتى الشخصية يا بافل بافلوفتش ! الطبيعة ليست للشاذين أماً رءوما ، بل زوجة أب شرسة . ان الطبيعة تنجب الشاذ الأشوه ثم تقضى عليه بدلا من أن ترثى لحاله وترأف به . وكذلك يجب أن يكون الأمر . ان الحنان ودموع الغفران لا تصلح حتى للشرفاء فى هذا العصر ، فما بالك بنا نحن يا بافل بافلوفتش ؟

« نعم لقد كان غبيا حين أخذنى الى خطيبته . خطيبته ! اللهم رحمتك ! ان التفكير فى العودة الى حياة جديدة ، مع الاستعانة ببراءة الآنسة زاخلبينين ، لا يمكن أن يراود الا رجلا من هذا النوع ،

لا يمكن أن يساور الا رجـلا مثل كازيمودو . ولكنك لست آثما يا بافل بافلوفتش ، لست آثما البتة . انك انسان شاذ ، وكل شيء فيك لابد اذن من أن يكون شاذا ، لابد أن تكون أحلامك وآمالك شاذة . ولكنه ، على شذوذه ، ارتاب فى حلمه ، واحتـاج الى أن يدعمه فلتشانينوف المحترم المعظم . كان لابد له من أن يشـجعه فلتشانينوف ، من أن يؤكد له أن ذلك ليس حلما بل هو الواقع نفسه . انه لم يأخذنى الى هناك الا لأنه يحترمنى ، ولأنه يثق بنبل عواطفى ، ولعله كان مطمئنا الى أننا سيقبل كل منا الآخر ، هناك ، وراء دغل من الأدغال ، باكيين منتحبين ، غير بعيدين عن البراءة ! نعم كان لابد لهذا الزوج الأبدى من أن يعاقب نفسه أخيرا فى يوم من الأيام ، عقابا حاسما .. ولكى يعاقب نفسه أمسك بالموسى .. صحيح أنه لم يمسكه عن سابق تصور وتصميم ، ولكنه أمسكه على كل حال ! « مع ذلك طعنه بسكين أمام القاضى » . لعله حين قص علىّ تلك الحكاية عن الوصيف كان يفكر فى شيء من هذا القبيل . ترى هل كان يبيت شيئا ، فى تلك الليلة ، حين نهض من سريره ، وظل واقفا فى وسط الغرفة ؟ لا .. كان ذلك مزحة . لقد نهض لحاجة ، ولكنه حين رآنى خائفا ، ظل لا يجيب مدة عشر دقائق ، لأنه كان يسره كثيراً أن يرانى خائفا منه . ولعل الفكرة ما نبتت فى ذهنه لأول مرة الا فى تلك اللحظة ، حين كان واقفا فى الظلام .

« وأغلب الظن مع ذلك أن شيئا مما وقع أمس ، ما كان ليقع لولا اننى نسيت الأمواس على المنضدة . هل الأمر كذلك ؟ هل هو حقا كذلك ؟ لقد كان يتحاشانى ، ولم يجئنى الا بعد ثلاثة أسابيع . كان

يختبىء عنى ، لأنه كان يشفق علىّ . اختار فى أول الأمر باجاوتوف، ولم يخترنى أنا . وما هذه الصحون التى مضى يسخنها فى الليل ؟

« كان يأمل أن يصرف ذهنه الى شىء آخر ، أراد أن يصرف فكره عن السكين الى الحب ! .. كان يريد أن ينقذنى ، وأن ينقذ نفسه بواسطة الصحون الساخنة » .

هكذا ظل عقل فلتشانينوف يعمل مدة طويلة فى فراغ .. هكذا كانت الأفكار تضطرب فى الدماغ المريض ، دماغ هذا الرجل الذي كان يوما من « رجال الصالونات » .. الى أن هدأ أخيرا فنام . حتى اذا استيقظ فى صباح غد ، كان رأسه ما يزال مريضا ، ولكن ذعرا جديدا قد استولى عليه ، ولم يكن فى الحسبان .

ان مصدر هذا الذعر الجديد هو أنه أيقن فجأة أنه ، هو ، فلتشانينوف ، رجل المجتمع الراقى ، سيذهب ، فى هذا اليوم نفسه ، طائعا مختارا ، الى باقل باقلوفتش .. لماذا ؟ لأى غرض ؟ ذلك ما كان لا يعرفه ، ولا يريد من فرط اشمئزازه أن يعرفه . كان يعرف شيئا واحدا هو أنه محمول على ذلك حملا ، دون أن يفهم لماذا !

وقد بلغت هذه الفكرة المجنونة (كان لا يستطيع أن يصفها الا بأنها مجنونة) من الوضوح أنها اتخذت شكلا معقولا ، وانتحلت لنفسها عذرا كافيا . كان فلتشانينوف قد تخيل ، منذ أمس ، أن باقل باقلوفتش ، حين سيعود الى بيته ، سيسجن نفسه فى غرفته بعد أن يقفل بابها بالمفتاح ، وسيشنق نفسه ، كذلك الخازن الذى حدثته عنه ماريا سيسويفنا . وتحولت هذه الفكرة شيئا بعد شىء الى يقين سخيف ، ولكن لا يمكن أن يغالب . كان فلتشانينوف يقول

لنفسه محاولا قطع مجرى أفكاره : « ولكن علام يشنق هذا الأبله نفسه ! » . ثم كان يتذكر كلمات ليزا فيقول لنفسه : « على أننى لو كنت فى مكانه فقد أشنق نفسى .. » .

وأخيرا قرر فلتشانينوف أن يتجه الى مسكن بافل بافلوفتش ، بدلا من أن يذهب الى المطعم لتناول العشاء . كان يقول لنفسه : « لن أزيد على أن أسأل عنه ماريا سيسويفنا » . ولكنه ما ان وصل الى آخر السلم ، حتى وقف تحت الرواق .

هتف وقد احمر وجهه خجلا وشعورا بالعار : « كيف ؟ كيف ؟ أصحيح أننى أجر نفسى الى هناك لأقبله وأبكى ؟ هل يجب أن أضيف هذه الضعة المجنونة الى كل ذلك العار ؟ » .

ولكن العناية الالهية التى تسهر على جميع النـــاس اللائقين المحترمين ، قد أنقذته من هذه « الضعة المجنونة » . فما ان أصبح فى الشارع حتى اصطدم بالكســـندر لوبوف . كان الفـــتى يلهث مضطربا أشد الاضطراب .

قال :

ـــ كنت ذاهبا اليك . ما رأيك فى صاحبنا هذا بافل بافلوفتش ؟

فتمتم فلتشانينوف يقول بلهجة شاردة :

ـــ هل شنق نفسه ؟

ـــ شنق نفسه ؟ لماذا ؟

قال لوبوف ذلك محملقا .

ـــ لا شيء . أكمل كلامك !

ـــ ان لك لأفكارا عجيبة حقا ! لم يشنق نفسه (وعلام يفعل ؟) . بالعكس ، لقد سافر . أركبته القطار منذ هنيهة ، شحنته . ولكن ما أكثر ما يشرب ! ما أكثر ما يشرب ! كان يغنى فى القطار . وقد تذكرك ، ولوح لنا بيده ، وحمّلنا تحية لك . ولكنه وغد . ما رأيك ؟

كان الفتى ثملا : يدل على ذلك وجهه المشرق ، وعيناه اللامعتان ، ولسانه المتعثر .

ضحك فلتشانينوف ملء حنجرته .

ـــ اذن لقد انتهيا الى التآخى بالشرب . ها ها ها . لا شك أن كلا منهما قد قبل الآخر وبكى . آه منكم أيها الشعراء ، يا اخـــوة شـــــيللر !

ـــ لا داعى الى الشتم ، أرجوك . اعلم أنه تنازل هناك عن كل شىء . ذهب اليهم أمس واليوم . وشى بنا ، فحبسوا ناديا فى حجرة بالقبو . وكان صراخ ، وكان بكاء .. ولكننا لن نخضع ! .. ليتك تعرف كم يشرب ! ثم ما كان أسوأ لهجته من لهجة ! انه يتحدث عنك دائما ، ولكن أنى له أن يشبه بك ! أنت على كل حال رجل محترم ، ولقد كنت فيما مضى من الطبقة العليا من المجتمع ، وانما أنت تنعزل عن هذه الطبقة الآن لقلة مواردك ، فيما أظن .. ليذهب الى الشيطان ! اننى لم أفهم حق الفهم ! ..

ـــ أهو الذى حدثك عنى بهذا ؟

ـــ نعم هو ، ولكن لا تزعل . لخير للانسان أن يكون مواطنا صالحا من أن ينتمى الى الطبقة العليا .. أقول هذا لأننا أصـــبحنا

فى روسيا لا نعرف فى هذه الأيام من نحترم ونقدر . لا شك أنه بؤس فى عصر من العصور أن لا يعرف المرء من يحترم ويقدر . أليس هذا صـــحيحا ؟

ـــ صحيح ، صحيح ، ولكن هو ؟

ـــ هو ؟ من ؟ ها .. نعـــم .. ترى لماذا كان لا ينفك يقـــول : «فلتشانينوف هذا الذىله منالعمر خمسون عاما ، ولكنه مهدم» . لماذا يقول « ولكنه مهدم » ، بدلا من أن يقول « ومهدم » . كان يضحك ويردد هذا الكلام ألف مرة . وحين ركب القطار ، أخذ يضحك ، ثم أخذ يبكى . كان ذلك يبعث على التقزز والاشمئزاز لا أكثر من ذلك ولا أقل . كان هذا الرجل السكران فى حالة من الوضـــاعة يرثى لها . اننى لا أحب البلهاء ! وقد أخذ بعد ذلك يوزع مالا على الفقراء على روح اليزابث . أهى زوجته ؟

ـــ هى ابنته .

ـــ ماذا بيدك ؟

ـــ جرح بسيط .

ـــ هل تعلم ؟ لقد أحسن صنعا اذ سافر . ليأخذه الشيطان . ولكننى أراهن أنه سيتزوج فور وصوله الى هنـــاك . ألا تعتقـــد بذلك ؟

ـــ ولكنك تريد أنت أيضا أن تتزوج ؟

ـــ أنا ؟ زواجى أنا شىء آخر .. انك حقا لشخص عجيب ! اذا كنت أنت فى الخمسين من العمر ، فلا بد أن يكون هو فى الستين .

يجب على المرء أن يكون منطقيا يا عم . ثم انني كنت في الماضي ، منذ مدة بعيدة ، من أنصار السلافية ، أما الآن فنحن ننتظر الفجر من الغرب . هيا ! الى اللقاء . من حسن الحظ انني صادفتك في الشارع، فما اضطررت أن أصعد الى بيتك . يستحيل أن أدخل ، لا تلح ، وقتي لا يتسع .

قال هذا واستأنف ركضه ، ولكنه ما لبث أن عاد أدراجه :

— أين دماغي ؟ لقد حملني رسالة اليك . هذه هي الرسالة . لماذا لم تصحبه الى المحطة ؟

صعد فلتشانينوف الى بيته ، وفض الغلاف الذي كتب عليه اسمه. لم يكن يضم الغلاف سطرا واحدا من بافل بافلوفتش ، بل كان يحتوي على رسالة أخرى عرف فلتشانينوف خطها . كان الورق قد اصفر ، وكان الحبر قد حال . ان الرسالة مكتوبة منذ عشر سنين ، بعد سفره من ت .. بشهرين . ولكنها لم ترسل اليه ، بل أرسلت اليه رسالة أخرى بدلا منها . ذلك واضح من مضمونها . في هذه الرسالة تودعه ناتاليا فاسيليفنا الى الأبد ، كما في الرسالة التي وصلته ، ولا تخفي عنه أنها حبلى ، مع اعترافها بأنها تحب الآن شخصا آخر . ولكنها تعده ، من قبيل المواساة له ، بأنها ستنتهز فرصة من الفرص لرد ولدهما اليه ، وتقول ان عليها بعد الآن واجبات أخرى ، وان صداقتهما موطدة بذلك الى الأبد . أي أن الرسالة كانت خالية من المنطق ، ولكن الهدف واحد ، هو التخلص من حب فلتشانينوف . حتى لقد سمحت له بأن يجيء الى ت .. بعد سنة ، ليرى الطفل .

لا يدرى الا الله لماذا استعاضت عن هذه الرسالة برسالة أخرى بعد أن فكرت فى الأمر .

امتقع لون فلتشانينوف وهو يقرأ الرسالة ، ولكنه تخيل بافل بافلوفتش ، وهو يعثر على هذه الرسالة فيقرؤها لأول مرة أمام الصندوق المصنوع من خشب الأبنوس والمرصع بالصدف .

قال فى نفسه وهو ينظر الى وجهه فى المرآة : « لا شك أن وجهه هو أيضا قد امتقع حتى صار كالميت . وأغلب الظن أنه كان يقرأ ، ثم يغمض عينيه ثم يفتحهما عسى أن يجد الرسالة قد استحالت ورقة بيضاء .. ولا شك أنه كرر التجربة ثلاث مرات على الأقل ! .. » .

١٧

الـزوج الأبـدي

انقضت على هذه الأحــداث التى رويناها سنتان . ها نحن أولاء نرى السيد فلتشانينوف ، ذات صباح من الصيف ، فى عربة قطار من قطر سككنا الحديدية الجديدة . انه ذاهب الى اوديسا لرؤية صديق له ، ولهدف آخر لا يقل عن ذلك متعة وجمالا : كان يأمل أن يلقى ، بواسطة هذا الصديق ، امرأة جميلة يريد منذ مدة طويلة أن يوثق معرفته بها . لا نريد الآن أن ندخل فى التفاصيل، وحسبنا أن نذكر أن فلتشانينوف قد تبدل خــلال هاتين السنتين تبــدلا كبيرا ، أو قل انه تحسن تحسنا كبيرا ، فقد زالت كآبتــه القديمة ، دون أن تخلف أثرا يتذكر .

لم يبق له من « ذكرياته » ومن أنواع القلق (تنائج حالتــه المرضية) التى حاصرته فى بطرسبرج ، منذ سنتين ، ابان ملاحقتــه شئون تلك الدعوى الشقية ، لم يبق له منها الا شعور خفى بالخجل

من ذلك الضعف . وكان اعتقاده بأن ذلك لن يقع بعد الآن ، وبأن أحدا لن يعرف منه شيئا ، يعزيه بعض العزاء . كان أثناء تينك السنتين قد هجر علاقاته الاجتماعية هجرا تاما ، وكان لا يعنى بهندامه ، وكان يختبىء عن الناس ، ولا شك أن جميع أبناء الطبقة الراقية قد لاحظوا ذلك . ولكنه سرعان ما عاد الى المجتمع ، نادما ، مستردا ثقته بنفسه ، متبدلا كل التبدل ، وبلغ من هذا كله أن « جميع » الناس ما لبثوا أن عذروا اهماله ذاك الموقت .

حتى ان أولئك الذين انقطع عن تحيتهم كانوا أول من اعترفوا به، ومدوا اليه أيديهم ، دون أن يسألوه عن شيء ، كأنه كان خلال ذلك الوقت كله غائبا عنهم لأسباب عائلية لا شأن لأحد بها ، ثم عاد اليهم . ولا شك أن سبب هذه التبدلات السعيدة انما هو النتيجة التى انتهت اليها الدعوى . ذلك أن فلتشانينوف قد حصل على مبلغ ستين ألف روبل ، وهو مبلغ ليس بالضخم حتما ، ولكن له عند فلتشانينوف قيمة كبيرة . فقد أصبح الآن راسخ القدم ، مطمئن النفس . هذا أولا ، ثم انه كان يعلم ثانيا أنه لن يبدد موارده الأخيرة هذه تبديدا أبله ، كما فعل بثروتيه السابقتين ، وأن هذا المال سيكفيه الى آخر حياته . وكان يقول لنفسه أحيانا وهو يرى هذه الأشياء العجيبة التى تدور من حوله فى روسيا : « لا مانع أن ينهار نظامهم الاجتماعى ، ولا مانع أن ينفخوا فى آذاننا ما يشاءون .. ان البشر والأفكار تتبدل ما حلا لها التبدل ، أما أنا فسأظل واثقا من هذا الطعام اللذيذ الذى أجلس اليه الآن ، وأنا تبعا لذلك مستعد لكل شيء » .

ان هذه الفكرة العذبة الممتعة قد استولت عليه شيئا فشيئا

استيلاء تاما ، وبدلته تبديلا كبيرا ، بدلته جسما وروحا معا . انه الآن انسان آخر ، لا يمت بصلة الى ذلك « المتذمر » الذى وصفناه والذى كانت تقع له قصص غر لائقة . كان مظهره مرحا ، متفتحا رضيا . وحتى الغضون المقلقة التى ظهرت حول عينيه وفى جبينه قد زالت زوالا شبه تام ، وابيض لونه وتورد .

انه الآن جالس جلسة مريحة فى عربة من عربات الدرجة الأولى من القطار ، وقد راودته ، منذ لحظة ، فكرة ممتعة جدا . هناك تفرع فى السكة بعد محطتين : ان خطا جديدا يتجه الى اليمين : « فاذا تركت الخط المستقيم وانحرفت يمنة ، استطعت بعد محطتين من ذلك التفرع أن أمضى الى زيارة سيدة عادت من الخارج منذ قليل ، وهى تقيم الآن فى الريف وحدها ، وهذا يفيدنى وان كان يسوءها . وفى وسعى اذن أن أقضى هنالك وقتا جميلا لا يقل جمالا عن الوقت الذى سأقضيه فى أوديسا ، خاصة وأننى أستطيع أن أذهب الى أوديسا فيما بعد » . ولكنه كان لا يزال مترددا ، لا يستطيع أن ينتهى الى قرار . كان ينتظر « الصدمة » المفاجئة التى يمكن أن تحمله على أن يعزم أمره . ان القطار يقترب من المحطة ، وها هى ذى الصدمة تحدث.

ان وقوف القطار فى هذه المحطة يدوم أربعين دقيقة . وفى وسع المسافرين أن يتناولوا فيها طعام الغداء . وها هو ذا الجمهور يزدحم عند باب قاعة الانتظار ، نافد الصبر ، متعجلا كالعادة . وكالعادة أيضا ، فى أغلب الظن ، وقعت فضيحة . نزلت من مركبة من مركبات الدرجة الثانية سيدة جميلة جدا ، ولكن ملابسها صارخة الألوان قليلا بالنسبة الى مسافرة ، نزلت من العربة وهى تجر ، بكلتا يديها

تقريبا ، ضابطا من سلاح الفرسان ، شابا جميلا ، يحاول أن يتفلت منها . كان الفتى بالغا من سكره كل مبلغ ، وكانت السيدة ، وهى قريبة له أكبر منه سنا فى أغلب الظن ، لا تتركه خشية أن يذهب الى المشرب . وقد اصطدم الضابط بشاب تاجر كان يتطرب ويعبث خارجا على كل اتزان : انه فى المحطة منذ يومين يشرب مع عدد من رفاقه ، ويبدد ماله هدرا ، دون أن يجد فرصة لمتابعـة طريقة . وقام اذن شجار : فالضابط يصرخ ، والتاجر يشتم ، والسيدة مصعوقة تحاول أن تجر الضابط ، وتتوسل اليه هاتفة به « ميتنـكا ، ميتنـكا ! » * وبدا ذلك للتاجر الشاب أمرا فاضحا معيبا . صحيح أن الناس كانوا يضحكون ، ولكنه شعر هو بأن عواطفه الأخـلاقية قد خدشت وأهينت ، لا يعلم الا الله لماذا ..

قال عائبا وهو يقلد صوت السيدة المنغّم :

ـــ هل ترون هذا ؟ « ميتنـكا ! » * .. انهما لا يستحيان ، حتى أمام الناس .

قال ذلك ثم اقترب متمايلا مترنحا من السيدة التى ارتمت على أحد المقاعد وأجلست الضابط الى جانبها ، فرماها بنظرة احتقار ، وقال لها بصوت متعثر :

ـــ ما أنت الا امرأة قذرة ! امرأة قذرة !

فصرخت السيدة صرخة حادة ، وألقت حولها نظرات باكية تطلب النجدة . كانت تشعر بالعار والخوف . وزاد الطين بلة أن الضابط

وثب عن كرسيه يرغى ويزبد ، ويهم أن يهجم على التاجر ، ولكنه انزلق وتهاوى على كرسيه مرة أخرى ، فازداد ضحك الناس ولم يفكر أحد فى التدخل .. الا فلتشانينوف الذى هب الى النجدة ، فأمسك التاجر من ياقته ، وهزه ، ثم دفعه خمس خطوات عن المرأة المذعورة . فكان هذا نهاية الفضيحة : ان الشاب التاجر ، وقد أرهبته الهزة وأوجس خيفة من هـامة فلتشانينوف ، ما لبث أن استسلم لرفاقه يجرونه الى بعيد . وأحدث مظهر هذا السيد المهيب الأنيق أناقة عظيمـة ، أحـدث أثرا كبيرا فى الضاحكين ، فكفوا عن الضحك . وأخذت السيدة ، وقد احمرت احمرارا شديدا وترقرقت الدموع فى عينيها ، أخذت تعبر لفلتشانينوف عن شكرها فى تدفق . وتمتم الضابط يقول : « شـ..كـ..را .. شـ..كـ..را » ، وأراد أن يمد يده الى فلتشانينوف ، ولكنه عدل عن ذلك ، واستلقى على الكراسى بجسمه كله .

وقالت السيدة متأوهة ، بلهجة اللوم ، وهى تضم يديها احداهما الى الأخرى :

ــ ميتنكا ! ..

سرّ فلتشانينوف من هذه المغامرة ومن ظروف تدخله . ان هذه السيدة تعجبه : لا شك أنها ريفية ذات ثراء ، فملابسها غنية ، وان تكن بغير ذوق مرهف ، وحركاتها مضحكة . وهى اذن تجمع كل الشروط التى تكفل النجاح لمختال من العاصـمة يطمع فى امرأة . وتحدثنا : فكانت السيدة تتكلم بحرارة ، وتشكو زوجها الذى اختفى

من المركبة فجأة ، فكان ذلك سبب كل شيء .. « انه يختفى دائما فى اللحظة التى تمس الحاجة فيها اليه » .

قال الضابط :

ــــ كانت به حاجة

ــــ أوه .. ميتنكا !

قالت ذلك وعادت تضم يديها احداهما الى الأخرى .

قال فلتشانينوف لنفسه : « مسكين أيها الزوج ! لو عرفت ماذا سيصيبك ! » .

ثم سألها :

ــــ ما اسمه ؟ سأذهب أبحث عنه .

ــــ با .. ل با .. لتش ..

فسألها فلتشانينوف بكثير من حب الاطلاع :

ــــ هل اسم زوجك بافل بافلوفتش ؟

سألها هذا السؤال ، ثم تراءى له الرأس الأصلع الذى يعرفه ؛ تراءى له فجأة يندس بينه وبين السيدة . وتراءت له ، فى لحظة ، حديقة زاخلييبنين ، والألعاب البريئة ، وذلك الرأس الأصلع الذى لا يطاق ، ذلك الرأس الأصلع الذى كان يدخل دائما بينه وبين ناديجدا فيدوسويفنا .

هتفت السيدة مغتاظة :

ــــ هذا أنت أخيرا !

انه بافل بافلوفتش نفسه . كان ينظر الى فلتشانينوف مدهوشا ، مذعورا ، متجمدا ، كأنه يرى شبحا من الأشباح . وقد بلغ من فرط الانصعاق أنه ظل خلال مدة كأنه لا يفهم شيئا مما تشرحه له زوجته المهانة متدفقةً فى الكلام حانقة . وأخيرا ارتعش وفهم فى لحظة واحدة كل فظاعة الموقف : خطيئته ، وما فعله ميتنكا ، وكيف كان « هـذا السيد ملاكنا الحارس ، ومنقذنا ، بينما أنت تذهب حين يكون عليك أن تبقى ! » .

انفجر فلتشانينوف ضاحكا ، وقال :

ــ ولكننا صديقان قديمان ، نحن صديقا طفولة . ألم يحدثك يوما عن فلتشانينوف ؟

قال ذلك للسيدة المدهوشة كل الدهشة ، وهو يضع يده اليمنى بلا كلفة على كتف بافل بافلوفتش الذى كان يبتسم ابتسامة غامضة.

أجابته السيدة وهى متحيرة بعض التحير :

ــ لا ، أبدا .

فقال لصاحبه :

ــ هيا قدمنى الى عروسك أيها الصديق غير الوفى !

ــ نعم ، هى ليبوتشكا * يا سيد فلتشانينوف ..

بدأ يقول ذلك مضطربا ، وارتبك . واحمر وجه زوجته ورمته بنظرة حانقة ، لأنه دعاها ليبوتشكا .

قال فلتشانينوف :

ـــ تصورى أنه لم ينبئنى بأنه سيتزوج ولا دعانى الى حفلة الزواج . أما أنت يا أولمبيادا ..

ـــ سيميونوفنا .

قال بافل بافلوفتش ذلك يلقنه تتمة الاسم . وتدخل الضابط النائم يقول فجأة :

ـــ سيميونوفنا .

ـــ اعذريه يا أولمبيادا سيميونوفنا . أقسم لك بشرف ، وبشرف لقائنا هذا .. انه زوج ممتاز .

قال فلتشانينوف ذلك وضرب بافل بافلوفتش على كتفه ضرب الصديق لصديقه تحببا .

حاول بافل بافلوفتش أن يبرر نفسه ، فقال :

ـــ انما ابتعدت يا عزيزتى لحظة قصيرة ..

ولكن ليبوتشكا قاطعته فورا بقولها :

ـــ وتركت زوجتك تشتم وتحقر .. حين نكون فى حاجة اليك نبحث عنك فلا نجدك ، وحين لا نكون فى حاجة اليك تظل معنا .

فكرر الضابط يقول ملحا :

ـــ حيث لا يجب ، تكون .. حيث لا يجب ، حيث لا يجب ..

كانت ليبوتشكا تكاد تختنق غضبا . كانت تفهم أن ذلك لا يحسن أمام فلتشانينوف ، فكانت تحمر خجلا ، ولكنها لا تستطيع أن تكظم غيظها . فأفلت من لسانها قولها :

— أنت مفرط فى الحذر حين لا يجب الحذر ، مفرط فى الحذر .

وتحمس ميتنكا بدوره قائلا :

— تحت السرير .. يبحث عن عشاق .. تحت السرير .. حيث لا يجب .. لا يجب ..

ولكن كان لا يمكن الرد على ميتنكا بشىء . ثم ان الأمور قد انتهت على أحسن وجه . زاد التعارف ، وأرسل بافل بافلوفتش ليأتى بقهوة ومرق . وذكرت أولمبيادا سيميونوفنا لفلتشانينوف أنهم آتون من أو .. مكان عمل زوجها ، وأنهما ذاهبان الآن الى أرضهم التى تبعد عن المحطة مسافة أربعين كيلومترا ، لقضاء شهرين ؛ وأن لهم هنالك عدا هذا كثيرا من الجيران ، وقالت له : اذا أحب الكسى ايفانوفتش أن يتفضل بزيارتهم « فى عزلتهم » ، فستستقبله على أنه « ملاكها الحارس الأمين » ، لأنها لا تستطيع أن تتصور ، دون جزع شديد ، ما كان يمكن أن يقع هنا لولا .. الخ .. المهم أنها ستستقبله على أنه « ملاكها الحارس الأمين » .

قال الضابط يلح فى حرارة :

— منقذ ، منقذ ..

شكرها فلتشانينوف بكثير من اللطف والأدب ، وأجاب بأن زيارته لهم تسره كثيرا ، وليس هناك ما يمنعه من القيام بهذه الزيارة، اذ ليس له مشاغل تحجبه عنها ، وأنه يعتز بهذه الدعوة التى وجهتها اليه أولمبيادا سيميونوفنا . ثم ما لبث أن بدأ حديثا مرحا جدا ، استطاع أثناءه أن يكيل لها المديح مرتين أو ثلاثا . فاحمرت ليبوتشكا

لذة ، فما ان عاد بافل بافلوفتش حتى أنبأته ، فرحةً ، بأن الكسى ايفانوفتش قد تفضل فقبل أن يقضى معهم شهرا فى القرية ، وبأنه وعد أن يجىء بعد أسبوع . فابتسم بافل بافلوفتش ابتسامة تائهة دون أن يقول شيئا . فهزت اولمبيادا سيميونوفنا كتفيها الجميلين ، ورفعت نظرها الى السماء . وهموا أخيرا أن يفترقوا ، فعـادت تفيض فى التعبير عن شكرها ، واستعملت مرة أخرى قولها « الملاك الحارس الأمين » ، و « مينتنكا » الخ . وقاد بافل بافلوفتش زوجته والضابط الى عربة القطار .

أشعل فلتشانينوف سيجارا ، وراح يمشى على الرصيف جيئة وذهابا . كان يعلم أن بافل بافلوفتش سيهرع اليه ليقول له بضع كلمات قبل تحرك القطار . وذلك ما حدث فعلا . فقد ظهـر بافل بافلوفتش ، وكانت قسمات وجهه وعيناه تعبر عن تساؤل قلق . فأخذ فلتشانينوف يضحك ، وأمسكه من ساعده « امساك الصديق لصديقه » ، وسار به الى مقعد قريب ، فجلس عليه وأجلسه الى جانبه. كان ساكتا ، يريد أن يبدأ بافل بافلوفتش الكلام . فتمتم بافل بافلوفتش يقول داخلا فى الموضوع رأسا :

ــ اذن ستأتى الينا ؟

ــ كنت أعرف أنك ستسألنى هذا السؤال . لم يتغير بافل بافلوفتش أى تغـير .

قال فلتشانينوف ذلك ، وانفجر ضاحكا . ثم أردف ، وهو يضربه على كتفه مرة أخرى :

ـــ ولكن هل استطعت أن تصدق حقا ، خلال لحظة واحدة ، أننى سأجىء اليكم ؟ وأننى أيضا سأقضى معكم شهرا كاملا ؟ هأ هأ ..

فنهض بافل بافلوفتش واقفا وقد ظهرت عليه علائم الفرح الشديد . وهتف دون أن يخطر على باله اخفاء فرحه :

ـــ اذن لن تجىء ؟

ـــ لا لن أجىء ، لن أجىء .

قال فلتشانينوف هذا ، وابتسم ابتسامة الرضى . وكان ، من جهة أخرى ، لا يفهم كل الفهم لماذا يبدو له هذا الأمر كله مضحكا ، ولكنه كان كلما ازداد تفكيرا فيه ، ازداد شعورا بأنه مضحك .

ـــ حقا ؟ هل تقول هذا جادا ؟

سأل بافل بافلوفتش هذا السؤال ، وهو ينتفض انتفاضة من يستبد به انتظار محسوم . فأجابه فلتشانينوف :

ـــ قلت لك اننى لن آتى . انك حقا لغريب ! ..

ـــ ولكن اذا كان الأمر كذلك فماذا أقول لأولمبيادا سيميونوفنا التى ستنتظرك ، حين ينقضى الأسبوع وما تجىء ؟

ـــ قل لها كسرت ساقه أو قل لها أى شىء آخر من هذا القبيل .

فقال بافل بافلوفتش بصوت ضعيف متوجع :

ـــ لن تصدقنى !

ـــ وهل يصيبك من هذا مكروه ؟ اننى ألاحظ يا صديقى العزيز أنك ترتعد خوفا أمام امرأتك الفاتنة ، هه ؟

قال فلتشانينوف ذلك ضاحكا . فحاول بافل بافلوفتش أن يبتسم ولكنه لم يستطع . أما أن يرفض فلتشانينوف المجيء فذلك شيء عظيم، وأما أن يتحدث عن السيدة تروسوتسكى بهذه اللهجة التى زالت منها الكلفة فذلك لا يسر . وأظلم وجه بافل بافلوفتش . وفى أثناء ذلك قرع مرة ثانية الجرس الذى يؤذن بتهيؤ القطار للمسير ، ودوّى من بعيد صوت رقيق قلق ينادى بافل بافلوفتش . فأخذ هذا يضطرب ، ولكنه لم يدرك النداء : كان ينتظر أن يعده فلتشانينوف مرة أخيرة بأن لا يجىء .

ــ ما اسم زوجتك قبل أن تتزوج ؟

هكذا سأله فلتشانينوف كأنه لا يلاحظ قلقه . فأجابه وهو يصيخ بسمعه وينظر الى عربة القطار نظرات قلقة :

ــ هى ابنة رئيس كهنتنا .

ــ ها .. نعم . أظن أنك تزوجتها لجمالها ، أليس كذلك ؟

فلما سمع بافل بافلوفتش هذا السؤال كشر مرة أخرى .

ــ ومن هو ميتنكا هذا ؟

ــ لا أحد .. هو شخص يمت الىّ بقرابة .. قرابة بعيدة . انه ابن بنت عمى المتوفاة جولوبتشيخوف . أخرجوه من الخدمة لقصة من القصص ، ثم أعادوه الآن ، ولقد جهزناه تجهيزا تاما .. يا له من شاب شقى !

قال فلتشانينوف لنفسه : « كل شيء اذن على ما يرام .. كل شيء على أتم وجه ! » .

وجاء الصوت الذى ينادى من العربة وقد ازداد حنقا :

ـــ بافل بافلوفتش !

وأعقبه صوت آخر مخمور :

ـــ با .. ل .. با .. لتش .

فتحرك بافل بافلوفتش من جديد ، ولكن فلتشانينوف أمسكه من زنده ، وأوقفه ، قائلا له :

ـــ هل تريد أن أذهب الآن الى زوجتك ، فأقص عليها كيف حاولت أن تذبحنى ؟ ما رأيك ؟

فصرخ بافل بافلوفتش مذعورا ، يقول :

ـــ كيف ؟ هل يخطر ببالك هذا حقا ؟

ـــ بافل بافلوفتش ، بافل بافلوفتش !

هكذا دوى الصوت المنادى من بعيد مرة أخرى . فتركه فلتشانينوف أخيرا وهو يضحك من أعماق قلبه ، قائلا له :

ـــ هيا اذهب .

فتمتم بافل بافلوفتش ، حزينا ، يقول لآخر مرة ، وهو يضم يديه أمامه كما فعل فى الماضى :

ـــ لن تأتى اذن ؟

فأجابه فلتشانينوف :

ـــ أقسم لك على ذلك . هيا اركض ، والا قام الشجار .

قال له ذلك ومد اليه يده بحركة عريضة ، مدها ثم ارتعش : ذلك أن بافل بافلوفتش لم يتناول هذه اليد بل سحب يده .

وقرع الجرس الأخير ايذانا بتحرك القطار . فاذا بتبدل يطرأ فى مثل لمح البصر : ان الرجلين كليهما يتغيران الآن . ان شيئا قد اهتز وتحطم فى فلتشانينوف الذى كان منذ لحظة يضحك ضحكا مرحا كل المرح . فأمسك بافل بافلوفتش من كتفه بقوة وقال له هامسا ، وقد اصفرت شفتاه وأخذتا تختلجان :

— اذا مددت لك أنا هذه اليد (قال ذلك وأشار الى راحة يده اليسرى التى تظهر فيها ندبة كبيرة خلفها جــرح) ففى وسعك أن تتناولها .

فاصفر وجه بافل بافلوفتش أيضا ، واختلجت شفتاه كذلك ، وطافت فى وجهه تشنجات خفيفة . ثم تمتم يقول وقد أخــذت شفتاه وخداه وذقنه ترتعش على حين فجأة ، وتدفقت من عينيه الدموع :

— وليزا ؟

فظل فلتشانينوف واقفا أمامه متجمدا .

وصفر القطار .

فثاب بافل بافلوفتش الى نفسه ، وحرك يده بحركة حزينة يائسة، وركض نحو القطار بسرعة . كان القطار قد أخذ يتحرك ، ولكنه استطاع أن يمسك بمقبض الباب ، فقفز الى عربته طيرانا .

ظل فلتشانينوف هنالك حتى المساء ثم ركب القطار التــالى السائر على الخط المستقيم . انه لم يتجه يمنة ، لم يذهب الى السيدة التى كانت تقيم وحدها فى الريف . ولكن ما أكثر ما ندم على ذلك فيما بعد !

حواش

الصفحة

١٣ * لقد اختار دوستويفسكي لروايته في أول الأمر عنوان « رولتنبرج » ثم غيره استجابة لالحاح الناشر . ولعله يريد باسم رولتنبرج مدينة فسبادن الألمانية التي قامر فيها بالروليت سنة ١٨٦٣ وسنة ١٨٦٥ .

١٤ * « ميشا » و « نادبا » هما تصغير اسمي ميشيل ونادبجدا .

١٧ * ان معرض نيجني نوفجورود (على نهر الفولجا) كان اكبر معرض يقام في روسيا .

١٩ * « الأوبنييون ناسيونال » . كانت هذه الجريدة اللبرالية الفرنسية كثيرا ما تهاجم النظام الروسي بسبب بولنده .

٢٠ * « كانت تلك وسيلة غير غبية » ، بالفرنسية في الأصل .

٢١ * « مذكرات الجنرال ف . آ . بيروفسكي » ، نشرت سنة ١٨٦٥ ؛ لقد استطاع هذا الجنرال ، وقد اعتقله الفرنسيون سنة ١٨١٢ ، أن يرى كيف أن الفرنسيين كانوا يطلقون الرصاص على كل سجين يبلغ من الضعف والوهن أنه لا يقدر على السير في الطابور .

٢٣ * « بابولنكا » ، تصغير بابكا ، أي الجدة ؛ وتقال توددا وتحببا .

٢٧ * لقد تصور دوستويفسكي رواية « المقامر » في نهاية صيف ١٨٦٣ ، أثناء رحلة الى الخارج قام بها مع آبوليناريا سوسلوفا التي تسمى ايضا پاولين . راجع مقدمة المترجم عن حياة دوستويفسكي في المجلد الأول من « أعمال دوستويفسكي الأدبية الكاملة » .

الصفحة

٣٥ * « خمسة فريدريكات » : قطع نقدية ذهبية المانية من ذلك العصر تساوى كل منها ١٠ — ١١ تالير (فلورين) .

٥٢ * كلمة Vater الألمانية معناها أب ، وقـــد استعملها المؤلف بالألمانية فى الأصل .

٥٣ * « هوب وشركاه » ، مصرف كبير فى أمستردام .

٥٥ * « المركيز دى جريو ، الفرنسى القصـــير » ؛ أن دستويفسكى يطلق هنـــا على ابن عم مدموازيل بلانش اسم بطل رواية « مانون ليسكو » ، وهذه اشارة الى أن المركيز المزعوم هو خليل بلانش وعشيقها .

٧٣ * « ســـيدتى البـــارونة ، انه ليشرفنى أن أكون عبـــدك » : بالألمانية فى الأصل .

٧٤ * « ياقول » ، بالألمانية فى الأصل ، ومعناها « نعم » مؤكدة .

٧٤ * « أانت مجنون ؟ » : بالألمانية فى الأصل .

١١٧ * كثيرا ما ينادى الأطفال الروس الذين يتربون تربيـــة أجنبية بأسماء فرنسية أو انجليزية تقارب أسماءهم . وقد أصبح اسم پراسكوڤيا هنا : پاولين .

١٩٤ * جان بالاكيريف : مهرج الامبراطورة آنا (١٧٣٠ — ١٧٤٠) .

٢٠٩ * مارى بلانشار (١٧٧٨ — ١٨١٩) زوجة الملاح الجوى الذى اخترع المظلة (الباراشوت) ، هلكت بباريز سنة ١٨١٩ على متن منطاد كانت تطلق منه أسهما نارية فانفجر المنطاد .

٢١٣ * نصف « پاود » يساوى نحواً من ثمانية كيلو غرامات .

٢١٥ * الفرنك المقصود هنا هو الفرنك الذهبى فيجب ضرب هـــذا المبلغ بخمسين لمعرفة ما ربحه من فرنكات هذه الأيام . لقد ربح ما يساوى مليون فرنك (جديد) تقريبا .

٢٢٣ * « يا لهؤلاء الروس ! » : بالألمانية فى الأصل .

الصفحة

٢٢٨ * « ألك قلب يا بنى ؟ .. شيء آخر ... » حوار من مسرحية « السيد » لكورنى .

٢٣٤ * « قصر الأزهار » : أحد المقاهى التى تعزف فيها الموسيقى بباريز ، فى ذلك الأوان .

٢٣٧ * « هومبورج » ، هى حى سنة ١٨٩٩ عاصمة دوقيه هسه ؛ وقد كان فيها دار للقمار .

٢٣٨ * « تيريز الفلسوفة » : اشارة الى الرواية الشائكة العسيرة التى لا نعرف مؤلفها ، وعنوانها : « تيريز الفيلسوفة ، أو مذكرات لقصة السيد ديفرى والآنسة ابروديس » ، وقد ظهرت هذه الرواية فى لاهاى سنة ١٧٤٨ .

٢٦٩ * « من دم ولبن » ، تعبير روسى يعنى أن اللون نضر والخدين زاهيين والبشرة بيضاء .

٢٧٨ * « النهر الأسود » (تشرنايا ريتشكا) : ضاحية من ضواحى العاصمة ، تقع على أحد روافد نهر نيفا .

٣٠٣ * « الريفية » ، ملهاة لتورجنيف (١٨٥١) ، من شخصياتها سيدة من الريف اسمها داريا ستوبنديف ، وهى زوجة موظف مسن تستثير حب كونت كان مارا بالقرية .

٣١٢ * « الخلستيس » : ملة دينية منشقة ظهرت فى القرن الثامن عشر ، كانت تؤمن بأن أم المسيح العذراء يمكن أن تعود الى التجسد فى فتاة مصطفاة من حين الى حين .

٣٣٣ * « ليسنوى » ، حى اصطياف يقع فى غابة (ليس) شمال العاصمة .

٣٥٣ * « ولكن عاس ترسيت اللئيم » ... : من قصيدة لشيللر بعنوان « ظفر الظافرين » ، ترجمها ف . جوكوفسكى سنة ١٨٢٨ .

٣٦٧ * « بوكروف » : حى من أحياء بطرسبرج يسمى باسم كنيسة بوكروف . واسم الفندق هو بوكروفسكى .

٣٧٩ * نموذج « الانسان الضارى » والنموذج « المسالم » ، نشر الناقد ستراخوف ، صديق دوستويفسكى ، مقالة عن رواية تولستوى « الحرب والسلام » ، وفى هذه المقالة عرض ستراخوف رأى آپولون جريجوريف الذى يقول : « ان ادبنا يمثل صراعا بين هذين النموذجين ، فتارة يسفه احدهما وتارة يمجد ، وهما النموذج « الضارى » والنموذج « المسالم » .

٣٩٢ * « ماشكا بروستاكوڤا » : ههنا لعب لفظى ، فان كلمة بروستاكوڤا مشتقة من كلمة پروستورى ومعناها البسيط الساذج البرىء ؛ اما كلمة بروكموسنوڤا فمشتقة من كلمة بروكموست ومعناها الوغد اللئيم الحقير . وأما ماشكا فهو تصغير لاسم مارى من قبيل التحقير .

٤٢٨ * تقوم النكتة هنا على لعب لفظى ، فقد استعمل بافل بافلوڤتش كلمتين بينهما شيء من جناس ، الأولى هى « ديفنسا » ومعناها فتاة ، والثانية كلمة « ديڤتسا » ومعناها اعجاب .

٤٤١ * من قصيدة للشاعر البولندى آدم ميكيفتش ، ترجمت الى الروسية سنة ١٨٣٤ ووضع موسيقاها الملحن ميشيل جلنكا .

٤٦٠ * « ساشنكا » و « نادنكا » : هما تصغير اسمى الكسندر ونادبجدا من باب التودد والتحبب .

٤٧٢ * « حين يشعر كوبلنيكوف بألم فى بطنه . . . » ، جملة مستمدة من قصة تهكمية ساخرة من تأليف م . ساليتكوف — كاترين (١٨٢٦ — ١٨٨٩) .

٥٠٤ * « ميتنكا » ، تصغير اسم ديمترى ، توددا .

٥٠٧ * « ليبوتشكا » ، تصغير اسم أولمبيادا ، تحببا .

الفهرس

الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الأول

الفقراء
المثل
قلب ضعيف

المجلد الثاني

نيتوتشكا نزفانوفنا
الليالي البيضاء
بروخارتشين
الجارة
المهرج
السارق الشريف
البطل الصغير
قصة في تسع رسائل
شجرة عيد الميلاد والزواج
زوجة آخر، ورجل تحت السرير

المجلد الثالث

قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها
حلم العم

المجلد الرابع

مذلون مهانون

المجلد الخامس

ذكريات من منزل الأموات

المجلد السادس

في قبوي
قصة اليمة
ذكريات شتاء عن مشاعر صيف
التمساح

المجلد السابع

المقامر
الزوج الابدي

المجلد الثامن

الجريمة والعقاب -١-

المجلد التاسع

الجريمة والعقاب -٢-

المجلد العاشر

الأبله -١-

المجلد الحادي عشر

الأبله -٢-

المجلد الثاني عشر

الشياطين -١-

المجلد الثالث عشر

الشياطين -٢-

المجلد الرابع عشر

المراهق -١-

المجلد الخامس عشر

المراهق -٢-
قصص

المجلد السادس عشر

الاخوة كارامازوف -١-

المجلد السابع عشر

الاخوة كارامازوف -٢-

المجلد الثامن عشر

الاخوة كارامازوف -٣-